# بلاغةُ الحِجاجِ في خطب العصر

# الأمويّ

# بلاغةُ الحِجاجِ في خطب العصر الأمويّ

الدّكتور

عبدالله محمّد عبدالله السّلطانيّ

الطبعة الاولى

٢٠٢٢

دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع - العراق

© دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية رقم (٦٦٩) لسنة ٢٠٢٢

الطبعة الاولى ٢٠٢٢

ISBN:978 7662 929

يمنع طباعة او تصوير هذا المنشور بأية طريقة كانت الكترونية أو ميكانيكية أو مغناطيسية أو التصويرية أو غيرها دون الرجوع الى المؤلف والناشر وبأذن خطي مسبق وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية.

**Copyright © publisher**

All rights reserved .on part of this publication may reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means ,electronic ,mechanical , photocopying ,recording or otherwise whiteout the prior permission of copyright owner

دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع

العراق – ديوانية – السوق الكبير

بغداد – شارع المتنبي

هاتف ٠٧٨٢٣٠١٤٩٠٠

البريد الالكتروني:

dar.nippur1@gmail.com dar_nippur@yahhoo.com

## بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَمَنْ حَآجّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ .

**{ آل عمران: ٦١ }**

صدق الله العظيم

# الإهـــــداء

إلـــــى...

ظلِّ اللهِ في الأرضِ....

أبي رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى...

ولدك المقصّر

عبدالله

# المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدِّمة | ١٣ |
| التّمهيد: التّعريف بالنّظريّة والخطابة | ٢١ |
| بلاغةُ الحجاج ( المفهوم، والآليّات) | ٢٣ |
| آليَّات الحجاج | ٢٨ |
| ١-١الآليَّات اللغويَّة الصّرفة | ٢٨ |
| ٢-آليَّات شبه منطقيَّة لغويَّة | ٢٩ |
| ٣-آليَّات بلاغـــــيَّة: | ٣٠ |
| بلاغة الحجاج | ٣١ |
| الحجاج في الفكر الغربي القديم والحديث. | ٣٦ |
| الحجاج في الفكر العربيّ القديم والحديث | ٤٣ |
| الحجاج عند العرب المحدثـــين: | ٤٩ |
| الخطابة في الثّقافة العربيّة من العصر الجاهليّ إلى نهاية العصر الإسلاميّ. | ٥٥ |
| الخطابة في العصر الإسلاميّ | ٥٩ |
| الفصل الأوّل: روافدُ الحجاج في ضوء بلاغة الخطابة | ٦٣ |
| توطئة | ٦٥ |

| | |
|---|---|
| المبحث الأوّل: وسائل التّأثير في الخطابة | ٦٧ |
| أ- مراعاة المقام ومقتضى الحال | ٦٧ |
| ب- براعة الاستهلال | ٧٥ |
| ج- المستوى الموسيقيّ(السّجع، والجناس، والتّوازي) | ٨٠ |
| المبحث الثّاني: أساليب الحجاج في الخطابة | ٩٩ |
| توطئة | ٩٩ |
| ١- التّكرار | ١٠٠ |
| ٢- الاستفهام | ١٠٧ |
| ٣-الأمر | ١١٣ |
| ٤- الشّرط | ١١٩ |
| المبحث الثّالث: منطلقات الحجاج | ١٢٩ |
| توطئة | ١٢٩ |
| ١- الوقائع | ١٣٠ |
| ٢- الحقائق | ١٣٨ |
| ٣- الافتراضات | ١٤٦ |
| ٤- القيم | ١٥٣ |
| ٥- المواضع | ١٦٣ |
| الفصل الثّاني: تقانات الحجاج في الخطابة | ١٦٧ |

توطئة ١٦٩
المبحـــث الأوّل: الحجـج شبه المنطقيَّـة التـي تعتمـد البنـى المنطقيَّة ١٧٣
أ-التّناقض وعدم الاتّفاق ١٧٣
ب-التّماثل والحدّ في الحجاج ١٨٧
ج-الحجّة القائمة على العلاقة التّبادليَّة ٢٠٠
المبحث الثّاني: الحجج شبه المنطقيَّة التي تعتمد البنـى الرّياضيَّة ٢٠٩
أ-حجّة التّعديّة ٢٠٩
ب-حجّة تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له ٢١٦
ج-إدماج الجزء في الكلّ(حجّة الاشتمال) ٢٣١
د-حجّة الاحتمال ٢٣٦
الفصل الثّالث: بلاغة الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع ٢٤١
توطئة ٢٤٣
المبحث الأوّل:(التّتابع، والتّعايش) ٢٤٥
١-التّتابع(الحجّة السّببيِّة، الحجّة البرغماتيَّة النّفعيَّة) ٢٤٦
٢-التّعايش(حجّة الشّخص وأعماله،حجّة السّلطة) ٢٦٨
المبحث الثّاني: الغائـــيَّة ٢٩١
توطئة ٢٩١

أ-حجّة التّبذير ٢٩٧
ب-حجّة الاتّجاه ٢٠٥
ج-حجّة التّجاوز ٣١٥
الفصل الرّابع: بلاغة الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع ٣٢٥
توطئة ٣٢٧
المبحث الأوَّل: الاستدلال بوساطة الحالات الخاصّة ٣٢٩
١-المثال:(المثال التّاريخيّ، الحكايــة المثليّــة، المثـــال المبتكر) ٣٢٩
٢-الاستشهاد ٣٥١
٣-الأنموذج وعكس الأنموذج ٣٦٣
المبحـــث الثّـــاني: الاستدلال بوساطة التّمثيل والعلاقات الحجاجيَّة ٣٨١
١-بنية المشابهة(التّشبيه، والاستعارة) ٣٨١
٢-العلاقات الحجاجيَّــة(التّتابع، والسّــببيّة، والاقتضـــاء، والاستنتاج) ٣٩٢
الخاتمة والنّتائج ٤٢٩
المصادر والمراجع ٤٣٩

بسم الله الرّحمن الرّحيم

# المُقدِّمة

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سراج الهُدى، ومنار التُّقى، وخير الورى، أبي القاسم محمّد المصطفى، وعلى آلهِ الطّيبين الأطهار، وصحبهِ المنتجبين الأخيار، والتّابعين المحسنين الأبرار، ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدّين.

أمّا بعد:

تعدّ الخطابة من عوامل نشوء الحضارة، فقد تبنّاها الإنسان بدلًا عن منطق الاقتتال والعنف، فاللسان هبةٌ كبرى منّ الله بها على خلقهِ، وميّزه بها من سائر الكائنات؛ فهو وسيلة التّواصل وأداة الحوار، فلا حياة يمكن أن تدوم، ولا شيء قد يقوم في الوجود إذا ما غاب منطق اللّسان والبيان، ولا مراء بأنَّ أهمّ أمرٍ قام به سيّد البلاغة والفصاحة (صلى الله عليه وسلم) في حجّته اليتيمة هو إلقاء تلك الخطبة الغرّاء، الّتي شملت جوامع الكلم وأرست أصول الأحكام في الميادين الدّينيَّة، والسّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والقيم الإنسانيَّة في المجتمع الإسلاميّ، فقد صدع بالحُجّة الواضحة، وجاء بالدّلائل السّاطعة، والبراهين الدّامغة في إرساء أركان ذلك المجتمع الوليد، وتنظيم معاملاته بلغة الإقناع والحجاج البلاغيّ، لا بلغة الإجبار والإرغام.

وبما أنّنا بصدد دراسة الحِجَاج وآليّاته المنطقيَّة وأدواته الإقناعيَّة المؤثرة في إحداث تحوّلات كبرى في تصوّرات النّاس ومتبنّياتهم المختلفة، ارتأينا أن تكون عيّنة الدّراسة ما قيل من خطب في عصرٍ شهد انفجارًا كبيرًا في السّجال الحواريّ، والمناظرات العقديَّة والفكريَّة والسّياسيَّة، فالعصر الأمويّ(٤١-١٣٢هـ) كان أكثر

العصور غزارة في فنّ الخطابة وأغناها، وأشدّها لهجة في التّعبير عن آراء الفرق والأحزاب المتناحرة في ذلك العهد، ولا شكَّ أنَّ الخطيب العربيّ ضليع فطريًّا بأدوات الحجاج وآليّاته، فالخطاب العربيّ الحجاجيّ كان قد عرف ما عرفه الخطاب الأرسطيّ، ومارسه يومذاك، حتّى وإن كانت المسمّيات مختلفة في التَّعريفات والمصطلحات، فقد تجلّت في خطابة ذلك العصر تمثّلات البلاغة الجديدة، أو ما يُعرف بـ(الحجاج) في منظور بيرلمان، الّذي بعث النّظريّة الحجاجيَّة الأرسطيَّة بصورة مغايرة، فقامت الدّعوة إلى تبنّي منطق الانتصار بلغة الحوار والخطاب العقليّ مع الآخر، لتمهيد الطّريق للإنسانيّة جمعاء من جديد في معالجة القضايا الجدليَّة والإشكاليَّة على مختلف الميادين بحجّة البيان والبلاغة الحجاجيَّة، بوصفها بديلًا عن منطق العنف والقمع مع المخالف والمغاير، فباتت تقانات الخطاب الحجاجيَّة تتكفّل بالرّدّ على المناظرين والمناوئين، ودحض تصوّراتهم، وردع حججها بالحجّة، ونقض أدلتها بالدّليل، أو حمل المخاطبين على الاعتقاد والتّسليم بقضيَّة ما، أو دفعهم إلى تغيير نظرتهم لأمور محدّدة، في مقام قد يكون سجالًا، أو مناظرة، أو موقفًا حواريًّا حول قضايا مختلفة.

إنَّ الاختلافات العقديَّة، والفكريَّة، والسّياسيَّة في ذلك العصر كانت أرضًا خصبة، وفضاءً مفتوحًا لآليّات الحجاج وأدواته البلاغيَّة في خطابة الأحزاب المتصارعة، ولهذا سعينا إلى الكشف عن أبعاد النّظريّة الحجاجيّة الّتي كانت عماد تلك الخطابات في ذلك العهد، الّذي يعدّ من كنوز التّراث الفكريّ العربيّ، إذ كان لابدّ أن نبعث فنّ الخطابة بنورٍ جديدٍ يبتعد عن نظريَّة الجمال الأدبيّ، الّتي حاصرت الخطابات والنّصوص لحقب زمنيّة طويلة، فالحجاج البلاغيّ أحدث نقطة التحوّل المهمّة في رؤى التّعامل مع الخطاب الإنسانيّ في عصر العولمة، واعتقادًا منّا بأهمّيَّة الحجاج، وتغلغله في ميادين المجتمع كافّة، ما دفعني إلى تبنّي نظريّة

الحِجَاج وتطبيقها على خطابة العصر الأمويّ، الّتي شهدت ما شهدت من اختلافات في الرّؤى والاعتقادات المذهبيَّة والعرقيَّة، والصّراعات الجدليَّة، والنّزاعات السّياسيَّة، فضلًا عن ما دار في الخطابة العسكريَّة وما رافقها من تحريض وإقناع في أثناء الوقائع، ولا ننسى خطابات التَّهنئة، والتَّعزية، والوساطة، وغيرها من موضوعات الخطابة المختلفة في ذلك العصر، بناء على افتراض إمكانيَّة قراءتها قراءة حجاجيَّة، بهدف استقراء آليّات الحِجَاج واستنباطها من متون تلك الخطب، الّتي اكتنزت بصور الحِجَاج البلاغيّ في إقناع الآخر وإذعانه لحقائق معيّنة، أو تفنيدها بهدف تبنّي آراءٍ مغايرة بإحدى وسائل الحِجَاج.

وحريٌّ بنا أن نشير بأنَّنا على الرّغم من اختيارنا نظريَّة (بيرلمان) بوصفها العمود الوثيق في تحليل الخطابات وتصنيف حججها، وتحديد آليّاتها وعلاقاتها في متون خطب العصر الأمويّ، إلّا أنَّنا لجأنا كذلك إلى الاستعانة بتصوّرات البلاغة الأرسطيَّة الإقناعيَّة، وكان ذلك لأنَّ (بيرلمان) الّذي يعود إليه الفضل في إحياء البلاغة الأرسطيَّة كان قد أهمل بعض الزّوايا المهمّة في بلاغة أرسطو الحجاجيَّة، فهو أقرَّ بوظيفتها الحجاجيَّة وأكّد عليها، ولكنَّه لسببٍ ما أهملها، ولم يدغمها في تقانات الحِجَاج وآليّاته وأدواته شبه المنطقيَّة، ومن أبرز تلك الجوانب المهملة (الإيتوس، والباتوس، اللوغوس)، الّتي سيأتي الحديث عنها في موضع لاحق، فضلًا عن إهمال حجاجيَّة الأبعاد الأسلوبيَّة، ووسائل التّأثير في الخطاب، ولكنّ هذا لا يعني بالضّرورة تخلّينا عن جهود العلماء العرب القدماء، فقد كانت مقولاتهم عاملًا مهمًّا في دفع عجلة كتابنا هذا إلى الأمام، فإسهامات البلاغة العربيَّة في ميدان الحِجَاج لا يمكن إنكارها في أيِّ حال من الأحوال، ويأتي هذا التّوليف بين التّراث والحداثة بهدف رسم خطّة تسعى إلى التّكامل، ولتحيط بالفضاء الواسع لهذه الدّراسة الحجاجيَّة، وبناءً على ذلك سرنا بها بخطى صبورة متروّية؛ لتلمّ بدقائق النّظريّة

الحجاجيَّة، وتشعّب تقاناتها ذات الأبعاد المفتوحة، مع التّأكيد على حياديّتنا الإجرائيَّة، وعدم الانجرار وراء الأهواء، فقد كان الحقُّ رائدنا في التّناول والاستقصاء، والمسك في النّتائج، وقد أفدنا في ذلك من مصادر مهمّة، عُنيت بدراسة الحِجَاج، وأهمَّها: (أهمّ نظريَّات الحِجَاج في التّقاليد الغربيَّة) بإشراف الدّكتور حمادي صمّود، و(بلاغة الخطاب الإقناعيّ) للدّكتور محمّد العمريّ، و(الحِجَاج في الشّعر العربيّ) للدّكتورة سامية الدّريدي، و(الحِجَاج مفهومه ومجالاته) بإشراف الدّكتور حافظ إسماعيلي علوي، و(نظريَّة الحِجَاج عند شاييم بيرلمان) للحسين بنو هاشم، ولا أنسى (في بلاغة الحِجَاج) للدّكتور محمّد مشبال، وغيرها ممّا تناول الدّرس الحجاجيّ بالبحث والتَّحليل، وكذلك لابدَّ من الإشارة إلى دراسات سابقة درست الخطابة في العصر الأمويّ بمناهج مختلفة، وأهمّها: (فنّ الخطابة) للدّكتور أحمد محمّد الحوفيّ، و(الخطابة السّياسيَّة في عصر بني أميَّة) للدّكتور إحسان النّصّ، و(الخطابة في العصر الأمويّ-دراسة في ضوء نظريَّة التلقي) للباحث مصطفى محسن حسّون، والكثير من الدّراسات الّتي درست الخطابة فنّيًّا وبلاغيًّا من منظورٍ جماليٍّ يبتعد عن المنهج الحِجَاجيّ، ومن الجدير بالذّكر كذلك أنَّ المرجع المعتمد الأساس لعيّنة الدّراسة مع شرح مفرداتها الغامضة هو(جمهرة خطب العرب) للدّكتور أحمد زكي صفوت، وكذلك بعض المصادر الّتي رفدتنا بخطب لم تكن تحتضنها الجمهرة، فجاءت دراستنا للخطب على تمهيد وأربعة فصول.

جاء التّمهيد على وفق محورين: الأوَّل: قد تخصّص في تعريف مفهوم(بلاغة الحِجَاج) وآليّاته، وتتبّع أصول النّظريَّة الحجاجيَّة غربيًّا من بلاغة (أرسطو) إلى بعث (بيرلمان) و(ديكرو) و(ميشال مايير) في القرن العشرين، فضلًا عن التّأصيل للنّظريَّة الحجاجيَّة عربيًّا، قديمًا وحديثًا، بدءًا بالجاحظ(٢٥٥هـ) ووصولًا إلى

العرب المحدثين، أمّا المحور الثّاني: فقد عُنيَ بالحديث عن مكانة الخطابة العربيّة في المجتمع العربيّ من العصر الجاهليّ إلى نهاية العصر الرّاشديّ، وما دار حولها من خلافات وشكوك محمومة تريد أن تجرِّد الإنسان العربيّ من هذا الفنّ الأدبيّ.

أمّا الفصول الأربعة فقد شهدت تفاوتًا طفيفًا من حيث الموضوعات، والطّول، وعدد المباحث، وهذا ما فرضته معطيات النّظريّة الحجاجيَّة والمادّة المدروسة، وحجم الاستقراء، والتّحليل، ولكنّ ذلك لم يطغ، أو يجر على المادّة العلميّة، فجاء الفصل الأوَّل بـعنوان (روافد الحجاج في ضوء بلاغة الخطابة)، وقد تضمّن ثلاثة مباحث، كان أوّلها(وسائل التّأثير في الخطاب) ليوضّح لنا أنَّ الخطاب الحجاجيّ يُنسج على وفق استراتيجيَّة الاستدراج، الّتي يرسمها المتكلّم في ذهنه، ويوظّفها لتحقيق مآربه، فيتعمّد اختيار منطلقات خاصّة في الخطاب، يأتي بها على طريقة ترتيب أجزاء القول بصورة ناجعة ومؤثّرة، ليضمن بذلك مرور أفكاره إلى المتلقّي، مراعيًا أحوال المقام والمخاطبين ونوازعهم الوجدانيَّة بوسائل تعمل على إجراء تماس كبير مع رغباتهم ودوافعهم النّفسيّة. أمّا المبحث الثّاني(أساليب الحجاج)، فقد دار حول أهداف البناء الأسلوبيّ الحجاجيّة وأبعاده في الخطاب، وطرائق عرضها، ولا شكَّ أنَّ الوجوه الأسلوبيَّة ليست حججًا قائمة بذاتها، إنَّما هي رافدٌ مهمٌ في تعزيز الشّحنات الحجاجيَّة، إذ تعمل على صناعة التّأثير النّفسيّ في المتلقّي، وتنجز وظيفة الإمتاع والإقناع بأحد وجوهها المتعدّدة، في حين ذهب المبحث الثّالث إلى الكشف عن(منطلقات الحِجَاج)، بوصفها عمادًا ضروريًّا في بناء قاعدة الحجاج القائمة على قانون(التّكيّف)، إذ ينطلق الخطيب من مقدّمات تحظى بالقبول المشترك مع المتلقّي بهدف استدراجه من الاعتقاد بتلك المقدّمات إلى قبول متبنّيات نتائج الخطاب، فغياب المنطلقات الّتي تكون محل اتّفاق مع المخاطبين يعني إخفاق الحِجَاج في تحقيق الإذعان والتَّسليم.

وأمّا الفصل الثّاني فقد عُنيَ بـ(تقانات الحِجَاج في الخطابة)، وهي من أهمِّ مرتكزات نظريَّة بيرلمان، وجاء هذا الفصل على مبحثين، فتناول المبحث الأوَّل تقانات الحِجَاج القائمة على حجج شبه المنطقيّة التي تعتمد البنى المنطقيّة، وما تتفرّع إليه من حجج أخرى، في حين ذهب المبحث الثّاني إلى دراسة تقانات الحجاج القائمة على حجج شبه منطقيَّة تعتمد البنى الرّياضيَّة، وما يندرج تحتها من عنوانات فرعيَّة للحجج، وكلّها تعمل على تقديم خطاب إقناعيّ مؤثّر في نفسيّة المخاطبين.

في حين عُنيَ الفصل الثّالث بـ(بلاغة الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع)، وهو على مبحثين، فجاء المبحث الأوّل لدراسة الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع بصنفيها(التّتابع، والتّعايش)، إذ ترتكز هذه الحجج على الرّبط بين عناصر موجودة في الواقع يُفترض وجود اتّفاق حولها، بوصفها منطلقًا مقبولًا يضمن للخطاب النّفاذ والتّأثير، أمّا الصّنف الثّالث(الغائيَّة)، الّذي هو من حقّه أن يكون بمصاف الصّنفين السّابقين، سنرجّئ الحديث عنه إلى المبحث الثّاني، نظرًا لتشعّب هذا الصّنف من الحجج وأهمّيّته، وما سيأخذه من حيّز أوسع من الصّنفين في المبحث الأوّل، فقد أفردنا له مبحثًا خاصًّا، لنستفيض في الحديث عن تفصيلاتها وآليَّة عملها في الخطاب.

وأمّا الفصل الرّابع فقد جاء ليبحث في (بلاغة الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع)، وأثرها في تحقيق الإقناع، انطلاقًا من إثبات حالة سابقة، أو وضع قاعدة عامّة، أو خلق قدوة، تُستعمل تارة في بنينة الحقائق، واتّخاذ موقف منها سلبًا، أو إيجابًا تارة أخرى، وهي حجج متشعّبة ومتفرّعة بشكل كبير جدًا، فقد تناول المبحث الأوّل الاستدلال بواسطة الحالات الخاصّة، إذ نستدلّ على قضيّة بقضيّة أخرى ترتبط

معها بصلة ما، مثل:(المثال، والشّاهد، والأنموذج وعكس الأنموذج) ، وما يندرج تحتها من حجج فرعيَّة، أمّا المبحث الثّاني فقد درس الاستدلال بوساطة (بنية المشابهة والعلاقات الحجاجيَّة)، بوصفهما أداتين للبرهنة والإقناع، وقد عقبت هذه الفصول خاتمة موجزة دوّنت أهمَّ النّتائج، الّتي تمخّضت عن الدّراسة، وما جاء فيها من أفكار قد تسهم في رفد الباحثين ببعض الفائدة مستقبلًا.

هذا وإن أخفقت هذه الدّراسة في بلوغ منالها، أو قصَّرت في الوصول إلى غايتها، فحسبي أنّني بذلت ما في وسعي، ولا يكلّف الله نفسًا إلّا وسعها، فالنّقص كُتب على بني آدم، ولا كمال إلّا لله وحده لا شريك له، وإنّي لأرجو من القرّاء الكرام سلفًا أن يلتمسوا لنا عذرًا عمّا ورد في الكتاب من عثرات وزلّات، ويقوموا بتقويم فتور مفاصله، وتصحيح مساراته، فقد كتبه باحثٌ لا يرجو مفازة إلّا غاية رضا أهل العربيَّة وساداتها عنه بأن يكون أحد طلبتها المخلصين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

**المؤلِّف**

# التّمهيد

## بلاغةُ الحِجاجِ في الخطابة

- بلاغةُ الحجاجِ (المفهوم والآليّاَت والأصول).
- الخطابة في الثّقافة العربيّةَ من العصر الجاهليّ إلى نهاية العصر الإسلاميّ.

# بلاغةُ الحِجَاجِ في الخطابة

## بلاغة الحِجاج (المفهوم والآليّات):

بعد أن استقرَّت روح الإبداع في البلاغة القديمة لحقب زمنيّة مديدة في شكلها الثلاثيّ المعروف: البيان، والمعاني، والبديع، شهدت الدّراسات البلاغيَّة منذ ستينيّات القرن الماضي نهضة كبيرة أعادت لها منزلتها بين عوالم العلم والمعرفة، وقد ارتبطت تلك النّهضة بشكل مثير بالأبحاث الحجاجيَّة والتّداوليَّة(١)، ولهذا ستكون لنا وقفة مع (مفهوم الحِجَاج) مع افتراض صعوبة الإلمام به إلمامًا تامًّا نظرًا للاشتباك المصطلحيّ الّذي يقع فيه الباحثون في توضيح ماهيَّة المصطلح ودلالاته، وموسوعيَّة المفهوم أيضًا، وقد أسهمت في اختلاف زوايا نظر الدّارسين الّتي تصل إلى حدّ التَّقاطع تارة، والتّناقض تارة أخرى، فالضّبابيَّة بدون أدنى شكٍّ قائمة في الوسط الثَّقافيّ والأكاديميّ العربيّ حول بعض المصطلحات، والمناهج، والنّظريَّات الوافدة من الفكر الغربيّ، وقد تعسَّر على الباحثين تحديد جوهريَّة فحوى تلك المفاهيم والنّظريَّات على الوجه الأكمل لاسيَّما في (الحِجَاج) الّذي يشوبه الالتباس لأسباب عدّة، وأهمّها:

١-تعدّد مظاهر الحِجَاج وتنوّعها.

٢-اختلاف استعمالات الحِجَاج وتباين أساليبه ومرجعيّاته: الخطبة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، المنطق، التَّعليم، ...الخ.

---

(١) ينظر:الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه)، د.سامية الدّريدي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن ،ط٢، ٢٠١١م: ١٥.

٣-خضوع الحِجَاج في دلالته لما يميّز ألفاظ اللغة الطَّبيعيَّة من ليونة تداوليّة، وكذلك من تأويلات متجدّدة، وطواعيَّة استعماليَّة[١].

٤-التَّرجمة الّتي تسهم في أحايين كثيرة في بلبلة المصطلح، وانزياحه نحو مفاهيم مغايرة.

لا منأى لنا إذا ما رمنا تحديد مفهوم الحجاج من الرّجوع ولو بشكل عرضيّ إلى المعجمات العربيّة الّتي تتكفّل بإضاءة جذر المصطلح، فالحجاج في اللغة من حاج ، و"حاججته ، أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج الّتي أدليت بها...والحجّة الدّليل والبرهان"[٢]، ويأتي دائمًا بمعنى الحجّة الواضحة، والبرهان السّاطع.

وقبل أن نستعرض التَّعريفات المعاصرة للحجاج حريٌّ بنا أن نسأل على سبيل العلم بالظّاهرة الحجاجيَّة: هل عرفت البلاغة العربيّة القديمة الحجاج؟، هذا ما سنجيب عنه في موضع لاحق من التّمهيد.

وإذا ما عدنا إلى الأصول اللاتينيّة للمصطلح، نجد أنّ كلمة (ARGUMENT) من الفعل اللاتيني (ARGUES)، وتعني جعل الشّيء واضحًا ولامعًا وظاهرًا، وهي بدورها من جذر إغريقيّ تحيل على معنى البياض والوضوح[٣]، ولا يخفى مدى التّقارب الدّلاليّ للمفهوم بين المعجمات العربيّة والأصل اللاتينيّ له، أمّا في الاصطلاح فنجد المصطلح يقوم على دراسة تقانات الخطاب، الّتي من شأنها أن تؤدّي بأذهان المتلقين إلى الإذعان والإقناع والتّسليم بالحقائق الّتي يطرحها الخطيب

---

[١] ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجيّ، حبيب أعراب، ضمن عالم الفكر، ع:١، المجلد:٣٠، يوليو، ٢٠٠١م :٩٧.

[٢] لسان العرب ،ابن منظور ، مادة:(حجج).

[٣] ينظر: الحجاج في الخطابة النبويّة ، د.عبد الجليل العشراوي ، عالم الكتب الحديث، اربد-الأردن، ٢٠١٢م : ١١.

بحدود الإمكان، ولاسيَّما في المقدّس، أو قد تزيد في درجة ذلك التّسليم، فهدف الحجاج وغايته المثلى أن يجعل من عقول السّامعين خاضعة، وقلوبهم مبصرة، تذعن لما يُطرح عليها من أفكار ورؤى، أو من أجل زيادة إذعانها، وأنجعه ما يكون أشدّ تأثيرًا في نفوس هؤلاء المتلقّين الّذين هيّأهم لتلقي الطّروحات دون رفض، أو معارضة[١]، ولا شكّ في أنّ أهمّيّة هذا التّعريف تكمن في توضيح التّأثير الحاصل بوساطة تقانات الخطاب الحجاجيّ على صعيد العقل، والتّأثير بوساطة آليّة عقليّة تهيّئ الإيمان والإذعان واستمالة القناعات لدى الجمهور المتلقي، ليجعلها تتناغم مع ما يرميه الخطيب وحملها على التّصديق وتحقيق ما ينبغي إنجازه، أو العزوف عنه على وفق إرادة ذلك الخطيب.

يصوّر لنا هذا التّعريف أنّ (الحجاج) يمثّل فضاءً مفتوحًا ليستوعب قدرًا واسعًا من عمليّة التّواصل الإنسانيّ، يتسلّح به الخطيب على المستويين المنطوق والمكتوب معًا، ويرسّخ حقيقة حضوره في النّصوص الأدبيّة بعد أن أُبعدت من خانة النّصوص الحجاجيّة بالمعنى العامّ، فنظريّة (الحجاج) في مفهومها منبثقة عمّا يُعرف اليوم ببحوث البلاغة المعاصرة الّتي تبلورت بعد يقظة الدّراسات البلاغيّة كما أسلفنا، وفي حقيقتها هي مجموعة من البحوث الّتي تُعنى بالأساليب الإجرائيّة للّغة، وتنوّع الخطابات والمقامات، والاختلافات الفكريّة، والثّقافيّة، والاجتماعيّة، والنّفسيّة للمتلقين؛ لذلك توسّمت في بحوث رائديها (بيرلمان وتيتكا) بالإجراءات التّنظيريّة بمساعدة علوم كثيرة ذات صلة؛ ونتيجة لذلك كان لمفهوم التّداخل المعرفيّ دور أساس في طرحهم لنظريّة(الحجاج)؛ لأنّ أيّ عمليَّة حجاجيَّة ستعتمد

---

[١] ينظر:الحجاج (أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج-الخطابة الجديدة ، بيرلمان وتيتكا) ، عبدالله صولة ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمّادي صمّود ، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس :٢٩٩.

في آليّاتها على الأدوار المعرفيّة للعلوم المساندة، بل قد يستعين الباثّ بآليّات يعلمها المستمع، لكنّه لا يدرك أثرها الحقيقيّ في الخطاب، والغاية من حضورها في مضامين ذلك[١]، فالحجاج" عمليَّة لغويَّة ولسانيَّة اتّصاليَّة الغاية منها الإقناع، الّذي يرتكز على وسائل منطقيَّة ولغويَّة خاصّة في غاية الوضوح"[٢]، إلّا أنّ الفعل الإقناعيّ من الخطاب يعدّ أحد أشكال الفعل الإدراكيّ، الّذي يتعلق بالعمليّة التّواصليّة في استدعاء الخطيب لكلِّ أنواع التّقانات والصّيغ التي ترمي إلى جعل التّواصل حيًّا وفعّالًا، فيقع الحجاج عندما تكون هناك قضيّة إشكاليّة مختلف عليها، فيسعى المحاجج لإثبات صحّة دعواه حينما يأتي بالأدلّة والبراهين، ثمّ يترك الأمر إلى الطّرف الآخر بالقبول أو الرّفض، إذ يصغي من خلاله المخاطَب لأفكار الخطاب وتصوّراته وطروحاته، فيذعن لها، ويُحتمل أنّ الخطاب الحجاجيّ ما كان ليكون إلّا من خلال اللغة التي تحمل الوظيفة الحجاجيَّة ذاتيًّا وجوهريًّا، وهذا مؤشّر لها في بنية اللغة، وفي بنية الجمل والأقوال نفسها، فنحن نجدها في مختلف الظّواهر الصّوتيَّة، والصّرفيَّة، والمعجميَّة التّركيبيَّة، والدّلاليَّة والبلاغيَّة[٣]، ولهذا تجاوز الحجاج الصّورة النّخبويَّة ليكون ممارسة حياتيّة إنسانيَّة للتّعبير عن حاجة يوميَّة، وممارسة فطريَّة يتحرّك من خلالها الإنسان بشكل عفويّ استدلاليّ غير خاضع لعمليّة معقّدة بوصفه فعلًا ينتجه الذّهن والعقل الإنسانيّ[٤]، وهذا ما أكّده رائدا الحجاج بأنَّه منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع، فيستدعي الاستدلال

---

[١] ينظر:مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، د.محمد سالم محمد الأمين، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج٢: ٤٩٣.

[٢] الحجاج في الخطابة النبويّة: ١١.

[٣] ينظر: الحجاج في الخطابة النّبويّة: ١٢.

[٤] ينظر:إشكالية الحجاج في المفهوم والتوصيف ، د.صلاح حسن حاوي ، دار شهريار ، العراق-البصرة ، ط١ ، ٢٠١٨ :١١.

عناصر دلاليّة بعيدة عن المفهوم السّفسطائيّ حتى يفهمها الجميع دون استثناء؛ ممّا يؤدّي إلى الابتعاد عن التّلاعب بالتّأويلات الّذي يلجأ إليه الباثّ، ويتمّ الاستدلال بأن تستنتج من مقدّمات الخطاب نتائجَ تفضي إليها في آخر الأمر، أمّا الحجاج فيبقى عاملًا حاملًا لحقائق محتملة غير مضمونة، أو ضروريَّة كما شأنها في الاستدلال، والإقناع ليس بالمعنى المحض في بنية الحجاج لأنّه يوظّف العاطفة والخيال سبيلًا إلى التّأثير في قلوب وعقول المتلقين، وهما من مقوّمات الحجاج، لذلك ميّز (بيرلمان وتيتكا) بين نوعين منه:"حجاج إقناعيّ، هدفه إقناع الجمهور الخاصّ، بمخاطبة الخيال والعاطفة وتحييد العقل، وحجاج اقتناعيّ؛ يقوم على الحرّيَّة والعقلنة، وهو حجاج غير ملزم وغير اعتباطيّ وهو كفيل بأن يحقّق الحركة الإنسانيّة من حيث هي ممارسة لاختيار العقل؛ فإذا كانت الحريّة تسليمًا مسبقًا ومفروضًا سلطويًّا؛ يُسلب فيها العقل اختياره، فكلّ اختيار حينئذ يكون ضربًا من اللغط والاعتباط"[١]، وندرك من هذا أنَّ الحجاج بات أداةً فعّالة لمناقشة الأفكار بغضّ النّظر عن طبيعتها ومصداقيّتها، وقد غدا تقانة مهمّة في الحوار بين الأطراف المشتركة في عمليّة التّواصل، والغرض من كلِّ هذا تسلّح الخطيب بمجموعة من الحجج الدّامغة والبراهين السّاطعة الّتي تعمل على التّأثير والإقناع وزيادة الإذعان والاستسلام، وإفحام الخصم، وضرب دعواه بدعوى مضادّة، وإخضاع الآراء والحقائق لسطوة التّشكيك في أمرها وصحّتها، ودحضها أحيانًا، أو تثبيتها وزيادة الإيمان فيها، وبلورة الأفكار للوصول إلى أجوبة مسكتة وقاطعة

---

[١] الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته)، د.باسم خيري خضير، دار صفاء للنشر والتوزيع-عمان، ط١ ، ٢٠١٩: ٣٤.

حول المسائل الخلافيّة الّتي تدور حولها رحى الاختلاف بين إنسان وآخر[١]، للوصول إلى حقيقة محدّدة حول كلّ قضيَّة إشكاليَّة أو جدليَّة.

## آليَّات الحجاج:

إنَّ نظريَّة الحجاج تنطلق من آليّات تتألّف في الخطاب لتحقيق ما يروم إليه الخطيب من غايات وأفكار ومعتقدات يريد أن يرسّخها في أذهان الجمهور، وعادة ما تكون مدعومة بمجموعة من البراهين والحجج البيّنة حتّى تعطي فاعليّة كبيرة للوصول إلى النّتيجة المرجوّة، فالوظيفة الحجاجيّة فيها تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة، أي القواعد الدّاخلية للخطاب، وانجاز سلسلة من المحرّكات، والموجّهات الّتي تحقق الاستمالة والإقناع ، وتتمثّل هذه الآليّات في :-

### ١-الآليَّات اللغويَّة الصّرفة:

ويقصد بها كلّ ما يتيحه الجانب اللغويّ للقيام بالعمليَّة الحجاجيَّة وباختلاف الوسائل في اللغة العربيَّة، لكونها ثريَّة وغنيَّة جدًا بها، وتقوم هذه الآليَّات بأثر فعّال بالرّبط بين الحجج والنّتائج والعمليَّة الإقناعيَّة، ومن أشهرها: حروف التّعليل، مثل: التّعليل بــ(فاء)السّببيَّة، وتفيد التّشريك والتّعقيب وربط أجزاء النّصِّ، و(الواو) وهي أمّ حروف العطف لكثرة استعمالها ودورها فيه، وتفيد الجمع والتّشريك[٢]، فضلًا عن الرّوابط الأخرى مثل: لام التّعليل، ولأنّ، والتّراكيب الشّرطيّة، فهي"وحدات لغويَّة تصل بين ملفوظين أو أكثر تمّ سوقها ضمن الإستراتيجيّة الخطابيّة"[٣]، إذ

---

[١] ينظر:من الحجاج الى البلاغة الجديدة ، د.جميل حمداوي ، مكتبة الأدب العربي ، المغرب ،٢٠١٤ :٩.

[٢] ينظر:رصف المباني في شرح حروف المعاني ، أحمد بن عبد النور المالقي(ت٧٠٢هـ) ، تحقيق:أحمد الخرّاط ، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق ، ط١ ،١٩٧٤ :٣٧٦-٤١٠.

[٣] الحجاجيات اللسانية والمنهجيّة البنيوية، رشيد الراضي،(بحث) منشور ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته:ج١ :٤٣٧.

إنَّها تمثّل قوّة حجاجيَّة في طيَّات الخطاب عن طريق الرّبط بين قضاياه، وترتيب درجاتها لتحمل على الإذعان بنسق تأثيريّ فاعل.

ولا نغفل أنَّ الحجاج في الجانب اللغويّ قد يرد بصورة الوصف مثل الوصف على صيغة اسم التّفضيل، والوصف على صيغة اسم الفاعل، وعلى صيغة الصّفة[1].

## ٢-آليَّات شبه منطقيَّة لغويَّة:

وترتبط هذه الآليَّات بالجانب اللغويّ، وهي مجموعة من الوسائل الّتي تلفت المتلقّي وتثيره نحوها لفهم دلالاتها وغاياتها، وتتمثّل في السّلالم الحجاجيّة مثل:(لكن، حتّى، وأدوات التّوكيد ...الخ)، وهذا ما يؤكّد لنا فرضيّة أنّنا نتكلّم بقصد التّأثير[2]، وصناعة الإقناع من خلال بنية الخطاب، فتصبح الوظيفة الحجاجيَّة مهيمنة بشكل تامّ على التّسلسلات الخطابيَّة وآليّاته الإنتاجيَّة[3]، وتصبح الوظيفة الإخباريَّة وظيفة هامشيَّة وثانويَّة، إذ تعمل هذه الرّوابط والعوامل الحجاجيَّة في الخطاب بصورة مؤثّرة؛ لأنّها مرتكزات للحجاج الّذي يسعى إلى تأكيد الوظيفة الأساسيّة المتمثّلة بــالبعد الحجاجيّ لها في بنية الأقوال، الّتي سوف تلزم المتلقّي ليتّخذ مواقف معيّنة تجاه الخطاب والغاية من ذلك كلّه الطّبيعة الحجاجيَّة المغروسة

---

(١) ينظر:استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغويّة وتداوليّة، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١ ، ٢٠٠٤: ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) ينظر:من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص،حجاجيّة المفردة القرآنية نموذجا، صابر الحباشة، بحث ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج٢: ١٣٥.

(٣) ينظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي ، دار الأحمديّة، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م: ٢٦.

في بنيته التّركيبيّة والبنائيّة والتّعبيريَّة[١]، فلم تعد غاية الإبهار بالأقوال قائمة، بل تحوَّلت مع الحجاج إلى تبنّي موقف ما تجاه قضيَّة معيّنة .

## ٣-آليَّات بلاغـيَّة:

إذا كانت أبعاد البلاغة قديمًا قد بالغت في العناية بالصّور البيانيَّة والمحسّنات البديعيَّة، فإنَّها أخذت بعدًا مغايرًا مع الحجاج، وباتت من أهمّ الوسائل في استمالة المتلقي وكسب موقفه، وتيقينه[٢] من الآراء والأفكار الّتي ينبغي الإيمان بها بتأثير الخطاب الّذي يسعى إلى معالجة قضايا مختلفة تحمل المتلقّي على قبول دعوى الخطيب بخضوع وقناعة مطلقة.

لا شكَّ في أنَّ اللغة العربيّة تمثّل فضاءً واسعًا لتوظيف البلاغة في صورها وأشكالها ووسائلها كافّة، من البيان مرورًا بالمعاني ووصولًا إلى البديع، وكلّ وسيلة منها قائمة على وظيفة حجاجيَّة تسهم في جعل العمليّة التّواصليّة مع المتلقي حيّة ونشطة، وتحمله على اليقين والاعتقاد العميق بما يمليه عليه الخطيب من التّصوّرات والمعتقدات بحسب سياق التّوظيف الوارد مثل: البيان، والمحسنات البديعيَّة اللفظيَّة والمعنويَّة، فضلًا عن الأساليب الإنشائيَّة، ولكن الغاية، أو القراءة هنا تختلف عمّا كانت تُعرف قديمًا، فقد أنقذ الحجاج البلاغة من عباءة الجماليَّات والتّزيين، ونقلها إلى قصد التّأثير والإقناع فضلًا عن وظيفتها الجماليَّة الّتي تحقّق الإمتاع[٣]، وهذا المنظور المغاير للبلاغة يتّسم بالشّموليَّة للأبعاد الشّعريَّة والخطابيَّة معًا، ويقوم على وعي في التّفريق بين الوظيفتين، فالخطاب قد تشتبك فيه

---

[١] ينظر: اللغة والحجاج: ٥٣.

[٢] التيقين: مصطلح خاص أطلقه الدكتور الحسين بنو هاشم في كتابه نظريّة الحجاج عند شاييم بيرلمان بعد عرضه عدة آراء ومناقشة للمصطلحات العربيّة التي يمكن أن تحل محل (الحجاج).

[٣] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، د.الحسين بنو هاشم ، دار الكتب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٤ :٨-٩.

عناصر إقناعيَّة حواريَّة مع العناصر التّخيليَّة بغية تحقيق التّأثير الحجاجيّ الّذي يخطف عقول المتلقين وقلوبهم في الآن نفسه، ليحقّق التّفاعل والتّأويل، وحريٌّ بنا أن نشير إلى أنّ هذا النّوع من الحجاج سيكون منهجنا المعتمد بتحليل الخطب للكشف عن بلاغة الحجاج فيها انطلاقًا من نظريَّة (بيرلمان)، مع العناية بالجوانب الّتي أغفلها رائد الحجاج البلاغيّ (بيرلمان) مثل: الاستهلال، والخاتمة، الّتي تعدّ من أهمّ ضربات الحِجَاج.

## بلاغةُ الحجاج:

تنظر الدّراسات الحديثة إلى الخطاب الحجاجيّ من زوايا رؤية مختلفة، وتقوم بتقسيمه على ثلاثة خطابات تتمثّل في: الخطاب الحجاجيّ البلاغيّ، والفلسفيّ، والتّداوليّ، وتختلف هذه الخطابات باختلاف أصولها وامتداداتها المعرفيّة والمنهجيّة، وهذ لا يعني بالضّرورة عدم تداخلها فيما بينها في بنية الخطاب[١].

في واقع الأمر أنّ ما يعنينا هنا هو إماطة اللثام عن مفهوم (بلاغة الحجاج) الّذي عنونّا فيه كتابنا هذا، وتطبيق إجراءاته على فنّ الخطابة في العصر الأمويّ، ولوقتٍ قريب كان استخدام هذا اللفظ المركّب، أو ما يسمّيه بعض الدّارسين بــ(البلاغة الحجاجيَّة) من الأمور الّتي لم تُدرك بوعي تامّ وشكل قطعيّ، لكونها لم تحظ بالاهتمام الواسع والحفر المعرفيّ في جذوره التّاريخيّة ولاسيّما أنَّه يرتبط ارتباطًا صلبًا بشؤون النّاس، ويتشعّب في علوم ومعارف متعدّدة: كالمنطق والفلسفة، وعلم السّياسة، والسّايكلوجيّ، وعلم الأخلاق[٢].

---

[١] ينظر: الخطاب الحجاجي(أنواعه وخصائصه)، هاجر مدقن ، منشورات الاختلاف ،الجزائر ،ط١ ،٢٠١٣: ٦٧.

[٢] ينظر:في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات، د.محمد مشبال، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١، ٢٠١٧: ٧.

يتساءل الدّكتور محمّد مشبال عن ماهيّة بلاغة الحجاج؟ أهي بلاغة (أرسطو) أم (بيرلمان)؟ ، أم هي مزيج من الاثنين في صيغة لا تكف عن استعارة مبادئها من حقول مجاورة؟، وفي هذه الحال ما أسسها، ومبادئها، وتقاناتها في التّحليل؟ ونحن نروم أن نعتمده في تحليلنا لنصوص الخطب في العصر الأمويّ.

إجابة عن هذه الأسئلة بمعيّة الدّكتور محمّد مشبال، نقول: إذا كنّا نعلم أنَّ وضع البلاغة في الثّقافتين الغربيَّة والعربيَّة حتّى أواخر الخمسينيّات من القرن المنصرم كان مأساويًّا إلى حدٍّ موتها، فهي لم ترَ نور الحياة مرة أخرى إلاّ بعد مجيء (بيرلمان) ليبعثها مرّة أخرى مؤسّسًا لها المنظور الجديد بعد أن كانت روح إبداعها قد مرّت بمرحلة خفوت، وكذلك الحال في الثّقافة العربيّة إلّا في حدود لم تتعرَّف على بلاغة الحجاج إلاّ مع الألفيّة الجديدة، أي بعد أن رست سفينتها على شواطئ الحياة غربيًّا، إلّا أنّها بقيت عند فئة قليلة من الباحثين مثل: أمين الخوليّ، وكتابات مصطفى ناصف، وجابر عصفور، ومحمّد العمريّ، ومحمّد مشبال، وكلّ من سار على منوالهم في إعادة قراءة التّراث البلاغيّ العربيّ القديم[١]، ومحاولة فهم موسوعيّة لبلاغة الحجاج بوصفها قراءة تتكئ على أسس نظريّة أرسطيَّة الجذور، وتقانات إجرائيّة تبلورت في البلاغة الجديدة، الّتي تتضافر مع حقول معرفيّة أخرى تعينها على مواجهة النّصوص وتحليلها، فإذا كانت البلاغة الأدبيّة كما كان ينظر إليها في أوجّ عصورها مرتكزة على دراسة الصّور البلاغيّة في"أفق إعادة صياغة مفاهيمها، وتحديد آليّات اشتغالها، والكشف عن القوانين المتحكّمة في بنيتها، وضبط علاقاتها؛ فإنّ بلاغة الحجاج اتّجهت منذ بداياتها الأولى مع اليونان إلى دراسة الخطاب في وظيفته وفعاليّته، أي دراسة الملفوظ الّذي ينتجه المتكلّم في مقام تواصليّ محدّد لا لكي يعبر عن ذاته، أو عن العالم الّذي يعيش فيه، ولكن ليؤثّر في

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨-٩.

المخاطب ويغيّر رؤيته واعتقاده ويحمله على الفعل"[١]، فالبلاغة بهذا الحال ما هي إلّا وسيلة متّبعة في الخطاب لتنفذ معانيها إلى المتلقّي سامعًا كان أو قارئًا، مع ما يقتضيه ذلك من وضوح وإبانة عن المطلوب، والمقصد الإقناعيّ فضلًا عن التّحسين الممتع، فيكون حجاجًا موجّهًا إلى العقل والقلب معًا، وذلك أنّه يرتكز على بنائين يتمثّلان بـ الحجّة العقليّة الّتي تحقق التّيقين، والصّور البيانيَّة الّتي تعمل على الإمتاع والتّأثير، ونعني بذلك أنّ الصّور البلاغيّة لم تعد تستهدف الإدهاش فحسب، وهكذا فالحجاج البلاغيّ يمنح القول القيمة البرهانيَّة حصانة من الهدر والعبث الجماليّ في الخطاب التّواصليّ[٢]، الّذي يصنع التّأثير والإذعان والاستمالة للمتلقّي بعد تحشيد الحجج والبراهين والأدلّة الّتي تعمل على إزالة الشّكّ من الأذهان باستعمال جملة من الأساليب البلاغيّة القائمة على البعدين: البيانيّ الجماليّ والحجاجيّ معًا في بناء عمليّة الفهم وزيادة الإيمان، وطرح تصوّرات ورؤى جديدة بين الخطيب ومتلقيه، فبلاغة الحجاج تتناول الخطاب بوصفه "نشاطًا لفظيًا يروم التّأثير العمليّ في الآخر، مستخدمًا في عمليّة الإقناع أخلاق المتكلّم (الإيتوس)، وأهواء السامع (الباتوس)، وحجج الخطاب (اللوجوس)، هذا التّصوّر التّداوليّ للخطاب، جعل بلاغة الحجاج تتجاوز المستوى الأسلوبيّ (العبارة)، الّذي أفرز موضوع البلاغة الأدبيّة الّتي نعتها(جيرار جينيت) بـ (البلاغة الضّيقة) إلى مستوى الخطاب في كلّيّته؛ أي ليس بوصفه ملفوظًا مستقلًا بدلالته، ولكن بوصفه تلفظًا تتدخل فيه عدّة مقوّمات"[٣]، واستنادًا على ما سبق فإنّ بلاغة الحجاج تتمحور حول محوري (الاختيار والتّقديم)؛ المحور الأوّل: يتكوّن من اختيار العناصر المتّفق

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج : ١٨-١٩.

[٢] ينظر: الخطاب الحجاجي (أنواعه وخصائصه): :٦٨.

[٣] في بلاغة الحجاج: ١٩.

عليها بين المخاطِب والمخاطَب بعناية ورؤية إستراتيجيَّة(مسلّمات الحجاج)، أمّا المحور الثّاني: فيتمثّل بتقديم تلك المسلّمات على نحو يسهم في زيادة فاعليّتها وتقوية حضورها بوساطة العمل الكبير الّذي تؤدّيه التّقانات الحجاجيَّة والصّور البلاغيَّة وترتيب الخطاب(١)، ليهدف إلى قصد تأثيريّ قد يكون مضمرًا في الخطاب، أو ظاهرًا بغية تغيير الموقف الفكريّ والعاطفيّ لدى المخاطب، أو دفعه على مواقف وطروحات يريد لها أن تكون حاضرة في معتقداته وتصوّراته بإيمان مطلق.

لعلّنا لا نرغب أن نسرف في الحديث عن المفهوم كثيرًا بوصفه سيتجلّى في طيَّات البحث، إلّا أنَّنا رصدنا له مجموعة خصائص محوريَّة وأساسيَّة في شكله الخطابيّ الّذي يتّصف به وينبني عليه من وجهة نظر ورؤية مدرسة البلاغة الجديدة ورؤيتها:

١-اندماج بلاغة الحجاج عضويًّا بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق.

٢-التزامها لرغبتين هما: إرادة المتكلّم الّذي يمثّل العنصر المؤثّر والمقنع في العمليَّة التّواصليَّة ، وإرادة المتلقي الّذي يمثّل العنصر الواقع تحت التّأثير والإغواء والاقتناع.

٣-تخضع الحجج فيه إلى عمليّة التّراتبيَّة والتّنظيم: القوّة، الضّعف، الاستهلال، الخاتمة، الإبطال ،الإثبات...الخ.

٤-تشتمل بلاغة الحجاج على البعد الاستدلاليّ بوساطة البراهين والحجج، فضلًا عن البعد الممتع بالبيان والبديع، والهدف منهما التّأثير على المتلقّي واستقطابه بالإغراء الوجدانيّ والانفعاليّ، ودفعه إلى الاعتقاد بما يؤمن به الخطيب وقناعاته

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٠.

الخاصّة؛ أي الإذعان مع التّيقين بالفعل[١]، ويبدو أنّ بلاغة الحجاج في خصائصها المحوريّة هذه دائمًا ما تحتفظ بقدر معيّن من البلاغة والخطابة بصدد الإقناع والإمتاع معًا، ولهذا حذّر( بيرلمان) من مغبة الإسراف والإفراط في توظيف الأشكال والقوالب البلاغيَّة الجاهزة، لأنّ هذا الأمر كان العامل الرّئيس من عوامل جمود البلاغة واستقرارها قبل أن تأتي نهضة الدّراسات البلاغيّة الجديدة لتعيد إليها منزلتها ومكانتها بين العلوم والمعارف، الّتي قامت على وفق منظور مغاير يعتمد البرهنة والتّأثير والتّفنيد.

وبعد هذه الإضاءة لمفهوم (بلاغة الحجاج)، لابدّ أن نشير إلى أنَّنا سنعتمد نظريَّة (بيرلمان) أساسًا في تصنيف حجج الخطاب الحجاجيّ وآليّاته وعلاقاته، والاعتماد كذلك على تصوّرات المفهوم الأرسطيّ للحجاج (الإيتوس، الباتوس، اللوجوس)، فضلًا عن الاستعانة بمقولات البلاغيين العرب القدماء حول الحجاج في علوم البلاغة العربيّة الثّلاث، ولاسيّما البيان، فالتّوليف بين نظريّة (بيرلمان) ونظريّة (أرسطو) يحقّق التّكامل في المنهج، وذلك لأنّ (بيرلمان) أهمل الكثير من الجوانب البلاغيّة المهمّة في بلاغة (أرسطو) على الرّغم من اعتقاده بوظيفتها الحجاجيّة في الخطاب، ومدى تأثيراتها على المتلقّي، مثل الرّوابط الحجاجيَّة، ونوازع الباثّ والمتلقّي الانفعاليّة والعاطفيَّة، والبناء الأسلوبيّ للخطاب.

---

(١) الخطاب الحجاجي (أنواعه خصائصه): ٨١-٨٢.

## الحجاج في الفكر الغربي القديم والحديث.

### الحجاج عند أرسطو:

لا يخفى على القارئ أنّ الحجاج في العصور القديمة كان يتموضع حول البلاغة، والخطابة ، وغاية الإقناع، وورد كثيرًا في الثّقافة الغربيَّة بدلالة الجدل والمناظرة ولاسيّما عند الفلاسفة اليونانيين وعلى رأسهم (أرسطو)، وكانت عنايتهُ منصبَّةً على فنون الكلام (الخطابة والشّعر)، وأرسى لهما القواعد الفنّيَّة والعقليَّة الّتي صارت فيما بعد منهجًا سلكه اللاحقون من علماء اليونان وغيرهم، وقد قام بالتّنظير للفنّين معًا، وانطلق بتنظيره للخطابة ممّا وصفه سقراط؛ إذ لها خطّتان: جدليَّة ونفسيَّة، وكان يرى أنَّه لابدَّ للخطابة الجدليَّة من أمرين: التّركيب الّذي يلملم به الخطيب أشتات الفكرة المتفرّقة ليستطيع تحديد الكلام، ويعقبه التّحليل الّذي يأتي بالفكرة بصورة آراء جزئيّة، وأطلق تسمية(جدليين) على أصحاب القدرة على التّركيب والتّحليل، فالخطابة عنده جدليّة محضة[١]، وقد ربط بين الكلام والتّعبير عند الإنسان وبين مسلّمة الإقناع" فالإنسان لأنَّه متكلّم معبّر يبحث بطبعه عن الإقناع، ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن بوسائل مستمدّة من التّفكير"[٢] بوصفها فطرة طبيعيَّة كالغرائز الأخرى، وهذه المسلّمة عمليَّة خطابيَّة يتوخاها الخطيب لتوجيه المخاطب إلى اعتقاد قول يعدّه كافيًا ومقبولًا للفعل أو التّرك؛ فالعمليَّة متسلسلة منطقيًّا لها بداية ونهاية، وتبتدئ بإرادة الخطيب، وتنتهي بتحقيق ما يروم إليه من الإرادة بالفعل[٣]، وقد شدّد(أرسطو) في عملية الإقناع على

---

(١) ينظر:الخطابة، أرسطو طاليس، ترجمة:عبد الرحمن بدوي، مطبعة الرسالة، دار الرّشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠م :٢٢-٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤.

(٣) ينظر:الحجاج في الخطابة النبوية: ١٦.

التّصديقات، أو الأدلّة في الحجاج وبوساطة ثلاثي العمليَّة التّخاطبيَّة (الإيتوس، الباتوس، اللوجوس)، وتُقدّم بواسطة القول الخطابيّ، وذكرها (أرسطو) بثلاثة أنواع:

١-منها ما يكون بكيفيَّة المتكلم وسمعته، إذ أنّ سمات الخطيب وطباعه تحقّق الإقناع.

٢- ما يكون بتأهيل السّامع واستدراجه نحو الأمر، حيث يهيّئ المستمعين ويستميلهم القول الخطابيّ بالاستهواء، فيحصل الإقناع والإذعان.

٣- ما يكون بالكلام نفسه قبل التّثبيت، فالخطاب هو الّذي ينتج الإقناع عبر استخراج الصّحيح من كلّ موضوع يحتمل أن يقع فيه الإقناع[١].

ولهذا كان الجدل مبحثًا فكريًّا مميّزًا عند (أرسطو) ويؤدّي لهذه الغاية الإقناعيَّة، ولئن كانت الخطابة في الحضارة اليونانيَّة تمثل حالة نوعيَّة في تاريخ الإنسانيَّة حتّى قال فينيلون: "كان كلّ شيء في اليونان خاضعًا للشّعب، وكان الشّعب خاضعًا للخطابة"[٢]، لذا انكبّ (أرسطو) عليها بوصفها أداة تندرج في سير الحياة اليوميَّة والسّياسيَّة في المجتمع الأثينيّ بشكل خاصٍّ، والإنسانيّ بشكل عامٍّ، وراح يتحدّث إلى أصناف خطابيَّة متّصلة بالمؤسّسات السّياسيَّة وهي:

-الخطابة الاستشاريَّة مثل:(حق الانتخاب، والتّصويت،...).

-القضائيَّة: وترتبط بالمؤسّسات القانونيَّة مثل:(محكمة الجناة من مسؤولي الدّولة، ومرتكبي الجرائم).

-الاحتفاليّة: وتتصل بالتّجمّعات الشّعبيَّة والجماهيريَّة[٣].

---

(١) ينظر:إشكاليات الحجاج في المفهوم والتوصيف: ص٤٥-٤٦.

(٢) الحجاج في الخطابة النبويّة: ٢٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠.

وبما أنَّ الخطابة والجدل يشتركان بموضوعاتهما بوصفها أمورًا دارجة ومألوفة في المجتمع الإنسانيّ يلجأ إليها كلُّ النّاس بدرجات متفاوتة، وكلُّ إنسان يسعى جاهدًا أن يعارض حجّة من الحجج أو يدعمها بوصفها وسيلة إقناعيَّة[1]، وقد ميّز (أرسطو) بين نوعين من الحججّ(الأدلّة)، الأدلّة غير المصنوعة الّتي لا شأن لنا فيها؛ لأنّها سابقة على أطباعنا وتصرفاتنا: مثل الشّهود في القضيَّة، والتّعذيب، والاتّفاقات المكتوبة، وغير ذلك، أمّا الأدلّة المصنوعة فهي كلُّ ما يمكننا جمعه بأنفسنا على هدى المنهج الموضوع، والّتي تُسمّى بالتّصديقات كما أسلفنا، إذ تتّصل بأخلاق الخطيب، وأهواء السّامعين، وما يتعلّق بالخطبة نفسها، إذا كانت استدلاليَّة في حقيقتها، أو في ظاهرها، ويبدو أنّ ما يسمّى بالاستدلال المنطقيّ وثيق الصّلة بالحجاج الآن، لكونه ينتزع قوّته من الحجّة نفسها، ويحقّق الاستمالة والتّأثير بالقول[2]، ومن هذا المنطلق رفض الحجاج الأرسطيّ" الكثير من الأساليب السّفسطائيَّة المغالطة، مثلما رفض المثاليّات المطلقة، ودعا إلى بلاغة يكون الحجاج مركزها، وتكون العناية فيها بمختلف أطراف العمليّة التّواصليّة بالغة وأساسيَّة؛ ذلك لأنّه لم ينظر للحجاج نظرة اختزاليَّة، بل تكامليَّة تفاعليَّة مع مختلف فروع المعرفة الإنسانيَّة"[3]، وبهذا الأنموذج كان (أرسطو) المثال الّذي بني عليه فيما بعد أهمّ إفرازات الغرب الفلسفيَّة والبلاغيَّة الّتي نظّرت للخطابة خاصّة بوصفها ميدانًا أمثل لعناصر الحجاج، ومكوّنات الخطاب الإقناعيّ عمومًا.

---

[1] ينظر:الخطاب الحجاجي (أنواعه وخصائصه): ٤٠.
[2] ينظر: المصدر نفسه: ٤٠.
[3] الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته (تطبيقات في خطب ابن نباته): ٣١.

## الحجاج عند بيرلمان:

كنَّا قد تحدّثنا ضمنيًّا عن ماهيَّة الحجاج عند (بيرلمان) إلّا أنَّنا سنحاول ولو بشكل مقتضب أن نرصد الملامح العامّة للحجاج لديه من خلال أهمّ ما جاءت به مؤلّفاته (إمبراطوريَّة الخطابة)، الّذي بسط فيه المفاصل الكبرى لهذه النّظريَّة، ومؤلّفه الآخر(مصنف في الحجاج .الخطابة الجديدة) مع تيتكا، والّذي كان واضع اللبنة الأولى في مشروع تجديد البلاغة وكسر أطواقها التّزيينيَّة والتّحسينيَّة، والخروج بها من قوقعة الجماليَّات إلى الفضاء الحجاجيّ ليدرس جميع أنواع الخطابات الإنسانيَّة القائمة على الاحتمال، لتقوم الثّورة الكبرى في الخطابة المؤسّسة للبلاغة الجديدة على يد (شاييم بيرلمان)[١]، الّذي وجد ضالّته الّتي دعته إلى التّفكير المباشر بالبلاغة الأرسطيَّة القديمة بحذر علم المنطق، فإليه يرجع الفضل في إعادة منزلة البلاغة ومكانتها، وذلك بتصحيح المنظور الّذي كان يرى فيها مجرَّد عناصر جماليّة للإدهاش والإبهار، وقد جعلها منفتحة على الخطابات الإنسانيَّة كافّة باستثناء البرهنة الصّوريّة والرّياضيّة[٢]، ولهذا انصبّت عنايته بنظريّة الحجاج"الّتي تشير إلى دراسة مجمل تقانات الخطاب الهادفة إلى التّأثير في المخاطب/الجمهور، ممّا يؤدّي إلى تحقيق التّوافق فيما بينهم وتعزيز روح الالتزام تجاه القضايا المطروحة حتّى يتمّ الاتّفاق عليها"[٣]، فهو يرى الحجاج طريقة بها تُقدّم الحجج وتُعرض عرضًا منطقيًّا وعقلانيًّا من أجل الدّفاع عن قضيَّة، أو فرضيَّة معيّنة، أو تفنيدها مع تحقيق الإقناع[٤]، والّتي قطعًا تنتهي إلى خدمة نتائج

---

[١] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان:٧-٨.

[٢] ينظر:إشكاليات الحجاج في المفهوم والتوصيف: ٤٦.

[٣] المصدر نفسه: ٤٦.

[٤] ينظر:أنواع الحجاج ومقوماته(من حجاج أرسطو إلى حجاج البلاغة الجديدة)،جميل حمداوي، المغرب، مطبعة بتطوان،ط١،٢٠٢٠م: ٦.

معيّنة[1]، فحجاجه البلاغيّ تأسّس على فهم المخاطب وبنائه الفكريّ والثّقافيّ، وحالته الذّهنيَّة والعاطفيَّة، ويجعل المُرام من كلِّ حجاج كامن في وضع العقول مذعنة لما يُطرح عليها، أو الزّيادة في درجة ذلك الإذعان؛ لأنَّه يسعى إلى إحداث انسجام بين الأطراف المتحاورة واتّصالها في جوٍّ تسوده الحرّيَّة والمعقوليَّة: أي بمعنى أنّ التّسليم والإذعان لرأي الآخر يكون بعيدًا عن الاعتباطيّة واللامعقول، وبمنأى عن الإرغام والإلزام اللذين يطبعان الجدل، ونرى أنّ ملامح الحجاج عنده خمسة:

-أن يتوجّه إلى مستمع.

-أن يعبّر عنه بلغة طبيعيَّة.

-أن تكون مُسَلّماته احتماليَّة.

-ألّا يفتقر تقدّمه وتناميه إلى ضرورة منطقيَّة بمعنى الكلمة.

-أن تكون نتائجه غير ملزمة[2].

ووضع إلى جانب هذا منطلقات للحجاج يسخّرها الخطيب لصناعة الإقناع، ولعلّ أهمّها: (الوقائع، والحقائق، والافتراضات، والقيّم، والهرميَّات، والمواضع...).

ونرى أنَّ نظريَّة (بيرلمان) قد مثّلت محاولة جديدة ومتطوّرة في تجديد الفكر الأرسطيّ، في وقت استقرّت البلاغة على العناية بالتّزيين، والمحسّنات الشّعريَّة، فيمكن القول أنّه قام بإعادة البلاغة إلى صيغتها الحجاجيَّة، "حيث أصبحت الصّور الجماليّة مجرّد روادف لغويّة ودعامات تسعى إلى بعث الإقناع والفعل، لا إلى الاستمتاع غير العابئ بالتّأثير، وتعديل الرّأي، والسّلوك، والإقرار، في محاولة

---

(1) ينظر: فلسفة الحجاج البلاغي(نصوص مترجمة لشاييم بيرلمان): ترجمة: أنوار طاهر: مراجعة وتقديم: د.أبور بكر العزاوي، عالم الكتب الحديث،إربد الأردن، ط١، ٢٠١٩م:١.

(2) الحجاج في الخطابة النبويّة: ٣١.

لربط البلاغة المعاصرة بأصولها الأرسطيَّة"[١]، فالبعد الإمتاعيّ حاضر؛ ولكنّه يدخل في مجال الاحتجاج للأفكار من خلال التّأثير، ولم يعد يقتصر على إبهار المتلقّي وإدهاشه بما يرد من تعبيرات مجازيَّة صادمة.

ويحيل لنا ما تقدّم إلى أنَّ(بيرلمان) عمل على إنقاذ الحجاج من التّهمة والهجوم المتلاحق لأصله الخطابيّ، فتهمة المغالطة، والمناورة، والإغواء، والتّلاعب بعواطف الجمهور، فضلًا عن تخليصه من صرامة الاستدلال الّذي يجعل المخاطَب بوضع قسريّ يسلبه الحريَّة، ويضعه في رضوخ مطلق، فالحجاج في منظوره ينبني على حرّيّة القناعات، ويتّخذ من الحوار المتكافئ سبيلًا إلى الوصول للاعتقاد والتّسليم والإقرار بعيدًا عن ضروب اللغط والاعتباط الإلزاميّ[٢]، وممارسات الإغواء المجازيّ الّذي كان سائدًا في الخطاب سابقًا، وأنّ (بيرلمان) شدّد على حقيقة قرب الحجاج إلى الخطابة منها إلى الجدل، وهو مفهوم مغاير لما كان يعتقد به (أرسطو).

## الحجاج عند ديكرو:

عرض ديكرو نظريّته في الحجاج عام ١٩٧٣ في كتابه المشترك مع (أنسكومبر) بعنوان(الحجاج في اللغة)، وهو حجاج لسانيّ بحت، ابتعد فيه عن الأسس الفلسفيَّة والمنطقيَّة والبلاغيَّة، وانشغل بالبحث عن العمل الحجاجيّ الّذي يقوم به البناء اللغويّ لهذه الوقائع مُتأثّرًا بنظريَّة الأفعال اللغويَّة عند (أوستن) و(سيرل)؛ لذلك انتهى إلى حقيقة مفادها أنَّ اللغة تحمل في ذاتها بعدًا حجاجيًّا كامنًا في صميم بنيتها الدّاخليَّة، وحاضرًا فيها وليس عنصرًا خارجيًّا، أو مضافًا، فمعنى

---

[١] الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته):٣٢.
[٢] ينظر: الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته):٣٢.

الأقوال لا ينفكّ عن بعدها وطابعها الحجاجيّ، فالخطاب وسيلة الحجاج ومنتهاه في كلّ وقت على مختلف مستويات اللغة، وتأخذ طابعًا سجاليًّا[١]، لذا يقول (ديكرو):"ليس المقتضى حدثًا بلاغيًّا مرتبطًا بالقول، وإنّما هو منغرس في اللغة نفسها، وهو ما يدعونا ضرورة إلى أنّ نعدّ اللغة بصرف النّظر عن استعمالاتنا المختلفة لها مسرحَ محاورة، ومواجهة بين الذّوات البشريَّة"[٢]، فشدّد مع صاحبه (أنسكومبر) على دراسة الحجاج في نطاق دراسة اللغة لا في البحث عمّا هو خارجها، من خلال رصد التّتابع الحجاجيّ في الأقوال.

## الحجاج عند ميشال مايير:

أفاد (مايير) من طروحات سابقيه في رؤيته لمفهوم الحجاج، وقد تأثَّر كثيرًا بـ(شاييم بيرلمان)، وقدّم تصوّرات على وجه التّبسيط والتّعليم مرتكزًا فيها على جهود من سبقه، وجاء بشطر ثانٍ من الرّؤية الشّخصيَّة المستنبطة من بنيّات أفكاره، وجهده الخاصّ المنقطع عن روّاد الحجاج[٣]، وعرَّف الحجاج بأنَّه "دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه"[٤]، وقيامه على قسمين: صريح وضمنيّ، يجعله ذا صفة حواريّة تتحرّك فيه الأطراف في مساحة كبيرة من التّفاوض، فانقسام الكلام عند التّخاطب إلى صريح وضمنيّ يكون نصفه للمتكلّم، وهو الصّريح، ونصفه للسّامع وهو النّصف الضّمنيّ[٥]، ليصل إلى نتيجة مقنعة وغير مقنعة، ولا جدّة في تعريفه هذا، وينازعه العلماء القدماء فيه، أمّا الجهود الخاصّة بـ(مايير) فهي

---

(١) ينظر: الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته):٣٤-٣٥.
(٢) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، د.عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت-لبنان ،ط٢،٢٠٠٧: ٣٥.
(٣) ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة: ٣٧.
(٤) المصدر نفسه: ٣٧.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧.

تتمحور حول القسم المتعلّق بربط الحجاج بنظريّة المساءلة[١]، فما الحجّة عنده "إلّا جواب، أو وجهة نظر يُجاب بها عن سؤال مقدَّر يستنتجه المتلقي ضمنيًا من ذلك الجواب، ويكون ذلك في طبيعة الحال، في ضوء المقام وبوحيٍ منه"[٢]، وفي ضوء هذا يكون الحجاج عند (ماير) ما هو إلّا إثارة الأسئلة والاستشكالات، وهذه الإثارة عماد بناء الخطاب الحجاجيّ.

## الحجاج في الفكر العربيّ القديم والحديث:

لا مراء أنَّ البلاغة العربيَّة قديمًا انصرفت إليها جياد الهمم في محاولة لفهم التّنزيل المبين ، وبيان مسألة الإعجاز، وراح العرب يولّونها عظيم قراءاتهم، ومنتهى جهودهم، ولكن تبقى البلاغة العربيَّة من حيث الظّروف والنّشأة مختلفة تمامًا عن نظيرتها الغربيَّة؛ نظرًا لاختلاف الأنساق الثّقافيَّة، والتّاريخيَّة، فإذا كانت الغربيَّة قد نشأت في أحضان الخطابة ضمن نطاق فلسفيّ في محاولة لتصنيف الأقاويل حسب قدرتها على قول الحقيقة[٣]عند المحاكم، أو في جوار خطابات الدّفاع عن المتّهمين، فإنَّ البلاغة العربيَّة ظهرت بشكلها الأزليّ في الجاهليَّة، ولكنَّها ترعرعت في أحضان القرآن الكريم، ومنحها ديمومة البقاء والخلود ما خلد القرآن الكريم نفسه، بيد أنَّ الوعي البلاغيّ العربيّ لم يكن غائبًا تمامًا عن الحِجاج في تراثنا الفكريّ، ولاسيَّما عند أعلام كبار لامست جهودهم، بل قاربت البعد الحجاجيّ الإقناعيّ في منظورنا المعاصر، سواء كان ذلك تأثّرًا بالأفكار اليونانيَّة أو لم يكن، وسنرى هذا من خلال عرض جهود أهمّ هؤلاء العلماء الّذين يمكن أن لنا أن نجد وعيًا في أنماط تفكيرهم الّتي تدور حول الحِجاج في ثلاثة اتّجاهات مختلفة هي:

---

[١] ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة: ٣٨.
[٢] المصدر نفسه: ٣٨-٣٩.
[٣] ينظر:الحجاج في الخطابة النبويّة: ٤٣.

١-اتّجاه أدبيّ خطابيّ يمثّله الجاحظ.
٢-اتّجاه منطقيّ فقهيّ يمثّله ابن وهب.
٣-اتّجاه بلاغيّ منطقيّ يمثّله السّكّاكيّ[١].

## الجــاحـظ (٢٥٥هـ):

كان للجاحظ أثرٌ جليل وعظيم في تأسيس بلاغة الخطابة العربيَّة وتحكيم خصائصها، فضلًا عن وضع أساس البيان العربيّ، وكان رجل محاجةً ومناظرة، المتكلّم العارف بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج[٢]، صاحب خطٍّ اعتزاليّ يحيط بعلوم اللغة، والنّحو، والأخبار، والأديان، والثّقافات، وأنّه عايش فترة الازدهار الحضاريّ والفكريّ الإسلاميّ، في عصر نضجت فيه العلوم ونشطت التّرجمة، وتمازجت الأجناس، وظهرت الفرق الفلسفيَّة والإلحاديَّة والشّعوبيَّة؛ فكان من الطّبيعي أن يعزّز متنه بالحجّة الواضحة، والبرهان اللامع ليقارع ويدحض حجج أساطير الخصوم، ومحاججة أرباب النّحل، ويستميل بذلك القلوب، ويجذب النّفوس، فحضرت الخطبة في كتابه(البيان والتبيين) بشكل كبير[٣]، إذ كان أوّل من أفاض بالحديث عنها، وعن سياقها، وتوسّع في عمل كلّ طرف من أطراف العمليّة التّخاطبيَّة: (المتكلّم والسّامع والنّصّ) بغية جعل النّصّ بليغًا ومؤثرًا مقنعًا، إذ تكون غاية الخطيب"أن تكون الأعناق إليه أميل، والنّفوس إليه أسرع، والعقول عنه

---

[١] ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب(تطبيقات في خطب ابن نباته): ٤٥.
[٢] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، مقدمة: في الخلفيّة النّظريّة للمصطلح، حمادي صمّود:٢١.
[٣] ينظر:الحجاج في الخطابة النبويّة: ٤٥.

أفهم"[1]، فمدار الأمر الإفهام والتّأثير والإقناع، ويبدو أنّ المشروع البلاغيّ الجاحظيّ قام على وظيفتين أساسيّتين هي:

١-**الوظيفة الإقناعيَّة:** فالخطاب وما يتّصل به من إلقاء وإقناع، واحتجاج ومناظرة تعدّ مناط القول، وهذا عماد كتابه (البيان والتبيين)، الّذي مثّل صورة من صور بلاغة الحجاج والرّدّ على الخصوم، اقترب فيه إلى حدٍّ كبير من مفهوم الحجاج في مفهومنا المعاصر.

٢-**الوظيفة الإفهاميَّة:** وتقوم هذه ببلورة ظهور وقيام الوظائف الأخرى، والتّواصل الخطابيّ لا يتمّ إلّا من وجه الفهم والإفهام أوّلًا لتظهر لنا أبعادٌ أخرى للخطاب[2]، فيقول:"البيان اسم جامع لكلِّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضّمير حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته ويهجع على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدّليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسّامع إنَّما هو الفهم والإفهام، فبأيِّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[3]، ونفهم من هذا التّعريف أنَّ الجاحظ من أوائل البلاغيين الّذين أشاروا إلى الغاية الحجاجيَّة من البيان إلى جانب الوظيفة التّحسينيَّة بهدف دفع المتلقي إلى اعتناق حقائق يقصدها المتكلّم في كلِّ خطاب.

## الحجاج عند ابن وهب(عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي ٢٨٨هـ):

انكبّ ابن وهب على معالجة البيان في كتابه(البرهان في وجوه البيان) بالنّظر إلى قيام المعاني في النّفس؛ لأنَّه يرى بأنَّ أوَّل قسم من الدّلالة قائم على بيان الأشياء بذواتها، وهو(بيان الاعتبار) فإذا تحققت جاء(بيان الاعتقاد) لإتمام إبلاغ المتلقي بما

---

[1] البيان والتبيين، الجاحظ، ت:عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت:٧.

[2] ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب(تطبيقات في خطب ابن نباته): ٤٦.

[3] البيان والتبيين: ٧٦.

اعتقد شفاهة أو كتابة، أي بيان اللسان أو بيان الكتاب، وهذه أنواع البيان الأربعة عند ابن وهب:

١-بيان الاعتبار، ويتحقّق في بيان حال الأشياء المحسوسة، أي أنَّ الأشياء تفسّر ذواتها لمن تبيّن، وتعبر بمعانيها لمن أراد الاعتبار سواء أكان ظاهرًا أو خفيًّا.

٢-بيان الاعتقاد، ويحصل في القلب عند إكمال الفكر واللبّ، وله ثلاث صور: حقّ، ومشتبه به، وباطل.

٣-بيان العبارة، ويتحقّق باللسان أو بالقول، وبه أقسام ظاهرة وباطنة.

٤-بيان الكتاب، وفائدته للحاضر والغائب(١).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كلَّ أنواع البيان المذكورة تدور حول بيان ظاهر وآخر باطن، فالظّاهر يستغني عن الاستدلال عليه، والاحتجاج له بذكره، إذ لا خلاف فيه، أمّا البيان الباطن فهو خلاف النَّوع الأوَّل، يعود فيه البيان إلى ما غاب عن الحسّ واختلفت العقول في إثباته، وعلى سبيل المثال في بيان العبارة الباطن فيه بحاجة إلى التّغيير كقوله تعالى:"فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"{الكهف:٢٩}، فظاهر الكلام يوحي إلى التّفويض، وباطنه يقوم على التّهديد والوعيد(٢)، إذ يجعل ابن وهب الاحتجاج نوعًا من أنواع النّثر على سبيل التّصنيف فيقول:"فأمّا المنثور فليس يخلو أن يكون خطابة أو ترسّلًا ،أو احتجاجًا، أو حديثًا، ولكلّ واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه"(٣)، وعلى هذا الأساس يكون موضع الاحتجاج عنده في محاججة"من زاغ من أهل الأطراف"(٤)، ثمّ يضع مصطلح الاحتجاجّ تحت اسم

---

(١) ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب (تطبيقات في خطب ابن نباته): ٤٧-٤٨.

(٢) ينظر:الحجاج في الخطابة النبويّة: ٥١.

(٣) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسن إسحاق بن وهب، تحقيق: حفني محمد شرف،مطبعة الرسالة :١٥٠.

(٤) البرهان في وجوه البيان: ١٥٠.

(الجدل)، ويوظّفه في ضمن تعريفه له فيقول:"وأمّا الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه من اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب، والدّيانات وفي الحقوق، والخصومات، والتّسوّل في الاعتذارات، ويدخل في الشّعر وفي النّثر"[١]، وقد عمد إلى تصنيف الجدل على شاكلة التّقسيمات الأرسطيَّة- إلى جدل محمود الّذي يقصد به الحقّ ويختصّ بالصّدق، وأمّا المذموم فما أريد به المماراة والغلبة والباطل، وطلب الرّياء[٢]، ويبيّن صاحب البرهان في ذلك منزلة الاحتجاج وإقامة الحجّة وتقديم الدّليل عند العلماء بقوله:"وقد أجمعت العلماء وذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجّته وبيّن عن حقّه، واستنقاص من عجز عن إيضاح حقّه وقصر عن القيام بحجّته"[٣]، وهو في هذا لم يختلف كثيرًا عن معنى البيان الّذي أشار إليه الفكر الجاحظيّ.

## الحجاج عند السّكّاكيّ(٦٢٦هـ):

لا يخفى على أحد أنّ السّكّاكيّ تعرّض إلى حملة شرسة، سيقت إليه اتهامات هجوميَّة واصفة إياه بــ(معقّد البلاغة العربيّة)، العالم الّذي استند منهجه إلى المنطق الّذي أعاق مباحثها وجمّدها كما يدّعي مناوؤه، إلّا أنّ محمّد عابد الجابريّ قد تصدّى لهذه الحملة ونفى عنه كلّ الاتّهامات الّتي وُجّهت إليه بما فيها تأثّره بالبيان اليونانيّ، إذ يقول:"ليس السّكّاكيّ هو الّذي خنق الحياة في البلاغة العربيّة بتقعيداته وتقنيناته، كما يزعم البعض، بل إنَّ الأسس الّتي قامت عليها العلوم البيانيّة كلّها، والبلاغة العربيَّة مجرَّد فرع منها، هي الّتي كان مخزونها قد نفد تمامًا، فلم يعد بإمكانها أن

---

(١) البرهان في وجوه البيان : ١٧٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه: ١٧٧.

تمدَّ الباحث بشيء آخر غير نفسها"[1]، ويرى الجابريّ أنَّ السّكّاكيّ له فضل في تجميع العلوم البلاغيَّة وتصنيفها، وهذا ما لا يمكن إنكاره في حال من الأحوال.

إنَّ (مفتاح العلوم) كان مقاربة وسّعت علاقة البيان العربيّ بالمنطق وليس في هذا تأثيم، فقد غدت البلاغة العربيّة معضّدة بالنّحو والمنطق[2]، وهو في هذا يقترب كثيرًا من منظور(ديكرو وأنسكومبر)، فأصبح البيان العربيّ عنده ضربًا من الاستدلال، سلك فيه الاتّجاه الاستدلاليّ الّذي ترجع إليه مزيّة الصّورة البيانيّة القائمة على ادّعاء أمر مصحوبًا بالحجّة والدّليل والبيّنة أو"دعوى الشّيء ببيّنة"[3]، فجاءت بلاغته صورة ذات أبعاد يقينيّة تنبّه فيها للاستدلال واللزوم، إذ يقول:"وعندك علم أنَّ مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دولتها، علمت أنّ تتبّع تراكيب الكلام الاستدلاليّ، ومعرفة خواصها ممّا يلزم صاحب علم المعاني والبيان"[4]، ويتّضح من هذا أنّ أبا يعقوب اعتنى بالمقام والمستمع ودوره في الإقناع فكان له حظوة كبيرة من العناية لديه، فيقول:"لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التّشكّر يباين مقام الشّكاية، ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزيّة، ومقام المدح يباين مقام الذّمّ، ومقام التّرغيب يباين مقام التّرهيب، ومقام الجدّ يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام على الاستخبار أو الإنكار. ومقام البناء على السّؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب وكذا مقام الكلام مع الذّكيّ يغاير مقام الكلام مع الغبيّ،

---

[1] بنية العقل العربي، محمد عابد الجابريّ، المركز الثقافي العربي، بيروت،١٩٨٧: ٨٩-٩٠.
[2] ينظر:الحجاج في الخطابة النبويّة:٥٥.
[3] مفتاح العلوم، السكّاكي، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١٩٨٧،٢: ٤١٣.
[4] المصدر نفسه:٤٣٢.

ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[1]، فالمقام وحال المتكلّم شغل حيّزًا كبيرًا في فكر الفلسفة البلاغيَّة عند السّكّاكيّ في بناء الخطاب الإقناعيّ، وبذلك تُصنّف البلاغة في فكره على أساس مطابقة الكلام لمقتضى الحال الّذي يظهر جليًّا من جملة مقولاته؛ لهذا تظهر لديه ملامح بلاغة إقناعيَّة يتتابع فيها الاستدلال والضّرورة المنطقيَّة المبنيّة على الحجج والبراهين والأدلّة مع دعوى الأمور.

ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا: إنَّ ملامح المنهج الحجاجيّ لم يقتصر على هؤلاء فحسب؛ لأنّه تجلّى في الكتابات الّتي بحثت في علوم القرآن، والتّفسير، وبيان الحجج فيه، وأصول الأحكام مثل: كتاب (الإتقان) للسّيوطيّ(٩١١هـ)، و(البرهان) للزّركشيّ(٧٩٤هـ)، وكذلك ظهرت كتابات حجاجيَّة عند الفقيه أبي الوليد الباجيّ(٤٧٤هـ) الّذي سمّى كتابه(المنهاج في ترتيب الحِجاج)[2]، وهو فقيه مالكيّ محدّث، وقاضٍ وشاعر أندلسيّ، الّذي له إسهامات لا يمكن جحدها في تعريف الجدل والحِجاج.

## الحجـاج عند العـرب المحدثـين:

لو كان للثقافة العربيَّة سمة التّلاحق الفكريّ لكان لنا السّبق في أغلب النّظريَّات الأدبيَّة والبلاغيَّة في عصرنا الحاضر، فغياب التّكامليَّة النّقديَّة حال دون ذلك، فالنّاقد العربيّ اللاحق لم يكن يعتني بإكمال مقولات النّاقد السّابق وتنظيراته، وقد أدّى هذا إلى تشتّت الخطاب النقديّ العربيّ، وضياع المنجز التّراثيّ[3]، ولاسيّما(الحِجاج)، لذلك لم نرَ إضافة حقيقيَّة جديدة لأغلب الباحثين العرب إلّا في

---

(١) المصدر نفسه: ١٦٨.

(٢) ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب(تطبيقات في خطب ابن نباته): ٥١.

(٣) ينظر:جذور نظريّة الأجناس الأدبيّة في النقد العربي القديم، الدكتور فاضل عبود التميمي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٧م: ٣٩.

نطاق محدود، ولعلّ أبرز هؤلاء الّذين قدّموا رؤية خاصّة من زوايا غير لغويَّة كما لاحظناه عند الغرب، وهم روّاد الدّرس الحجاجيّ الحديث.

## الحِجاج عند طه عبد الرّحمن:

لقد انفرد الحجاج في فكر طه عبد الرّحمن بطابع خاصّ، إذ ارتكزت نظريّته على البناء الفلسفيّ؛ وقد أثّر موقعه التّدريسيّ بتوجّهاته كونه يعمل أستاذًا لفلسفة اللغة والمنطق، ويتجلّى هذا في مؤلّفاته جميعها، وقد أفاد فائدة كبيرة من المصادر القديمة عربيًّا وغربيًّا، ولاسيَّما الفلسفيّة في تقديم أفكاره.

أبان كتاب(اللسان والميزان أو التّكوثر العقليّ) عن صورة النّظريّة لديه، والّذي يرى بأنّ الحجاج ينطلق من صفة الخطابة"إنّ الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجيَّة، بناء على أنَّه لا خطاب بغير حجاج"[١]، فيتبيّن أنَّ الأساس في تكوثر الخطاب عنده ينبني على الصّفة الحجاجيَّة، وأربع قصديّات: قصديَّة التّوجّه إلى الآخر، وقصد إفهامه، وقصد الإدّعاء، وقصد الاعتراض، وسنبيّن بشكل مقتضب ماهيَّة الادعاء والاعتراض في الخطاب فيما يأتي:

أ.قصد الإدّعاء: ومقتضاه أنّ المنطوق به لا يكون خطابًا حقًّا حتّى يحصل "الاعتقاد الصّريح للخطاب لما يقول من نفسه وتمام الاستعداد لإقامة الدّليل عليه عند الضّرورة، إذن فالمدّعي هو عبارة عن المخاطب الّذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله"[٢]، وهذا يجري مجرى الاستدلال الأرسطيّ القائم على البنية شبه المنطقيّة ذات الأبعاد الاحتماليّة.

---

[١] اللسان والميزان والتكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،ط ١ ،١٩٩٨م: ٢١٣.
[٢] اللسان والميزان والتكوثر العقلي: ص٢٢٥.

ب.قصد الاعتراض: ويقتضي أن يكون الخطاب قابل للمطالبة بالدّليل على حقائقه، وهذا حقّ للمتلقي ينبغي أن يمتلكه لطلب البرهان والحجّة، وبهذين القصدين ستتيح للحجاج مساحة كبيرة في الخطاب"فالحجاج كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليه"(١)، ويطلق عليه تسمية العلاقة الاستدلاليّة الّتي تبني حقيقة الخطاب، ويضيف طه عبد الرّحمن إلى هذا تصنيفًا للحجاج مقسّمًا إيّاه على ثلاثة:

١-الحِجاج التّجريديّ: ويعني به ترتيب صور العبارة بغض النّظر عن المضمون والمقام.

٢-الحِجاج التّوجيهيّ: وهو إقامة الدّليل على دعوى الخطاب بالبناء على فعل التّوجيه الّذي يقوم به المستدلّ بغية إيصال الحجّة إلى الآخر، وهذا النّوع الحجاجيّ يقترب ويرتكز على نظريَّة أفعال الكلام التي تنبع من القصد والفعل وهما عماد التّوجيه.

٣-الحِجاج التّقويميّ: هو الإثبات للدّعوى بالاستناد إلى قدرة المستدلّ على أن يجرّد نفسه شخصيَّة ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه، أو ما يسمّى بالتّشخيص؛ أي ينبني أصلًا على عدّ الفعل، فعل الإلقاء وفعل التّلقي معًا على سبيل الجمع والاستلزام، أي بمعنى أنَّه يتعدّى إلى النّظر في فعل التّلقي؛ إذ يجعل من نفسه أوّل متلقٍ لما يلقي، ويبني أدلّته على ضوء هذا، ويستحضر الاستفسارات

---

(١) اللسان والميزان والتكوثر العقلي: ٢٢٦.

*التكوثر:كلّ تكوثر تكاثر وليس العكس، والتكوثر فعل عقلي؛ أي لا يتكوثر الّا العقل، وهو فعل قصدي، فلا يتكوثر إلّا الفعل القاصد الفاعلية والمقصديّة، فلا يتكوثر إلّا الفعل النافع وتتجلّى القصديّة في طلب المنفعة.

والاعتراضات الّتي قد ترد من الآخر بهدف الإجابة عنها بشكل مقنع[1]، ويقترب في هذه الصّورة من صورة الشّاعر النّاقد في الأدب العربيّ القديم.

أشار طه عبد الرّحمن إلى تحلّي الحجاج بصفة الحواريّة والتّداوليّة من حيث أنّه فعاليّة حواريّة جدليّة، فهو يتّخذ الطّابع الفكريّ المقاميّ والاجتماعيّ، فيراعي مقتضيات الحال بالتّضافر مع معارف مشتركة ومطالب إخباريّة وظرفيّة، إذ إنّ البعد الإقناعيّ يلتزم الصّور الاستدلاليّة الّتي تبتعد عن البرهانيّة الضّيّقة، فالمناظرة تكوّن الصّورة الحقيقيّة للحجاج الفلسفيّ التّداوليّ؛ لأنَّه ينهض على حواريّة مبنيّة على عرض الحقائق والآراء أو الاعتراض عليها، والمقصديَّة الإقناعيَّة للآخر بصوابها أو إبطالها، ولهذا يرى عبد الرّحمن أنَّ كلَّ خطاب استدلاليّ يقوم على المقابلة والمفاعلة الموجّهة يسمى مناظرة[2]، وهذه قراءة موجزة لنظريَّة (بيرلمان) في تحليل الخطاب.

## الحجاج عند عبدالله صولة:

لا مراء أنَّ صولة من روّاد التّصنيف الحجاجيّ في كتابيه (الحجاج في القرآن)، و(في نظريّة الحجاج)، وكذلك مجموعة من الأبحاث المنشورة، تعرّض فيها لكبرى النّظريَّات في الفكر الغربيّ الحديث، ولاسيَّما عند (بيرلمان) و(ديكرو)، وقد أفاد من طروحاتهما وسلّط الضّوء على جهودهم ليبني لنفسه خطًّا حجاجيًّا في دراسة النّصّ القرآنيّ منطلقًا من فكرة أنّ القرآن خطاب، وكونه خطابًا يقتضي أن ينتهي إلى التّأثير والإقناع[3]، ويرى صولة أنّ الحجاج يمثل قاسمًا مشتركًا بين الجدل

---

(1) اللسان والميزان والتكوثر العقلي: ٢٢٧-٢٢٨.

(2) ينظر:في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، الدارالبيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م: ٥٧.

(3) ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة: ٤٠-٤١.

والخطابة، وأنّ الحجاج أوسع من الجدل، ويشير إلى وجود حجاجين: جدليّ وخطابيّ[1]، وحاول الرّبط بين بلاغة الأسلوب والجماليّات وبلاغة الحجاج بهدف استدراج المتلقّي إلى التّسليم والإذعان.

## الحجاج عند محمّد العمريّ:

قامت جهود العمريّ الحجاجيَّة في كتابه(في بلاغة الخطاب الإقناعيّ- مدخل نظريّ وتطبيقيّ لدراسة الخطابة العربيَّة) نقّب فيه عن سمات الخطابة العربيّة في القرن الأوَّل الهجريّ، معتمدًا على الأسس الأرسطيَّة لبلاغة الخطاب في الحجج والبراهين على وجه الخصوص، وبتسميات نسبة إلى أصولها البلاغيّة العربيَّة، واعتنى بالمقامات الخطابيَّة المختلفة (الدّينيَّة، والسّياسيَّة، والاجتماعيَّة)[2]، وقد قسَّم صور الحجاج على ثلاثة أقسام:

١-القياس القائم على الاحتمالات، ومن أدواته التّعارض والتّضاد والاستقصاء.

٢-المثل: قائم على مشابهة بين حالتين متشابهتين بالمقدّمات، وبالنّهاية ينتظر لها أن تكون إحداهما مشابهة للأخرى.

٣-الشّاهد: ويجمع الشّواهد القرآنيَّة والأدبيَّة شعرًا ونثرًا لما فيها من قوة ضاغطة، وسلطة تحقّق الإقناع[3]، ويتّضح من هذا أنَّ العمريّ أفاد كثيرًا من أدوات الفكر الأرسطيّ في تحليل الخطاب، ولكنّ ذلك لا يعني بالضّرورة أنّه تجرّد من النّزعة البلاغيَّة العربيَّة، فقد قدَّم رؤى جديدة لفنون البيان العربيّ، وهذا واضح في كتابه المذكور أعلاه.

---

(1) ينظر:المصدر نفسه: ١٧.

(2)ينظر:في بلاغة الخطاب الإقناعي(مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م: ٤٠-٥٠.

(3) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعيّ: ٩٤.

بعد هذه الرّحلة في قراءة تعريفات الحِجاج عند الغربيين، والعلماء العرب القدماء والمحدثين، نستنبط أنَّ الحجاج هو ذلك الخطاب القائم على الصّدع بالحجج على وفق إحدى تقانات الحجاج بهدف حمل المتلقّي على اعتناق فكرة ما، أو تعزيز حضورها في ذهنه، أو دحضها وتفنيدها، فضلًا عن وظيفة قمع حجّة الآخر بحجّة أدمغ، وردّ دليله بدليل أسطع، لدفعه نحو الإذعان والتّسليم لخطاب المتكلّم.

أمّا جديد (بيرلمان) في بعثه لبلاغة (أرسطو)، يُحسب له أنَّه جعل العمليّة الخطابيَّة ديمقراطيَّة على الإطلاق بوصفه بديلًا عن لغة العنف والإرهاب، أو الإرغام، فقد أنقذ البلاغة من قيود المنطق الصّارم، وأعطى أهمّيّة كبرى للمخاطَب، والتّشديد على منزلته في بناء الخطاب الحجاجيّ وتقدّمه خطوة خطوة، فضلًا عن الوعي بوضعه الوجدانيّ والذّهنيّ، والعناية بمراعاة ظروف الخطاب، واختيار الحجج وتقديمها على نحو مقبول ومؤثّر ومحاجّته عقليًّا وفكريًّا.

فإذا كان (أرسطو) يعطي أهمّيَّة كبرى للتّأثير (الباتوس) والإقناع معًا، فإنّ (بيرلمان) عُنيَ بالاقتناع، فالإقناع يأتي من تأثير الآخر على المتلقّي فيحمله على الإذعان ويخصّ ذلك الجمهور(الخاصّ)، أمّا الاقتناع فهو اختياريّ وإراديّ، فيأتي من ذات أفكار المخاطَبين ويخصّ ذلك الجمهور العامّ(الكونيّ)، وأنّ بلاغة (بيرلمان) الحجاجيَّة قائمة على التّوصيف، والتّحليل، والتّقويم، ورصد مختلف آليّات الخطاب وتقاناته، فضلًا عن دفاعه عن مكانة المخاطَب، والتّشديد على الاقتناع، وتفادي الخطاب الجدليّ إلى خطابات عامّة كالفلسفة، والقانون، والقضاء، والسّياسة، والأدب...الخ، وقد جمع (بيرلمان) بين الاقتناع والإقناع والتّأثير العاطفيّ كذلك بعيدًا عن البرهان المنطقيّ، والبلاغة الجماليَّة والزّخرفيَّة.

## الخطابة في الثّقافة العربيّة من العصر الجاهليّ إلى نهاية العصر الإسلاميّ.

### الخطابة في العصر الجاهليّ:

إنَّ مفهوم الخطابة اللغويّ في أغلب المعجمات العربيَّة فنٌّ أدبيٌّ قديمٌ يتّجه نحو دلالة الأمر الجليل لمناسبة وقوعها في أحداث خطيرة ومهمّة، تستوجب حضور هذا الفنّ كأداة للمفاعلة والمشاورة والمحاورة[1]، وهي أحد أجناس التّراث الأدبيّ العربيّ، ويذهب العسكريّ(٣٩٥هـ) إلى أنَّها مدار الدّين والدّنيا والسّلطان[2]، وعلى الرّغم من إشارة صاحب اللسان إلى أنّ الخطبة عند العرب الكلام المسجوع، إلّا أنّ هذا التّعريف قد يصحّ على خطب العصر الجاهليّ بوصفه طابعًا عامًّا، ولا يصحّ على ما تلاه في العصرين الإسلاميّ والأمويّ اللذين شهدا تحرّر الخطبة من قيود السّجع، ولكن هذا لا يعني أن الخطبة الجاهليَّة قد خلت من نماذج متجرّدة من السّجع في بنائها الأسلوبيّ، ويرى الزّمخشريّ(٥٣٨ هـ) بأن الخطابة مواجهة بالكلام، فالخطاب قائم بين متكلّم ومستمع ومن هنا أُشتقّ مفهوم الخطبة[3]، فهي فنّ مشافهة الجمهور لاستمالتهم وإقناعهم، أو تهييج نفوسهم نحو ما يُقال، وهذا ما يؤيّد لنا البعد الحواريّ والتّداوليّ للخطابة العربيّة؛ فهي مشتقّة من الخطب والمخاطبة، بوصفهما أمران مسموعان، وتتمّ من خلال آليّات التّواصل الّتي تقتضي وجود خطيب: مرسل، وجمهور متلقٍّ، ورسالة القول[4].

---

(1) ينظر:لسان العرب:(مادة خطب).

(2) ينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦ :١٤٠.

(3) ينظر:أساس البلاغة، جار الله محمود الزمخشري، تحقيق مركز عفيف للتراث، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ، ج١: ٢٣٩.

(4) ينظر: جذور نظرية الأجناس الأدبية في النّقد العربيّ القديم: ٩٢.

لعلّنا لا نرغب بأن نخوض كثيرًا في المفهوم اللغويّ والاصطلاحيّ للخطابة بقدر رغبتنا في تسليط الضّوء على مكانتها في الثّقافة العربيّة ونسيجها الاجتماعيّ منذ العصر الجاهليّ وصولًا إلى العصر الأمويّ، الّذي يُعدّ العصر الذّهبيّ للخطابة لما تهيّأت لها من عوامل الازدهار والتّطور، فقد تكفّلت المعجمات العربيَّة في بيان المعنى اللغويّ للخطابة.

لا ريب أنَّ الشّكوك قد حامت حول صحّة ما نُسب إلى العصر الجاهليّ من الخطب أمرٌ دار حوله الكثير من الخلافات، ولاسيّما من الباحثين العرب المحدثين، الّذين رأوا أنّ العرب لم تكن تعرف هذا الفنّ الأدبيّ قبل الإسلام ، وهذا الرّأي قد لا يصمد أمام المنطق؛ فالمجتمع العربيّ بطبيعته لا يختلف كثيرًا عن بقيّة المجتمعات الأخرى من حيث كونه جماعات إنسانيّة يتحتّم وقوع خلاف، أو صراع، أو محاورة، أو جدال بين أفرادها، وكلّ هذه الأمور تدفع تلك الجماعات إلى التّوسّل بالفنّ الخطابيّ بوصفه وسيلة للإقناع والانتصار لرأي الخطيب، بعد أن نقلت لنا كتب التّاريخ صورًا مهمّة أسهمت بشكل كبير في نضوج الخطابة في العصر الجاهليّ، ولعلّ أهمّها أبواق الحرب والسّلم، والصّراعات القبليّة، والمفاخرات والمنافرات ، ومجالس السّمر والعبث، والحركة التجاريَّة الكبيرة في البلدان العربيَّة، فضلًا عن تباري الخطباء في القصور والبلاطات، وهذا كلّه من شأنه أن يدفع الخطابة إلى الرّقي والتّطوّر إلى الحدّ الّذي وصلت فيه مكانة الخطيب فوق مكانة الشّاعر كما يرى أبو عمرو بن العلاء(١٥٤هـ)[١]، فصارت لديهم وسيلة للتّحريض والأخذ بالثّأر، والإصلاح الاجتماعيّ، وللتّعبير عن التّهنئة والتّعزية، والوعظ والإرشاد، كما أنّها باتت أداة للإغواء والمناورة لاسيّما عند الكهّان، وهذا

(١) ينظر:البيان والتبيين: ٢٤١.

ما يدحض أسطورة بعض المحدثين المؤمنة بغياب الخطابة عن العصر الجاهليّ.

ويعتقد الدّكتور شوقي ضيف أنَّ بعد المسافة بين تلك الخطب وبين تدوينها لا يعدّ مبرّرًا لإنكار ما وصل إلينا من صحيح الخطب، وإن كان علينا أن نحترس من بعض ما ورد من تلك الخطب، وهذا لا يؤدّي بنا إلى أنّنا ننكر ازدهارها كما حاول بعض الباحثين، حتّى أنّ الجاحظ يؤمن بأنّ "كلّ شيء للعرب فإنّما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، فما هو إلّا أن يصرف همّه إلى جملة المذهب والى العمود الّذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالًا وتنثال عليه الألفاظ انثيالًا،...وكان الكلام الجيد عندهم أكثر وأظهر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكلّ واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر، من غير تكلّف ولا قصد ولا تحفّظ ولا طلب"[١]،"فلا مراء أنَّ خطب العرب في عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلّى فيها ما حباهم الله من ذلاقة اللسان، وعذوبة البيان، ومعرض يتمثّل فيه نتاج قرائحهم، وثمرات ألبابهم في كثير من مناحي القول، وإنّها لتعدّ -بعد القرآن الكريم –والحديث الشّريف مثالًا ساميًا للبلاغة العربيّة، وأنموذجًا قويمًا يحتذيه المتأدّب في تقويم قلمه المعوّج، وشحذ لسانه الكليل، وهي فوق ذلك معين فيّاض يستقي منه مؤرّخ الأدب العربيّ ما يعنّ له من آراء"[٢]، ولهذا نؤمن أن الخطابة عريقة وقديمة عراقة الوجود الإنسانيّ على الأرض، فقد عرفتها الأمم الأخرى، والقرون الخاليّة منذ فجر ظهور الحضارة البشريّة، ولم يخلُ منها تاريخ أمّة وماضيها، فقد حفظها خطّ آشور المسماريّ، وقيّدها خطّ الفراعنة الهيروغليفيّ،

---

[١] تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، ٢٠٠٣م: ٤١٠.

[٢] جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، أحمد زكي صفوت، بيروت- لبنان ، ط١ ، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ج١ : ص ج.

ورواها تاريخ اليونان الأدبيّ والسّياسيّ والفلسفيّ منذ القرن السّابع قبل الميلاد، وبها أخضع بوذا الجموع الهنديَّة لتعاليمه وطقوسه، وبها أذاع الدّين والهدى أنبياء بني إسرائيل، وكان لها حظوة كبيرة ومكانة عظيمة في مجامع العرب قبل الإسلام وفي محافلهم الأدبيّة بشكل خاصّ[1]، فلا نعرف لماذا ينكر طائفة من العرب الخطابة في تاريخهم وتراثهم! ما دام قد عرفتها حضارات البشريَّة جمعاء، ولاسيَّما بعد أن علمنا أنَّها وسيلة التّواصل والحوار الفكريّ والمعرفيّ والدّينيّ بين أبناء الأمّة الواحدة، فهل يُعقل أن تكون حاضرة في تاريخ الأمم الأخرى دون العرب، أم أنَّها كانت مقتصرة على تلك الأمم ؟!، هذا أمر فيه تطرّف وتحامل من غير مبرّرات علميَّة مقبولة، فشأن العرب مع فنّ الخطابة عظيم، واعتناؤهم بها كبير، وتاريخ خطابتهم غزير، وكما أسلفنا أنَّ البيئة الصّحراويَّة القبليَّة التي عاش فيها الإنسان العربيّ ساعدت على نشأة هذا الفنّ وتطوّره وازدهاره، فأصبح الخطيب يمثّل الواجهة الإعلاميَّة للقبيلة، ولا فخر يضاهي فخر خطيب القبيلة وشاعرها آنذاك، فهو سيفها الصارم الّذي يذود عن عرضها، وحكيمها العادل، وليثها الباسل، ولسانها الناطق، الّذي تهتزّ له النّفوس، وتصغي له القلوب، فهذا أكثم بن صيفي أحكم بني تميم، وقس بن ساعدة من أقوى أهل الفكر في قومه وأكبرهم، وكعب بن لؤي كان شيخ كنانة في عصره، وعبد المطّلب بن هاشم كان زعيم ورئيس قريش وأنبلها [2]، وغيرهم الكثير.

فنرى أنَّ الأمّيّة العربيَّة قبل عصر الدّعوة الإسلاميّة كانت غالبة على أبناء المجتمع العربيّ في العصر الجاهليّ، فلم يكن الكثير من العرب يعرف القراءة

[1] ينظر: الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع ، د.محمد صافي المستغانمي، دار ابن كثير ،ط١،٢٠١٧ : ١٢-١٣.
[2]ينظر: الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع :٢٥.

والكتابة، فباتت الخطابة الوسيلة الأهمّ في التّواصل بين قبائل العرب، يستعملها أبناؤها في التّعبير عن آرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم، والبيان عن مفاخرهم، وحلّ نزاعاتهم، فتراهم يتوسّلون بها لإظهار أحاسيسهم وهمومهم وشجونهم، وشحن هممهم، والتّغنّي بانتصاراتهم، والإفصاح عن أمنياتهم وتطلّعاتهم.

## الخطابة في العصر الإسلاميّ:

لم يكن الإسلام مرحلة تحوّل دينيّ محض، بل كان نهضة علميَّة، وأدبيَّة، وسياسيَّة، وأخلاقيَّة، واجتماعيَّة في حدود ما يستطيعه العرب، فبزغت شمس الدّين الإسلاميّ، وسطعت آيات القرآن تهدي إلى الّتي هي أقوم، وتنير العقول إلى الّتي هي أحسن، فكان النّبيّ(ص)خطيبًا ومبشّرًا بشرائع الدّين الجديد، ونذيرًا لأمّ القرى ومن حولها، إذ تسلّح النّبيّ بالخطابة في الدّعوة، وتبليغ آيات التّنزيل، وجذب أنظار أهل البيت العتيق، وطرق أبواب قلوبهم؛ لتقبل نبأ الحقّ ونبذ عبادة الأوثان.

مع الوحي نهضت الخطابة، واشتدَّ عودها؛ إذ كانت الوسيلة الإعلاميَّة الكبرى لنشر تعاليم الإسلام، وهدم معتقدات الجاهليين، وتسفيه آلهتهم، ودحض أساطيرهم، فباتت للشّرع الإسلاميّ أقوى حليف، وأنفع نصير، إذ تغلغلت في مراسيمه، وغزت طقوسه ومحافله، فأثارت في قلوب السّامعين حماسة، وبنت في نفوسهم بسالة، فبرز خطباء إسلاميّون بتأييد النّبيّ(ص)، وتمكّنوا من تغيير النّظم الاجتماعيَّة الّتي كانت سائدة إبان العصر الجاهليّ، بأسلوب قوي ومتين ينبع من معين القرآن والنّبوّة، ودرج إلى حدٍّ ما في مدارج الحضارة الجديدة الّتي أسّسها الإسلام[١].

---

[١] ينظر:النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك، دار الكاتب العربي، القاهرة:ج١ :٦٦.

كان النّبيّ(ص) في طليعة هؤلاء الخطباء، وعلم الخطابة الأوَّل، والصّورة المثلى في البلاغة والبيان، الّذي اقتفى أثره بعد وفاته اللاحقون من الخلفاء والولاة و خطباء الأحزاب، ولا يخفى أنَّ اندلاع الفتن بين المسلمين بعد النّبيّ: فتن التّحزّب والاختلاف والانقسام؛ أسهم بتطوّر هذا الفنّ في المجتمع الإسلاميّ، وباتت أوَّل مظهر من مظاهر التّنافس الشّديد الّذي قام بسبب الخلافة، فقد كان لكلِّ حزب من المهاجرين والأنصار طائفة من الخطباء يدعون لفريقهم سرًّا وعلانيّة وجدالًا في المجالس والمساجد والأسواق[1]، فضلًا عن الخلافات والفتن الّتي كادت أن تعصف بالدين الإسلاميّ في زمن الخلفاء الرّاشدين، والّتي كان للخطابة فيها حضور كبير، راح الخطباء يدفعون عن الإسلام شرّ تلك العواصف وخرابها، ودرء مخاطرها، ولعلّ أهمّ تلك الفتن وقعت في خلافة الإمام عليّ(ع)، والّتي كانت بمنزلة ميلاد الخطابة الحجاجيَّة لتعدّد أحزابها وأصواتها، وبلاغة حجّتها، وسطوع براهينها، إلّا أنَّنا لا ننسى حروب التّحرير والفتوحات الإسلاميَّة الّتي أُلقيت فيها خطب كثيرة تحثّ على الجهاد لتحرير العراق وبلاد الشّام وسائر بلاد العرب من الفرس والرّوم[2]، وبذلك تكون الخطابة العربيَّة قد تكامل غرسها، ونضجت ثمارها، في عصر صدر الإسلام والخلفاء الرّاشدين؛ لتأتي بصورة مثاليّة في العصر الأمويّ؛ لتكون منافسًا صعبًا للشّعر في التّعبير عن التّحوّلات الاجتماعيَّة، والفكريَّة، والسّياسيَّة.

---

(1) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع : ٦٦.
(2) ينظر: تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢٠، ٢٠٠٢ : ١٠٦-١٠٧.

وحريٌّ بنا أن نشير إلى توظيفنا الحوارات والمناظرات الواقعة بين طرفين بوصفها نوعًا من أنواع الخطب للكشف عن آليّات الحِجاج وتقاناته، وسوّغنا ذلك لحضور جميع عناصر الخطابة من مرسلٍ ومتلقٍ، وخطاب وجمهور حين وقوع تلك السّجالات والمناوشات الكلاميَّة الّتي تستهدف إقناع الخصم وإذعانه، فضلًا عن إقناع ذلك الجمهور بدعوى الخطاب.

# الفصل الأوَّل

## روافد الحِجاج في ضوء بلاغة الخطابة
## توطئة

- المبحث الأوّلَ: وسائل التّأثير في الخطابة.
- المبحث الثَّاني: أساليب الحِجاج في الخطابة.
- المبحث الثّالث: منطلقات الحِجاج.

## توطئـــــــة

للخطبة بناؤها الفنّيّ الخاصّ، وسمات تميّزها عن بقيّة الفنون الأدبيّة الأخرى، فلا شكّ في أنّها تقوم على أركان ثابتة، وأسس صلبة من حيث الأسلوب والإبانة، فالمتلقّون كلّهم ما كانوا ليشعروا بذلك الشدّ والانجرار تجاه الخطيب ما لم تكن مبنيّة على وفق نظام فنّيّ، وبلاغيّ، وحجاجيّ، يكون أكثر سطوة، واستساغة لدى جمهوره، ولذلك كان لزامًا على الخطيب أن يراعي في خطبته ما يثير استجابة الجمهور، ويلفت نظرهم وانتباههم، مع مراعاة مقامهم، وأحوالهم، ورغباتهم، متّكئًا على خطّة يهتدي بها، وبداية ينطلق منها نحو مقاصد واضحة، وهدف مرسوم.

فالتّرابط بين المستويات الفكريّة، واللغويّة، والبلاغيّة يعدّ العمود الأساس في بناء أيّ عمل أدبيّ، فالرّوافد الحجاجيّة التي يستند إليها الخطيب، بقصد تسديد خطابه الحجاجيّ نحو صوب معيّن تمكّنه من تحقيق أهدافه المبتغاة؛ لذا تعدّ هذه الرّوافد ذات أهمّيّة كبيرة في الفكر الحجاجيّ التّداوليّ، بوصفها آليّات ومفاهيم مكونة للبنية الحجاجيّة في طيّات النّصّ، التي تحمل أسرارًا معرفيّة تصديقيّة أكثر فاعليّة في تقنين الخطاب الحجاجيّ، لاسيّما في مدوّنات الخطب، لذا فهي ذات منظور تيقينيّ إذعانيّ، يستهدف المتلقّين.

ويرى الدّكتور محمّد مشبال أنّ بلاغة الحجاج اتّجهت منذ بداياتها الأولى مع اليونان إلى دراسة الخطاب في وظيفته ونفوذه؛ أي دراسة الكلام الّذي ينتجه الخطيب في مقام تواصليّ محدّد، لا لكي يعبّر عن ذاته أو عن العالم الّذي يعيش فيه، ولكن ليؤثّر في المخاطب ويحقّق لديه نقطة تحوّل وتغيير لرؤيته، واعتقاده، ويحمله على الفعل؛ ولن يتأتّى له ذلك من دون حشد كلّ الوسائل التي يتيحها له فعل

التّلقّظ بمكوناته المتمثّلة في: المتكلّم والخطاب والمخاطَب[1]؛ وعلى هذا النّحو يعمل المتكلّم فعل التّواصل على استغلال ظهوره بمظهر يجلب له ثقة السّامعين تمهيدًا لكسب ثقتهم، وتسليمهم بفحوى قوله، فضلًا عن تحريك أهوائهم للتحكّم في إرادتهم وتوجيهها، بالاستناد إلى رصف مجموعة من الحجج الّتي يقوم عليها الخطاب لصناعة الإقناع.

ومن هذا التّوجّه نجد أنّ الرّوافد البلاغيّة تشكّل اللبنة الأساس في بناء الخطاب الحجاجيّ، فلا مناص للحجاج من البلاغة؛ لأنّها لم تعد ضيّقة كما يذهب (جيرار جينيت) بوصفها آليّة ذات وظيفة إقناعيّة، ووسيلة تعمل على تحقيق الحضور والتّأثير في السّامعين استناداً إلى عمليّتين متداخلتين على وفق نظرية (بيرلمان): الاختيار والتقديم؛ اختيار العناصر المتّفق عليها بين الخطيب والمخاطب بعناية ورؤية إستراتيجيّة(مسلّمات الحجاج) [2]، وتقديمها بصورة تسهم في تقوية حضورها والزيادة في سلطتها وسطوتها، بحيث تكون الوسائل والآليّات البلاغيّة والتقانات الحجاجيّة أهمّ ملامح سلسلتها الكلاميّة، ولهذا سنسلّط الضّوء على أهمّ تلك الوسائل البلاغيّة الحجاجيّة في الخطب في ضمن هذا الفصل، وفي ذهننا أنّ البلاغة في ثوبها الحجاجيّ خرجت من نطاق الجمل المحض لتدخل في رداء الإقناع، والتّحاور، ومسك الحجج.

---

[1] ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٩.
[2]ينظر:المصدر نفسه: ٢٠.

# المبحث الأوَّل
# وسائل التّأثير في الخطابة.

وهي وسائل لها علاقة في تلقي الخطبة، وبناء نصّها، واكتمال رؤيتها بوساطة مجموعة من الإجراءات الّتي لها سلطة في حبك الخطبة، وانفتاح دلالاتها:-

## أ-مراعاة المقام ومقتضى الحال:

عرّف النّقاد والبلاغيّون العرب القدماء البلاغة بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وتحدّثوا كثيرًا عن المقام ومقتضيات الحال، وأولوه عناية كبيرة، فيذهب الجاحظ إلى أنّ الخطيب ينبغي له أن يلزم هذا الأمر: "إنّما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقامٍ من مقال"[1]، وما ذلك إلّا لتعزيز المواقف والمعتقدات الّتي يريد لها التّوغّل في نفوس المتلقين، فنفهم أنّ العرب جعلت المقام الرّابط المهمّ بين نوع الخطاب وصورته وبين حال المخاطب، فيقتضي من الخطيب المفوّه أن يعتني بمقامات السّامعين، وأحوال المخاطبين، وإلّا وقع في منزلق كبير يؤدّي به إلى اللغط والسّفسطة دون جدوى، إذ ينبغي له أن يكلّمهم على قدر عقولهم ومداركهم ومنازلهم؛ لأنّ الأمر يرتكز على إفهام كلّ قومٍ بقدر طاقتهم، والحمل على منازلهم، فلا يخاطب الملوك مخاطبة العامّة؛ ولا السّوقة بكلام الخاصّة، وإذا أحسن وأتقن وأجاد ذلك يعني بلوغه أعلى مراتب البلاغة.

---

[1] البيان والتبيين:١٣٦.

ويمكن القول أنّ إشكاليّة المقام من وجهة نظر حجاجيّة تُعنى بمراعاة المقام وشحنه بالطّاقة الحجاجيّة اللازمة للإقناع، بل إنّ ضرورة الانتباه إلى مقتضى الحال، ومقام السّامعين لا غنى للخطيب عنه متى رام الفعل في الآخر، وأراد حمله على الإذعان لسلوك أو موقف معيّن[١]، فمن الخطأ الجسيم أن نغفل حضور المتلقّي في ذهن الخطيب في كلّ جزء من أجزاء الخطبة؛ لأنّه سيؤدّي بالنّهاية إلى خفوت الطّاقة الحجاجيّة للخطاب، وإخفاقه في التّأثير، وكان (أرسطو) قد تحدّث عن ذلك، إذ أشار إلى أثر المقام والحال في كلامه عن حجة (اللوجوس)، الّتي تُعنى بالكلام نفسه من حيث أنّه يقنع بالحقيقة المراد إثباتها بواسطة إيراد حجج مقنعة، وهذا الكلام وهذه الحجج الواردة تتعهّد أن تتناسب وتنسجم مع الحال المطلوبة[٢]، ويبدو أنّ هذا التّشديد في فرض التّعهّد على العناية بالمقام في الخطابة على وجه الخصوص يأتي من مسوّغات في غاية الخطورة، فالمتلقي ينبغي أن تكون له علاقة قويّة مع النّصّ بوساطة الفهم المباشر؛ لأنّه نصّ ينعدم ويموت مباشرة بعد الإلقاء فلا سبيل إلى مراجعته ولا سبيل لمعاودة النّظر فيه؛ لأنّه شفويّ يُستهلك استهلاكًا آنيًّا مباشرًا[٣]، ولذلك نجد ضرورة قصوى في الإحاطة بشأن مكانة المقام ومقتضيات الأحوال، ومواءمة الخطاب لطبقات السّامعين وأقدارهم، ومنازلهم الفكريّة، والعقليّة، لأجل انجاز التّيقين، والتّصديق في عقولهم وقلوبهم، إذ عدّها (بيرلمان) حمولات فكريّة تؤسّس المنطلق الأوّليّ في العمليّة الحجاجيّة[٤]، ومن

---

[١] ينظر:الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه): ٩٠.

[٢] ينظر: البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة(الحجاج)، د.عبدالله صولة:بحث: ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيلي علوي، ج١ :٣٠.

[٣] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٨٩.

[٤] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج (الخطابة الجديدة) لبيرلمان وتيتكا، عبدالله صولة: ٣٠٨، (بحث) ضمن:أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود.

ذلك يتّجه الخطيب نحو الاستدلال على قضيّة معيّنة، أو رأي محدّد للحصول على تسليم الجمهور وقبول أفكاره بأساليب مختلفة، وقد حرص خطباء العصر الأمويّ على استعمال الإيجاز في مقامه المناسب، والإطناب في الموضع الملائم، فلا يستعمل هذا بدلًا من ذلك، فذلك سيؤثر سلبًا على بلوغ المراد، وصناعة الإذعان.

وتبقى الخطبة صورة حيّة لنفس قائلها، ومرآة عاكسة لروحه، فيكون لزامًا عليه أن يفي كلّ مقامٍ حقّه من التّعبير؛ لأنّه يُستحسن أن يتخيّر ألفاظ خطبته، ويجعلها تناسب المقام التّخاطبيّ الّذي يعيشه، والموضوع الّذي يروم خوض غمار شرحه وبيانه، ولهذا كان هناك تفاوت أسلوبيّ في خطب العصر الأمويّ بين القوّة والجزالة، والفخامة والرّقّة واللين، ويعود هذا عادةً إلى طبيعة المقام، فإذا كان وعظيًّا دينيًّا، يرغب الخطيب من ورائه التّأثير في جمهوره واستمالته؛ فيُستحسن أن يلجأ إلى الكلمات الليّنة الّتي تمسّ شغاف القلوب وسويداءها، وخلاف ذلك إذا كان المقام يتعلّق بأمر سياسيّ أو توجيه دينيّ فقهيّ يكون فيه من التّعظيم والتّفخيم ومحاججة الخصوم[1]، لذا تكون ألفاظ الخطبة متأثرة إلى حدّ كبير جدًا بالمقام والموضوع، وتتناسب معه قوّة وضعفًا، ورقة وسلاسة، وعذوبةً، وخشونةً، وغرابةً وفخامةً، وتخضع خضوعًا تامًّا للمقولة النّقديّة الحصيفة: لكلّ مقامٍ مقال.

حرص خطباء العصر الأمويّ على هذا الرّكن العتيد في بناء خطبهم السّياسيّة والدّينيّة والوعظيّة، ووصلوا إلى مستوى الحذق الفنّي لاسيّما أنّهم كانوا من البلغاء الأفذاذ، وأمراء البيان، وهذا ما نجده في خطب كثيرة، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(٥٠هـ) الوعظيّة الّتي يقول فيها:**"اعلموا أنّ الحلم زين، والوقار مودّة، والصّلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسّفه ضعف، والقلق**

---

[1] ينظر:الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع: ٦١.

**ورطة، ومجالسة أهل الدّناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة"[١].**

لقد بدأ الإمام خطبته باستلزام أمريّ أفاد النّصح، وبصورة مباشرة دون استهلال وتقديم، أنجز به وظيفة إستراتيجيّة في ضمن العمل التّواصليّ بضربة تنبيه يتطلّبها المقام، والرّغبة في تحقيق مقاصد الخطاب، ليحكم التّأثير في المتلقّين، بصورة عبارات موجزة قصيرة حثّت على التّحلّي بقيم سلوكيّة وأخلاقيّة، تدعو إلى مبادئ إيمانيّة تنقل السّامعين لجوّ وعظيّ جليل، وإنتاج الفعل المحمود، وتجنّب ما هو مذموم من تلك السّلوكيّات، ويرجع سرّ عنصر الاختيار لهذه العبارات والألفاظ المشحونة بالإيجاز، والاعتدال، والإبانة مراعاةً للمقام الّذي هو فيه، فمنحها شحنة حجاجيّة بلاغيّة نافذة؛ لأنّها جاءت بصياغة توائم أحوال الجمهور، وجوّهم النّفسيّ، ليضمن حصول التّأثير والإذعان والاقتناع، يقول القرطاجنّي:"وكلّما وردت أنواع الشّيء مترتّبة على نظام متشاكل، وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجيب النّفس وإيلاعها بالاستماع من الشّيء، ووقع منها الموقع الّذي ترتاح له"[٢]، فالإمام بذلك ظهر بمقام الواعظ الحكيم، ممّا دفعه إلى إيراد أقوال حملت دلالة الأمر والنّهي ، ولهذا جاءت بأسلوب موجز واضح يتّسم باللين والرّفق والرّقّة، فلا يكفي أن تكون الأدلّة مقنعة ما لم تُقدم بسياق أسلوبيّ مقنع يجوّز تلك النّتائج، فيضع (أرسطو) المقام في المرتبة الثّانية بعد البراهين والحجج ممّا يبرّز نجاعته وقوّته الحجاجيّة في الخطاب، فهو وثيق الصّلة بوقوع عمليّة الإقناع، أو الاقتناع وسلب المشاعر، إمّا بالمحاكاة وإمّا بالتّعبير المباشر ممّا لا محاكاة فيه[٣]،ويؤدّي هذا البناء الحجاجيّ إلى

---

[١] جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلميّة، بيروت-لبنان ،ج٢ :١٨.

[٢] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق:محمد الحبيب بلخوجة، طبعة دار الكتب الشرقية ، تونس: ٢٤٥.

[٣] ينظر:النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧ :١١٣.

سرعة الاستجابة من المتلقين، والإذعان لما أمرهم به، ونهاهم عنه، لحصول الانسجام بين الأسلوب، والنّتائج وبين طبيعة المقام والموضوع، فحقّق المبتغى لأنّه جاء بالخطبة كما ينبغي ، فحرّك مشاعرهم، وسطا على عقولهم، فهو قام بالتّركيز على أهواء المخاطبين وربط الحجاج بهم بعد استثارتهم واستهوائهم.

ومن تلك الخطب خطبة معاوية(٦٠هـ) بالمدينة سنة ٤١هـ فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: **"وأمّا بعد، فإنّي والله ما ولّيتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرّة بولايتي، ولكنّي جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفارًا شديدًا، وأردتها على سُنيّات عثمان، فأبت عليّ. فسلكت بها طريقًا لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإنّي خيركم ولايةً، والله لا أحمل السّيف على من لا سيف له، وإن لم يكن إلّا ما يستشفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقّكم كلّه فأقبلوا منّي بعضه، فإن أتاكم منّي خير فاقبلوه، فإنّ السّيل إذا جاد يثري، وإذا قلّ أغنى، وإيّاكم والفتنة، فإنّها تفسد المعيشة، وتكدِّر النّعمة"**[1].

لا يخفى على القارئ أنّ معاوية في خطبته السّياسيّة رام إثبات أحقيَّته بالخلافة، وكاشف أهل المدينة بأنّهم لم يختاروه حاكمًا، ولكنّه قهرهم على ذلك؛ فأنفسهم لم تكن تطيب له أبدًا، وكما يبدو قد تباينت ألفاظه، فبدأت بلغة تهديد شديد وانتهت بلين، وسلك منهجًا حجاجيًّا ناسب المقام والمقاصد المنشودة من الخطبة، فالتّعنيف جاء ملائمًا مع بعض السّامعين، الّذي انطوى على دفاع عن النّفس بشكلٍ إيحائيّ،

[1] أدب السياسة في العصر الأموي، د.أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت-لبنان: ٢٨٥-٢٨٦.

عمد فيه إلى مفردات جزلة ذات صبغة عدائيّة موائمة لمقام الجمهور، ومنسجمة مع دعواه بالأحقّيّة مع غلق المجال لدعوى مناقضة قد تبدر من الجمهور بوصفه الأصلح لولايتها وإن لم يكن خير النّاس، فحكمه خير من حكم غيره، فيظهر الإقناع بصورة خفيّة، أو ما يعرف بالإقناع السّرّيّ، فكثير من التّكوينات العديدة في مجال التّواصل الخطابيّ، ليست إلا طرائق لحصر الآخر في فخّ فكريّ لا يمكن أن يتخلّص منه إلاّ بتبنّي الفعل، أو الرّأي الّذي يقترحه الخطيب[١]، ليحقّق بذلك الإذعان والتّسليم لنفوس المتلقين، من أجل بسط نفوذه والدّعوة إلى طاعته، بعد أن أشار إليهم بالعداوة والبغضاء له، ومشواره في القتال في سبيل الوصول إلى السّلطة، ممّا صنع نوعًا من التّهويل والتّفخيم اللافت للانتباه، الّذي ترك أثرًا حجاجيًّا بليغًا في قلوبهم، أوحى إليهم باستحالة مناهضة خلافته ومعارضتها مستقبلًا، وكأنّه بثّ روح الضّعف، والوهن، والاستسلام في ذواتهم في بداية الخطبة، ثمّ ما لبث أن عاد إلى لغة الإغراء، واللين، والاستمالة، باعتراف أشار فيه إلى أنّه ليس أفضلهم علمًا وفضلًا ودينًا، ولكنّه صرّح بأنّه حتمًا الأصلح للخلافة، وأنّ سيفه لا يعلو رقاب لا تشهر سيفها ضدّ بلاطه، ويبدو أنّ معاوية أراد أن يظهر سلميّته مع من يسالمه مع الوعد بالعطاء جزاءً للطّاعة، والخضوع لبلاطه بصورة حوار حجاجيّ حميم ومقنع بين الرّاعي والرّعيّة، الّذي عزّز موقف الشّرعيّة لحكمه لديهم بأسلوب السّياسيّ الديماغوجيّ(السّفسطائيّ)"فالبلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى إلى قلب السّامع فتمكّنه في نفسه، كتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[٢]، في محاولة لكسب رضاهم، وقناعتهم واستمالتهم بوسيلة الإغراء الّتي وافقت حال المخاطبين ومقامهم، ليحملهم على مشاطرته وجهة نظره، ودفعهم إلى

---

[١] ينظر:الحجاج في التواصل،فيليب بروطون، ترجمة:محمد مشبال، المركز القومي للترجمة ،ط ١، ٢٠١٣ : ٢٥.
[٢] كتاب الصناعتين: ١٠.

الإيمان بما يؤمن به معاوية، فظهر الخطيب بوصفه رجل سياسة أو ملكًا، لا رجل دين أو خليفة للمسلمين، الّذي يمثّل سلطة شرعيّة دينيّة.

والحقيقة أنّ خطباء البيت الأمويّ كانوا يقفون دائمًا موقف السّاخط المنتقم على الرّافضين والثّائرين على سلطتهم، ولهذا غلبت لغة الوعيد على خطبهم، ولهذا كانت الطّابع العامّ لنسق البناء والغاية فيها.

ومن خطب الزّبيريين ما ألقاه عبدالله بن الزّبير(٧٣هـ) في مجلس معاوية حين وفد عليه، وممّا ورد في تلك الخطبة:**"أسألكم بالله: أتعلمون أنّ أبي حواريّ رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأنّ أباه أبا سفيان حارب رسول الله(ص) وأنّ أمي أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق، وأمّه آكلة الأكباد؟ وجدّي الصّدّيق وجدّه المشدوخ ببدر، ورأس الكفر، وعمّتي خديجة ذات الخطر والحسب، وعمّته أم جميل حمّالة الحطب؟ وجدّتي صفية وجدّته حمامة؟ وزوج عمّتي خير ولد آدم محمّد(ص)، وزوج عمّته شرّ ولد آدم أبو لهب، سيصلى نارًا ذات لهب؟ وخالتي عائشة أمّ المؤمنين، وخالته أشقى الأشقين؟ وأنا عبدالله، وهو معاوية"**[1].

يعي اللسان العربيّ المحاجج جيدًا من أين يسعى في خطابه الّذي يراعي مقتضى الحال والمقام، فهو بدأ بمباغتة حجاجيّة بالاستلزام الاستفهاميّ صدمت الخصم والحاضرين، وهذا ما نراه في هذه الخطبة التّناظريّة التّفاخريّة، إذ توغّل ابن الزّبير إلى قلوب السّامعين في البيت الأمويّ، وبنى خطابًا حجاجيًّا مزلزلًا من خلال الدّخول إلى المنطقة الرّخوّة لدى معاوية، فمن الواضح أنّه لم يتحاش التّصريح عن أيّ حقائق مسكوت عنها، فكان شديد التّأثير، آسرًا للنّفوس، وسريع النّفاذ إلى العقول بغية الإقناع، وكسب المنازلة، وهو ضرب من "دنو المأخذ، وقرع الحجّة، وقليل

(1) جمهرة خطب العرب: ١٦٠-١٦١.

من كثير"[1]، إذ أجاد إثارة ذهول الحاضرين من بداية الخطبة حتمًا فـ"حسن الافتتاح داعية الانشراح"[2]، بسرد حقائق واضحة تبيّن فضله دعت إليها ضرورة التّجادل.

لقد هدم عبدالله بن الزّبير أركان البلاط الأمويّ، وأنجز عليه، وكسر أفق توقّع معاوية إلى حدّ الصّدمة بهذه الجرأة بما صدّح به من حقائق، ووقائع أمام حاشية الحاكم، وملأه المقرّب، فلم يبق له شيئًا في هذا المقام التّفاخريّ الّذي اتّخذ فيه عبدالله شكلًا من المناظرة الّتي انطوت على حجاج بليغ مباشر بالاستلزام الاستفهاميّ الإنكاريّ مبتعدًا عن التّكلّف، والتّنميق لمراعاة مقام سامعي الخطبة، إذ تعمّد أن يلحّ طويلًا على بعض العناصر لتمديد الانتباه وخلق الدّهشة، فيكثّف من حضورها في وعي المتلقّين، فالإلحاح، والتّكرار للتّفاصيل وبعض الأمور أدّى إلى تفخيم ذات الخطيب وتعزيز مكانته، وحمل السّامعين إلى الإذعان والتّصديق بأقوال هذه الشّخصيّة، وتعظيم أمرها، وهذا شّكل حجاجيّ من أشكال تقديم الواقع، ويعدّ شكلًا حادًّا من أشكال الخطاب الحجاجيّ[3]، إذ رأى ابن الزّبير هشاشة نسب معاوية دينيًّا، فوجده منطقة ضعيفة فانقضّ عليها ليدعم حجاجه ويحمل خصمه على الإذعان والإقرار بشرف نسبه، وعلوّ منزلته.

تتطلّب مقتضيات الحال ردًّا سريعًا على معاوية في مقام المفاخرة، فلجأ ابن الزّبير إلى ما يناسبه من الحديث، فبات يطرق أبواب النّسب والانتساب لكلّ منهما، ليصرّح بعظمة نسبه وكرمه قبالة وضاعة نسب الخصم، وبآليّة تقسيم الكلّ إلى

---

(1) كتاب الصناعتين: ٢٢.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني(٤٥٦هـ) ت:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، لبنان،٢٠٠٧: ٢٢٥.

(3) ينظر:الحجاج في التواصل:١٠٦.

الأجزاء من أجل زيادة الإقناع، وإماطة اللثام عن أسرار تخدش كرامة المناظر الآخر، وعداوة أجداد النّدّ للدّعوة الإسلاميّة، ولا شكّ أنّنا على يقين بأنّ الأمويين كانوا متشدّدين للقوميّة العربيّة، فلهذا راح الخطيب يفتخر بمجده، ويوجع خصمه بحمله على الذّكرى بتأريخ مظلم لآبائه وأجداده، ويلقي عليه حشدًا من الحجج في ديباجة واضحة وجليّة لدى الملأ، عازفًا عن اعتماد ما غمض من الألفاظ، ومتجنّبًا الأساليب الموغلة في المجاز، وفي متواليات استفهاميّة تنفتح على حقائق تخزي الخصم، وتقعده عن المقاومة، وتعجزه عن الرّدّ، فجاء بما هو أعمّ نفعًا، وأبلغ حجّةً، وأعظم برهانًا، وألطف موازنةً، فشتّان ما بين حواريّ رسول الله(ص) وأبي سفيان، وأسماء(رض) وهند، والصّدّيق(رض) ورأس الكفر عتبة بن ربيعة...الخ، ممّا جاء من فخر بصورة حسنة، وبسوق الشّواهد، ولاسيّما الشّاهد القرآنيّ، ليقرع به سمع معاوية وقلبه، ويلقي عليه الحجّة الوُضحى ، ليذعن لما قال ويسلّم به، ويقرّ بدون اعتراض محتمل، وقد ختم ابن الزّبير خطبته بضربة حجاجيّة قاسية، جاءت له نتيجة الفضل والشّرف والعلياء بقوله: **"وأنا عبدالله، وهو معاوية"**، وأعتقد أنّه يريد أن يقول بأنّ البون بينهما واسع، ولا يمكن الموازنة بينه وبين صاحبه في حال من الأحوال.

## ب-براعة الاستهلال:

لقد كان خطباء العصر الأمويّ شأنهم شأن غيرهم في العصر الإسلاميّ، يستهلّون خطبهم بالتّحميد، ويصدّروها بالتّمجيد، وهذا التّقليد الفنّيّ قالب ثابت في مظاهرها الأسلوبيّة والبنائيّة، وقد حرصوا عليها لأنّها تمثّل صورة من صور الثّقافة الإسلاميّة للخطيب، فهي بمنزلة المطلع أو المقدّمة في القصيدة، لذلك كان يُستلزم من الخطيب أن يكون استهلاله مؤثّرًا ومستساغًا، ويذهب (أرسطو) إلى أنّ

الاستهلال بدء الكلام، ويناظره المطلع في الشّعر، وفي فنّ العزف على النّاي(الافتتاحيّة)، وهي بدايات كأنّها تفتح السّبيل إلى ما يتلو[1]، وشدّد عليها في الأقوال البرهانيّة ليبدأ التّعبير عمّا نقصد إليه، ثم نسترسل، وكان لزامًا على الخطباء أن يتقيّدوا بهذه القاعدة، ولاسيّما في المناظرات الّتي تتضمّن في طيّاتها اتّهامات ومساجلات[2].

أمّا النّقاد العرب القدماء فكان الاستهلال محطّ عنايتهم، وعدّوه من أوصاف الخطبة، وكانوا يسمّون الخطبة الّتي لا تُفتح بالتّحميد بالبتراء، يقول الجاحظ:"وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشّعر الّذي سمعت صدره عرفت قافيته"[3]، ولكنّها تبقى ظاهرة غير كلّيّة على جميع الخطب في العصر الأمويّ، فلكلّ مقام مقال، والبعد الحجاجيّ في الاستهلال ينبع من أنّه يأتي بالكتلة العاطفيّة الّتي تخاطب شعور المتلقي من أوّل وهلة لانتزاع استمالته، فهي لحظة الاستهواء في التّصوّر الأرسطيّ، الّتي تستهدف الإقناع، ويرى (بيرلمان) أنّ التّرتيب في قضايا البرهنة الشّكليّة غير ذي أهمّيّة، وخلاف ذلك حينما يكون الغرض الاحتجاج قصد مشاركة المستمعين؛ لأنّ ترتيب عرض الحجج يكيّف شروط القبول عند هؤلاء، وهذا ما نجده حاضرًا في خطب ذلك العصر الّذي شهد ما شهد من السّجال والمناظرات، والمجادلات، ومن ذلك خطبة الإمام الحسن(عليه السّلام):**"أمّا بعد: فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه، وسمّاه كُرهًا، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إنّ الله مع الصّابرين، فلستم أيّها النّاس نائلين ما تحبّون إلاّ بالصّبر على ما تكرهون. بلغني أنّ معاوية بلغهُ إنّا كنّا أزمعنا المسير**

---

(1) ينظر:الخطابة، أرسطو طاليس، ت:عبد الرحمن بدوي، مطبعة الرسالة، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٨٠ :٢٣٣.
(2) ينظر:المصدر نفسه:٢٣٤.
(3) البيان والتبيين:٨٤.

**إليـه، فتحـرّك لـذلك، اخرجـوا رحمكـم الله إلـى معسـكركم فـي النّخيلـة، حتّـى ننظـر وتنظروا، ونرى وتروا"[١].**

لا شكّ أنّنا نرى استهلالًا مباشرًا دون إطناب في الدّخول إلى مضامين الخطـاب، وجـاء ذلك مراعـاة لمقـام الخطبـة الحربـيّ أوّلًـا ، الّـذي يتطلّـب دخولًـا مباشـرًا دون إبطاء، ولاستدعاء الإصغاء من المتلقّين ثانيًا، وهو ضـرب مـن التّنبيـه، ونـوع مـن التّعريض بمنزلة الجهاد عند الله (جل جلالـه)، ممّـا زاد الشّـحنة العاطفيَّـة الحجاجيّـة في الخطاب، وهذه حقيقة مشتركة، وحجّة يقينيّة لا تقبل الشّكّ والرّفض، أفرزت نقطـة انطـلاق حجـاج متمكّنـة تبعـث الطّمأنينـة والقبـول والإقنـاع مـن المسـتمعين لمطابقتها بنـى الواقـع، إذ يـذهب (أرسطو) إلـى أنّ الإقنـاع يقـع حـين يهيّـئ الخطيـب جمهـوره ويسـتميلهم بقولـه ،حتّـى يشـعروا بانفعـال مـا ،لأنّ الخطـاب يـروم توليـد القناعات في كلّ موضوع يطرحه المتكلّم، وحمـل الجمهـور علـى الفعـل فـي السّـياق التّواصليّ، فالحسن(ع) قد عدّ لأذهان مخاطبيه الخطاب الأسمى لإنزال الاعتقاد في نفوسـهم، وحملهـم علـى الإيمـان بوجـوب فرضـيّة الولـوج فـي الجهـاد لقتـال معاويـة، ولاسيّما أنّه قد ألقى عليهم حجّة ثقيلة ساطعة البرهان بالتّناص مع النّصّ القرآنيّ في قوله تعالى: **"كُتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم"{البقرة: آية ٢١٦}**، فـالنّصّ الـدّينيّ يمتلك موجات حجاجيّة يحمل المتلقّين علـى التّسليم، نظـرًا لقدسيّته وسلطته العاليـة علـى الـنّصّ الأدبـيّ، إذ يعـدّ البعـد الـدّينيّ للنّصـوص أعظـم مصـدرٍ للقـوّة النّفسـيّة المـؤثّرة، ذلـك لأنّـه يمـسّ أصـفى المشـاعر وأرقهـا، وأطهرهـا وأبسـطها، ترغيبًـا للنّفوس في الطّاعة لأولياء الأمور وحبّ الدّين وصناعة الانفعال[٢]، فلم يتـرك ذلـك

---

[١] جمهرة خطب العرب: ص٩.

[٢] ينظر:الخطيئة والتكفير من البنيوية الى التشريحية(قراءة نقدية لنموذج معاصر)، د.عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط٦، ٢٠٠٦: ٥٧.

مجالًا أمام السّامعين بالتّثاقل عن نصرة إمامهم والقتال معه، فالإكراه للقتال ليس مشروعًا وغير مُبرّر، فما هو إلّا كتاب مكتوب، وأمر إلهيّ بنصرة الدّين، ممّا دفع السّامعين إلى التّسليم والتّصديق، أو كفّ نفوسهم عن الخذلان.

ومن براعة الاستهلال ما نجده في خطبة عبد الملك بن مروان(٨٦هـ) في السّخط على أهل العراق بعد أن علم بثورة ابن الأشعث على الحجّاج، فخطب في النّاس بعد حمد الله والثناء عليه،قائلًا:**"إنّ أهل العراق طال عليهم أمري، فاستعجلوا قدري، اللّهمَّ سلّط عليهم سيوف أهل الشّام، حتّى يبلغوا رضاك، فإن لم يبلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك"**[1].

استثار عبد الملك جمهوره المتلقّي في استهلاله الموجز هذا، تبعًا لما يقتضيه موضوع الخطبة، وخاض غمار الغرض ممّا استدعى الإصغاء بعبارات وجيزة وقصيرة انفتحت على دلالة الغضب بقوله آنف الذكر، فكأنّه أوحى لجمهوره الشّاميّ بأنّ أهل العراق من الخوارج على خليفتهم الشّرعيّ، فشحنهم بدافعية الوجوب لقتالهم، والقضاء عليهم، بصورة استبداديّة أضفى عليها لونًا من الشّرعيّة لتكون بمنزلة حجّة على المحكومين بالقتل بسيوف الشّاميين في سبيل رضا الله، وما هذا إلّا نوعًا من الإغراء، والإيهام، والمناورة، لجأ إليه الخليفة ليتسنّى له بناء خطاب حجاجيّ يحملهم على التّيقين بضرورة الانخراط بالقتال ضدّ أهل العراق، فآليّة الإغراء والإغواء تبقى على الدّوام إحدى أهمّ الوسائل للحمل على الإقناع الّذي يتّخذ أشكالًا مختلفة تعمل على زيادة حضور الخطاب واستساغته في الأذن الّذي يخلق إحساسًا بالوضوح[2]، فلا حجاج ما لم نقنع الآخر بمشروعيّة السّعي إلى ما

---

(١) أدب السياسة في العصر الأمويّ: ٢٩٧.
(٢) ينظر:الحجاج في التّواصل: ٢٥.

نروم إليه، خصوصًا عندما نكون في سياق يتّسم باستعمال تقانات التّطويع في السّياسة لتحقيق اتّفاق المتلقّي العامّ[١]، فالمتكلّم يقيم حجاجه على هذا الأساس حتّى يلقى القبول عند المستمع، ليكون مصداقًا إلى استمالته، وجعله يذعن لما يريده، وهذا ما صنعه عبد الملك بخطف استمالة جمهوره إلى إلزاميّة قهر أعداء الخليفة، الذي يمثّل سلطة شرعيّة ودينيّة في أذهانهم وتصوّراتهم العقليّة والنّفسيّة والعقديّة، فكان الاستهلال يمثّل نقطة الارتكاز الحجاجيّ، والتّمهيد المناسب لما سعى إليه ابن مروان في خطبته هذه، والّتي ارتدت رداء القوّة والسّلطة كخطبته في مكة[٢].

ومن ذلك أيضًا خطبة الخارجيّ الزّبير بن عليّ السّليطيّ (٦٨هـ) في الأزارقة، بعد أن رأى فيهم انكسارًا شديدًا وضعفاً بيّنًا بعد هزيمتهم في معركة يوم سلى، فقال لهم: **"اجتمعوا، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النّبيّ(ص) ثم أقبل عليهم فقال:"إنّ البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ، وهو على الكافرين عقوبة وخزي، وإن يُصب منكم أمير المؤمنين، فما صار إليه خيرٌ ممّا خلّف[...]والله يقول لإخوانكم المؤمنين "إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله وتلك الأيّام نداولها بين النّاس"{آل عمران: ١٤٠}،فيوم سلّى كان لكم بلاء وتمحيصًا، ويوم سولاف كان لهم عقوبة ونكالًا..." [٣].**

إنّ وضع الخوارج النّفسيّ آنذاك كان يقتضي ويستلزم بالضّرورة استهلالًا يشفي صدورهم، ويعيد لهم كبرياءهم وثقتهم، ولهذا استمدّ الخطيب معانيه من حجاج القرآن، فجرّ لسانه إياها جرًّا عامدًا أو غير عامد لأنّهم كانوا حفظة للقرآن، ليفخّم بذلك قوله، ويستقطب نفوس سامعيه إلى الامتثال والانقياد لما يبتغي، فالخطيب يريد

---

[١] ينظر: الحجاج في التّواصل: ٧٣.
[٢] ينظر:جمهرة خطب العرب: ١٩٢.
[٣] المصدر نفسه: ٤٥١.

أن يزيل تلك الغمّة من نفوسهم بقلب صورة الانهزام والانكسار إلى انتصار، واصفًا الهزيمة بلاءً واختبارًا من الذّات الإلهيّة الّذي ينتهي بهم إلى الأجر والثّواب في الدّنيا والآخرة، وكأنّه جعل أصحابه بمنزلة أصحاب الرّسول(ص) في يوم أحد، فمن هنا بدأت لحظات الاستهواء والاستمالة، ومرتكز الحجّة للقضيّة الّتي يرغب الخطيب في طرحها، فهذا النّصّ الحجاجيّ يبعث السّكينة في قلوب الخوارج بعد أن كانت ترضخ تحت سطوة الإحباط والخيبة، لاسيّما أنّه وشّح خطبته بالنّصّ القرآنيّ الّذي قرّر ما سعى إليه ببلاغة الحجّة، الّتي جعلت السّامعين في حالة إذعان تامّ، وتسليم مطلق بناء على ملامح الخطاب العامّة، إذ استدرجهم إلى ما يودّون مناقشًا عقولهم، ومحرّكًا أفئدتهم، ممّا جعل الاعتقاد واقع لا محالة، فالحجّة بليغة ولا تقبل الرّفض، أو الاعتراض، فتدفّقت فيها العاطفة بتعبير يتّسم بالقوّة والنّفاذ لتنزع من أرواحهم صفة الشّقاء والاستسلام، وتجبّر قلوبهم المتصدّعة، ليقودهم إلى شاطئ الإيمان والاطمئنان.

إنّ اتكاء الخطيب الخارجيّ على آليّة الإيهام في قلب صورة المشهد من السّوء إلى الحسن، اضطلع بدور إقناعيّ مختلف، من خلال الوعد وحسن الثّواب جزاءً للعبادة والجهاد حتّى مع حالة الانهزام في تلك الوقائع والمعارك، وهذا ما نسمّيه بالمشاركة الوجدانيّة من الخطيب مع جمهوره، الّتي لا تترك هوّة، أو ثغرة كبيرة تؤدّي إلى انهيار الخطاب الحجاجيّ، أو إخفاقه في تحقيق الإقناع.

### ج- المستوى الموسيقيّ:

إنّ الحديث عن المستوى الموسيقيّ أمرٌ مهمٌّ للغاية، وراح العلماء يصرّون عليه كثيرًا، وقد خصّوه بالشّعر وألحقوه بالنّثر بضوابط محدّدة، إذ يضع (أرسطو) الصّناعة الصّوتيّة في الخطابة في منزلة وسط بين النّظم المُطّرد الوزن والنّثر

المرسل، فيذهب إلى أنّ "شكل المقالة ينبغي أن يكون ذا وزن ولا عدد، فإنّ ذلك النّحو غير مقنع، لأنّه يظن أنّه مختلف أو يراد به التّعجّب...فأمّا الاسم اللا موزون(بدوي: الّذي بدون إيقاع) أي السّخيف فإنّه لا متناه(بدوي: غير محدّد)، وينبغي أن يكون متناهيًا بشيء وليس بوزن، فإنّ الّذي لا يتناهى فليس بلذيذ، وهو خفيّ مشكل، فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام نبرات، وأمّا وزن فلا"[1]، فيشير (أرسطو) إلى أنّ النّثر الخطابيّ لزامٌ أن يكون إيقاعيًّا غير مطّرد الوزن، ولذلك يفضّل العبارة المقسّمة المتقابلة على العبارة المسجوعة؛ حتّى لا يظنّ المخاطَب أنّه مُختلق، أو يُراد به إثارة التّعجّب.

ولم يختلف العلماء العرب القدماء عن (أرسطو) في حديثهم عن موسيقى النّثر، إذ أكّدوا على حظوته، ولاسيّما المحور السّجعيّ المعتدل، الّذي يأتي عفو الخاطر من دون تكلّف كما يقول الجاحظ:"السّجع المزدوج دون القصيد والرّجز"[2]، فيفترض"أن يكون في بعض كلام العرب لا في جميعه، فإنّ السّجع في الكلام كمثل القافية في الشّعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسّجع مستغنى عنه"[3]، وهذا يؤكّد حتميّة ضروريّة للمنزلة الوسط الّتي يحتلّها المستوى الموسيقيّ في الكلام الخطابيّ البليغ، حتّى لا ينمّ عن اطّراد السّجع والجناس وباقي الفنون الصّوتيّة من المحسّنات اللفظيّة، فينتهي إلى التكلّف الّذي يعوق الوظيفة البلاغيّة للخطاب، وهذا منافٍ للغاية الإقناعيّة الّتي ينشدها الحجاج في فنّ الخطب، ومع ذلك نحن لا نلغي وجوده بقدر ما نضبط له حضوره في النّثر "فلا يحسن منثور الكلام

---

(1) الخطابة: فصل٨: ٣.

(2) البيان والتبيين:٢٨٨.

(3) البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم بن وهب،ت:حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٩،ج١: ١٦٥.

ولا يحلو حتّى يكون مزدوجًا، ولا تكاد تجد لبليغ كلامًا يخلو من الازدواج"[1]، ولهذا سنعزف عن ذكر الخطب الّتي أغرقها خطباؤها بالسّجع والتّقفيّة؛ لأنّها حينئذٍ تخرج من مدار بلاغة الحجاج والإقناع، وتدخل في إطار الزّخرفة الشّكليّة.

وفي العصر الأمويّ الّذي بلغت فيه الخطابة العربيّة أوّج مستوياتها، ونضجها الفنّي، فقد اتّشحت الخطب بالتّناغم والتّواشج الإيقاعيّ المعتدل بألوان مختلفة عملت على صناعة التّوافق النّغميّ، والتّعادل الموسيقيّ في تراكيبها البنائيّة، فيلجأ إليها الخطيب لتحقيق الانفعال لدى الجمهور، وهذا الإيقاع حركة تموّجيّة انسيابيّة متدفّقة، وهو صوت يصدر ذبذبات تنبيه موقظة تترك أثرًا في استنشاطة ألباب السّامعين واستمالتها نحو المقصد المأمول لإقراره وترسيخه، كونه يضطلع بفاعليّة حجاجيّة في عمليّة الإقناع، الّذي يعمل على تحفيز المخاطَب ليكون قادرًا على توليد دلالات وتأويلات، والميول إلى الإذعان والتّسليم[2]، ولعلّ أهمّ تلك الألوان والضّروب الموسيقيّة الّتي لاذ بها الخطباء في العصر الأمويّ هي:

## ١-السّجع:

ويأتي من توافق الفواصل في الكلام على حرف واحد[3]، فهو من الجماليّات اللفظيّة الّتي تصنع التّوافقات الصّوتيّة بين الألفاظ في البنى التّركيبيّة للخطاب، حيث يؤدّي إلى نوع من النّغم وضرب له "إيقاع يطرب الفهم لصوابه، وما يردّ عليه من

---

(١) كتاب الصناعتين: ٢٨٣.

(٢) ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته): ١٣٦.

(٣) ينظر:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير،تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الحلبي،القاهرة، ج١: ١٩٣.

حسن تركيبه واعتدال أجزائه"[1]، بوصفه من المحسّنات البديعيّة البلاغيّة الّتي تأخذ حيّزًا كبيرًا في ساحة بناء النّسق الحجاجيّ، ليزيد المعنى قوّة وثباتًا في أذهان المتلقين، شغف به الأدباء العرب على مرّ العصور، إذ إنّه من مميّزات البلاغة الفطريّة كونه حاضرًا في أكثر اللغات[2]، فيؤثرونه لأنّه أعمق أثرًا في النّفس، وأعلق وقعًا في الذّهن، وأخفّ على السّامع إذا كان بريئًا من التكلّف والتّصنّع، وقد أشار العسكري(٣٩٥هـ) إليه فقال: "واعلم أنّ الذي يلزم في تأليف الرّسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك السّجع فيها، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراهٌ وتنافرٌ وتقعيد"[3]، ولهذا ذمَّ النّقاد التّكلّف فيه لسماجته وثقله على السّامعين.

ومن عيون الخطب الّتي جرت على منوال البناء الموسيقيّ الحجاجيّ قول الإمام الحسين(٦١هـ)**:"إنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشّيطان، وتركوا طاعة الرّحمان، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء"[4].**

يظهر جليًّا عناية الحسين(عليه السّلام) بالوقع الموسيقيّ والرّنين الصّوتيّ، سواء أجاء بصورة السّجع غير المستهجن(طاعة الشّيطان، طاعة الرّحمن) أو عن طريق الازدواج (أظهروا الفساد، عطّلوا الحدود)، أو من التّوازي التّركيبيّ بين الجمل بالقدر والطّول، فالسّجع في فاصلتين لوهلة أنتج ضربة إيقاعيّة حقّقت توافقًا وتنغيمًا في موسيقى النّصّ، والّذي أدّى أثرًا حجاجيًّا لأصحابه بإلزاميّة الخروج للجهاد بالدّلالة الفكريّة الّتي خرج إليها هذا التّوافق الصّوتيّ، فالحجّة الشّرعيّة بليغة الأثر

---

[1] عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي(٣٢٢هـ)، تحقيق:طه الحاجريّ، المكتبة التجارية، القاهرة: ١٥.
[2] ينظر:النّثر الفنيّ في القرن الرابع: ٧٥.
[3] كتاب الصناعتين: ١٥٩.
[4] جمهرة خطب العرب: ٤٨.

مبنيّة على حديث نبويّ شريف أطّر به الحسين خطبته، ممّا حقق نوعًا من الإذعان والخضوع عند أصحابه، وبجوٍّ إيقاعيّ صوتيّ أشعرهم بحركيّة نفسيّة انفتحت على دلالات لها تأثير كبير في تحديد قناعاتهم، واستمالة رأيهم، وإقناعهم لتصديق دعوى الحسين(ع) بفرضيّة الوقوف أمام الحاكم الجائر الخارج عن تعاليم الدّين وسنّة النّبيّ(ص)، فالسّجع ظاهرة حيّة في الخطاب تؤدّي إلى التّأثير في تغيير المواقف والقناعات، وتحقيق الغايات انطلاقًا من تأسيس التحام صوتيّ ودلاليّ بين مفاصل الخطاب ينتهي بالأذهان إلى التّسليم والإذعان.

ومن هنا نعتقد أنّ تأثير البنيّة الكلاميّة للحجّة والموسيقى الخارجيّة يتضافران في صناعة الحجاج، وينتج هذا بتحريك مشاعر النّفوس، ومزجها بالموسيقى الإيقاعيّة في الخطبة لتتخلل طروحات الخطيب إلى أذهان سامعيه، وسويداء قلوبهم بوساطة هذه الآليّة البلاغيّة الحجاجيّة.

ومن الخطب التي تجلّلت بحلية السّجع، وحفلت بالتّناغم الإيقاعيّ الحجاجيّ؛ ما قاله الحجّاج(٩٥هـ): **"إنّ للشّيطان طيفًا، وللسّلطان سيفًا، فمن سقمت سريرتُهُ، صحّت عقوبتُهُ، ومن وضعهُ ذنبُهُ، رفعهُ صلبهُ، ومن لم تسعهُ العافيةُ، لم تضق عنه الهلكة"**[١].

إنّ تناسب التّراكيب، ونظام إيقاعها، وجمال تناغمها، جاء من ميل الخطيب إلى توظيف حليتي السّجع في(طيفًا، سيفًا)، والموازنة والمجانسة بين الألفاظ في النّصّ كما يظهر، وهذا حقّق إيقاعًا زاخرًا بالتّأثير الدّلاليّ، ودقة المقاصد المبتغاة من الخطبة، فالحجّاج من بلغاء الخطباء الّذين يمتلكون قدرة بلاغيّة حجاجيّة إقناعيّة عاليّة، إذ كان يوازن بين العناصر الدّلاليّة والصّوتيّة بدون الإفراط أو التّفريط

[١] أدب السياسة في العصر الأموي: ٣٥١.

بإحداها على حساب الأخرى، ليفتح نافذة من المعاني تطلّ على غايات التّحذير طورًا، وللإطراب التّأثيريّ طورًا، لردع رغبات من تسوّل له نفسه بالتّفكير في الخروج عليه، ليكبح بذلك جماح نفوسهم إن كانت تسعى إلى القيام بثورة ضدّ حكمه وولايته، فهو يجعل من ذلك وسواسًا للشّيطان الّذي سيلقى سيف السّلطان، فيجعل لكلّ جرمٍ جزاءً من العقاب، فالهلاك مصير المتمرّدين الموعود، بوصفها عاقبة واقعة حتمًا لمن يقوم بذلك، إذ نرى هذه الدّلالة جاءت من نظم إيقاعيّ موسيقيّ رفد الخطبة بطاقة حجاجيّة، لذلك تذهب الدّريديّ إلى أنّ البعد الموسيقيّ يستولي على النّفوس، ويمتلك الأسماع بتأثير الأنغام، وما كان أملك للسّمع كان أفعل وأرسخ باللّب وبالنّفس(١)، فمتى ما كان الخطاب له وقع صوتيّ منتظم كانت دلالته أعلق في الأذهان، وأنفذ إلى القلوب.

فبات تركيب الخطاب الدّلاليّ بصبغته الصّوتيّة يتّسم بالقدرة على التّأثير في إنجاز عمليّة الإقناع، والإذعان، والتّسليم عند السّامعين، لتزيد التّصديق والاعتقاد بما سيحلّ بهم من بلاء إذا ما أقدموا على شيء، فالدّعوى في الخطبة عند الحجّاج قامت على تراكيب أربعة مسجوعة ومتوازية، جاءت بأربعة أمور، وكلّ تركيب هو حجّة تُتبع بوقوع عقاب ما، فقام هذا التّناغم الموسيقيّ والعدديّ المنمّق بالإيقاع بأثر إقناعيّ بليغ، بعث على تحقيق المبتغى من ثلاثة أوجه، الأوّل: هو ذكر الأسباب والمسبّبات لهذه الحجج بصورة منطقيّة وعقليّة واضحة بوصفهما سببًا ونتيجة لا لبس فيهما، والثّاني: السّمة الصّوتيّة المؤثّرة على أسماع جمهور الحجّاج وحملهم على التّيقين بذلك الوعيد المفزع، والثّالث: الانسجام المنطقيّ والتّرتيب المُساق للحجج والنّتائج، وهذا ما كان له وقع في جوارحهم، وموقع في عقولهم،

---

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه):١٢٧.

فعمل على تقديم خطاب بلاغيّ حجاجيّ بالموسيقى، ومراعاة ما يناسب من لوازم، بعيدًا عن الغموض والتّعقيد.

ومن ذلك أيضًا خطبة الأحنف بن قيس(٧٢هـ) في مجلس معاوية يستعطفه، ويشكو حال أهل البصرة، ويصف ما يؤمّله منه، وممّا ورد فيها: **"يا أمير المؤمنين؛ أهل البصرة عدد يسير، وعظم كسير، مع تتابع من المُحول، والقال من الذّهول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمقلّ قد أملق، وبلغ منه المخنق"**[١].

إنّ استثارة مشاعر معاوية من الخطيب ليس بالأمر الهيّن، ولهذا كان عليه أن يؤسّس بنية حجاجيّة لها وطأة في النّفس؛ ليغدق على أهل البصرة بالعطاء من بيت مال المسلمين، وكأنّ الخطيب مارس دورًا(دبلوماسيًّا) بوصفه مبعوثًا للقوم، وقد أقنعه بدفع شيء لهم، بعد أن كانوا في ظروف معاشيّة قاسية، وقد تمّ ذلك بوساطة الاستعانة بتأثير الأفعال الإنجازيّة.

ولعلّ اللجوء إلى التّأثير اللغويّ الصّوتيّ، يعدّ أحد الإمكانات اللغويّة المتاحة في جعبة الخطيب لتحقيق ضرب من الإقناع، والّذي ارتكز فيه على حلية السّجع ذي التّناسب الإيقاعيّ المحرّك لأحاسيس المتلقي، ولا شكّ أنّ الجانب الصّوتيّ يمثّل خطًّا بلاغيًّا حجاجيًّا مؤثّرًا بالمعنى العقليّ المنطقيّ[٢]، ويعمل السّجع على صنع قيمة حجاجيّة ثانية تعضّد الحجّة الدّلاليّة الأصليّة الكامنة في بنية اللغة الخطابيّة لتؤدّي الغاية المبتغاة، فمجيء الوسائل البلاغيّة في أحسن أحوالها، تكون بهدف معالجة المشكلات العمليّة والسّياسيّة، ومنهج لصناعة القرار، لاسيّما ما ارتبط منها

---

[١] زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري(ت٤٥٣هـ)، تحقيق:علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢، ج١ :٤٦.
[٢] ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته): ١٤٥.

بالشّؤون العموميّة، فالخطيب ليس بالأحرى هو من يدبّر القوى المختلفة لحمل السّامعين على الاعتقاد، ولكنّه ذلك الشّخص الذي أوتي الحكمة في تداول الأمور، فيقدّم خطابه على أساس فعل تأثيريّ ومشروع إقناعيّ يرتبط بمدى تأثير التّعبير البلاغيّ الحجاجيّ[(١)]، وهذا يعني أنّ العامل الصّوتيّ لم يعد حلية تُزيّن النّصّ بقدر ما هو عامل مهمٌ في صناعة الإقرار بالخطاب لدى المتلقي.

## ٢ـالجناس:

اتّشحت البلاغة العربيّة بفنون صوتيّة، وحلى لفظيّة، تعمل على صناعة التّوافق الإيقاعيّ والموسيقيّ بين الجمل والعبارات، وحدّ الجناس اصطلاحًا كما أوجزه العسكري(٣٩٥هـ):"أن يورد المتكلّم في الكلام القصير، بحشو البيت من الشّعر، والجزء من الرّسالة أو الخطبة، كلمتين تجانس كلّ واحدة منها صاحبتها في تأليف حروفها"[(٢)]، ولكن سرعان ما لبث هذا الفنّ البديعيّ عند البلاغيين المتأخّرين أن أصبح زينة لفظيّة مستثقلة ومستكرهة، إذ بالغوا في تقسيمه وتفريعه بشكل معقّد، ولا نريد أن نخوض في شأن ذلك، بقدر ما نريد أن ندير الدّقّة إلى البعد الحجاجيّ، الّذي عملت عليه الدّراسات الحجاجيّة، الّتي أقصت تلك الدّلالة التّحتيّة والهامشيّة، ليصبح فنًّا بلاغيًّا حجاجيًّا يمتلك الإشعاع الإقناعيّ في الخطاب، ليحدث نقطة تحوّل في معتقدات المتلقّين، وحثّهم على النّشاط العقليّ، والتّرقب الذّهنيّ لإتمام عملية التّصديق بصاحب الخطاب، فالسّمة الموسيقيّة لها محصّلة في النّفس، تجعل المتلقي متشبّثًا بالنّصّ لغاية الوصول إلى المبتغى الحجاجيّ، بواسطة ذلك الجرس الصّوتيّ في الألفاظ الّذي ينشد إليه السّامع بغية استيعاب خلاصة المعنى، وفي شبكة دلاليّة

(١) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٧٤.
(٢) كتاب الصناعتين: ٣٣٠.

حجاجيّة تترك السّامعين في حالة صراع ذهنيّ يتولّد منه الإقناع المطلق، ليزيد قوّة ثباتهم، إذ "يوهم تجانس الألفاظ بتجانس المعاني"(١)، مع أنّه مبني على التّوافق الصّوتيّ والاختلاف الدلاليّ، ليقود هذا الإيهام إلى جهد عقليّ يفضي إلى التّساؤل والاستشكال، والبحث في العلاقة بين معاني هذه الألفاظ المتجانسة، ليؤدّي بالنّتيجة إلى التّسليم والتّيقين.

ومن ذلك أيضًا خطبة الحسين(ع): **"ألا وأنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين، بين السّلّة والذّلّة، وهيهات منّا الذّلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسولُهُ والمؤمنون"**(٢).

إنّ اتّكاء الحسين في هذا المقطع من خطبته الغرّاء في كربلاء على الجناس التّامّ، صنع صورة حجاجيّة في غاية البلاغة، إذ أتى بتعبير تجنيسيّ ذي ضربات صوتيّة مكثّفة، كشف عن ملخّص الصّراع القائم بين السّلطة الباغية، والمعارضة الّتي تمثّل امتداد النّبوّة السّاعية إلى الإصلاح، فالجناس بين(الدّعي، الدّعي، السّلّة، الذّلّة) نجم عنه توليد ضربة إيقاعيّة لافتة للذهن، أحدثت تجانسًا إيقاعيًّا نغميًّا انفتحت على البعد البلاغيّ الحجاجيّ الّذي رام إليه الإمام، وبإيجاز شديد، فضلًا عن الأثر الإيقاعيّ والصّوتيّ "فالصّوت آلة اللفظ والجوهر الّذي يقع به التّقطيع وبه يوجد التّأليف"(٣)، بوصفه أصغر وحدة في اللغة، والّذي يعدّ نواة النّصّ الأدبيّ، فالجناس التّامّ في لفظة(الدّعي) عزّز حضور دلالة بغاء ذلك الحاكم وجوره في أذهان السّامعين، أمّا(السّلّة والذّلّة) في الجناس غير التّامّ، فالأولى عبّرت عن سلّ

(١) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، افريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٢م: ٢٣.
(٢) مقتل الحسين(ع)، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي(٥٦٨هـ)، تحقيق:الشيخ محمود السماوي، دار أنوار الهدى، ج٢: ٩.
(٣) البيان والتبيين: ٧٩.

السّيف، أو كناية عن الحرب، والذّلّة هي الخضوع والانقياد لمآرب الحاكم الأمويّ، وإعلان مبايعته، وهذا لا يتناغم مع ثوابت وريث السّلالة النّبويّة، ممّا لم يترك خيارًا أمام الإمام إلّا ورفع النّداء بـ(هيهات منّا الذّلّة) بوجه السّلطة اليزيديّة، الّتي عبثت بالدّين وعاثت في الأرض فسادًا، فيبدو أنّ الجناس أدّى إلى دلالة حجاجيّة بقدسيّة القيام ووجوبه، والانتفاض ضدّ الحكم الأمويّ، وأتى ذلك بصورة مؤثّرة من خلال الانتظام الصّوتيّ بين الألفاظ المتجانسة.

وخطب الحسن البصري(١١٠هـ) واعظًا في خطبته عمر بن هبيرة أمير العراق في عهد يزيد بن عبد الملك قائلًا: **"إنّهُ يوشك أن ينزل إليك ملكٌ من السّماء، فيستنزلك من سريرك، ويخرجك من سعة قصرك، إلى ضيق قبرك"**[١].

لا تخفى مجانسة الحسن بين (قصرك، قبرك) في مقام وعظيّ للوالي، إذ استلزم أن يذكّره بالموت والفناء، لردّه كأنّما إلى جادّة العدل بين الرّعيّة، ومخافة الله فيهم، فانتهى هذا الجناس إلى نوع من التّعنيف الوجدانيّ، فهو كالغرّة الشّادخة في الكلام[٢]، فحفّزه للإصغاء، ووجّهه نحو الإذعان، والتّقهقر أمام هذا المعتقد الرّاسخ في عقائد الإنسان المسلم، في صورة بيّنت زوال النّعيم الدّنيويّ في أيّ لحظة، والّذي يمثّل نقلة إلى مكان مظلم وضيّق ينتهي به في نهاية المطاف إلى الحساب، فالتّذكير بالموت من أثقل العظات على بني آدم فزعًا، ولاسيّما إذا ما جاءت بصورة تجنيسيّة منساقة كسرت الأفق المتوقّع عند المتلقّي، بذلك الوقع الصّوتيّ على السّمع، فتروّعه من مغبّة الظّلم والبغي في الحكم، فالجناس بما حمل من دلالة قاد المتلقّي إلى الإيمان بدعوى الخطيب، والتّصديق بفحوى الخطاب، الّذي سيلزمه

---

(١) جمهرة خطب العرب:٤٩١.
(٢) ينظر:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:٢٤٦.

العدل والاستقامة في الولاية، فالوسائل البلاغيّة ذات وظائف إقناعيّة قطعًا؛ لأنّها تعمل على تغيير المنظور بوصفها وسيلة مؤثّرة لتحقيق الإقناع[١]، فالبعد الصّوتيّ في التّجنيس قد مثّل هذه الوسائل في صناعة الحجّة والتّأثير.

ومن تلك الخطب التي حفلت بفنّ الجناس خطبة عبد الملك بن مروان: **"أيّها النّاس: اعملوا لله رغبة ورهبة، فإنّكم نبات نعمته، وحصيد نقمته، ولا تغرس لكم الآمال، إلّا ما تجتنيه الآجال"**[٢].

لا مراء أنّ المستمع في الخطابة الوعظيّة موضوع موضع الغافل المقصّر، لذا على الخطيب أن يبني خطابًا إقناعيًّا يثبت له ذلك، فيوقظه من تلك الغفلة بالأمر المقرون بالتّرغيب والتّرهيب، ولهذا عمد عبد الملك إلى توشيح خطبته بالجناس البلاغيّ الحجاجيّ(رغبة، رهبة، نعمته، نقمته، الآمال، الآجال)، بوصفه جرسًا دقّ به عقول المتلقّين، ونبّههم إلى غفلتهم وتقصيرهم، ليحيلهم إلى الإقرار بقدسيّة الطّاعة للخالق، سواء أكان طمعًا في جنّة، أو خوفًا من نار، وفي فضاء تجنيسيّ هيمن على مفاصل الخطبة، إذ إنّه قام بدور المنبّه الصّوتيّ، فالصّوت هو مظهر الانفعال النّفسيّ[٣]، وهذا الصّوت يصنع الإيقاع الّذي يلازم الوظيفة الدّلاليّة لإحداث متعة نفسيّة وفنّيّة، ومن شأنها أن تترك تأثيرًا كبيرًا في المتلقّي، لتأخذ بناصيته إلى الإقناع والإذعان بظلال إيقاعيّ نغميّ تجنيسيّ انتهى إلى الزّيادة في بلاغة الحجّة، وسطوع برهانها، المتأتّية على وفق التّرتيب والتّقسيم وتسلسل الأفكار، ولهذا أغنت هذه التّجنيسات عن الإطالة والشّرح، والتّفصيل في وعظ الرّعيّة.

---

[١] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان:٥١.
[٢] جمهرة خطب العرب:٤٨٣.
[٣] ينظر:إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، مصطفى صادق الرافعي،تحقيق:عبدالله المنشاوي، مكتبة الإيمان، وحي القلم، بيروت،دار ابن زيدون: ١٨٤.

ومن هذا المنطلق يرى (بيرلمان) أنّ البلاغة الجديدة تعمل على اندماج المتلقّي بما يُعرض عليه من أطروحات وقضايا وتصوّرات، أو أن تزيد في درجة ترسيخها وانخراطه وتقبّله لها، فهي ذات وظيفة تأثيريّة، لا تقتصر على بناء الحقائق لديه فحسب، وإنّما تثبيتها في عقله، وتجسيدها في سلوكه، ودفعه إلى العمل، أو تحفيزه للقيام بالعمل، فهو قوّة دافعة ترمي إلى تحقيق نتائج معيّنة[1]، بعد تجريدها من أيّ رداء جماليّ يستهدف الإبهار.

## ٣-التّوازي:

اغتنت الخطب في العصر الأمويّ بهذا الفنّ البديعيّ، وحقّق التّوازي قدرًا كبيرًا من الإيقاع الصّوتيّ، فضلًا عن بناء جملة من المقطّعات الموسيقيّة المتوافقة بين فواصل ومقاطع العبارات، وهو بأبسط تعريفاته "أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن"[2]، وقد اعتنى الخطباء البلغاء بهذا الأمر؛ لإدراكهم أهمّيّته ووعيهم به في بناء النّصّ الخطابيّ، فهو يضفي طلاوة ورونقًا عليه، ليصيّر النّصّ إلى الاعتدال النّغميّ، والتّحضير لتأسيس ضربات موسيقيّة تستقطب الأذهان، وتثير الوعي والإصغاء لما يريد له الخطيب من تدعيم لحجّته، وتثبيتها في ألباب السّامعين.

فالتّوازي لا غنى عنه في إبراز ظواهر بلاغيّة تتعلّق بالإيقاع، من خلال جعله منطلق التّأثير الّذي تتمركز فيه مستويات التّأثير التّركيبيّ إلى جانب الإيقاع، وقد تنبّه القدماء إلى جماليّات الموسيقى في النّصّ الأدبيّ، فابن طباطبا(٣٢٢هـ) مثلًا

(١) ينظر:تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، شعبان أمقران، (بحث) منشور، جامعة باجي مختار،مجلد ٥، العدد ١٥، الجزائر، سبتمبر٢٠١٨: ٢٤٢.
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٨.

يرجع ذلك إلى الإطار الموسيقيّ الخارجيّ، بأن يمثّل إيقاع الوزن طربًا للفهم وحسن التّركيب واعتدال الأجزاء[1]،وتعرّض له قدامة بن جعفر ت(٣٣٧هـ) تحت مصطلح (اتّساق البناء)، فضلًا عن وروده في نصٍّ تحدّث فيه قدامة بن جعفر(٣٣٧هـ)عن البلاغة بقوله: "وأحسن البلاغة: التّرصيع، والسّجع، واتّساق البناء،[...] وتكافؤ المعاني في المقابلة، والتّوازي، وإرداف اللواحق، وتمثيل المعاني"[2].

فهذه التّعريفات تدلّنا على بعد دلالات التّوازي وعمقها؛ لكونه أكثر من مجرّد وسيلة لتحقيق تعادل موسيقيّ إيقاعيّ، إذ لا ينبغي أن يُفهم على أنَّه مجرّد صناعة لفظيّة لا تدخل في إيصال الدّلالة بتعادل التّراكيب اللغويّة النّحويّة، فضلًا عن الجانب الجماليّ الّذي يسهم في اشتباك العلاقات المعنويّة في النّصّ[3].

ومن هنا نفهم أنَّ التّوازي الصّوتيّ يخلق جوًّا ملائمًا لطرح الأفكار والمعاني وتقريبها إلى المتلقّي ضمن إطار إيقاعيّ متوازن، وقد أصبح التّوازي خاصّيّة لصيقة بكل الآداب العالميّة قديمها وحديثها، شفويّة كانت، أو مكتوبة، فهو "عنصر تأسيسيّ وتنظيميّ في آن واحد"[4]، كونه ظاهرة تزيد من تأثير الكلام، ويحقّق أعلى مراتب السّموّ البلاغيّ الحجاجيّ، فضلًا عن تأثيره في المتلقّي من خلال حالة

---

[1] ينظر: عيار الشعر: ١٥.
[2] جواهر الألفاظ، قدامة بن جعفر(٣٣٧هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ : ٣.
[3] ينظر: تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢ : ٢٦.
[4] ظاهرة التوازي في قصيدة الخنساء، د.موسى ربابعه، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، مجلد ٢٢، عدد٥، ١٩٩٥م :٢٠٣.

التّوازن الموجودة في الخطاب.

ومن عيون ما وردنا من شواهد التّوازي في خطبة ضرار بن حمزة الصّدائيّ في مجلس معاوية، وهو يصف شخصيّة الإمام عليّ(عليه السّلام)، إذ قال: **"كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلًا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه"[1].**

نلحظ الضّربات الإيقاعيّة المتوازية في أواخر الفواصل، (المدى، القوى)، (فصلًا، عدلًا)، (جوانبه، نواحيه)، جاءت لإثبات حقيقة يريد لها الثّبوت والرّسوخ في ذهن معاوية وملأه، والتّصريح بأفضليّة الإمام على معاوية، وبصورة إيقاع داخليّ في الخطاب كوترٍ تحرّكت عليه الدّلالات لتنفتح على معنى الرّسالة المحمولة في الخطبة، ليؤدّي وظيفة بلاغيّة حجاجيّة بلغ بها المقاصد، وحقّق الغايات، الّتي أراد بها من معاوية وملئهِ الإقرار بها، والتّسليم لها، ويبدو أنّه جعل هذه الضّربات الصّوتيّة المتوازية محطّات يتوقّف عندها السّامع ليتأمّل ويتدبّر بأمر تلك الشّخصيّة السّامية، ويمكن القول إنَّ التّوازي يقدّم" بنى عميقة أعمق من تلك البنى السّطحيّة المتمثّلة بالشّكل، فعلى الرّغم من كونه إيقاعات منتظمة لاحتوائها على ذبذبات منتظمة، إلّا أنّه يحمل إيحاءات دلاليّة أوسع من الإيقاع، أي إنَّ وظيفته مزدوجة؛ إبلاغيّة جماليّة تأثيريّة، لذا فإنّ الإيقاع يكسب أهمّيّته من خلال خلقه الجمال بعد أن يؤثّر في المتلقّي فيقوده إلى الأفكار الّتي يعالجها الخطيب في النّصّ"[2]، وهذا من شأنه أن يترك في نفس معاوية وملأه القريب يقينًا قويًّا، ودليلًا قاطعًا على عظمة

---

[1] الأمالي، أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي(٣٥٦هـ)،منشورات دار الآفاق الجديدة ،بيروت ،ج٢ :١٤٧.

[2] الخصائص الأسلوبية والبنائية لنثر الإمام علي(ع) في نهج البلاغة،(أطروحة دكتوراه)، سعد محمد علي ،جامعة أم درمان، السودان ،١٩٩٧م: ٢٣.

مرتبة الإمام(ع)، والتّسليم والاعتقاد بسموّ هذه الشّخصيّة وعظمتها، وقمّتها في ميادين الدّين والعلم والتّقوى، بوصفها ظاهرة كبيرة في الإسلام، والمؤكّدة بلطف إلهيّ، ونصوص قرآنيّة، وأحاديث نبويّة يشهد بها الأعداء والأتباع، إذ أغلقت كلّ منافذ الاستفهام، وأبعدت سياقات الشّكوك لدى السّامعين، فضلًا عن شحنها الحجّة بطاقة إقناع مقبولة، وبوسيلة بلاغيّة عملت على تحقيق الحجاج المنشود.

ويخطب مروان بن الحكم(٦٥هـ) توبيخًا لمعاوية، وطلبًا للولاية والإمارة قائلًا: **"إنّ الله عظيم خطره، لا يقدّر قادرٌ قدره، خلق من خلقه عبادًا، جعلهم لدعائم دينه أوتادًا، هم رقباؤه على البلاد، وخلفاؤه على العباد، أسفر بهم الظّلم، وألفّ بهم الدّين، وشدّد بهم اليقين، ومنح بهم الظّفر، ووضع بهم من استكبر، فكان من قبلك من خلفائنا، يعرفون ذلك في سالف زمامنا، وكنّا نكون لهم على الطّاعة، إخوانًا، وعلى من خالف عنها أعوانًا، يشدّ بنا العضد، ويقام بنا الأود، ونُستشار في القضيّة، ونُستأمر في أمر الرّعيّة، وقد أصبحنا اليوم في أمور مستخيرة ذات وجوه مستديرة، تُفتح بأزمّة الضّلال، وتُحلس بأسوء الرّجال، يؤكل جَزُورها، وتمتق أحلابها، فما لنا لا نستأمر في رضاعها، ونحن فطامها، وأولاد فطامها، وأيمُ الله عهود مؤكّدة، ومواثيق معقّدة، لأقمت أود وليّها، فأقم الأمر يا بن أبي سفيان، واعدل عن تأميرك الصّبيان، واعلم أنّ لك في قومك نظراء، وأنّ لهم على مناوأتك وزراء"**[1].

(1) جمهرة خطب العرب: ٢٥٠.

*أسفر: أضاء وأشرق أو كشف بهم الظّلام، الاستئمار: المشاورة، مستديرة: مستغلقة مبهمة ليست مستقيمة، تحلس: الحلس كساء فوق ظهر البعير وهو تصحيف وأصلها(تُجلس) بأسوأ الرجال، الجزور: الإبل المذبوحة ،تمتق: تشرب كلّ ما في الضرع من لبن، معقّدة: عقد العهد.

إنّ البنيّة الصّوتيّة المتوازية من أوّل هذه الخطبة إلى آخرها، استحوذت على بعد حجاجيّ بلاغيّ رحب، ساعد في إيصال الدّلالة القائمة على حجج متتابعة، فابن الحكم لم يطلب الولاية بشكل واضح ومباشر، فعمد إلى تأهيل السّامع واستدراجه نحو الأمر الملوّح إليه، الّذي يهدف إلى الاستمالة بخطاب أنتج الإقناع عبر سلسلة متواليّة من الحجج ليصل بها إلى حقائق تنزل التّصديق في نفس معاوية، فتظهر براعة إتقان الخطيب لتقانات (الإيتوس، واللوجوس، الباتوس)، مستندًا في ذلك على مواضع الأفضليّة ذات المقصد الحجاجيّ منذ بداية الخطاب ليصل به لدرجة من اليقين المطلق في أهليّة البيت المروانيّ وأحقّيّته في الإمارة، وبحجج قامت على الوصل لتنقل القبول حول المقدّمات إلى نتائج الخطبة، بإشارته إلى سبقهم في الحكم، وهو تلويح إلى أفضليّة واضحة، وكلّ سابق هو أفضل من اللاحق في بناء الخطاب الحجاجيّ[1]، فمروان تعمّد تذكير معاوية بذلك ليثبت له أنّهم أهل للولاية، بدليل سبقهم البيتّ الأمويّ في تولّي زمام الحكم.

وربّما ابتعدنا في الحديث عن أثر التّوازي في الخطبة لتسليط الضّوء على شموليّة الخطاب الحجاجيّ فيها وأبعاده المختلفة، فالخطيب سرد حزمة من الحجج بموازنات تعبيريّة صوتيّة متعادلة عند نهاية كلّ مقطع من تراكيب الخطبة، ما كانت تمتلك هذا التّأثير، وهذه الخصوصيّة لو أنّها جاءت على غير ذلك، فيرى القلقشندي(٧٥٦هـ) أنّ من الأولى أن يراعى الوزن في جميع الكلمات أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزنًا ويسمّى التّوازن، وهو أحسنها وأعلاها[2]، فتوازي الخطبة المروانيّة كأنّما كان حجّة، ومصداقًا على سداد قوله، وقامت بعمل حجاجيّ

---

[1] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٨.

[2] ينظر:صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي(٨٢١هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد، المغرب، د.ط ،ج١ :٢٧٢.

بليغ، فتجد(**رقباؤه، خلفاؤه، البلاد، العباد، الدّين، اليقين.....نظراء، وزراء**)، والقارئ يلاحظ شدّة التحامها واتّفاقها الوزنيّ، وإيقاعها النّغميّ على الأذن، الّذي له ما له من صدى مؤثّر في النّفس، وإفراز بؤر تحوّل في قناعات معاوية وتصوّراته، فهي وإن كانت موازنات صوتيّة واضحة، إلّا أنّ الخطيب استطاع أن ينفذ من خلالها إلى بنية تفكير المتلقي، بإشارته إلى مجموعة من الفضائل الّتي يتحلّى بها آل مروان، والّتي تؤهّلهم إلى أن يكونوا أصحاب إمارة وولاية كما كانوا في عهد الخليفة عثمان بن عفّان(رض)، والّتي سلبها منهم معاوية لاحقًا، فلا يخفى على أحد النّغمات الإيقاعيّة في كلّ تركيب مقطعيّ، الّتي تجاذبت معها الدّلالة الّذي أحدثها التّوازي الصّوتيّ، وزاد من قوّة تأثير الخطاب في المتلقي، وانجذابه له والتّسليم به، ويأتي هذا من "ارتباط اللغة بوصفها أداة للفكرة بالصّوت الّذي يحتضن اللغة"[1]، فبلاغة الحجّة جاءت من شحنة الوقع الموسيقيّ الّذي صنع وترًا إيقاعيًّا داخليًّا تحرّكت به الأفكار والطّروحات الّتي أرادها مروان بن الحكم، والّتي نفذت إلى ذهن متلقيه، وشغاف قلبه، لزيادة الضّغط الإقناعيّ عليه بأحقّيّتهم بالولاية، فمازج بين الإفهام البائن، والإبلاغ الجيد عن رغباته العارمة، ورؤاه المتطلّعة إلى الإمارة من جهة، وحسن التّعبير وإيقاعه من جهة أخرى، فـ"أحسن الكلام ما رقّ لفظه ولطف معناه، وقامت صورته بين نظم كأنّه نثر، ونثر كأنّه نظم"[2]، فنلمس حذاقة الخطيب في استمالة المتلقي من أجل صناعة التّغيير في موقف معاوية، وجعله في نطاق حجج مستحكمة، وبوسيلة بلاغيّة صوتيّة كانت الحامل الأساس لذلك الحجاج، لاسيّما بعد أن عرفنا أنّ أفكار مروان الّتي أراد أن يلقي بها على متلقيه، بُنيت على هذا الفنّ البلاغيّ الحجاجيّ، وذلك لأنّ الفنون البلاغيّة تكتسب قوّتها الإقناعيَّة من

---

(١) الخصائص الأسلوبية والبنائية في نثر الإمام علي(ع):٢٤.
(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق:أحمد أمين المكتبة العصرية-بيروت:١٥٣.

خطابها الموجّه إلى العقل والذّهن، وإثارة الانفعال والأحاسيس أيضًا، فالحجاج البلاغيّ تأسّس على فهم المخاطب وسياقاته الثّقافيّة، والذّهنيّة، والعاطفيّة، والانفعاليّة[١]؛ ليجعل المتلقّي فطنًا ومنتبهًا وفي حالة مشدود فيها إلى الخطاب بتلك السّلسلة المتواليّة من الحجج في السّياق، وبإيقاع متوازٍ له ما له من الجماليّات والتّأثيرات الحجاجيَّة، ولهذا نجد أنّ هنالك أشبه ما يكون بخطاب التّوبيخ المعضّد بالحجّة، فالبيت المروانيّ هو باري الحكم، وأبناؤه الأوائل، ولهم في ذلك المصاديق الّتي تثبت ذلك، إذ استعمل الخبر الحجاجيّ الّذي يمثّل قيمة سلطويّة قادرة على صناعة معرفة سابقة محكوم لها بالقوّة الّتي تتمتّع بالسّلطة ومن ثمّ القدرة على الإقناع والتّيقين[٢]، فالخطيب ينتسب إلى بيت أهله أفضل من الولاة الصّبيان، لكونهم نظراء البلاط الأمويّ، وقد سبقوهم كما أسلفنا في الحكم والولاية.

[١] ينظر:إشكاليات الحجاج في المفهوم والتوصيف: ٤٦.
[٢] ينظر: إشكاليات الحجاج في المفهوم والتوصيف: ٥١.

## المبحث الثّاني

## أساليب الحِجاج في الخطابة.

### توطئة:

إنّ التّراث الفكريّ اليونانيّ والعربيّ قد رسّخا منذ القدم حقيقة المقاصد الحجاجيّة للبلاغة، فالأساليب البلاغيّة من عماد المرتكزات التي يبنى عليها الخطاب الحجاجيّ؛ فهي وإن كانت توحي بالوظيفة الجماليّة التي تعمل على خلق شعريّة النّصّ لاستمالة عاطفة المتلقي، إلاّ أنّها تترك هزّات بالغة التّأثير في محوري الإقناع والإذعان، فالسّمة الشّعريّة باتت تؤدّي وظيفة حجاجيّة بلاغيّة قائمة على أدلّة وبراهين تستهدف اختراق وعي المتلقّي لتحقيق القناعات، وقد أشار (أرسطو) إلى هذا الاستعمال بوصفه تقانة شديدة الوقع في المناظرات والخطب، فالخطاب البلاغيّ لم ينفكّ أبدًا عن البعد الحجاجيّ، فقدرة الخطيب المحاجج متوقفة على براعته بالوسائل البيانيّة والبلاغيّة لتحقيق الإبلاغ مع التّأثير من أجل صناعة الإمتاع والإقناع، إذ يرى (بيرلمان) أنّ الخطاب البلاغيّ يعدّ برهانًا كلّما تمكّن من التّأثير في توليد منظور مغاير، أمّا إذا كان الخطاب يخالف ذلك، أي غير مؤثّر في المتلقي، فهو ليس إلاّ زينة، أو حليّة أسلوبيّة لم تنجح في أداء الفعل الحجاجيّ[(١)]، وهذه نتيجة طبيعيّة في حال لم يستهدف الخطاب تغيير المواقف والقناعات لدى المتلقي، ولهذا سنحاول تسليط الضّوء على بعض الأساليب البلاغيّة الحجاجيّة التي يكتسب من خلالها الخطاب خاصيّة الحجاج في خطب العصر الأمويّ، إذ تبقى البلاغة تقرّب المعنى البعيد، وتبعد الحشو في الكلام ، وتقصد إلى الحجّة[(٢)]،

---

(١) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٥١.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين:٤٧ .

باستراتيجيّة الإبلاغ المفهم والمؤثر، الذي من شأنه تحقيق الإذعان والتّسليم في نفوس السّامعين، ومن أهمّ تلك الأساليب:

**١-التّكرار:**

لا شكّ في أنّ الأمر إذا تكرّر تقرّر، وأفاد دلالة الثّبوت والتّوكيد، فالغرض منه ينتهي إلى الإقناع، والتّسليم بصحّة الدّعوى من أجل تحقيق اليقين لدى المتلقّي بتأكيد الحجّة المأمور بها[١]، قال ابن الأثير(٦٣٧هـ)"واعلم أنّ المفيد من التّكرير يأتي في الكلام تأكيدًا وتشييدًا من أمره"[٢]، لإثبات معنى وتأكيده لحمله على الإذعان والتّسليم، ومن هنا يظهر لنا المحور الحجاجيّ في أسلوب التّكرار الّذي يعمل على ترديد عناصر معيّنة في خطاب ما لتوليد الحضور في وعي المتلقّي بتلك العناصر[٣]، لزيادة الإيمان بها في عقله، ونفوذها في وجدانه، وتقوية رسوخها في وعيه بهدف خلق الانفعال المرتقب، وبهذا يكون وجهًا بلاغيًّا حجاجيًّا يؤدّي إلى نقطة تحوّل بالمعتقدات والآراء والتّصوّرات، فأهمّيّته تكمن في إزالة الشّكّ، واللبس فضلًا عن إبلاغ الأفكار والطّروحات المستهدفة، فلم يعدّ ظاهرة صوتيّة بقدر ما هو ظاهرة حجاجيّة محضة، ورافد من روافد الخطاب الحجاجيّ، الّذي يمدّه بحجج وبراهين دلاليّة متتابعة لتحقيق فائدة محدّدة، وبشكل بليغ لتأكيد مرامي ومقاصد الرّسالة الخطابيّة في عقول المتلقّين، فالتّرديد الّذي يحدثه المرسل في كلامه، ينتج زيادة في حضور الفكرة، الأمر الّذي ينتهي إلى القبول والتّسليم في أغلب الأحيان نتيجة لشدّة الضّغط على تلك الأفكار، وتعزيز حضورها في الذّهن.

---

[١] ينظر: كتاب الصناعتين: ١٥٦.
[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٨.
[٣] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان :٥٠.

وقد حضر هذا الأسلوب في خطب العصر الأمويّ بشكل كبير جدًا، ومنها ما ورد في خطبة الحسن(عليه السّلام) في مجلس معاوية، يعرّف الحاضرين بذاته، بعد أن حاول معاوية النّيل منه، والحطّ من شأنه، فقال: **"أنا ابنُ البشير النّذير، والسّـراج المنير، أنا ابنُ من بعثه الله رحمة للعالمين، أنا ابنُ من بُعث إلى الجنّ والإنس، أنا ابنُ مستجاب الدّعوة، أنا ابنُ الشّـفيع المـطاع، أنا ابنُ أوّل من ينفض رأســه من التّـراب، أنا ابنُ أوّل من يقرع باب الجنّة، أنا ابنُ من قاتلت معه الملائكة"**[1].

منحت طريقة الرّدّ والدّفاع الخطاب طاقة حجاجيّة تثبت قواعده، وترسّخ مضامينه في كيان الجمهور المتلقي، إذ يأخذ فعل الخطاب بالاتّساع في دائرة النّظر العقليّ ليجتاح قناعاتهم وأفكارهم، ويبدو أنّ الحسن في هذه الخطبة لم يرغب بالرّدّ عليه فحسب، بل رام إلى توسيع دائرة الخطاب الحجاجيّ إلى مناصري معاوية من الحاضرين في مجلسه، ولربّما ليصل إلى الغائبين عنه كذلك، حتّى يتمكّن من بلوغ غاياته ومقاصده، فارتكز على التّكرار الحجاجيّ للجملة الإسمية(أنا ابنُ) بوصفها وسيلة بلاغيّة حجاجيّة تنزل التّيقين والإيمان لدى معاوية وأصحابه بأحقيَّة الحسن بالخلافة، إذ قام هذا التّرديد بتحريك نسق الاستدلال لتحقيق الإقناع بشرف النّسب، وعلوّ المنزلة الّتي يحظى بها الخطيب، فيكفي للحسن أن يكون ابن النّبيّ الأمين(ص)، وهذا أحال إلى مواجهة قياس تلويحيّة قامت بضرب مسامع المتلقّي وجمهوره، وإنعاش ذاكرته بانتسابه إلى رأس الفتنة أبي سفيان، فهذا المعنى كان مقصودًا وهدفًا مرسومًا، من خلال مناظرة افتخر بها الخطيب، والّذي استند إلى تكرار المعنى بأكثر من صورة تعبيريّة أحالت كلّها إلى انتسابه للبيت المحمّديّ،

[1] خطب المحافل والمقامات في العصر الأموي، د.غانم جواد رضا الحسن، دار صادر- بيروت، دار الكتب العراقية،بغداد،ط١،٢٠١٢ :١٧٥.

ليعمل بهذه الحجّة على حصد القناعة التّامّة بأنّه من خير الورى وأفضل من خصمه نسبًا وحسبًا، ومنزلة ودينًا؛ بوصفه امتدادًا لشخص الرّسول(ص)، الّذي اجتمعت فيه الفضائل والمحامد، فهم كبار دون تكابر، وعظام دون تعاظم، فأدّى هذا التّكرار اللفظيّ والمعنويّ وظيفة بلاغيّة حجاجيّة واضحة، فالتّكرار في الخطبة ما هو إلّا ضربات مكثّفة للجهر بالحقائق الّتي رجّحت كفّة الحسن على خصمه، فهو إلحاح على جهة مهمّة من العبارة، يُعنى بها الشّاعر أو الكاتب أكثر من عنايته بسواها سواء أكانت حرفًا أو كلمة أو جملة، وهو بذلك ذو دلالة نفسيّة قيمة، تفيد النّاقد الأدبيّ الّذي يدرس النّصّ، ويحلل نفسيّة كاتبه، إذ يضع التّكرار في أيدينا مفتاح الفكرة المتسلّطة فيه[١]، ويفيد تقوية الصّورة، ويشيع في النّصّ جوًّا عاطفيًّا غامضًا[٢]، وأنّه ساعد في خلق بنية صوتيّة وعاطفيّة في طيّات الخطبة، فحقّق "الاستمراريّة في الكلام بحيث يتواصل الحديث عن الشّيء نفسه بالمحافظة على الوصف الأوّل أو بتغيير ذلك الوصف، ويتقدّم التّكرار لتوليد الحجّة وإيضاحها"[٣]، فضلًا عن أنّ التّتابع أفرز نوعًا من الإثارة لأحاسيس السّامعين، وصنع صدمة لتوقّعاتهم، ممّا جعلهم في دائرة اجتذاب وتحفيز وترقب لما سيقوله الخطيب، فأضفى هذا التّتابع على الخطاب طاقة حجاجيّة أسهمت بحركة العمليّة التّواصليّة الّتي سعى إليها الخطيب لتفنيد ما جاء به الخصم.

إذن التّكرار ليس إلّا ضربًا من آليّات تحويل المواقف وتغييرها، أو تثبيتها، فيعمل

---

(١) ينظر:ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل،عصام شرتح،موقع الكتاب العرب على الأنترنت: ٩.

(٢) ينظر:جرس الألفاظ في البحث البلاغي والنقدي،د.ماهر مهدي هلال،دار الرشيد للنشر، العراق ، ١٩٨٠: ٢٦٠.

(٣) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب(دراسة معجمية)،د.نعمان بوقرة، جدار للكتاب العالمي،ط٢،عمان-الأردن، ٢٠١٠: ١٠٠.

على تقوية الفعل في العقول، ووقوع الإيمان في القلوب، والإقرار بالحجّة على أنّها حقيقة مسلّم بها، فجعل هنا النّدم حادًا في نفس ابن أبي سفيان، وردّه حسيرًا؛ لأنّه تعرّض إلى شخص الحسن(ع).

ومن ذلك التّكرار ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) المتوفّى(١٠١هـ) في النّاس في بداية عهده بالخلافة قائلًا: **"أوصيكم بتقوى الله، فإنّ تقوى الله خلف من كلّ شيءٍ، وليس من تقوى الله عزّ وجلّ خلفٌ، واعملوا لآخرتكم، فإنّه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيّتكم.."**[١].

لقد كان عمر بن عبد العزيز رجلًا مختلفًا عمّن سبقه من الخلفاء الأمويين، دينًا وخلقًا وأدبًا وخطابةً، فأغلب السّابقين واللاحقين له كانوا يبدؤون خطبهم بلغة التّهديد والوعيد لا بلغة الحوار والوعظ إلّا ما ندر.

لكنّ الأمر اختلف تمامًا مع ابن عبد العزيز، الخليفة العادل الّذي كان عازمًا على التّغيير الإصلاحيّ الشّامل في إدارة الدّولة حتّى في جانبها الإعلاميّ وخطابها السّياسيّ، إذ سعى من مقدّمة مقبولة لدى السّامعين وقناعاتهم وعواطفهم تعزيز حضور دلالاتها في أذهانهم، والخضوع للدّعوى الّتي رام التّأسيس لها في خطابه، وبواسطة (الباتوس) الأرسطيّ، الّذي يحظى بمنزلة كبيرة في بناء الخطاب الحجاجيّ، وبناءً عليه فإنّ البلاغة الحجاجيّة الّتي تنطلق من مبدأ أولويّة العواطف على العقل في توجيه الأحكام والتزام القرارات، لا تقتصر على الحجج العقليّة والمنطقيّة، بل تتّجه نحو الحجج العاطفيّة الّتي تؤدّي وظيفة حاسمة في هذا

[١] العقد الفريد،أحمد بن محمد ابن عبد ربّه الأندلسي(٣٢٨هـ)،تحقيق:مفيد محمد قميحة،دار الكتب العلمية ،بيروت-لبنان،ط١، ١٩٨٩م، ج٢: ١٤٢.

المجال[1]، ولهذا بدأ خطبته في بداية عهده بجوهر دينيّ يقوم على وعظ الرّعيّة وترغيبها بالطّاعة والعبادة لا ترهيبها بحدّ السّيف، فالموعظة الدّينيّة خطاب قائم على الإثارة للأهواء والعاطفة النّفسيّة في المقام الأوّل كما يرى الدّكتور محمّد مشبال، وليس خفيًّا ما يظهر من تعمّد للتّكرار اللفظيّ لكلمة (تقوى الله، الآخرة) اللتين تحملان أبعادًا دينيّة محضة، تذكّرهم بانصرام الدّنيا، وانقطاع الأجل لغاية تحقيق اليقين في قلوبهم بالتّوجّه نحو الصّلاح و الاتّعاظ بإيمان راسخ، ليسلكوا سبل الرّشاد والاستقامة، استعدادًا ليوم البعث والحساب، ويبدو أنّ هذا الإلحاح على هذه الكلمات أعطى فيضًا روحيًّا ومعرفيًّا في أذهان السّامعين لحثّهم على ذلك، فـ"الخطاب الحجاجيّ العربيّ يعتمد في الإقناع على العرض اللغويّ للدّعاوى الحجاجيّة بتكريرها وصياغتها موازية، وإلباسها إيقاعات نغميّة بنائيّة متكرّرة، وترى أنّ هذا الطّرز من الحجاج هو نتيجة للمركزيّة الثّقافيّة للّغة العربيّة في المجتمع العربيّ الإسلاميّ"[2]، فقدّم الخطيب أطروحة متكرّرة برؤية مختلفة الزّوايا، أسهمت ببعد تربويّ يهدف إلى الإصلاح الدّينيّ والأخلاقيّ في المجتمع، لتتحوّل إلى مركز ثقل دلاليّ لديهم ينتج السّلوك العمليّ بعد أن منحها (التّكرار) طاقة حجاجيّة بضرورة التّمسّك بتعاليم الدّين، وتقوى الله، والتّفكّر بيوم تشخص فيه الأبصار، إذ لا ينفع مال ولا بنون، "فيكون التّكرير منبعثًا عن المثير النّفسيّ مفضيًا إلى نفس المخاطب بأثره، والتّكرير الحاصل نتيجة له وقعه، إذ يدقّ اللفظ بعدما يتكرّر أبوابًا موحيًا بالاهتمام الخاصّ بمدلوله، فيشعل شعور المخاطب إن كان

---

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٥٧.

(٢) النص والخطاب والاتصال، د.محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥: ٢٣٤.

خافتًا، ويوقظ عاطفته إن كانت غافية"[١]، وأخيرًا كأنّ ابن عبد العزيز أشار ضمنيًّا إلى ابتعاد المجتمع الإسلاميّ في تلك الفترة عن قيم الدّين، والرّسالة المحمّديّة، فقرع أسماعهم لهدايتهم، وردّهم إلى طريق الصّلاح والهدى.

ومن عيون الخطب الّتي شغل التّكرار فيها حيّزًا كبيرًا ومهمًا خطبة ابن الزّبير(رضي الله عنه) في أهل مكّة، حيث عظّم مقتل الحسين(ع)، وعاب على أهل الكوفة خاصّة، ولام أهل العراق عامّة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النّبيّ(ص): **"إنّ أهل العراق غدرٌ فجرٌ إلّا قليلًا، وإنّ أهل الكوفة شرار أهل العراق، وإنّهم دعوا حسينًا ينصروه ويولّوه عليهم، فلمّا قدم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له إمّا أن تضع يدك في أيدينا، فنبعث بك إلى ابن زياد بن سميّة سلمًا فيمضي فيك حكمه، وإمّا أن تحارب، فرأى والله أنّه هو وأصحابه قليل في كثير- وإن كان الله عزّ وجلّ لم يطلع على الغيب أحدًا-أنّه مقتول، ولكنّه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذّميمة، فرحم الله حسينًا، وأخزى قاتل الحسين"**[٢].

لقد أجهز ابن الزّبير على أهل العراق في خطبته هذه، والحقّ أنّه أراد التّوبيخ والتّقريع على خذلانهم للحسين(عليه السّلام)، فما كان له إلاّ التّكرار سبيلٌ لذلك من بداية الخطبة، فعمد إلى تكرار أداة التوكيد (إنّ)، الّتي هيمنت على سياق مفاصل الكلام سواء أكان الحديث يتعلّق بهم، أو بالحسين، ويبدو هذا التّكرار كان بمنزلة صرخة نفسيّة شديدة من أعماق الخطيب اكتنزت على دلالات غضب وإيلام على الّذين خذلوا الحسين، وضرورة الاقتصاص من القتلة، والوقوف بوجههم، ليتواءم ترداد (إنّ) بطريقة متناسقة أوحت بعظمة ذلك المصاب، انتزع بها إذعان عواطف

---

[١] التكرير بين المثير والتأثير، السيد عز الدين علي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة،١٩٧٨: ٢١٢

[٢] جمهرة خطب العرب: ١٦٨.

الجمهور، وتعزيز موقفهم بما يريده الخطيب، فأدّت وظيفة الإفصاح عن مشاعر الخطيب تجاه أهل العراق، ويحتمل أن يكون هذا الإلحاح على ترداد الأداة مفتاحًا للفكرة الّتي أشاعت جوًّا عاطفيًّا غائمًا بالحزن، إذ هي ضربات دلاليّة موجّهة للإدراك، فالتّكرار لأدوات وكلمات وحروف معيّنة، يقوم بأثر كبير في الخطاب الاقناعيّ؛ لأنّها تُعدّ وسائل ضغط على دلالة محدّدة ومستهدفة، فالتّكرار "إنّما يتأتّى لما اهتمّ من الأمر ويصرف العناية إليه ليثبت ويُقرّر"[1]، فهنا أسهم تكرار أداة التّوكيد في تقرير المعنى في أذهان السّامعين بفظاعة صفات أهل العراق وشناعتها، ونكثهم للوعود والعهود، وإيقاظ أحاسيسهم بهول مصرع الحسين، والنّكبة الّتي تتعرّض لها الأمّة بخيانتها لسبط رسول الله(ص)، فضلًا عن دلالة الحسرة والتّوجّع الّتي أبان عنها ابن الزّبير من خلال عاطفته التي ظهرت مشعّة في كلامه، والّتي انفتحت بشكلٍ ما على دلالة إقناع المخاطبين بضرورة الوقوف والنّهوض أمام المدّ الأمويّ وجسارته، الّذي سيعصف بالدّين في حال إقرار المسلمين بشرعيّة تلك الأعمال والمظالم، وهذا ما دفع أصحابه بعد أن انتهى من خطبته إلى دعوته لإظهار البيعة له كما يروي صاحب الجمهرة، ولاسيّما أنّه لم يبق أحد أفضل منه دينًا، ومنزلة، ونسبًا، وشرفًا بعد استشهاد الحسين.

فالخطبة وإن جاءت بطابع الرّثاء للحسين إلّا أنّها تمخّضت عن خطاب حجاجيّ يفرض على السّامعين دوافع نفسيّة وشعوريّة نحو الانتفاض ضدّ حكم البيت الأمويّ، وخلع خليفته بعد إقدامه على قتله الحسين بصورة مروّعة وفظيعة، وبعيدة كلّ البعد عن معاني الإسلام والمسلمين، فترك خطابه في نفوس المتلقّين اضطرابًا شعوريًّا جسيمًا بخطورة السّكوت والتّواطؤ مع هذه السّلطة، وبآليّة بلاغيّة اتّخذ منها

---

[1] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٥.

ابن الزّبير مجالًا حجاجيًّا وجدانيًّا مقنعًا، نفذ به إلى أذهان السّامعين وقلوبهم، فالتّكرار نوع خاصّ من الاستعمال تستلزمه العبارة لأغراض فنّيّة، ونفسيّة، واجتماعيّة، ودينيّة[١]، تستهدف الإقناع بقضيّة ما.

## ٢-الاستفهام:

وهو مشتقّ من الفهم، والعلم والمعرفة بالقلب، يقال: فهمت الشّيء[٢]، وللاستفهام بعدٌ حجاجيّ يجري من كونه آليّة تواتر افتتاحيّات استفهاميّة استعلاميّة يتقرّر على أثرها ردّ إمّا بوساطة المستفهم ذاته أو من خلال جواب آخر في حواريّة ثابتة، والخطابة واحدة من فنون القول التي تأخذ قوّة تأثيرها من البناء الاستفهاميّ، الّذي يقتضي بديهيّة عالية بين طرفي الخطبة، لاستقطاب المستمعين في عملية الاستدلال، فيكون لهم أثر في الاشتراك ببناء الخطاب الحجاجيّ بحكم قوّة الاستفهام وخصائصه، الّتي تشدّ من وعي المتلقّين وتضرب أذهانهم أثناء الخطاب، وقد أكّد الفلاسفة اليونان أنّ الاستفهام يكشف عن أجوبة مسكوت عنها، ومضمرة ومتوهّمة لدى المخاطب، غير أنّه لما كان الجواب عند (أفلاطون) مثلًا متأتّيًا من عالم المثل والأفكار، فإنّ الإشكال بجميع أنواعه يُقصى ولا يبقى للسّؤال، أو الاستفهام إلّا المجال البلاغيّ الصّرف، وحاول المحدثون وأبرزهم(ميشال مايير) لإعادة النّظر في الفلسفة اليونانيّة القديمة، الّتي اعتنت بالبحث عن الحقيقة، فذهب (مايير) إلى ما له صلة واضحة بالحجاج لدراسة دلالة الاستفهام الإقناعيّة[٣]، فكلّ عمليّة تساؤل تؤدّي بالمتلقّي إلى إعلان موقف ما إزاء ذلك السّؤال المطروح، فيرى الدّكتور أبو

---

(١) الإعجاز الفني في القرآن،عمر السلامي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، قرطاج، ١٩٨٠: ٢٣١.

(٢) ينظر: لسان العرب: مادة(فهم).

(٣) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٤٠.

بكر العزّاويّ (الاستفهام الحجاجيّ)"نمط من الاستفهام يستلزم تأويل القول المراد تحليله، انطلاقًا من قيمته الحجاجيّة"[1]، فالاستفهام يصنع لولبًا لحركة ذهنيّة تحثّ المتلقي على اندفاع عقليّ في البحث عن إجابة، وفي صورة تساؤل فكريّ يولّد حجاجًا ضمنيًّا بشرط الإحاطة بسياق السّؤال وصيغته في عمليّة صناعة الخطاب الاستفهاميّ، ولهذا أطلق(بلونتين) تسمية(السّؤال البلاغيّ) غير الحقيقيّ على الاستفهام الحجاجيّ، أو السّؤال الحجاجيّ، فهو آليّة حجاجيّة يأتي فيها السّؤال عوضًا عن جملة خبريّة منفيّة، أو مثبتة، تكمن فيها الشّحنة الحجاجيّة في تحقيق الإذعان والإقناع[2]، ولا شكّ في أنّ الخطباء في العصر الأمويّ قد حفلت خطبهم بهذه التّقانة الحجاجيّة المؤثّرة، فقد طغت على الكثير من مجالسهم ومحافلهم ومحاوراتهم، وكان التّساؤل يطفح في كلامهم لغايات التّيقين والاستمالة، ومن ذلك خطبة الحسين(ع)، قوله: **"هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسول الله بما جاء من عند ربّه؟ أوليس الحمزة سيّد الشّهداء عمّي؟ أوليس جعفر الشّهيد الطّيّار ذو الجناحين عمّي؟"**[3].

بهذا النّمط طرح الحسين(ع) جملة من الحقائق بأسلوب استفهاميّ تقريريّ أوحى بدلالة التّعجّب ليقرّر على سامعيه حرمة قتله وعظمة إثمها، فجاء هذا التّتابع الاستفهاميّ بإطار تقريريّ ليحمل المخاطب على التّفكّر والإذعان لأمر قد ثبت واستقرّ ولا جدال فيه، فيبدو أنّه أشار إليهم بعظمة مكانته ومنزلته ونسبه، فضلًا عن سلوكه طريق غير مباشر إلى التّعريف، واستحالة أن يمتلك أحد هذه المنزلة

---

[1] الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب، بيروت، ط١، ٢٠١٠: ٥٧.
[2] ينظر:الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٤٢٥.
[3] تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري(٣١٠هـ)،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ،مصر،ط٥، ج٥ :٤٢٤-٤٢٥.

الفضلى، والّتي لا يستطيع أن ينازعه فيها السّامعون، ممّا جعلهم في أزمة عقائديّة ودينيّة وأخلاقيّة أثناء الحوار؛ وليؤكّد هذا عبّر عن ذلك بالاستفهام التّقريريّ، الّذي كشف زيف من ادّعى التّديّن والتّقوى، وهو لا يدرك ولا يعي قدسيّة دماء الخطيب ذات النّسب المحمّدي العلويّ الفاطميّ الهاشميّ، فكانت القيمة النّاتجة عن بنية الاستفهام التقريريّ أشدّ تأثيرًا وإقناعًا للمتلقّين، وأقوى حجّة في نفوسهم، لأسباب تعود إلى سمة اختصاصه بإنجاز العمل الحجاجيّ[1]، ولهذا كان للاستفهام فائدة الاستنتاج وإقرار الخصم بتلك الحقائق، وجرّه إلى واقع الاعتراف بما ورد من أدلّة وبراهين شحنها الفضاء الاستفهاميّ المكثّف بطاقة حركيّة أعمق وأخطر دلالة من البحث عن إجابات، إذ نرى كما يتّضح أنّ بنية الاستفهام من أهمّ البنى الحجاجيّة، الّتي تنتصر للفكرة، وتدعم التّوجيه الإقناعيّ للخطاب، إذ نرى أنّ أسلوب الاستفهام الإنكاريّ كيان استكشافيّ معرفيّ يوجّه المخاطبين إلى الاستنتاج والاستنباط، ومن استعمالات الاستفهام الحجاجيّ ما ورد في خطبة الحجّاج (٩٥هـ) في أهل العراق بعد واقعة(دير الجماجم)، قوله:" **فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز؟....يا أهل العراق، هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر زافر إلاّ كنتم أتباعه وأنصاره؟ يا أهل العراق: ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع؟**"[2].

لا يخفى هذا التّحشيد المكثّف لتساؤلات عديدة من الخطيب، الّذي أضفى عليها طابع التّبكيت والتّعنيف في مفاصل الخطبة، والاستلزام الاستفهاميّ بـ(كيف) الّتي تُستعمل للسّؤال عن الحال، يوحي للمتلقّين بأنّهم لا تنفع معهم حيلة ولا وسيلة، ولا

---

[1] ينظر: السؤال البلاغي(الإنشاء والتأويل)،بسمة بلحاج، رحومة الشكيلي، دار محمد علي، تونس، ط١، ٢٠٠٧: ٨-٩.

[2] جمهرة خطب العرب: ٢٩٣-٢٩٤.

تجربة ولا عظة، ولا إسلام أو بيان، لينفتح فيما بعد على مجموعة كثيرة من التّساؤلات الّتي تحثّهم على حركة تأمّليّة وفكريّة للبحث عن إجابات تدور حول ما يتّفق مع رؤى الخطيب وتصوّراته، ليؤدّي بهم إلى الإذعان والتّسليم، وإن كان نسبيًّا في إثبات الدّعوى، فإثارة "السّؤال أو الاستدعاء له فإنّه يؤكّد بالضّرورة نقاشًا ومن ثمّة حجاجًا، فإذا بالكلام والحجاج يتّصلان على نحو عميق، وإذا بالحجاج ماثل في كلّ نوع من أنواع الخطاب"[1]،ومن هنا ندرك مدى أهمّيّة الاستفهام في الخطبة؛ لأنّ أيّة إجابة مهما كان نوعها لابدّ أن تسلّم بافتراضات مسبقة من الخطيب، فنرى أنّه ينكر عليهم ثوراتهم وحركاتهم المعارضة لحكمه، وعدم اعتبارهم بأيّ أمر، فالحركات الثّوريّة كانت مستمرة عند أهل العراق ضدّ ولايته، وهنا يبدو أنّ الاستفهام وإن جاء بظاهر الاستفسار إلاّ أنّه لم يطلب الخبر، بل يدفع على إقرار السّامعين، وحملهم على التّصديق والإذعان، ليضعهم أمام تبعات تلك الثّورات، ويجرّهم إلى التّسليم بما حلّ فيهم من أحداث ووقائع فتكت بهم وأهلكت أنفسهم، نظرًا لأنّهم يناصرون أيّ قائم، ويشايعون كلّ معارض ضدّ حكم الخلافة الأمويّة، فأفاد الاستفهام التّحقيق والتّيقين بالموقف الّذي يتوجّب على الحجّاج اتّخاذه منهم، ممّا عزّز الإثبات والشّرعيّة لقمع تلك الحركات، فنلاحظ أنّ تكرار بنية الاستفهام في أجزاء مفاصل الخطبة قدّم الخطاب بقوّة بلاغيّة حجاجيّة قامت بتحريك نسق التّوتّر عند المتلقّين، فضلًا عن شدّ انتباههم نحو الاعتقاد بشخصيّة الخطيب الدّمويّة الّذي يستولي على دقّة الحكم آنذاك، فـ"الحظوة تشكّل أحد الأسس الّتي يبنى عليها الحجاج في البلاغة؛ فقد شكّلت القيمة التي يحظى بها عند المتلقّي شخص ما، أو مجموعة أشخاص، أو فئة جزءًا من بناء فعاليّة الإقناع"[2]، الّذي

(1) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٤١.
(2) في بلاغة الحجاج: ١٣٣.

يدعم دعواه وأطروحته في الخطاب، ممّا ترك ترهيبًا كبيرًا، ووعيدًا مفزعًا في نفوسهم، أثبت في قلوبهم وجلًا من القيام، أو نصرة الثّائرين ضدّ حكمه مجدّدًا، لانتفاء المُرجى من ذلك بناءً على تجارب سابقة لم يحصدوا فيها شيئًا من مرادهم، ولاسيّما أنّه أقرّ ذلك بلجوئه إلى الاستفهام بالهمزة آخر النّصّ، الّذي منح الخطبة بعدًا تقريريًّا للحجاج، وثبات الاعتقاد في أذهان أهل العراق بحتميّة إخفاق تلك الثّورات وفشلها عن تحقيق أهدافها، فضلًا عن حقيقة ردع كلّ قائم يناهض البلاط الأمويّ، ومن هنا كان الاستفهام ضربًا من الإثبات غير المباشر لدلالات أرادها الحجّاج لحملهم على الإذعان والتّسليم بناءً على فضاء الحجاج العنيف للخطاب.

تتوالى في خطب الخوارج بُنى الاستفهام الحجاجيّ بشكل كبير جدًا، ولعلّ هذا يعود إلى الهوّة الضّخمة، والفجوة الواسعة بين عقائدهم وطقوسهم، وعقائد بقيّة المذاهب من المسلمين، ولهذا نلتمس كثرة الأغراض المجازيّة الّتي تخرج إلى معنى التّقرير والتّوبيخ إذا كانت خطبهم موجّهة إلى الخصوم من غير ملّتهم، في حين يتغيّر الأمر إذا كان الخطاب موجّه إلى أنصارهم فيكون أكثره للإيلام والتّأنيب لبعض المتثاقلين والمتخاذلين من رجالهم في الخروج لمواجهة أعدائهم، ومن ذلك يقول صالح بن مسرح (٧٦هـ) الّذي أنكر على رجاله التّثاقل في الخروج للقتال: **"ما أدري ماذا تنتظرون؟ حتّى متى أنتم مقيمون؟ وهذا الجور قد فشا، وهذا العدل قد عفا..."** (١).

يتساءل الخطيب ببناء استفهاميّ حجاجيّ قرّع فيه أسماع أصحابه لتقاعسهم عن نصرته، وتثاقلهم عن الخروج للقتال، فجاء للتّأنيب وتحريك أحاسيسهم، وزجر انتظارهم الممقوت أمام تفشّي مظاهر الظّلم وشيوع صور الباطل، وانحسار قيم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٢١٨.

الحقّ والعدل آنذاك، فالبنية الاستفهاميّة جعلت من المتلقين في حالة الإذعان، فهو عضّدها بحزمة من الحجج تمسّ الشّرائع الدّينيّة الّتي كان يتشدّد لها الخوارج لأنّهم يعتقدون أنّ **"من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكّ بأنّه كافر فهو كافر"**[١]، فصنع خطابًا حجاجيًّا ثقيل الوقع من خلال دمجهم والتّواصل معهم في هذه البنية، لذا فالخطيب كان واعيًا بضرورة إبراز هذه القيم لتدعيم موقفه الاستفهاميّ ودلالته المرجوّة، وتعزيز حجّته عليهم، فأصبحت فيه التّساؤلات ضربًا من التّقريع الشّديد للأصحاب والأتباع، فالموجّه الاستفهاميّ له خطورة بلاغيّة وحجاجيّة كبيرة، لأنّه يفترض موضوعًا ما، وانطلاقًا منه يتوقّع أنّ ثمّة اتّفاقًا حول إرادات محدّدة وتأكيدات ضمنية لفكرة واحدة بين الخطيب والسّامعين[٢]، فالاستفهام يجعل الخطاب ذا طابع حجاجيّ؛ لأنّ أيّ إجابة قد تسلّم بافتراضات الخطيب المسبقة وتقرّ ضمنيًّا بصحّتها، والتّيقين بدعواها[٣]، فنلحظ أنّ الطّاقة الحجاجيّة الإقناعيّة قد تكمن في استقطاب الجمهور نحو اتّخاذ موقف يتناغم مع قناعات الخطيب ورغباته حول إشكال ما، وهذا من شأنه أن يشحن الخطاب بخاصّية إقناعيّة، تؤسّس بؤرًا دلاليّة تجتذب السّامعين لتؤدّي عملًا مهمًّا في إعادة إنتاج المعنى الّذي يروم إليه الخطيب، وقد نبّه (بيرلمان) إلى أنّ الموجّه الاستفهاميّ والشّحنة الحجاجيّة فيه تنبع من مدى عمق السّؤال المطروح وذكائه من جهة، والجواب المنتظر من جهة أخرى، والعمق هنا لا يعني الغموض والإبهام؛ لأنّ ذلك

---

(١) الأغاني،أبو الفرج الأصفهاني(٣٥٦هـ)، تحقيق وضبط:الشيخ عبدالله العلايلي، دار الثقافة، بيروت،ط ٣،ج٢٣ : ١١٥.

(٢) ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة(بحث في بلاغة النقد المعاصر)، د.محمد سالم محمد الأمين، دار الكتب الجديد المتحدة، ط١،٢٠٠٨ :١١٦-١١٧.

(٣) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٤٣.

من شأنه؛ أن يشتّت انتباه المعنيين[١]، وقد عمد الخطيب صالح بن مسرح إلى ذلك الاستفهام لتحفيز الأتباع، وبعث روح الرّغبة والاندفاع نحو الخروج للقتال بعد تقريع شديد لمس عقائدهم الدّينيّة، ممّا يزيد ذلك من انفعالهم النّفسيّ إزاء القضيّة المطروحة، الّتي تهدف إلى إقامة الحقّ ودحض الباطل، وتطبيق شرائع العدل الإلهيّ ونشره في المجتمع الإسلاميّ.

**٣-الأمـــــر:**

بإيجاز هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء[٢]، وقد يخرج إلى أمور مجازيّة أخرى، واعتنى الحجاجيّون بالفعل وعلاقته بالقول، وبيان مدى تأثيره فيه، فهو أحد أعمدة الحجاج في اللغة، وكما يؤكّد أبو بكر العزّاوي أنّ لفعل الأمر قوة إنجازيّة حجاجيّة بقوله:"أمّا بالنّسبة لفعل الأمر، فإنّ انجازه يتمثّل في محاولة دفع المخاطب للقيام بفعلٍ معيّن، ومعلوم أنّ المتكلّم لا يصدر أمرًا إلى من هو أمامه إلّا إذا كان راغبًا فعلًا أن ينفّذه، ومعلوم أيضًا أنّه لا يمكن أن يصدر أمرًا إلى مخاطبه إلّا إذا كان قادرًا على ممارسة سلطته ونفوذه عليه"[٣]، لذا فهو فعل له قوّة نفوذ عالية تهيمن على إرادة المتلقي في سياق الخطاب، وتدفعه نحو لزوم القيام به دون أن يعتريه رفض، أو مقاومة، أو اعتراض، لاسيّما إذا ما تعضّد بسلطة الخطيب وموقعه الرّسميّ، فيتّضح لنا أنّ دلالة الأمر ليست لغويّة محضة، بل لغويّة تداوليّة، فاللغة كما يذهب (بيرلمان)"ليست تواصل فحسب، بل إنّها أيضًا أداة تأثير في

---

[١] ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١١٦.

[٢] ينظر: الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ابن طباطبا العلوي، تحقيق:يحيى بن إبراهيم العلوي،مطبعة المقتطف، مصر،(د.ط)،ج٣: ٢٨٢-٢٨٢.

[٣] اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، دار الأحمدية، الدار البيضاء، المغرب،ط١، ٢٠٠٦م: ١٢٣.

النّفوس ووسيلة إقناع"[١]، فيظهر جليًّا ذلك التّأثير الإنجازيّ على المتلقّي وتوجيهه نحو سلوك معيّن يرغب به الخطيب، لتحقيق الإذعان والتّصديق، والقيام بالفعل الّذي يرد في الخطاب، فالوظيفة الانفعاليّة تظهر كثيرًا مع صيغة الأمر، والإنسان قد يسخّر اللغة أحيانًا لإخراج انفعالات تضطرب بها نفسه كما يفعل الشّاعر، ولهذا نجد تردّد هذه الصّيغة كثيرًا في خطب العصر الأمويّ حتّى باتت سمة أسلوبيّة بارزة لها، سواء أكانت دينيّة، أو سياسيّة، لقيام تلك الخطب على الجدال الّذي يحظى بالانفعالات الذّاتيّة أثناء الحوار لإثبات الحجّة، وإلقاء الأدلّة والبراهين، ومن ذلك خطبة عبدالله بن الزّبير في أصحابه عندما حاصره بنو أميّة في بيت الله الحرام:"**غضّوا أبصاركم من البارقة، وليشغل كلّ امرئ قرنه....ولا يلهينّكم السّؤال عنّي**"[٢].

إذ يظهر واضحًا ترداد فعل الأمر على مستوى عبارتين قصيرتين، فجاء الفعل الأمريّ (غضّوا)، ثمّ أردفه بفعل مضارع مقرون بلام الأمر(ليشغل) زيادةً لتوكيد أوامره للجند، لدفعهم وحثّهم على الالتزام بالتّوجيهات الحربيّة، وإلزاميّة الأخذ بها، فالقوّة الإنجازيّة للأمر دفعت إلى إرشاد المخاطبين وتوجيههم إلى الأهمّ في أثناء وقوع الاشتباك مع العدوّ، فضلًا عن عطف الخطيب تلك الأوامر بنهي (لا يلهينّكم) خرج إلى الدّلالة نفسها، لزيادة حملهم على القيام بالفعل، الّذي سيمنع وقوع الهزيمة والانكسار في المعركة مع جيش البلاط الأمويّ، فأضفت هذه الأوامر مع صيغة أسلوب النّهي بعدًا إقناعيًّا لدى الجند بخطورة المشهد، وصعوبة الموقف الحربيّ القائم، وحملهم على الإقناع بضرورة الثّبات والمقاومة، ولاسيّما أنّ ابن الزّبير يحظى بمكانة عليا في نفوسهم لقرب نسبه من رسول الله(ص)، فهو يمثّل الحاكم

[١] الحجاج في الخطابة النبويّة:١٥١.
[٢] تاريخ الرسل والملوك،الطبري،ج٦: ١٩١.

الشّرعيّ في نفوس أصحابه، ممّا يقتضي الأخذ بأوامره والتّمسّك بها، فصيغة الأمر لا تقف عند حدود الحركيّة الفاعلة الّتي تتمتع بها أفعال الأمر بوصفها أفعالًا تتصاعد فيها نبرة التّوتّر باتّجاه المخاطب، لكنّها تكتسب أبعادًا حجاجيّة أخرى، حين يتعمّد إلى إدخالها ضمن سياق خطابيّ تتجاوب فيه الشّخصيّات، الأمر الّذي يجعل الصّورة الكلّيّة أكثر توازنًا وانسجامًا وتحقيقًا، ولهذا شدّد (بيرلمان) على منزلة المحاجج الأمريّ، الّتي تؤدّي وظيفة تيقينيّة في الإلزام الحجاجيّ؛ بهدف تحقيق الإقناع الّذي يمنح الخطاب حتميّة التّنفيذ والصّيرورة.

أمّا في خطب العلويين فترد بنية الأمر بصورة واسعة في رقعة خطبهم، ولعلّ مردّ هذا يرجع إلى علياء منزلتهم، وشرف مكانتهم على بقية المسلمين، فتكثر عندهم الأوامر التّوجيهيّة والوعظيّة والقتاليّة وغيرها، ومن ذلك خطبة السّيّدة أم كلثوم بن عليّ(ع) في أهل الكوفة بعد استشهاد الحسين(ع)**:"يا أهل الكوفة، يا أهل الختر والخذل،....... أتبكون؟ إي والله فابكوا، وإنّكم والله أحرياء بالبكاء، فابكوا كثيرًا، واضحكوا قليلًا، فلقد فزتم بعارها وشنارها"**[1].

إنّ صيغة الأمر المتكرّرة في هذا النّصّ ارتبطت بدلالة الإيلام والتوبيخ لأهل الكوفة، فما كانت الصّيغ الأمريّة إلّا خطاب بلاغيّ حجاجيّ معضّد بالنّداءات، فانفتح على معانٍ أشعرت المخاطبين بظلمهم، وخيانتهم، وتخاذلهم، وقبح غدرهم لسليل النّبوّة، وابن بنت نبيّهم، ومن شأن هذه العلامات أن تزيد من قوّة تأثير الحجّة والبرهان على تواطؤهم مع قتلة الحسين، فزاد من حدّة التّقريع لهم، ودفعهم إلى الشّعور بالذّنب والحسرة على ما أقدموا عليه من الخذلان الفظيع.

---

(١) الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع: ٢٣٩.

*الشّنار:القبح والشّنعة.

ولا يخفى على أحد أنّ تناص تلك الأفعال الإلزاميّة مع قوله تعالى: "**فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا**"{التوبة:٨٢}، قام بتدعيم الحجّة، فالنّصّ القرآنيّ له الثقل الكبير، والدّلالة الثّابتة المقدّسة لدى المسلمين جميعًا، ممّا أضفى سمة حجاجيّة على الخطاب، فحقّق قناعة مطلقة بخيانتهم لإمام الإصلاح ونورهم الهادي إلى الّتي هي أقوم، وهذا انتهى بهم إلى البكاء والنّحيب على مقتله أولًا، وصحوة ضمائرهم ويقظة نفوسهم ثانيًا، كلّ هذا لأنّهم كانوا جديرين بذلك بعدما ما قدموا عليه من فعل ممقوت وموبوق، والّذي زاد من شدّة وقع الخطاب الأمريّ أنّ هذه الآية نزلت على المتخلّفين عن الجهاد، الّذين لم ينفروا مع رسول الله(ص) إلى القتال، فجاءت لتبشيرهم بقصر فرحتهم، وطول شقائهم، لقعودهم في منازلهم وتخلّفهم عن النّبيّ(ص)، فيتّضح من ذلك أنّ فاعليّة صيغة الأمر في تداخلها مع صيغ خارجيّة دينيّة مقدّسة أعطت حركيّة صعّدت من نبرات التّوتّر والاضطراب لدى السّامعين، وذلك لأنّ "صيغتي الأمر والنّهي تحملان معنى دعوّة ومن ثمّة تبدو صلتهما بالحجاج وثيقة لكونهما يهدفان إلى توجيه المتلقي لسلوك معيّن تحدّده أطروحات الأديب"[1]، ولهذا تجاوبت معها نفوسهم، وخضعت لها مشاعرهم، وهاجت إليها أحاسيسهم، واستدعت منهم الوقوف والتأمّل والتّدبّر، والتّحسّر على ما فاتهم.

أمّا الخوارج فلم يختلفوا كثيرًا عن بقيّة المذاهب في ميلهم لبنية الأمر، فهذا صالح بن مسرح الخارجيّ يقول: **"وهذه دواب لمحمد بن مروان، في هذا**

---

[1] الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٤٩.

**الرّستاق (موضع قرية)، فابدؤوا بها فشدّوا عليها، فاحملوا راجلكم وتقووا بها على عدوّكم"[١].**

على الرّغم من قصر هذا المقطع الخطابيّ إلّا أنّ الخطيب عمد فيه إلى تكرار صيغة الأمر لأربع مرّات متواليّة، ليذيع في نفوس أصحابه أمرًا واجب التّنفيذ، والّذي جاء فيه الخطاب الإلزاميّ متلائمًا مع مقام الخطبة، لدفعهم إلى المباغتة والسّرعة في الهجوم على كتائب الجيش الأمويّ، وهذه أمور من مسلّمات الحرب من أجل الظّفر بالنّصر، إذ خلقت هذه الأفعال جوًّا من التّرغيب والحماس والاندفاع لدى جنده، فالسّياق أفرز فعلًا إنجازيًّا عن طريق الموجّه الأمريّ للأفعال، الّذي اقتضى حتميّة الاستجابة، لمنطقيّة الصّيغة الأمريَّة المنسجمة مع مقتضى الحال، فالتّيقين بها كان واقعًا لا محالة، فالخطيب يمثّل الواجهة الإعلاميّة للقيادة العسكريّة، وناطقها الرّسميّ، لذا نجد أنّ التّحكّم في الإرادة وإنتاج الفعل جاء من المعرفة بأهواء المخاطبين، وبصورة الموجّه الإلزاميّ الّذي اكتسب الخطاب به قيمته الحجاجيّة، وفعاليّته من المكانة الّتي يحظى بها الخطيب، ومن السّمات الّتي تحدّد هويّته في وعي السّامعين؛ فتأثير الخطاب ينتزع قوّته من مكانة صاحبه، ونفوذه يأتي من تأثير صورته فيهم؛ أو بتعبير (برنارد بوفون) لا وجود لـ(لوجوس) مقنع من دون (إيتوس) مؤثر[٢]، أي بمعنى لا تيقين بالخطاب ولا تصديق ما لم يكن هنالك خطيب بارز يحظى بمكانة خاصّة، وعلى معرفة بأهواء وأفكار السّامعين، حتّى تحصل الثّقة فيه وفي خطابه من لدنهم، بوصفها نتيجة لصيغة الخطاب الأمريّ الحجاجيّ.

---

[١] شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ) تحقيق الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣م، ج١: ٤١٠.
[٢] ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٦٩.

ويخطب مسلم بن عبيس القائد الأمويّ في جنده قائلًا: **"وإنّي لأحارب أقوامًا إن ظفرت بهم فما وراءهم إلّا السّيوف والرّماح، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض، ومن أحبّ الحياة فليرجع"**[١].

استعمل الخطيب أسلوب الأمر بصيغة المضارع المقرون بلام الأمر، الّذي أوحى ظاهرًا بعدم إلزاميّة القيام بالفعل، ولا التّكليف به، ولكنّه سعى إلى ذلك بشكل خفيّ وبإطار بلاغيّ حجاجيّ ارتكز على التّلميح لا التّصريح، شدّ به الأذهان، وعلّق به الوجدان، بخلق نوع من الاختيار بين طريقين: الأوّل: الجهاد ويسلكه الشّجعان، والثّاني: حبّ الحياة والبقاء، ويسلكه الجبناء والضّعفاء، فألقى عليهم حجّة بالغة تدفعهم إلى سلك طريق الجهاد ففيه رضوان الله تعالى، فكانت القوّة الإنجازيّة مستندة إلى مفاهيم سلطة دينيّة يخضع لها السّامعين، وتذعن لها بصائرهم، كونه قائم على رغبة في الجهاد من جهة، ورهبة من التخلّف عنه من جهة أخرى، ممّا حملهم على التّسليم والإذعان لما أراده الخطيب فـ"المبدع يمتلك المقدرة على نقل أفكاره في أشكال وطرق متنوّعة، وعليه إنَّ الخاصّيّة اللغويّة يمكن أن تثير انفعالات متعدّدة ومتميّزة تبعًا للسّياق الّذي ترد فيه، وينتج أنَّ نفس الانفعال يمكن أن تثيره بوسائل أسلوبيّة متعدّدة"[٢]، لكون "الأمر فيه ترغيب في الفعل المأمور به ويقتضي الرّتبة"[٣] ، فهو قد طرح فكرتين مغايرتين، تعلقتا بفعلي الأمر(فلينهض، فليرجع)، حيث منحت هذه المعاني حركيّة ذهنيّة للمخاطبين بعدميّة الحياة الدّنيا وزوالها، ممّا بعث في نفوسهم الاندفاع نحو القتال وملاقاة الخصوم؛ لأنّ الموت

---

[١] شرح نهج البلاغة: ١٣٠.

[٢] البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م: ٢٢١.

[٣] التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن للطوسي(٤١٠هـ)، تحقيق: أحمد الأمين، المطبعة العلمية، مطبعة النعمان، مج٥: ١٠٠.

سينزل حتمًا بالإنسان سواء أكان في ساحات الوغى، أو على الفراش، فترك هذا التّأويل في نفوسهم بعدًا حجاجيًّا، فالخطيب اختار معطيات حجاجيّة حملتهم على التّأويل العقليّ الّذي يرتضيه، والّذي قادهم إلى دلالة مفترضة رام إليها مسبقًا، حتّى يتسنّى له صناعة الإقناع، وتحقيق الاعتقاد لديهم بالانخراط في صفوف المقاتلين؛ لأنّ الجهاد أعظم من القعود، كما أنّ الشّهادة أفضل من البقاء، لذا اقتضى النّهوض؛ فالموقف لا يحتمل منهم التّراخي والانتظار، ويوجب عليهم السّرعة في الاستجابة، وبإيمان تامّ لا شكّ فيه ولا جدال، ولا مجال لهم للاعتراض.

## ٤-الشّـــــرط:

يعدّ الأسلوب الشّرطيّ تقانة حجاجيَّة مؤثرة في النّصّ، فهو يولّد التّعالق بين مفاصل الخطاب، بوصفه أسلوبًا بلاغيًّا قائمًا على إلزاميّة وقوع شيء ما بوقوع غيره[١]، فهو يمتلك مهارة تحريك الدّلالات، واستقطاب الانتباه، فضلًا عن منح المفردات علاقات ترابط وانسجام فكريّ لتسليط الضّوء على عنصر معيّن للإحاطة بالمعنى المراد، والنّتيجة المستهدفة، فيترك سمة جماليّة وبلاغيّة حجاجيّة في نفوس المتلقين، توجّههم نحو العناية بالخطاب وصداه الدّلاليّ، لأنّ التّركيب اللغويّ القائم على أسلوب الشّرط له وظيفة ضمن إطار النّصّ الأدبيّ لما له من أهمّيّة في تحريك الدّلالات ،وإعطاء المفردات حيويّة وفاعليّة داخل النّصّ فـ"أسلوب الشّرط يفيد تقييد الحكم والمعنى على عنصر معيّن، وهو من الأساليب غير الطّلبيّة الّتي تحمل قدرة عالية في تحديد المعنى وتأكيده"[٢]، وعلى هذا فالبنية اللسانيّة لنسق الشّرط تعمل على محاورة المثيرات الأسلوبيّة في الخطاب، وجعلها عناصر فاعلة

---

(١) ينظر:معاني النحو، د.فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٠م، ج٤ :٥٣.

(٢) الخصائص الأسلوبية والبنائية لنثر الإمام علي"ع"في نهج البلاغة: ٢٥٦.

تعبر عن البنية الدّلاليّة، فضلًا عن تحقيق قيمٍ جماليّةٍ مؤثّرةٍ في نفسيّة المتلقّي، ويساعد على تبيين وسائل الاستخدام اللغويّة، وتوضيح طرق الاتّساع الّتي يوفّرها السّياق(١).

ونحن في هذا المبحث بصدد الكشف عن أهداف هذا الأسلوب الحجاجيّ في خطب العصر الأمويّ، الّتي حفلت به كثيرًا، ومن ذلك ما جاء في خطبة زياد بن أبيه (٥٣هـ) في أهل البصرة، إذ تتوالى الجمل الشّرطيّة القائمة على مجموعة عقوبات شديدة، وتتّسم بإيجاز مبهر، ووقع مؤثّر، فيقول:" **فمن غرق قومًا غرقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه،[...]، ومن نقب بيتًا، نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه فيه حيًّا**"(٢).

إنّ تعلّق الشّرط بلغة الوعيد المستند على القوّة في تنفيذ العقوبة، والعزم على تنفيذها في حال وقوع المعارضة ضدّ الحكم الزّياديّ، أفرز غاية حجاجيّة ألقت بثقلها على المتلقّين، فما هي إلّا صيحات وعيد بالانتقام ممّن تسوّل له نفسه الخروج عليه، والّذي أسهم بزيادة شدّة وقع البناء الشّرطيّ مجيئه بصيغة الماضي، الّتي تدلّ على حتميّة تحقق الجرم من الرّعيّة، الّذي سيُجازى بعقوبة من الحاكم تؤدّي إلى الموت، فالشّرط ساعد على ربط الأفكار والمقاصد المراد إيصالها بعضها ببعض في مناخ بلاغيّ عنيف يتّسم بلغة البطش والتّهديد، فضلًا عن التّنبيه إلى أنّ الأمر ذو أهمّيّة كبرى، حيث يقدّم الأسباب والمسبّبات والنّتائج، الّتي تغدو قواعد ثابتة، وقوانين صارمة، إنّه أسلوب يقتضي من صاحبه حكمة بالغة(٣)، فنرى الشّرط حمل

(١) ينظر الأسلوبية والأسلوب، د.عبد السلام المسدي،دار الكتاب الجديد،طرابلس، ط٥، ٢٠٠٦م: ١٢٧.

(٢) البيان والتبيين: ج٢: ٦٢.
(٣) ينظر:الحجاج في البلاغة النبويّة: ١٥٣.

معنى الدّعوة إلى التّمسّك بأوامر الحاكم والالتزام بها، وتحذير المتلقّين، وتوجيههم إلى سلوك إيجابيّ، حدّدته البنية الشّرطيّة ودلالاتها، وبقناعة مطلقة، فالحجاج النّاجع هو الّذي ينجح في مضاعفة كثافة التّصديق على نحو يثير عند السّامعين الفعل المتوخّى، أو الامتناع عنه، أو على الأقلّ، أن يخلق لديهم الاستعداد للقيام بالفعل، الّذي سيتجلّى من اللحظة الملائمة[١]، فموجز الفائدة أنّ لفعل الشّرط قوّة إنجاز عمليّة حاسمة؛ كونها تؤسّس ضغطًا على أمور محدّدة ومهمّة، وحريٌّ بنا أن نشير إلى أنّ بلاغة العنف في التّركيب الشّرطيّ كانت رافدًا خطيرًا في تحقيق إذعان المعارضين من خلال الجهر بالممارسات القمعيّة بهدف إخضاعهم لمآرب زياد.

ومن شواهد توظيف الشّرط ما جاء في خطبة الحسين(ع) بأصحاب الحرّ، قوله: " **أمّا بعد: أيها النّاس، فإنّكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله عنكم، ونحن أهل بيت محمّد(ص) أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسّائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أبيتم إلّا كراهيّة لنا، والجهل بحقّنا، فكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به عليّ رسلكم انصرفت عنكم**"[٢].

يظهر جليًّا تكرار التّركيب الشّرطيّ مرّتين في هذه الخطبة الغرّاء، إذ جاء الأوّل (إن تتقوا..يكن) لغاية حجاجيّة دينيّة، ربط بها تقوى الله بمعرفة أهل الحقّ وأصحابه، الّذين يرضى الله عنهم، وهو تعبير دلّ على وجوب إمامة آل البيت على النّاس، وأنّ صلاح الدّين والدّنيا يتوقف على ولايتهم؛ لأنّها تقرّب النّاس من الحقّ

---

[١] ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٦٢.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٤٦-٤٧.

وتبعدهم عن الضّلال، وهذا دليل قاطع على منزلتهم ومكانتهم، ومن هنا سدّ الباب أمام القوم لإلقاء الأعذار أو الحجج بالابتعاد عن غاية الشّرط المستهدفة في الخطاب الحسينيّ، فقد أظهر الأسلوب الشّرطيّ حقيقة لربّما غفل عنها المخاطبون، فجاء لغرض عرض الحقائق المسكوت عنها، وإلقاء الحجج في ساحتهم، فشرط تقوى الله ورضاه متعلّقة بالاعتراف في أحقّيّة أهل البيت(ع) بالولاية، وكشف زيف المدّعين الأمويين الّذين حكموا في النّاس جورًا وظلمًا، فعزّز النّسق الشّرطيّ الثّاني(فإن أبيتم...) الحضور الدّلاليّ للخطاب لما يمتلكه من قدرة حجاجيّة تقطع الطّريق أمام الجمهور برفض أفكار الخطيب، ولهذا كان قول العلويين بالسّلطة الدّينيّة مبنيًّا على دعائم وأدلّة قرآنيّة ونبويّة، فهذا في رأيهم هو المتّسق مع العدل الإلهيّ ومع رعاية الخالق للمخلوقين[١]، وهذه حجّة لا تعلوها حجّة، ومنزلة لا تفوقها منزلة، وكرامة لا تنازعها كرامة، بوصفها أمرًا من أمور السّماء، وهو استدلال عقليّ ودينيّ ووجدانيّ حجاجيّ، فالخطاب الدّينيّ في بنية الشّرط ألفت الأذهان إلى أمور في غاية الأهمّيّة تعلّقت بالرّضا الإلهيّ والجزاء الآخرويّ.

أمّا سرّ استعمال الإمام أداة الشرط (إن) هنا فيأتي من بلاغة التّوظيف العارف بمقام السّامعين ونفوسهم المتذبذبة بين السّلب والإيجاب، وبين الاستجابة ومن عدمها، ذلك لأنّ (إن) تُستعمل مع المشكوك في وقوعه[٢]، فهو لم يكن على إيمان قطعيّ بتقوى هؤلاء النّاس، وجعل الاحتمال واردًا باستجابتهم ومن عدمها، ولو أراد القطع لوظّف (إذا) متحققة الوقوع[٣].

---

(١) ينظر:تيارات الفكر الإسلامي،د.محمد عمارة، دار الشروق:٢١٠.

(٢) ينظر: في النحو العربي(نقد وتوجيه)،د.مهدي المخزومي،دار الرّاشد العربي، بيروت، لبنان،ط٢، ١٩٨٦م: ٢٩٠.

(٣) ينظر: في النحو العربي(نقد وتوجيه): ٢٩١.

ويمكن أن نعيد صياغة الحجّة على النّحو الآتي:-

**تقوى الله......تعلّقت بشرط بولاية آل محمّد(ص).**

**رضا الله..........تعلّق بشرط ولاية آل محمّد(ص).**

فالخطاب الحسينيّ الّذي قدّم فيه صورة عن نسبه ومكانته، وصورة عن خصمه السّياسيّ؛ لم يكن محض مناظرة بين متنافسين سياسيين على السّلطة، بقدر ما كان مرافعة حجاجيّة يعيد بها تركيب صورة وصفات كلّ منهما لتحقيق استجابة السّامعين، والتّمهيد لتقبّل مشروعه الإصلاحيّ الدّينيّ، والسّياسيّ الجديد، بولايته الّتي تعدّ الامتداد الحقيقيّ للنّبوّة، وقد أقام الإمام كلّ هذه التّقانات الحجاجيّة على آراء وقيم متّفق عليها في الوسط الثّقافيّ الدّينيّ الإسلاميّ، فورود تلك الحجج يأتي من أنّها تحظى باتّفاق مسبق بين الخطيب وجمهوره، فالمسلم يحرص على أن يتمسّك بالعقائد الدّينيّة الإسلاميّة، الّتي تحثّ على التّقوى والاحتراس من الوقوع في الضّلالة والغواية، وهذا من شأنه أن يجعل المتلقي خاضعًا ومذعنًا وبإيمان كلّي للخطاب الحسينيّ؛ بعد أن وقع التّصديق في نفوسهم بأفضليّته، وهذا سرّ نقطة تحوّل في قناعة جيش الحرّ الّذي أصبح في صفّ الحسين ضدّ السّلطة، وهذا كلّه نابع من نجاعة حجاج الإمام.

ومن شواهد توظيف الشّرط ما جاء في خطبة الحسن البصريّ(رضي الله عنه)**:"يا ابن آدم إذا رأيت النّاس في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في الشّرّ فلا تغبطهم به"**[١].

[١] البيان والتبيين: ج٣: ١٣٢.

يتّضح استهلال الخطبة بأسلوب النّداء أضفى لها بعدًا حجاجيًّا إضافيًّا إلى جانب البنية الشّرطيّة، فما كان هذا النّداء إلاّ للتنبيه على أهمّيّة ما بعده من أمر جليل، إذ كان أشبه بالمنطلق الأسلوبيّ التّأثيريّ، لتأهيل جمهوره إلى ذلك الوعظ الدّينيّ، وهم في غاية التّرقب والإصغاء فكرًا ووجدانًا مع الخطاب، الّذي أسنده بأسلوب الشّرط، فهو يسعى إلى تأسيس أطروحة وجسر رابط بين طرفي الخطاب لكونه يسهم "في تفاعل الشّحنة الدّلاليّة مع الشّحنة العاطفيّة لتحقيق أثر عميق في المتلقين"[1]، فالبناء الشّرطيّ فهو كذلك لم يكن إلّا آليّة حجاجيّة لتحفيز السّامعين على اعتماد فعل الخير أساسًا في المنافسة والسّباق، والنّزوع بعيدًا عن الشّرّ وأصحابه، لذا كان الشّرط وسيلة لشدّ التّركيب الموجز من ناحية، وتحقيق الإقناع من ناحية أخرى، فحثّهم على التّوجّه إلى طرق الخير والصّلاح، ونهيهم عن سلوك طرق الشّرّ بشكل يوحي بوجوب التّفاعل والاستجابة لخطاب الحسن البصريّ.

وممّا جاء في خطب الخوارج خطبة عبدالله بن يحيى الخارجيّ(١٣٠هـ) لما غلب على اليمن: **"من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكّ في أنّه كافر فهو كافر"**[2].

يظهر تعمّد الخطيب استعمال الجمل الشّرطيّة المجاب عنها بالجمل الاسميّة، جاء لزيادة التّثبيت والإقناع وتحقيق الاستمالة من السّامعين، فالجمل الاسميّة تتصف بدلالة الثّبوت، والسّياق الشّرطيّ كان نقطة انطلاق لتحريك أذهان الجمهور، ليتفاعل مع أجواء الخطبة، الّتي حملت في طيّاتها عقائد متطرّفة خطيرة، والّذي عبّر فيها عن معتقداتهم المتشدّدة، فالكفر مشروط بهذه الموبقات من

---

(١) الخصائص الأسلوبية والبنائية لنثر الإمام علي"ع"في نهج البلاغة: ٢٥٦.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٦٢.

الأعمال، وهذا أسهم في إبراز الدّلالة المرجوّة من الخطيب، وحقّق ردعًا نفسيًّا مانعًا من الوقوع في هذه الآثام انطلاقًا من تصوّراته العقديّة، فحرّك الخطيب نشاط السّامعين واستنزف مشاعرهم وعواطفهم، وأفكارهم الدّينيّة ليدمجهم في مجريات الخطبة، الّتي أكّدت على كفر المسلم في حال ارتكابه تلك الذّنوب؛ ومن شأن هذا أن يحقق الاعتقاد في نفوس الخارجيين بالابتعاد عنها، والانصراف عن كلّ ما ينتهي إلى ذلك، لهذا لم يكن تكرار أسلوب الشّرط عشوائيًّا وخاليًا من القصد، إنّما كان هذا التّوظيف هدفًا محدّدًا من الخطيب، أراد من خلاله إيصال طروحاته وأفكاره ومعتقداته، لحمل الأتباع على الإذعان لثوابتها، بوصفها عقائد ثابتة وراسخة، فجاءت بصورة عبارات متكرّرة كأنّها تتوالد فيما بينها، كلّ جملة تلد أخرى، وتؤكّد دلالة سابقتها(الكفر)، فهو تكثيف للدّلالات وقطعيّة تدفع السّامعين إلى التّصديق بها رهبةً وخوفًا من مغبّة الوقوع في الكفر، فالتّحكّم في الإرادة وإنتاج الفعل يقتضيان تجاوز العقل واستثمار الوجدان والعواطف لتؤدّي الحجج دورها الحاسم[1]؛ لأنّ الانفعالات مسؤولة عن كلّ التّغيّرات الّتي تجعل المتلقّين يديرون رأيهم فيما يتعلّق بأحكامهم، وغالبًا تكون مصحوبة بالألم واللذة، الّتي تثير نوازع الخوف والغضب والرّحمة وبقيّة الأحاسيس الأخرى.

ومن تلك الخطب كلام عمرو بن سعيد(٧٠هـ) بوصف يزيد بن معاوية في الحجاز بقوله: **"إن استضعفتم إلى حلمه وسعكم، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم"**[2].

---

(١) ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٥٧.

(٢) عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية، دار الثقافة والإرشاد القومي، مصر.،ج١: ٩٥.

لا مراء أنّ الخطيب من أكبر العارفين بضلالة يزيد وفجوره وفسقه، ولكنّ الولاء ومحاولة كسب العطاء، أو طلب الولاية دفعه إلى وصفه بالحلم، والكياسة، والكرم في جمل شرطيّة متوازنة سجعيًّا، في محاولة لتحقيق التّأثير والاستمالة في نفوس الحضور، وصناعة الإقناع بشرعيّة ولاية هذا الحاكم، فلجأ إلى تكرار أسلوب الشّرط لتقوية أواصر دلالة الخطاب، لأنّه"أسلوب يسهم في تفاعل الشّحنة الدّلاليّة مع الشّحنة العاطفيّة لتحقيق أثر عميق في المتلقين"[١]، إذ نرى انفتاح الشّرط على جملة من الصفات والسّمات الشّخصيّة للحاكم بوصفها مناقب ذاتيّة له، الّتي أعطت نوعًا من الحضور في وعي السّامعين، وزيادة في إذعانهم وتصديقهم، إذ أنّ الخطيب يصرّ كثيرًا على ترداد بعض العناصر الّتي قد لا تكون مؤكّدة في شخصيّة يزيد بن معاوية، بهدف تعزيز حضورها في وعي المخاطبين، وهي تقانة حجاجيّة تعتمد على تقسيم الكلّ إلى أجزاء، وتفرز هذه الحجّة شكلًا مقنعًا من أشكال تقديم الواقع في الخطاب الحجاجيّ[٢]، فهي تُذعن المتلقي انطلاقًا من أنّها حقائق ثابتة.

لا مفرّ للحجاج من البلاغة، ولا سبيل إلى الإقناع والتّيقين في كثير من الأحيان دون إثارة نفسيّة متعلّقة بتحقيق الانفعال لدى المخاطبين (الباتوس)، فكلّ الأساليب البلاغيّة ما هي إلاّ آليّات حجاجيّة، ولقد نبّه (بيرلمان) إلى أنّ أغلبية العناصر البلاغيّة من بديعيّة وبيانيّة ومعنويّة، وأدوات ربط وعطف، وعناصر أسلوبيّة...الخ، تعدّ كلّها موجّهات تعبيريّة ذات أثر حجاجيّ كبير[٣]، وبفضلها تتحقق استجابة المتلقي لفحوى الخطاب، ويُهيّأ للإذعان لحمله على قبول طروحات

---

[١] الخصائص الأسلوبية والبنائية لنثر الإمام علي(ع): ٢٥٦.
[٢] ينظر:الحجاج في التواصل:١٠٦.
[٣] ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١١٦.

الخطيب، فهذا ضروريٌّ وحتميّ في عصر شهد مناظرات وسجالات قائمة على الحجّة والبرهان بين مختلف الفرق والمذاهب المتناحرة.

ويمكن القول أنّ الأساليب الواردة في هذا الفصل لم تكن لوحدها حاضرة في خطب هذا العصر، ولكنّ الباحث تجاوز الأخرى لتفادي التّكرار، وعقم فائدة ترداد الدّلالات، فلقد اغتنت خطب الأحزاب بأساليب (النّداء، والتّوكيد، والنّهي)، أمّا النّداء فما كان إلّا للتنبيه على عظمة وأهمّيّة ما سيأتي من بعده، واختلفت دلالته وأبعاده الحجاجيّة في كلّ حزب، فهو عند العلويين يخرج إلى دلالة تحقير الخصوم وتقريع المتخاذلين والغادرين لأئمة أهل البيت"ع"، وهو عند الأمويين فيأتي للتّنبيه والإشارة إلى سلطتهم وجبروتهم ووعيدهم للرّعيّة في حال خروجهم عن طاعتهم، وهو عند الزّبيريين أتى لإيقاظ غفلة السّامعين وإثارة انتباههم لما يحدث من أحداث في الأمّة، ولربّما خرج إلى التّحقير في بعض الأحيان، وأمّا الخوارج فما كان إلّا حجاجًا يقضي بحتميّة الاندفاع والانخراط في صفوف المجاهدين في سبيل الله.

أمّا أسلوب التّوكيد فهو لغاية التّقرير والتّثبيت، وبعده الحجاجيّ يشبه أسلوب التّكرار كثيرًا، فضلًا عن اقتراب أسلوب النّهي من أسلوب الأمر، ولطالما كان يأتي الخطاب مطرّزًا بصيغتي الأمر والنّهي، وهذا ما جعلهما يكوّنان ظاهرة أسلوبيّة واضحة، ولهذا كان لزامًا علينا أن نعزف عن ملل التّكرار في النّصوص والتّحليل.

## المبحث الثّالث

## منطلقات الحِجاج.

### توطـــــــئة:

يذهب (بيرلمان) إلى أنّ القاعدة العامّة، والحجر الأساس في بناء الخطاب الحجاجيّ هو قانون (التّكيّف)، تكيّف الخطيب مع مستمعيه، وأنّ الوسيلة الأنجع لتحقيق هذا الأمر مرهونة بأن لا يختار الخطيب نقطة انطلاق حجاجه إلّا من مقدّمات تكون محلَّ قبول عند المخاطبين، لينقل الاعتناق الحاصل حول المقدّمات إلى النّتائج[١]، إنّه نوع من نقل عدوى القبول من بدايات الخطاب إلى خواتيمه، لذلك ينبغي للخطيب أن ينطلق من مقدّمات مقبولة بشكلٍ كافٍ من لدن الجمهور؛ لأنّ هذا القبول لن يحدث إلّا بربط الأواصر بين مقدّمات الخطاب والدّعاوى الّتي يسعى لجعلها مقبولة ونافذة، وإلّا وقع الخطيب في أفظع مأزقٍ في الحجاج (المصادرة على المطلوب) على وفق المنظور البيرلمانيّ[٢]، وذلك يعني أنّ الخطاب الحجاجيّ يُفترض أن يُبنى على مقدّمات تجعل من المستمعين يتقاسمون معه التّسليم بها على سبيل الإيهام، في الوقت الّذي تكون فيه هذه المقدّمات إشكاليّة ومجادلًا فيها[٣]، ومعنى ذلك أنّها مقدّمات تستهدف استدراج المتلقّي إلى ما سيأتي من متبنّيات في آخر الخطاب.

ومن تلك المقدّمات: الوقائع، والحقائق، والافتراضات، والقيم، وهرميّة القيم،

---

(١) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠.

والمعاني أو المواضع[١]، لذا نرى أنّ أفضل المنطلقات الحجاجيّة تتأسّس في مقدّمة الخطابات؛ لأنّ المقدّمة تفرز الصّورة المُثلى الّتي يسعى الخطيب إلى إنجازها؛ إذ عليها يترتّب نجاح عمليّة التّلقي، أو إخفاقه[٢]، فضلًا عن مواءمة هذه المنطلقات مع أغراض الخطاب الحجاجيّ لتحقيق التّأثير المطلوب في قناعات المخاطبين من جهة، وتناسبها مع مستواهم الفكريّ من جهة أخرى، فلكلّ طبقة مجتمعيّة خطابها الخاصّ، الّذي يتوافق مع طبيعتها الإدراكيّة وقدراتها العقليّة، وترى الدّكتورة الدّريدي أنّ تلك المنطلقات لا يشترط أن تكون مقدّمات صحيحة للنّتائج المبتغاة؛ لأنّ الخطاب الحجاجيّ إقناعيّ وليس برهانيًّا على حدّ تعبيرها[٣]، فيبدو لنا من ذلك أنّ المنطلقات الحجاجيّة وقيمتها التّأثيريّة في الخطاب تقوم على بناء جسور التّواصل المقنع بين الباثّ وبين المخاطبين، الّذين يطمح في نيل قناعاتهم، وكسب تسليمهم الكلّي بمقدّماته[٤]، فيتّضح أنّ الحجاج لا يمكن أن يكون ناجعًا إلّا إذا التزم الخطيب بمثل هذه الضّوابط عند عرضه للمقدّمات، كما سيتبيّن لنا في شواهد كثيرة.

### ١-الوقائع:

تمثّل الوقائع كلّ المسلّمات المشتركة بين عدّة أشخاص أو بين مجاميع كبيرة من النّاس، الّتي تنقسم إلى ما هو عياني، الّذي يُعدُّ الأكثر أهمّيّة في المقدّمات، ومنها

---

[١] ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٠٨.
[٢] ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة:١١٤.
[٣] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه):١٨٢.
[٤] ينظر:مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة،د.محمد سالم محمد الأمين، ضمن كتاب الحجاج(مفهومه ومجالاته) دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، بإشراف:حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد-الاردن،ط١، ٢٠١٠م،ج١ :٤٨٩.

المفترضة والمحتملة[1]، لذا شدّد (بيرلمان) على مفهوم (الواقع) في الحجاج؛ لأنّه يعطي الأفكار حول دعوى ما الاتّفاق المطلوب، أو ما سمّاه اتّفاق (المستمع الكونيّ)[2]، ومن اليقين أنّ كلّ ما هو مشترك يحظى بدعامة القبول، ويصبح غير قابل للنّقض، أو الاعتراض، كونها تتطابق مع بنى الواقع الّتي لا يستطيع الجمهور رفضها[3]، فهي تمثّل نقطة انطلاق مهمّة في الاستدلال للحصول على الإقناع والتّسليم، ووقوع التّصديق بصحّة دعوى الخطاب المبنيّة على ما ثبت عند المتلقّي من وقائع مشتركة بين الاثنين، لهذا تعدّ الوقائع ركيزة كبرى من ركائز الحجاج، الّتي يعتمدها المتكلّم للتّأثير في المتلقّي، وتحقيق الإقناع.

ومن شواهد ذلك ما جاء في خطبة الحسن(ع) ردًّا على معاوية بعد أن نال من الإمام عليّ(ع) في مسجد الكوفة، فخطب قائلًا: **"أيّها الذّاكر عليًّا: أنا الحسن، وأبي عليّ، وأنت معاوية، وأبوك صخر، وأمّي فاطمة، وأمّك هند، وجدّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وجدّك عتبة بن ربيعة، وجدّتي خديجة، وجدّتك فتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرًا، وألأمنا حسبًا، وشرّنا قديمًا وحديثًا، وأقدمنا كفرًا ونفاقا"[4].**

لا شكّ أنّ الخطاب يكتسب قيمة حجاجيّة مُضاعفة من مكانة الباثّ، فكلّما كانت منزلته سامقة كان تأثيره أشدّ في نفس المخاطَب ووجدانه، إذ إنّ الاعتقاد المُسبق بالخطيب ينتج فيما ينتج من قوّة ضاغطة على النّفس، وفي مقدّمات هذه الخطبة أطنب الحسن في تفصيل نسبه وقرابته من النّبيّ(صلى الله عليه وسلم)، فكيف حال معاوية وهو

---

(1) ينظر:الحجاج في الخطابة النبوية: ٣٢.
(2) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٣.
(3) ينظر: الحجاج اطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٠٨.
(4) جمهرة خطب العرب:١٤-١٥.

يطعن بشخصيّة كان لها ما لها من المناقب والفضائل في نصرة الدّعوة الإسلاميّة، فضلًا عن مدى قربه نسبًا من رسول الدّعوة، وهذا ما كان له وقع عاطفيّ في نفوس الجمهور في مسجد الكوفة من العلويين وغيرهم، كما أنّه جاء تقريعًا وتوبيخًا، واستنقاصًا واحتقارًا لمعاوية، الّذي يُنتسب إلى رؤوس الكفر والشّرك، وذلك التّفصيل خرج إلى جملة من الأمور المتّفق على معطياتها بين الجمهور والخطيب والخصم، ممّا يصعب دحضها أو التّشكيك بمصداقيّتها وواقعيّتها، فهي حجّة يمكن عدّها من الحجج العيانيّة الثّابتة، وذلك انتهى إلى نتيجة أنّ الخطيب وآباءه أصحاب منازل عليا دينًا ونسبًا، وأعلام هداية وصلاح، وذلك على النّقيض من معاوية وآبائه، أصحاب الضّلال والشّرك، ولهذا ختم الحسن خطبته بالدّعاء على أحقرهم ذكرًا وشأنًا ونسبًا وحسبًا، وشرّهم قديمًا وحديثًا، وأقدمهم كفرًا ونفاقًا، وبعد كلّ هذا لم يبق أمام معاوية إلّا الإقرار بما جاء في دعوى الخطاب الحسنيّ في قرارة نفسه، والتّصديق بمسلّماتها، الّتي بُنيت على وقائع تحظى بقبول الجمهور العامّ من المسلمين واتّفاقه، فلا يمكن نكرانها أو نقضها في حال من الأحوال، بوصفها مسلّمات مشتركة بين الخطيب والمتلقّي، وتحظى بمصداقيّة عالية، وقبول كبير.

ومن ذلك ما جاء في خطبة الحسين يوم الطّفّ في محاولة لإقناع القوم بحرمة قتله، وعظمة سفك دمه بناءً على مقدّمات يقينيّة حاصلة على الاتّفاق والقبول من السّامعين، فهو ابن السّلالة النّبويّة الشّريفة[١]، الّذي عرضها بشكل تفصيليّ لتقحم كلّ من يحاول ردّها، أو اعتراضها، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

ومن شواهد الوقائع ما جاء في خطبة التّوّاب عبيدالله بن عبدالله المرّي في مصر، وهو يحرّض على قتال قتلة الحسين(ع) والثّورة ضدّهم، قوله: **"أمّا بعد:**

---

[١] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٥٢-٥٣.

**فإنّ الله اصطفى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم على خلقه بنبوّته، وخصّه بالفضل كلّه، وأعزّكم بإتّباعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكة، وآمن به سبُلكم المخوفة:(وكنتم على شفا حفرة من النّار، فأنقذكم منها، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون)، فهل خلق ربّكم في الأوّلين والآخرين أعظم حقًّا على هذه الأمّة من نبيّها؟ وهل ذريّة أحد من النّبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقًّا على هذه الأمّة من ذريّة رسولها؟ لا والله ما كان ولا يكون، لله أنتم! ألم تروا. ويبلغكم ما أُجترم إلى ابن بنت نبيّكم؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته، واستضعاف وحدته، وترميلهم إيّاه بالدّمّ[...]ابن أوّل المسلمين إسلامًا، وابن بنت رسول ربّ العالمين، قلّت حماته، وكثرت عُداته حوله، فقتله عدوّه وخذله وليّه، فويلٌ للقاتل، وملامةٌ للخاذل، إنّ الله لم يجعل لقاتله حجّةً، ولا لخاذله معذرةً، إلّا أن يناصح الله في التّوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التّوبة ويقيل العثرة، إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُحلين والمارقين، فإن قُتلنا فما عند الله خيرٌ للأبرار، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيّنا"[١].**

تبدو جليًّا كيف تتوهّج الوقائع في طيّات الخطبة، فالخطيب جاء بمنطلقات مقبولة يتقاسمها مع الجمهور حول حقوق النّبوّة وفضلها، ومنزلة ذريّتها عند الله، فاستحضار أمور واقعيّة تحظى باتّفاق الجميع، وذلك أسهم في مدّ الخطاب بطاقة حجاجيّة انتقلت من المقدّمات إلى النّتائج، وجعلت المخاطبين في موضع اليقين والتّسليم بالثورة ضدّ ظالمي وقاتلي الحسين(ع)، والأخذ بثأره، إذ جاء ذلك بناءً على مقدّمات عينيّة ثابتة وحقيقيّة لما جرى لابن بنت رسول الله(ص)، وابن أوّل

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٦٣-٦٤.

المسلمين إسلامًا من ظلم وقتل وتمثيل بجسده، وبما أنّه لا أحد يستطيع إنكار حقّ النّبيّ على الأمّة، ولا حقّ ذريّته وأهل بيته؛ فصار لزامًا عليهم أن يقوموا لقتال القاسطين والظّالمين، الّذين سفكوا دماء آل بيت النّبيّ(ص)، أصحاب الكرامة والفضل، والعلم والحكمة؛ لأنّهم امتداد النّبوّة الحقيقيّ، ونور الهدى والصّلاح، وحماة الدّين وأعلام التُّقى، والله حتمًا سيغضب على قاتليهم، ولن يرضى عن خاذليهم، فكلّ المقدّمات أفرزت النّتائج المقنعة ذات الحجج القاهرة، الّتي دفعت المخاطبين إلى الإيمان والاعتقاد بصحّة دعوى الخطاب، والاستجابة لنداء الخطيب للخروج وأخذ ثأر دمّ الحسين، والانتقام من قاتليه، وإرجاع الحقّ لآل البيت، سعيًا لالتماس رضوان الله، وقبول توبتهم بعد مكرهم بالحسين، فالقتيل سبط رسول الله، وحقّه كحقّ رسول الله على أمّته، لذا ينبغي الاقتصاص من القاتلين لردّ حقّ النّبوّة، وهذا ما لامس كيانهم الإيمانيّ والوجدانيّ، ممّا جعلهم في حالة حرج كبير أمام ضمائرهم، وفي حالة خجل شديد أمام الله ورسوله، إذ إنّ الخطاب استهدف بناءهم الفكريّ والعقليّ، وحاوره بالحجج، فضلًا عن إثارة انفعالهم العاطفيّ بناءً على مشهورات تنقل القبول من المقدّمات إلى النّتائج، قطعت الطريق أمام المخاطبين لطعن الحجج أو استضعافها، وهذا أمرٌ مهمٌ في عمليّة التّأثير والإقناع، فـ(الباتوس) آليّة حجاجيّة تثير العواطف وتوجّه الجمهور نحو أحكام مقصودة، وتحفّزهم على الاستجابة، فأثر الانفعالات حاسمٌ في تحقيق قبول أفكار الخطاب، ولعلّ هذا ما شحذ همم التّوّابين، وأفرز حماسًا نفسيًّا على أخذ ثأر الحسين، فضلًا عن الإذعان الكلّي بحجّة الوقائع المقدّمة من لدن الخطيب، فهي ثابتة وواضحة ولا ضبابيّة فيها، فهي غير قابلة للدحض أو التّشكيك والاعتراض؛ لأنّها كانت ذات سلطة دينيّة وجدانيّة عاطفيّة، صوّرت منزلة الحسين في الأمّة أولًا، وما حلّ به من فواجع الواقعة في كربلاء ثانيًا، فالبعد التّداوليّ هنا كشف عن قوّة تأثير مقدّمات خطاب المرسل

الحجاجيّة، وضعف المخاطبين أمامها مع اتّفاقهم عليها، ممّا جعلهم في حالة تسليم مطلق، وإذعان ينبع من يقين واعتقاد بمعطياتها وحيثيّاتها ونتائجها، ومن هنا تظهر أهمّيّة إثارة العاطفة وإلهاب الحماس في الحجّة الواقعيّة الجماهيريّة، فهي تضمن نجاعة الحجاج، واعتناق الجمهور لدعوى الخطاب على أساس مقدّمات تتناغم مع طبيعة البناء الفكريّ والدّينيّ للمخاطبين، إذ جاءت المقدّمات بضربات مؤثّرة في نفوسهم وأذهانهم من خلال التّوسّل بآليّة الاستفهام الاستنكاريّ الحجاجيّ، الّذي أفاد إقرار الوقائع، وإحقاق الحقائق، فهيّأتهم للقبول لما سيأتي من نتائج مرجوّة ومبتغاة من الخطيب.

ومن شواهد ذلك أيضًا ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير في مفاخرة مع معاوية، وقد سارت على منوال خطبة الإمام الحسن(ع) في التّفصيل الجزئيّ الدّقيق للنّسب[١]، وما قلناه في خطبة الحسن ينطبق عليها تمامًا.

ولم تغب هذه المقدّمات عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز الوعظيّة، قوله: **"أمّا بعد: أيّها النّاس؛ إنّه ليس بعد نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم نبيّ، وليس بعد الكتاب الّذي أنزل عليه كتاب، فما أحلّ الله على لسان نبيّه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرّم الله على لسان نبيّه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا إنّي لست بقاضٍ، ولكنّي منفّذ لله، ولست بمبتدع؛ ولكنّي متّبع، ألا إنّه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله عزّ وجلّ، ألا إنّي لست بخيركم، وإنّما رجل منكم؛ غير أنّ الله جعلني أثقلكم حملًا؛ يأيّها النّاس: إنّ أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم"**[٢].

---

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ١٦٠-١٦١.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٢٠٤-٢٠٥.

لم يدخل الخطيب إلى صلب الغاية بصورة مباشرة، وإنّما عمد إلى عرض مقدّمات وقائعيّة تحظى بالقبول المشترك بينه وبين الجمهور، أو بين المسلمين جميعًا، إذ مثّلت نقطة استدلال إقناعيّ حجاجيّ يتطابق مع بُنى الواقع، ممّا جعلها غير قابلة للردّ والشّكّ، لينقل الخطيب السّامعين من حالة القبول بالمقدّمات إلى الإذعان والاتّفاق حول النّتائج والأخذ بما جاء بها من توجيهات، فما أتى من وقائع منسجمة مع تصوّرات المستمعين كانت حاسمة للبتّ بالنّتائج، واعتناقهم لأفكارها بناءً على تلك الاتّفاقات المتعلّقة بالمشتركات المعروضة من الخطيب، فلا نبيّ بعد النّبيّ، ولا كتاب بعد كتاب الله، فحلاله حلال وحرامه حرام إلى يوم الدّين، وهذا ما يقتضي منهم هجر المعاصي، والتزام طاعة الله، وأداء العبادات، واجتناب المحارم، فالوقائع المقدّمة تتّصف بالمقبوليّة والمصداقيّة بين طرفي الخطاب بغية إقناعهم بذلك، وردعهم عن الانغماس في المعاصي والذّنوب، وأزعم أنّ الخليفة ما كان ليقول هذا إلّا بعدما رأى ما رأى من ظلم وجور الرّعيّة، وانحرافها عن جادّة الدّين في ذلك العهد، وقد سارت أغلب خطب عمر بن عبد العزيز على هذا المنوال الحجاجيّ(١)، وكذلك خطبة الوليد بن عبد الملك(٢)،وما قلناه في الخطبة السّابقة لا يختلف كثيرًا عمّا نقوله فيها.

وقد حفلت خطب الخوارج بهذا النّسق الحجاجيّ أيضًا، ومن شواهد ذلك ما جاء في خطبة أبي حمزة الشّاري(١٣٠هـ) في تقريع أهل المدينة لمناصرتهم هشام بن عبد الملك(١٢٥هـ)، قوله:**"يأهل المدينة مررت بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة بثماركم، وكتبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوي اليسار منكم، فزاد الغنيّ غنًى، وزاد**

---

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٠٣-٢٠٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٩.

**الفقير فقرًا، فقلتم: جزاك الله خيرًا، فلا جزاكم الله خيرًا، ولا جزاه خيرًا"**[١].

يبدو أنّ كلّ ما عرضه الخطيب في خطبته ذو طابع توافقيّ بينه وبين أهل المدينة؛ لأنّ الوقائع عيانيّة قائمة على أرض الواقع، ولا مجال لنكرانها أو التّشكيك بمصداقيّتها، إذ مثّلت منطلقًا حجاجيًّا اعتمد القبول المشترك بين طرفي الخطاب حول حادثة الآفة، الّتي أصابت ثمارهم، وما قام به هشام عقب ذلك بناءً على طلبهم القاضي بإعفائهم من ضريبة الخراج، فقام بإعفاء غنيّهم، وأبقاها على فقيرهم، فاستحضار العنصر المنتقى بوصفه حجّة، وجعله ماثلًا أمام أعين المخاطبين، وشاخصًا في أذهانهم، رفد الخطاب بشحنة حجاجيّة تُذعن الجمهور للدّعوى، والتّصديق بها، فالحادثة واقعة والتّسليم بها حتميّ من دون شكّ، فالإقرار بوقائع الحادثة يزيد من حدّة التّوبيخ والازدراء على ما أبدوه من ضعف وتذلل للحاكم، لاسيّما أنّهم دعوا الله أنّ يجزيه خيرًا بعد صنيعه الضّال عن جادّة الصّواب، ويظهر لنا أنّ المقدّمة قد لا تكون صحيحة، فقد يكون الأغنياء فقط هم من دعوا لهشام بالخير، أمّا فقراء أهل المدينة فلا يمكن أن يدعوا له بذلك في حال من الأحوال، ولكنّ كلّ خطيب حجاجيّ يصبّ عنايته على ما يضمن لخطابه النّفوذ والتّأثير، وهذا كافٍ في الحجاج، وإلّا لو كانت كلّ المقدّمات مبنيّة على أسس صحيحة كليًّا، وتنتهي إلى نتائج قطعيّة؛ لأصبحت برهنة منطقيّة صارمة لا تقبل الاحتمال والإمكانيّة، فالحجاج هو فنّ الإقناع وليس البرهنة. وقد سارت خطبة قطريّ بن الفجاءة على هذا المنوال أيضًا[٢]، من حيث اعتماد منطلقات تدور حولها اتّفاقات جمعيّة بينه وبين أتباعه.

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٤٦٨.
[٢] ينظر: المصدر نفسه: ٤٥٤.

## ٢-الحقائق:

تتّفق الحقائق مع الوقائع من النّاحية الحِجاجيّة في أنّها منطلقات مُسَلَّمة لدى الخطيب والمخاطبين على السّواء، ولكنّ (بيرلمان) لم يقف كثيرًا لتحديد المقصود بالوقائع والحقائق بشكلٍ واضحٍ، ولعلّ ذلك يرجع إلى كون هذين المفهومين يقتربان كثيرًا من بعضهما، حيث يرى أنّ الفرق بينهما جزئيّ وطفيف، فالوقائع تعيّن مواد اتّفاق دقيقة ومحصورة، في حين أنّ(الحقائق) أنساق أكثر تعقيدًا، وتتعلّق بصلات بين الوقائع، سواء تعلّق الأمر بنظريّات علميّة أو دينيّة أو تصوّرات فلسفيّة[١]، وبتعبير آخر أنّ(الوقائع) لا يمكن دحضها بسهولة، ولا يمكن التّشكيك في مصداقيّتها، على خلاف(الحقائق)، الّتي تقبل الاعتراض والنّقض، ونظرًا لقربهما من بعضهما يتوهّم الكثير بأنّ بعض(الحقائق) هي (وقائع) لارتباطها بـ(الواقع)، وعليه يجب على الخطيب أو الباثّ أن لا يهمل مأزق الوقوع في المصادرة على المطلوب، وموقف المستمع من الدّعوى المطروحة، فبمجرّد معارضتها لا يمكن للخطيب أن يستفيد منها إلّا إذا أثبت خطأ المعارض له[٢]، إذ يشير (بيرلمان) إلى طريقة ناجعة للاعتراض على الحقيقة، وكيفيّة إقصائها واعتراضها، وذلك ببيان تعارضها مع حقائق أخرى أكثر وثوقًا من الحقيقة المعروضة، ولهذا يُفضّل أن تكون الحقيقة المباح عنها تتعارض مع رزمة من (الحقائق، والوقائع)[٣]، لتدخل فضاء الحجاج لا في مجال البرهان، فالحقائق لا تعطي النّتائج الحاسمة لاسيّما في الحوارات الدّينيّة والفلسفيّة، ولكنّها تبقى مؤثّرة حجاجيًّا في حال استدعاء المحاجج لها في مستهل خطابه بوصفها بداية ضربات نافذة؛ فهي تقوم على فكرة الرّبط بين

---

(١) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٢-٤٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٣.
(٣) ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١١٢.

الوقائع، وتتأسّس في غالب الأحوال على مفاهيم علميّة ودينيّة وفلسفيّة[١]، ويرى الدّكتور عبدالله صولة أنّ الخطيب يلجأ إلى الرّبط بين الوقائع والحقائق من حيث هي موضوعات تحظى بالاتّفاق الجمعيّ لنيل موافقة الجمهور وقبوله على واقعة معيّنة غير معلومة[٢]، لدفع شكّ المتلقي في صحّتها، وبذلك سيحاول الخطيب أن يصنع إطارًا مقبولًا للحقائق وملائمًا للمقام[٣]، لينال بذلك موافقة مطلقة من السّامعين، إذ يمكن أن ينقل اليقين الحاصل حول واقعة معلومة ومتّفق عليها (أ) إلى القضيّة (ب) غير المعلومة على أساس النّظريّة الكلّيّة (س)، وبذلك يحقّق التّيقين بـ(ب)، بتعبير آخر أنّ الإقرار بالواقعة (أ) وبالنّظريّة (س) يؤدّيان إلى التّسليم والاعتقاد بـ(ب)[٤]، ولكنّنا نعترف بحضور حقائق يُسلّم بها الجمهور على الفور دون انتقاد أو نقاش، بوصفها تمثّل سلطة ما، سواء كانت دينيّة كمسألة (الموت)، أو فلسفيّة كمسألة (الشّكّ والتّجريب)، أو علميّة محضة، فعند ذلك تكون معصومة من الطّعن والنّقض[٥]، وهي الغالبة في خطب العصر الأمويّ، ومن شواهد ذلك ما جاء في خطبة الحسن في عهد خلافته، يحثّ النّاس فيها على الطّاعة، قوله: "**نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأقربون، وأهل بيته الطّيّبون، وأحد الثّقلين اللذين خلّفهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والثّاني كتاب الله، فيه تفصيل كلّ شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعوّل عليه في كلّ شيء، لا يُخطئنا تأويله، بل نتيقّن حقائقه، فأطيعونا،**

---

[١] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٠٩.
[٢] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٣.
[٣] ينظر:الخطاب الحجاجي(أنواعه وخصائصه): ٩٥.
[٤] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٠٩.
[٥] ينظر:الحجاج في الدرس اللغوي، بوزناشة نور الدين،(بحث)، مجلة علوم إنسانية،ع٤٤، ٢٠١٠م: ٧.

**فإطاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرّسول وأولي الأمر مقرونة..."** [1].

دأب الإمام الحسن على الانطلاق من حقائق دينيّة ذات حمولات حجاجيّة مؤثّرة؛ بوصفها نقطة قبول مشترك مع المخاطبين، بغية دفع أيّ شكّ محتمل يعتري نفوسهم، وكسب موافقتهم بواقعة قد تكون غائبة عن أفكارهم وتصوّراتهم، ألا وهي طاعة آل بيت النّبوّة، ولاسيّما الخطيب، وإذا ما أردنا تحليل الخطبة على وفق مخطّط مرسوم ستكون على النّحو الآتي:

**الحقيقة(أ):** أشارت إلى فضل أهل البيت، وقربهم من النّبيّ(ص) بوصفهم الامتداد الطبيعيّ لشخصه ومنهجه، فهم أحد الثّقلين في إشارة إلى حديث (الثّقلين)، كونهم عدل الكتاب، الّذين لا يُخطئهم تأويله، ويعلمون أسراره، وبذلك منح الخطيب حجاجه بداية ذات سلطة ضاغطة، ومعصومة من النّقض نوعًا ما.

**النّظريّة (س):** طاعة أهل بيت النّبيّ واجبة ومُفترضة، من حيث أنّهم أحد الثّقلين، وصراط الدّين، وسراج الهدى واليقين.

**القضيّة (ب):** حمل المخاطبين على الاعتصام بطاعة عترة رسول الله، والاقتداء بهم، فطاعتهم من طاعة الله ورسوله الأمين، وبهذا نقل اليقين من الواقعة المعلومة (أ) إلى القضيّة (ب) في ضوء النّظريّة الكلّيّة (س).

وكنّا قد أقررنا بحضور حقائق مسلّم بها بشكل مباشر، فهي حقائق متحصّنة من الطّعن والنّقد؛ بوصفها تمثّل سلطة مركزيّة معيّنة، قد تكون دينيّة، أو علميّة، أو فلسفيّة، إذ تكون معصومة من التّشكيك والاعتراض على فحواها، ومن ذلك ما جاء في خطبة الحسين في يوم واقعة كربلاء، إذ شرع يُذكّرهم بنسبه ودينه وحسبه،

---

[1] جمهرة خطب العرب: ١٧.

ومدى قرابته من النّبيّ، فضلًا عمّا ذكره من مناقب وفضائل العلويين بشهادة الصّحابة المنتجبين[١]، إذ سعى من خلال ذلك أن ينزل في نفوسهم الاعتقاد بعظمة انتهاك حرمته، وسفك دمه، وكلّ ما جاء في الخطبة عبارة عن حقائق تامّة ومتّفق عليها، ولا يمكن إنكارها أو دحضها في حال من الأحوال، ولم تغب الحقائق عن خطب الأمويين ولاسيّما الوعظيّة، ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز، وهو يحثّ النّاس على القناعة في الرّزق، قوله: **"أيّها النّاس، إنّكم ميّتون؛ ثمّ إنّكم مبعوثون، ثمّ إنّكم مُحاسَبون، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم. يأيّها النّاس، إنّه من يُقدّر له رزق برأس جبل، أو بحضيض أرض يأته، فأجملوا في الطّلب"**[٢].

في ضوء الحقائق المقدّمة والمعروضة، الّتي حملت أبعادًا دينيّة صارمة، وذات دلالات خاصّة تحظى بالتّسليم، رُفد الخطاب بحمولة حجاجيّة مؤثّرة، فاستطاع الخطيب بذلك أن ينفذ إلى قلوب المخاطبين بصورة أو بأخرى كما يبدو لنا، ليكبح جماح نفوسهم المندفعة بشراهة نحو الأموال وشاكلتها، فالوعظ الدّينيّ بوساطة الحقائق المقطوع بها ترك أثرًا نفسيًّا في روع المذعورين إلى المادّيّات، ليحملهم نحو القناعة فيما ينالونه من رزق مكتوب ومقدّر، فكلّ الأرزاق مقسّمة ومقدّرة من رزّاق العباد، والكسب لا يتوقّف على المكابدة، أو التّنافس، وإذا ما نرسم المعادلة، فستكون على وفق الشّكل الآتي:

**الواقعة (أ):** المعلومة الّتي تحظى باتّفاق الجمهور وموافقته، وهي تخصّ أمورًا دينيّة محضة كالموت، والبعث، والحساب، والأرزاق، لذا هي حقائق صارمة

---

[١] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٥٢-٥٣.
[٢] المصدر نفسه: ٢٠٥.

ومحصّنة من الطّعن ولا نقاش حولها، إلّا أنّها حملت في بواطنها دلالة عبثيّة الحياة الدّنيا وأموالها وأملاكها الزّائلة، فكلّ شيء حتمًا سيزول، والمال لن يعصم صاحبه من الموت والحساب، لذا ينبغي لهم أن يلتفتوا قليلًا إلى نفوسهم، فالصّادق مقصّر، والكاذب هالك لا محالة.

**النّظريّة (س):** الأرزاق مكتوبة ومقسّمة، ولا تتعلّق بسعي المرء خلفها، فالرزق آتٍ صاحبه (ولو كان برأس جبل، أو بحضيض أرض)، ولا شكّ في أنّ الخليفة لا يقصد بذلك إقعاد النّاس عن العمل وطلب الرّزق؛ ولكنّه يعظهم بالعزوف عن شراهة التّنافس السّلبيّ في طلب الأرزاق.

**القضيّة (ب):** حمل المخاطبين على اعتناق القناعة في السّعي وراء المكتسبات المادّيّة، فالأرزاق مقسّمة ومقدّرة من الذّات الإلهيّة، فلا أحد ينال ما كُتب لغيره، ولن يسبقه إليه، وكما يبدو أنّ الخطيب سعى إلى نقل اليقين والاعتقاد الحاصل بالحقائق المعلومة (أ) إلى القضيّة (ب) في ضوء عقائد دينيّة تتشابك دلالاتها مع بعضها البعض، فهو زجر نفوسهم وردعها عمّا كانت عليه من الإقبال على الدّنيا والغفلة عن الآخرة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، فأنزل الإقناع بما عرضه من حقائق عقديّة محضة، وعبر تضافر حجاجيّة الدّلالات الدّينيّة في الواقعة (أ) والنّظريّة (س)، لينقل المخاطبين من اليقين الحاصل بها إلى اعتقاد مطلق بدعوى (ب)، لتكفّ نفوسهم عن الطّمع والجشع في طلب الأموال، بوصفها أمورًا زائلة لا محالة، ولا تنفع في يوم لا ينفع فيه لا مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم.

ومن ذلك ما جاء في خطبة الوليد بن عبد الملك بعد رجوعه من دفن أبيه،

وخطبة الحجّاج في المناسبة نفسها كذلك[١]، وما قلناه في الخطبة السّابقة لا يختلف كثيرًا عمّا نقوله فيهما، والّتي جاءت بحقائق مقطوعة لا تقبل التّشكيك والاعتراض.

وقد حضرت الحقائق في خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير في اعتراضه على طلب الخوارج، حينما طلبوا منه أن يتبرّأ من أبيه وصاحبه[٢]، وقد جاء اعتراضه قائمًا على حقائق حجاجيّة صارمة، ومؤيّدة بنصوص قرآنيّة وأحاديث نبويّة معصومة من الطّعن أو النّقض.

أمّا الخوارج فلم يختلفوا عن السّابقين في توظيف الحقائق حجاجيًّا في الخطاب مع أتباعهم وخصومهم على حدّ سواء، ومن ذلك ما جاء في خطبة قطريّ بن الفجاءة الوعظيّة في التّحذير من الدّنيا، والحثّ على التّقوى، قوله: **"[...]فانية، فانٍ ما عليها ولا خير في شيء من زادها إلّا التّقوى، من أقلّ منها استكثر ممّا يؤمنه، ومن استكثر منه استكثر ممّا يوبقه، ويطيل حزنه، ويبكي عينيه، كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها صرعته[...]مع أنّ وراء ذلك سكرات الموت، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل، ليجزي الّذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى"**[٣].

إنّ الوعظ الدّينيّ القائم على التّذكير بالموت والفناء يمثّل فلسفة عقديّة ناجعة حجاجيًّا، وسلاحًا مؤثّرًا نفسيًّا، وكفى بالموت واعظًا، فالخطيب يذكّر الأزارقة بانقضاء هذه الدّنيا وفنائها، ويحذّر من الانجرار خلفها، والانسياق وراء ملذّاتها، وهي حقائق معلومة مقبولة ومتّفق حولها، فالأهواء والشّهوات دون شكّ تشغل

---

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٩٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٢.
(٣) المصدر نفسه: ٤٥٥-٤٥٦.

التّفكير، وتدفع الإنسان إلى مناخ الغفلة حتّى لحظات الموت، وبذلك قد أنشأ منطقة تفكير مشتركة بينه وبين الجمهور في فضاء مكثّف بإثارة الانفعالات لتحقيق الاستمالة المطلوبة بهزّ نفوس المخاطبين وانشراحها لأفكار الخطاب، وبما أنّ الإنسان يتعرّض للغفلة، والنّسيان، والذّهول؛ فهو يتعمّد تذكيرهم بتلك الأمور العقديّة، ليحثّهم على التّقوى، والانشغال بما يرضي الله سبحانه عزّ وجلّ ذكره، فاليقين والاعتقاد الحاصل بزوال الدّنيا وتأثيره الوجدانيّ حتمًا سينقلهم إلى ساحة الجانب العمليّ، والسّعي إلى تطبيق ما وعظ به الواعظ، فأثر الانفعالات يقترن عادةً بفعل تقويميّ وبعد عمليّ(١)، إذ أنّ المعادلة جاءت على وفق الشّكل الآتي:

**الواقعة (أ):** قضيّة عقديّة دينيّة تقضي بزوال الدّنيا، وفناء كلّ ما عليها، مع أنّ وراء ذلك أيضًا سكرات الموت، وهول المشهد في يوم الحساب، وهي حقيقة معلومة ومتّفق عليها، ولا تقبل الجدل والنّقاش والطّعن.

**النّظريّة (س):** تذهب إلى أنّ الزّاهد في الدّنيا هيّأ لنفسه نجاته في يوم الحساب، على خلاف من كلّ المتهافتين على ملذّاتها ومتاعها، فهؤلاء سيهلكون بما جاءوا به من موبقات الحياة الفانيّة.

**القضيّة (ب):** تحمل الخوارج على الزّهد والعفاف والاكتفاء باليسير منها، بوصفها العرض الزّائل، والمتاع الباطل، الخليق بالاحتقار والازدراء، وحملهم على الرّنو إلى حياة اخلد، وعالم أمثل(٢).

وهذه الأفكار هي عماد خطاب الخوارج، الّذين عُرفوا برغبة الانفصال عن

---

(١) ينظر:الباتوس: من الخطابة إلى تحليل الخطاب، د.حاتم عبيد،(بحث) ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج٢: ٧٥.

(٢) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٦.

طيّبات الحياة إيمانًا وتعلّقًا بالمثل الإسلاميّة العليا، فليست الحياة عندهم بشيء، سوى أنّها مرحلة انتقاليّة غلى العالم الآخر، ولا خير من متاعها إلّا تقوى الله وطاعته، والتزام أوامره ونواهيه خوفًا وخشيةً من الوقوف بين يديه لنيل الجزاء، والّذي عضّده بنصّ قرآنيّ حجاجيّ في آخر الخطبة، بوصفه ضربة حجاجيّة حرّكت مشاعرهم وأحاسيسهم، ودفعتهم إلى التّسليم بصحّة الدّعوى، والاعتقاد برسالتها، فالخطيب نجح من نقل الاعتقاد الحاصل بـ(أ) الفناء إلى القضيّة (ب)، وبما أنّ ما بعد الفناء حساب، لذا اقتضى أن يؤمن الخوارج بقدسيّة الزّهد في حياتهم، والانصراف عن موبقات الدّنيا المادّيّة، سعيًا منهم للوصول إلى درجات الإيمان العليا.

ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن عبّاس (٦٨هـ) ردًّا على عبدالله بن الزّبير بعدما عاب بني هاشم، وكشف عن بغضه لهم، إذ خطب قائلًا: **"أيّها النّاس: إنّ ابن الزّبير يزعم أنّ لا أوّل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا آخر! فيا عجبًا كلّ العجب، لافترائه وتكذّبه!، والله إنّ أوّل من أخذ الإيلاف وحمى عيرات قريش لهاشم، وإنّ أوّل من سقى بمكّة عذبًا، وجعل باب الكعبة ذهبًا، لعبد المطّلب، والله لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش، وإن كنّا لقالتهم إذا قالوا،...بمصاهرتهم"**[1].

لا يُخفى على القارئ الكريم المنطلقات الواقعيّة بأفضليّة الهاشميين على الزّبيريين وغيرهم في الجاهليّة والإسلام، والّتي كشف عنها الخطيب في البيان عن مجد منازل العلويين وعليائها في قريش، فجاءت على محورين: الأوّل: أبان عن كرامتهم وسيادتهم في عصر ما قبل الدّعوة، والّذي تحدّث فيه عن جملة من الفضائل والمناقب لبني عبد المطّلب، وعلو شأنهم في قريش، فهم من أسّسوا

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٢١-١٢٣

الحركة التّجاريّة لقريش مع بقيّة البلدان(١)، وحققوا الأمان والسّلام لكلّ قوافل قريش التّجاريّة، فضلًا عن أنّهم أوّل من سقوا القوم، وجعلوا باب الكعبة ذهبًا، ثمّ أنّهم لسان قريش الناطق، وخطباؤها الأفذاذ، أمّا المحور الثّاني: فتحدّث فيه عن شرف النّبوّة فيهم، فبنو هاشم خير النّاس، وأشرفهم حسبًا، وأكرمهم أدبًا، وأقربهم إلى النّبيّ نسبًا، فما كان للزّبيريين من شرف إلّا لأنّهم صاهروا بني هاشم، فنلاحظ حرص الخطيب على تعزيز حقائقه الّتي تحظى بالموافقة العامّة، وبناءً على أدلّة دعمت الطّاقة الحجاجيّة للخطاب؛ لدفع المخاطب على التّسليم بما جاء به من أدلّة لاطمة لأيّ اعتراض متوقّع، فهي قاطعة بصحّة دعوى ابن عبّاس، لكون الحقائق قائمة على مرتكزات برهانيّة معقولة ومؤثّرة، فهي ترتبط بأواصر مشتركة بين الخطيب والمتلقّي، فكلّ ما جاء به الخطيب لم يكن غريبًا على مسامع ابن الزّبير، ومناسبًا للمقام، والخلفيّة الفكريّة والعقليّة والثّقافيّة للمخاطب، فالرّدّ كان واعيًا وناجعًا من حبر الأمّة، من حيث البيان عن علوّ قومه على الزّبيريين في عصر الإسلام وما قبله، فلم يترك مجالًا أمام ابن الزّبير إلّا الاعتراف والإقرار بعلو منزلة الهاشميين ومكانتهم الاجتماعيّة والدّينيّة في العصرين.

**٣-الافتراضات:**

تفرز الافتراضات منطلقات حجاجيّة غاية الأهمّيّة في الخطاب، فهي تحظى بالموافقة العامّة شأنها شأن الوقائع والحقائق، ولكنّها تأخذ مسارًا خاصًّا في الحجاج حتّى يذعن لها الجمهور ويسلّم بها(٢)، ذلك المسار الّذي يفترض وجود عناصر

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ١٢١-١٢٢، هامش رقم(٥).
*القعقعة:تحريك الشّيء اليابس الصّلب مع صوت، الشّنآن:قربة بالية.وإذا قعقع بالشنآن للإبل نفرت، فقعقعة الشّنآن هو مثل يُضرب لمن لا يروعه ما لا حقيقة له.
(٢) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٠٩.

تعمل على تقوية هذه الافتراضات المتّفق عليها وتعزيزها، ويعني ذلك أنّ إذعان المتلقي لها لا يحصل ما لم تُعزّز بأدلّة برهانيّة تدعم قوّتها[1]، لذا نراها متغيّرة تبعًا للوسط والمقام والخطيب والمخاطبين؛ لأنّها تُقاس بالعادي والمحتمل، وهو متحرّك ومختلف ومتغيّر لا يتّسم بالثّبات كما هو الحال في الوقائع والحقائق[2]، فهي وإن "كانت تُقدّم مرتكزات كافية لكي تؤسّس عليها قناعات معقولة؛ فإنّها ليست بنفس وثوق(الحقائق، والوقائع)، إذ من الممكن أن تُكذّبها الوقائع، لأنّ المفاجئ وغير المتوقّع يبقى واردًا على الدّوام"[3]، ولهذا يقع على عاتق الخطيب أن يُوظّف الافتراضات توظيفًا واعيًا لتحقيق التّأثير المطلوب في المخاطبين، من حيث ربطها مع ما يحدث على الدّوام، وما هو من المعقول البيّن المُراهن عليه. فيرى (بيرلمان) "أنّها ترتبط بالتّجربة المشتركة والحسّ المشترك، كما أنّها تساعد على اختيار توجّهاتنا في الحياة"[4]، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبيدالله بن زياد (٦٧هـ) في أهل البصرة بعد علمه بخبر كتاب الحسين(ع) قبل واقعة كربلاء، قوله: **"أمّا بعد: فوالله ما تُقرن بي الصّعبة، ولا يقعقع لي بالشّنّآن، وإنّي لنكل لمن عاداني، وسمٌّ لمن حاربني، أنصف القارة من راماها.**

**يأهل البصرة: إنّ أمير المؤمنين ولّاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وإيّاكم والخلاف والإرجاف فوالله الّذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنّه وعريفه ووليّه، ولآخذنّ**

---

[1] ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١١٢.
[2] ينظر:الحجاج في الخطابة النبوية: ٣٢.
[3] نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٤.
[4] المصدر نفسه:٤٤.

**الأدنى بالأقصى حتّى تستمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ "**[١].

سعى الخطيب إلى تبنّي خطاب العنف والممارسات القمعيّة في محاولته لدرء المدّ الحسينيّ، وردع نفوس أهل البصرة عن مناصرة الحسين بعد وصول كتاب الاستنصار، فهو يفترض شرعيّة الحكم القائمة على وفق العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وثنائية القوّة والضّعف، والسّلطة والرّعيّة، بوصفه ممثّلًا شرعيًّا للخليفة في مدينتي البصرة والكوفة، ومعنى ذلك أنّ المتكلّم يحظى بالصّلاحيّات المطلقة لإنزال أشدّ العقوبات بكلّ من تسوّل له نفسه الخروج عن حكم البلاط الأمويّ، أو الانخراط بالثّورة الحسينيّة، إذ إنّ نوعيّة الأفعال المتوعّد بها كشفت عن صفات جبروتيّة دمويّة عند الخطيب، فهو يحاول تشريع ذلك بافتراض أنّه ممثّل الخليفة أو ظلّه في المدينتين، ولهذا يرى الدّكتور محمّد مشبال: بأنّ البلاغة المهيمنة على خطاب الحجاج السّياسيّ، هي بلاغة العنف، أو الحجاج بالتّرهيب والتّهديد؛ أي بما يُصطلح عليه في البلاغة الأرسطيّة بإثارة أهواء المتلقي (الباتوس)، فهو باتوس قسريّ لا تقوم فيه الإستراتيجيّة الإقناعيّة على الحوار مع الآخر، وإنّما قائم على كسب قناعة الآخر وإذعانه بإثارة نوازع الخوف الطّبيعيّة الكامنة فيه بعد وعيده بممارسات قمعيّة، من أجل إرساء سلطة، أو ترسيخ أيديولوجيّة[٢]، ومن هنا نفسّر لماذا ارتكز الخطيب على بلاغة العنف في الخطاب، فهو يجد نفسه الوالي الشّرعيّ لسلطة الخليفة المقدّسة، وأيّ خروج أو تمرّد قد يحصل سيُجابه بالقوّة، والويل، والثّبور، فسياسة إثارة الخوف والرّعب في الجماهير والشّعوب تعدّ ضربًا من ضروب الحجاج، الّتي يلجأ إليها بعض الخطباء في الأنظمة السّياسيّة الاستبداديّة

---

[١] جمهرة خطب العرب:٤٥.

[٢] ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٨٢.

للتّحكّم في إرادة تلك الشّعوب، وتوجيه أحكامها وقراراتها[١]، فلغة الوعيد أسهمت بشكل أو بآخر في دفع أهل البصرة إلى الإذعان بناءً على ما وقع من خذلان للحسين، وعدم الانتصار له ضدّ طلائع الجيش الأمويّ، فلغة العنف دفعتهم نحو تفادي التّبعات، والعواقب المترتّبة على نصرة الحسين، وحملتهم على الخضوع المطلق لحاكم البيت الأمويّ في مدينتهم كُرهًا، انطلاقًا من افتراضات شرعيّة معزّزة بالتّرهيب والتخويف، فضمنت له طاعة أهل البصرة لمن استخلف عليهم، فضلًا عن ضمان عدم خروجهم إلى الانتصار لثورة القيام الحسينيّ خوفًا من العقاب.

ومن ذلك ما جاء في خطبة يزيد بن الوليد(١٢٦هـ) حين قتل الوليد بن يزيد(١٢٦هـ)، قوله: **"أيّها النّاس: والله ما خرجت أشرًا ولا بطرًا، ولا حرصًا على الدّنيا، ولا رغبةً في الملك، وما بي إطّراء نفسي، وإنّي لظلوم لها إن لم يرحمني الله، ولكنّي خرجت غضبًا لله ودينه، داعيًا إلى الله، وإلى سنّة نبيّه، لمّا هُدمت معالم الهدى، وأُطفئ نور أهل التّقوى، وظهر الجبّار العنيد، المستحلّ لكلّ حرمة، والرّاكب لكلّ بدعة، الكافر بيوم الحساب، وإنّه لابن عمّي في النّسب، وكفيئي في الحسب، فلمّا رأيت ذلك استخرت الله في أمره، وسألته ألّا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، حتّى أراح الله منه العباد، وطهّر منه البلاد، بحوله وقوّته، لا بحولي وقوّتي"**[٢].

لا شكّ في أنّ النّفس الإنسانيّة تسعى دائمًا إلى تشريع أعمالها والدّفاع عنها بطرق شتّى، ولهذا نرى الخطيب أنّه يبرّر ما خرج إليه انطلاقًا من افتراضات

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٨٣.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٢١٨.

شرعيّة تُحكّم عليه قتل الجبّار العنيد[1]، غضبًا لله وسنّة نبيّه الكريم، بعد أن هدّم ذلك الجبّار معالم الهدى والصّلاح، وأطفأ أنوار الاستقامة والورع، الّذي استحلّ الحرام، وركب الضّلال، وكفر بيوم الدّين، وهذه الصّفات أدلّة على فسوق ذلك الخليفة ومجونه، إذ جاءت لتعزيز الطّاقة الحجاجيّة للخطاب، فالخطيب افترض أنّ عملية الشّروع بالقتل قائمة على وفق منطلقات دينيّة وشرعيّة مؤيّدة بتأييد الجمهور وتسليمه التّامّ، فهي من الأمور المُراهن عليها، والّتي بُنيت على أنساق برهانيّة معقولة، فسوّغت ما قام به يزيد بن الوليد، ودفعت المخاطبين إلى الإيمان بصواب فعله، والاعتقاد بصحّته انطلاقًا من الافتراض الشّرعيّ والدّينيّ، الّذي يمتلك سلطة ضاغطة على النّفس البشريّة، ولاسيّما في بيئة دينيّة قاسية كالمجتمع الإسلاميّ، وبذلك أثبت للجمهور أنّه ليس من المتهافتين على السّلطة.

ولم تغب الافتراضات عن خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في جزء من خطبة لعبدالله بن الزّبير في مناظرة مع الخوارج، بعدما طلبوا منه التّبرّؤ من أبيه وصاحبه، قوله:**"...والزّبير حواريّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصفوته، وقد ذكر أنّهما في الجنّة، فقال عزّ وجلّ:(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة"، وما أخبرنا بعد أنّه سخط عليهم، فإن يكن ما سعوا فيه حقًّا، فأهل ذلك هم، وإن يكن زلّة ففي عفو الله تمحيصها"**[2].

يرتكز الخطيب في خطابه الحجاجيّ على افتراض مُسبق يدور حوله اتّفاق جمعيّ من لدن الجمهور، ومُعزّز بدليل قرآنيّ برهانيّ يتّفق مع طبيعة المخاطبين، ومنسجم مع المقام وبنائهم الفكريّ والعقديّ، الّذين ترنو نفوسهم إلى القرآن،

---

(1) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢١٨: هامش رقم(١).
(2) جمهرة خطب العرب: ١٧٢.

والتّمسّك بما جاء به من بيّنات، فالزّبير وطلحة كانا من المبايعين تحت شجرة البيعة، وهما من المؤمنين الّذين رضي الله عنهم بدليل قطعيّ؛ وهو النّصّ القرآنيّ، فلم يأت بعد ذلك أنّ الله قد غضب وسخط عليهما، فحتّى وإن وقعوا في خطيئة، فإنّهما سينالان عفو الله ومغفرته؛ لما لهم من السّابقة في نصرة النّبيّ(ص)، لذا يكون التّبرّؤ منهم مخالفًا لخطاب القرآن، ومناهضًا لحقائقه، وفي ضوء ذلك قدّم ابن الزّبير افتراضًا دامغًا عزّز القوّة الحجاجيّة للخطاب، ورفده بحمولات إقناعيّة حملت الخوارج على الاعتقاد بدعواه، والإذعان لأفكاره وتبنّي رأيه بعد تحقيق التّأثير المنشود، وهذا ما حصل عند الانتهاء من خطبته، فلم يبدِ أيّ من الخوارج اعتراضًا أو نقضًا لما جاء به ابن الزّبير من عناصر برهانيّة دعمت الطّاقة الحجاجيّة لدعوى الخطاب.

أمّا الخوارج فقد حضرت الافتراضات في خطبهم كسائر فرق ذلك العصر، ومن ذلك ما جاء في خطبة شبيب بن يزيد الشّيبانيّ(٧٧هـ) في الخوارج الصّفريّة بالمدائن، قوله: **"يا معشر المسلمين: إنّ الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان، وأكثر من ذلك قليلًا، وأنقص منه قليلًا، وأنتم اليوم مئون ومئون، ألا إنّي مصلّي الظّهر، ثمّ سائر بكم إن شاء الله"**[١].

يرغب الخطيب في شحن همم الأتباع، وحملهم على الإيمان بالنّصر والاعتقاد به، وهو في ذلك متّكئًا على افتراض مُسبق يُحظى بالقبول والموافقة، إذ إنّه منطلقٌ حجاجيٌّ مؤثّرٌ، ومسلّمٌ به من لدن الخوارج، فبما أنّ الله قد نصرهم على أعدائهم في وقائع سابقة، وكانت أعدادهم حينذاك مائة أو أكثر وأقلّ بقليل، فإنّ الله سيكتب لهم النّصر لا محالة وعديدهم مئون ومئون، وكلّ هذا يدفع المخاطبين إلى الاعتقاد

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٦٣.

بتحقيق الانتصار في واقعتهم المزمعة، ولكنّنا نزعم أنّ الحجاج الافتراضيّ في هذه الخطبة كان ضعيفًا وقابلًا للنّقض والاعتراض، فالنّصر يتعلّق بالمشيئة الإلهيّة، ولا يتوقّف على طبيعة الاستعداد في العدّة والعدد، الّتي عدّها الخوارج في كلّ الوقائع، إذ كان على الخطيب أن يلتفت إلى هذه المنطقة الضّعيفة في الخطاب حتّى لا يقع في مأزق المصادرة على المطلوب، فالخوارج أشدّ النّاس اعتقادًا بالقدر الإلهيّ.

ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي حمزة الشّاري في تقريع أهل المدينة، قوله: **"يأهل المدينة: أوّلكم خير أوّل، وآخركم شرّ آخر، إنّكم أطعتم قرّاءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، فأصبحتم عن الحقّ ناكبين، أمواتًا غير أحياء وما تشعرون"**(١).

لا مناصّ بأنّ الأنصار من الأوس والخزرج يمثّلون منزلة عليا بين المسلمين، إلّا أنّ الأحفاد لم يهتدوا بهداهم كما يبدو في نظر الشّاري، فباتوا شرّ المسلمين، وهو منطلق حجاجيّ ناجع، ولكنّه يتطلّب أدلّة تدعم قوّة افتراضه، وتعزّز حجّته، ولهذا ركن إلى ذكر بعضها، كانسياقهم خلف الفقهاء من غير بصيرة ودراية، فأصبحوا عادلين عن نهج القرآن، ومنحرفين عن جادّة الصّراط، فأضحى أهل المدينة أمواتًا ليسوا بأحياء من غير إدراك بذلك، فكما يتّضح لنا أنّ التّقريع كان مؤثّرًا نفسيًّا على المخاطبين، لكونهم خالفوا سيرة أسلافهم الصّالحين، من أهل الدّين، وأصحاب اليقين، فهو يوبّخهم على ضلالهم وجهالتهم، وعمى بصيرتهم عن البرهان، والعرفان بسنن القرآن، وهذا بمنزلة دليل برهانيّ دامغ على صحّة دعوى خطاب الشّاري، من حيث ربطه بالواقع الحقيقيّ لأهل المدينة في زمن الخطبة، إذ حملهم على الإذعان والتّسليم، والإقرار بحقائق الخطاب من دون إبداء أيّ اعتراض أو

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٧٩.

طعن لما أتى في طيّات الخطبة من مصاديق الأمور، فربّما كانت التّبعيّة العمياء، والطّاعة المطلقة للفقهاء القريبين من بلاط السّلطة آنذاك، كانت سببًا في ضلالهم، وانحرافهم عن حدود الله.

يرى الباحث أنّ الخطاب في العصر الأمويّ لطالما كان موجّهًا إلى العواطف (الباتوس الإيجابيّ أو السّلبيّ)، أي بمعنى أنّ حضوره كان مُكثّفًا للغاية في خطاب الأحزاب المتصارعة، وهذا ما جعل حضور الخطاب العقليّ (اللوجوس)، وكذلك (الإيتوس) خافتًا جدًّا لطغيان خطاب(الباتوس) الّذي يؤثّر في المخاطبين تأثيرًا شديدًا، ويقودهم طوعًا إلى الإذعان والتّسليم، في حين لا يعبأ المخاطبون بـ(اللوجوس)، و(الإيتوس) مثلما هو الحال مع خطاب العواطف؛ ولهذا تخلّى أغلب الخطباء الأمويين عن الإقناع العقليّ في خطبهم، فغاب خطاب العقل، وحضر التّرهيب والتخويف بشكل كبير، ونسف حقيقة الحوار مع الآخر، وهذا ما يعيد الإنسان إلى الحالة البدائيّة الّتي كان يسودها خطاب القوّة والتّهديد، ولكنّ هذا ما يسمّى لدى بيرلمان بـ(حجاج العنف)، وهذا بصورة أو بأخرى يدلّ على قابليّة الإنسان العربيّ للاستبداد وخضوعه للحاكم الجبّار؛ وهو في ذلك لا يختلف مع حال بقيّة الشّعوب الإنسانيّة الّتي سادها خطاب الإرهاب والوعيد لحقب زمنيّة طويلة في سبيل إرساء سلطة أو أيديولجيّة معيّنة، وهذه الرّؤية ستتّضح أكثر في فصول الكتاب.

**٤ـ القيم:**

هي مجموعة من معايير تقييم الأشياء في المجتمعات الإنسانيّة، الّتي تقدّم شيئًا على شيء، أو تفضّل شيئًا على آخر، أو تثني على أمر وتقبله، وتذمّ آخر وترفضه، ونحن نعتقد بأنّ مدار الحجاج قائم بكلّ ضروبه على القيم، حتّى وإن غابت عن

الاستدلالات ذات البعد العلميّ، ولكنّها مع ذلك تبقى تمثّل حجر الثّقة بين الخطيب ومتلقّيه في مجالات القانون والسّياسة والفلسفة، إذ يُعوّل عليها في جعل السّامع يذعن لما يُطرح عليه من أفكار وآراء[١]، ويُشدّد (بيرلمان) على أهمّيّة التّمييز بين القيم المجرّدة، كالجمال، أو العدل، أو الرّحمة، والقيم الملموسة كأرض الوطن، إذ لا يمكن أن تتخلّى عنهما في الحجاج[٢]، ويمكن أن نعلّق بعضها ببعض حسب الحالات، فحبّ الحقيقة عند (أرسطو)، وهي قيمة مجرّدة، أفضل من صداقة (أفلاطون)، وهي قيمة ملموسة، إلّا أنّه يجب على الخطيب أن يكون حذرًا في توظيف القيم، فيرى (بيرلمان) أنّ بعض القيم قد تكون موضع إجماع جماعات خاصّة، ولا يمكن أن تنال اتّفاق الجميع[٣]، ومن هذا المنطلق تفرض على الخطيب ضوابط صارمة، لئلّا يتحوّل الخطاب إلى"هجوم يستهدف مناطق الخصم المعرفيّة وعوالمه الشّعوريّة والفكريّة، ونعني بهذه الأشكال التي يتّخذها الحجاج، تلك التي تستدعي القيم وتعتمدها"[٤]، فإذا تجنّب هذا المأزق ستأتي القيم بطاقة حجاجيّة كبرى، لذا لابدّ من تحرّي الدّقّة حتّى توائم القيم الأهداف الحجاجيّة، وتعمل على تحقيق غايات الخطاب، وبمعنى آخر لابدّ للخطيب أن يحيط بشيء من نفس المتلقّي وبنائه الفكريّ والعقليّ قبل زجّ القيم في خطابه، ومن ذلك ما جاء في جزء من خطبة الحسين يوم عاشوراء، قوله:**"...ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًا، فإنّي لا أرى الموت إلّا شهادة، ولا الحياة مع الظّالمين إلّا برما"**[٥].

---

(١) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣١٠.
(٢) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٥-٤٦.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٥.
(٤) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٧٠.
(٥) جمهرة خطب العرب: ٤٧.

دأب الإمام على الإتيان بقيم مجرّدة(الحقّ، دحض الباطل، الشّهادة)، وهذه القيم دائمًا ما ترتبط بالتّغيير السّياسيّ والفكر الثوريّ[١]، وهي الأكثر تأثيرًا في الحجاج، والأكبر ضغطًا على المخاطبين، ولاسيّما أنّ الحسين في موضع التّغيير الإصلاحيّ، الّذي يقتضي قناعة أنصاره بأبعاد الثّورة الّتي خرج من أجلها، وذلك بعد أن أطمس الأمويّون معالم الهدى، وعطّلوا حدود الله، وعملوا بالباطل، وحكموا بالجور والظّلم في المسلمين، وكلّ ذلك ممّا يقتضي نهضة إصلاحيّة للوقوف أمام هذا المدّ الجائر، فما الحياة عند الحسين مع هؤلاء الحاكمين إلّا ذلّة وعبوديّة، وما الموت في سبيل رفع راية الهدى والصّلاح إلّا شهادة وكرامة عليا، فهذه قيم إنسانيّة ودينيّة عليا، تحمل المخاطبين على الإذعان والاعتقاد، وتدفعهم إلى الاستجابة لخطاب الحسين، والانخراط في نهضته ضدّ الجائرين.

ومن ذلك ما جاء في خطبة ابن عبّاس في وصف شخصيّة الإمام عليّ(ع) في مجلس معاوية[٢]، والّتي زاوج فيها بين القيم المحسوسة والمجرّدة لتحقيق الإقناع المطلق في أفضليّة عليّ على جميع البشر سوى الأنبياء.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة عبدالله بن مسعدة الفزازيّ(٦٣هـ) في حثّه لمعاوية على تنصيب يزيد خليفة للمسلمين من بعده، قوله:**"...ويزيد ابن أمير المؤمنين أحسن النّاس برعيّتك رأفةً، وأحقّهم بالخلافة بعدك، قد ساس الأمور وأحكمته الدّهور، ليس بالصّغير الفهيه، ولا الكبير السّفيه، قد احتجن المكارم وارتُجى لحمل العظائم، وأشدّ النّاس في العدوّ نكايةً، وأحسنهم صنعًا في**

---

(١) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٦.
(٢) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٩٢.

**الولاية..."**[1].

عمد الخطيب إلى المناوبة في إتيان القيم، فتارة ملموسة تعلّقت بأنّ يزيدًا ابن أمير المؤمنين، وتارة مجرّدة ارتبطت برأفة يزيد وعدله في الرّعيّة، فضلًا عن سياسته وحكمه، ليعود مرّة أخرى إلى القيم المحسوسة؛ فهو ليس بالصّغير الأبله البليد، ولا الكبير السّخيف، ثمّ يعود إلى نسقيّة القيم المجرّدة؛ فهو محتضن المكارم، وحامل عظائم الأمور، ومن ثمّ يدور دقّة الخطاب إلى القيم المحسوسة؛ فهو أشدّ النّاس تجبرًا وطغيانًا على العدوّ، وأحسنهم عملًا في ولاية أمور المسلمين، وهذا الرّفد القيميّ للخطاب من شأنه أن يُنزل الإقناع في المخاطب بشرعيّة التّنصيب، فترى الدّريدي أنّ هذه القيم تحمل الجمهور على الإذعان اعتمادًا على حجج ذات سلطة فاتنة، فيدخل الحجاج عندها وبسهولة فائقة باب التّوجيه نحو قضايا وأحداث معيّنة[2]، فكلّ ما جاء من قيم يتّفق معها معاوية، بل وقد يعتقد بها مُسبقًا لتسويغ عهده إلى يزيد من بعده، ولهذا نرى الخطيب أنّه سعى إلى عرض مسوّغات لرأي معاوية بالاعتماد على القيم، الّتي توائم أهدافه الحجاجيّة، وغايات خطابه السّياسيّة، فدعا إلى اتّخاذ هذا القرار بناءً على ما جاء من قيم محدّدة تناوبت بين المجرّدة والمحسوسة.

ولم تغب القيم عن خطب الزّبيريين، من ذلك ما جاء في خطبة عبدالله أثناء مناظرة مع عمرو بن العاص(٤٣هـ)، قوله:**" أمّا ما ذكرت من تعاطي الذّرى، فإنّه طال بي إليها وسما ما لا يطول بك مثله، أنفٌ حميّ، وقلب ذكيّ، وصارم مشرفيّ،**

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٢٤١.

[2] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٧٠.

**في تليد فارع، وطريف مانع، إذ قعد بك انتفاخ سحرك، ووجيب قلبك..."[١].**

حتّى يثبت ابن الزّبير أفضليّته على خصمه عمرو بن العاص، استدعى قيمًا دلّت على علوِّ مكانته ومنزلته، وكشفت عن البون الكبير بينهما، فهو رجل كبرياء عظيم يأنف أن يُضام يومًا، وفطن عاقل اشتدّت نباهته وتوقّد ذكاؤه، فلا يستطيع أحد أن يحتال عليه أو يحجب الحقائق عنه، فضلًا عن بسالة سيفه وارتقاء مجده؛ فهو تليد ذو سؤدد، عزيز شديد يُخشى بأسه، لذا نرى أنّ جلّ ما جاء به ابن الزّبير من قيم مجرّدة كـ(الكبرياء، الشّرف، المنزلة، الشّجاعة، العزّة) مدّت الخطاب بحمولة حجاجيّة ثقيلة على نفس الخصم، وأرغمته على الإذعان والتّسليم بدعوى الخطيب، بوصف تلك القيم مراجع الكلام وخلفيّات يستند إليها الخطاب، وعليها يتأسّس الموقف والواقع[٢]، فالقيم المجتمعيّة العربيّة اضطلعت بوظيفة حجاجيّة أفضت إلى تقدّم رتبة الخطيب وعلوّ شأنه على مناظره، انطلاقًا من قوانين وأحكام مجتمعيّة عربيّة محضة، كان يتغنّى بها العربيّ في كلّ محفل، ولهذا وجدت لنفسها تأثيرًا واضحًا في نفس المتلقي، فحملته على الإقرار والاعتقاد بمضامين الخطاب، الّتي جاءت ضمن الفضائل الأربعة الخاصّة برؤية قدامة بن جعفر(٣٣٧ هـ)، وهي:(العدل، والعقل، والعفّة، والشّجاعة)، وترى الدّكتورة سامية الدّريدي أنّ هذه الفضائل وكلّ ما يعود إليها من فروع وصفات ضروريّة جدًا في الاحتجاج لرأي، أو فكرة، أو موقف ما، فيتّخذ الشّاعر تلك القيم حجّة مركزيّة مهمّة، وبها يستدلّ على تميّز الذّات وتفرّدها في ثقة عجيبة وغريبة تصل إلى حدّ الغرور[٣]، ولا

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٦٧.

*تليد:مجد وسؤدد، انتفاخ سحرك: انتفاخ الرّئة: ويقصد عدا طوره وجاوز قدره، فارع: سامق عال.

(٢) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٧١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٦.

يختلف الخطيب عن الشّاعر في تبنّي تلك القيم، إلّا أنّه يجب أن تبقى هذه القيم ضمن فضاء قيميّ يحظى بقبول المتلقي، بوصفه المستهدف في الخطاب الحجاجيّ، إذا ما أراد الخطيب لخطابه أن يثمر ويُؤثّر.

وقد حضرت القيم الحجاجيّة بشكل غزير في خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن يحيى الإباضيّ(١٣٠هـ) لمّا استولى على بلاد اليمن سنة(١٢٩هـ)، فخطب في النّاس قائلًا: **"إنّا ندعوكم إلى كتاب الله، وسنّة نبيّه، وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا، ومحمّد نبيّنا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالًا، لا نبغي به بديلًا، ولا نشتري به ثمنًا قليلًا، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، وإلى الله المُشتكى"**[١].

تدور دقّة الخطاب الخارجيّ على استدعاء القيم الدّينيّة العليا، والّتي تنفتح على الفضيلة والتّقوى دائمًا، فلا غرو أن يأتي الإباضيّ في خطبته بقيم محسوسة تارة، ومجرّدة تارة أخرى بهدف التّرغيب، فهي تؤسّس منطلقًا إقناعيًّا يكسب به نفوس المخاطبين، فالانتقاء القيميّ يظلّ فاعلًا في تحقيق أهداف الخطاب وغاياته الحجاجيّة، لاسيّما إذا ما جاءت القيم نافذة إلى مناطق تفكير المتلقي، وعوالم شعوره، ليحمله بذلك على الإذعان لما يقرّره الخطاب[٢]، لاسيّما إذا كانت ذات سمة قدسيّة تفرض نفسها على الجميع، وتلزم المخاطبين بالإنصات لمضامينها، فكما يُلحظ أنّ كلّ القيم المعروضة دلّت على استقامة الخطيب وحزبه الخارجيّ، ممّا جعله حافلًا بحمولات حجاجيّة دينيّة تكسب ميول المخاطبين، وتشدّهم وجدانيًّا إلى الخطيب، وهذا التّأثير النّفسيّ يحملهم على تلبية دعوى الخطاب، والاستجابة إلى

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٤٦٥-٤٦٦.
[٢] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٧٦.

مضامينه، بوصفها أتت مُتّفقة مع بنائه الفكريّ والعقديّ، فالاحتجاج بالقيم الدّينيّة المقدّسة لا شكّ أنّها مؤثّرة ومقنعة، وعادةً ما تستقطب الأحاسيس الوجدانيّة، وتثير الانفعال بشكل كبير، فيبدو أنّ استحضار القيم والأفكار الدّينيّة التي يقوم عليها مذهب الخوارج عملت على استمالة المخاطبين إلى عقيدتهم، فربط الحجّة القيميّة بالعاطفة يمكن استغلالها بهدف إنزال الإقناع بوساطة عطف القلوب النّافرة، وقذف اليقين في النّفوس المُشكّكة، لعمل هزّة عاطفيّة في نفوس السّامعين، ليتسنّى للخطيب أن يقوم بتأهيل نفوسهم تأهيلًا حاسمًا، حتّى تصادف كلماته في أنفسهم هوى[١]، ممّا يقودهم ذلك إلى الإذعان التّامّ، والاعتقاد المطلق بصلاح تلك الفرقة، وحرصها على التّعلّق بتنفيذ أحكام الدّين، ونبذ كلّ معالم الضّلال والحرام.

وترى الدّكتورة سامية الدّريديّ أنّ هنالك حجّة قيميّة جامعة لكلّ القيم، مؤلّفة من بين مختلف أصنافها، ألا وهي حجّة(الاستحقاق)، ومدار هذه الحجّة يقوم على تقويم حدث معيّن، أو موقف محدّد تقويمًا عامًّا، فيُعدّ حصيلة ظروف معيّنة ونتاج أمور متضافرة ومتراكمة أدّت إليه بصورة منتظرة[٢]، وبموجب هذه الحجّة نقوّم ما تعرض إليه أحدهم فنقول:(إنّه نال ما استحقّه)، أو نخاطب جمهورًا ما بقولنا:(كما تكونون يولّى عليكم)، ونتحدّث عن قوم آخرين فنقول:(إنّهم يحصدون ما كانوا زرعوه)، وعلى هذا النّحو تبدو هذه (الحجّة) طريقة في استحضار القيم ملزمة جدًا، فهي حجّة يُصعب ويتعسّر ردّها ومناقضتها، إذ إنّ القول بأنّ شخصًا ما قد نال ما استحقّه من شأنه أن يغلق الأبواب أمام أيّ حجاج مضادّ، ويقطع كلّ طرق الشّكوك،

---

[١] ينظر:الباتوس:من الخطابة إلى تحليل الخطاب،د.حاتم عبيد، (بحث) ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف: د.حافظ إسماعيلي علوي،ج٢: ٦٥.

[٢] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٨٢.

ويسدّ منافذ الاعتراض والتّنديد[1]، ومن ذلك ما جاء في خطبة لأبي حمزة الشّاري حينما دخل المدينة سنة(١٣٠هـ)، فخطب قائلًا: **"يأهل المدينة: سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء، فأسأتُم-لعمر الله- فيهم القول، قلتم والله ما فيهم الّذي يعلم، أخذوا المال من غير حلّه، فوضعوه في غير حقّه، وجاروا في الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله، واستأثروا بفيئنا، فجعلوه دُولةً بين الأغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النّساء؛ وفروج الإماء، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الّذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم، فحكموا بغير ما أنزل الله نناشدهم الله أن يتنحّوا عنّا وعنكم، ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا يفعلون، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم، فإن نظهر نحن وأنتم نأتِ بمن يُقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنّة نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فقلتم: لا نقوى على ذلك، فقلنا لكم: فخلّوا بيننا وبينهم، فإن نظفر نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنّة نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم، ونقسم فيئكم بينكم، فأبيتم دونهم، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم"**[2].

الخطيب عازم على إثبات حقيقة عدل استحقاق جزاء أهل المدينة وما وقع عليهم من قسوة سيوف الخوارج، إذ استحضر ما قاموا به من أفعال دلّت على التّهاون والتّخاذل، والتّذلّل للسّلطة الحاكمة، فهو يلقي عليهم ثلاث حجج قيميّة تؤكّد أنّهم استحقّوا ما وقع عليهم من الذّلّ والهوان؛ لأنّهم جنوا ما كانوا يعملون، فقد رفضوا الاستجابة لكلّ دعوات الخطيب الإصلاحيّة وفرقته الخارجيّة القائمة على المطالبة بتنحّي الحُكّام الفُجّار، فضلًا عن رفضهم دعوة النّهوض والخروج لقتال الأمويين الجائرين، بل ولم يكتفوا بذلك، فلم يلتزموا الحياد تجاه وقائع الخوارج مع

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٨٢.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٦٧-٤٦٨.

جيوش السّلطة، وعمدوا إلى القتال في صفوف الّذين ظلموا العباد، وجاروا في البلاد، على الرّغم من اعترافهم بضلال البلاط، وانحرافه عن تعاليم السّماء في الحكم، وهذا يعطي نتيجة طبيعيّة تثبت استحقاق ما جرى عليهم من البلاء، انطلاقًا ممّا قدّمت أيديهم وسوء صنيعها، وتخلّفها عن نصرة الخطيب وفرقته بوصفهم دعاةً للإصلاح، وثوّارًا مناوئين للبيت الأمويّ، الّذين عطّلوا حدود الله، وجاروا في الرّعيّة، واستأثروا بالفيء وما شابه ذلك، فيبدو واضحًا أنّ الخطيب ألقى على أهل المدينة حججًا تثبت لهم المآخذ الّتي وقعوا فيها، فأدّت إلى ظروف الإذلال؛ بوصفها نتاجًا لجملة من الأمور المتعاقبة، الّتي أفرزت جملة من النّتائج السّلبيّة المتوافقة مع ما مضوا إليه من الفعل المشين، وسوء الصّنيع.

ويرى (بيرلمان) أنّ القيم لوحدها لا تكفي بأن تمثّل حجاجًا ناجحًا ومؤثّرًا ما لم تكن خاضعة لهرميّة ما، فالجميل درجات وكذلك النّافع، فـ"الهرميّة أهمّ من القيم نفسها"[١]، وتسليم الجمهور بها يرتبط بمدى ترتيب الخطيب لها في الخطاب لتحقيق الإقناع، فلا شكّ أنّها ليست كلّها في مرتبة واحدة من التّعظيم والأهمّيّة[٢]، لذا على المحاجج أن يُخضع القيم المعروضة في البنية الحجاجيّة للخطاب إلى سياسة الهرميّة والتّرتيب إذا رام رفع درجة إذعان الجمهور لدعوى الخطاب، وقد تكون هذه الهرميّة التّراتبيَّة مجرّدة تارة، أو ملموسة تارة أخرى، ومن الملموسة قولنا: الإنسان أسمى من الحيوان، ومن المجرّدة سموّ العادل على النّافع[٣]، ومن شواهد الهرميّات ما جاء في خطبة الحسن بن عليّ(ع) في بيان فضل مقام آل بيت النّبوّة، وسموهم على الآخرين، قوله: **"نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله صلّى**

---

(١) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣١٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٠.
(٣) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٦.

**الله عليه وسلّم الأقربون، وأهل بيته الطّاهرون الطّيّبون، وأحد الثّقلين اللذين خلّفهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والثّاني كتاب الله، فيه تفضيل كلّ شيء"**[1].

لم تأت قيم الفضائل المعروضة في الخطاب الحسنيّ ببيان مقام آل بيت النّبيّ إلّا على وفق هرميّة تراتبيّة ناجعة للغاية، فقد قدّم الانتساب إلى حزب الله بوصف الذّات الإلهيّة أسمى المقامات وأعلاها، ومن ثمّ انتسب إلى الذّات النّبويّة البشريّة المُعظّمة في المرتبة الثّانية، الّتي تتمثّل بقربهم من النّبيّ، فهم عترته وآل بيته الأطهار، فضلًا عن المقام الأخير الّذي يتمثّل بوصفهم أحد تركة النّبيّ (الثّقلين) في أمّته، والّذي يتعلّق بحديث النّبيّ في فضلهم وأثرهم من بعده، إذ نرى أنّ الخطاب الحسنيّ كان خاضعًا لاستراتيجيّة التّراتبيّة الحجاجيّة (حزب الله المفلحون، والعترة الأقربون، وأهل البيت الطّاهرون الطّيّبون)، وهذه الرّتب السّامقة تطمح إليها كلّ النّفوس، وتتأثّر بها العواطف، وقد أحسن الخطيب في تقديمها بصورة متدرّجة ومؤثّرة، إذ عمل ذلك على استدراج المخاطبين واستمالتهم وفق سياسة التّدرّج من الأسمى والأعلى شأنًا إلى الأقلّ، بوصفها مجموعة من القيم المترتّبة ترتيبًا مُتّفقًا عليه بين الباثّ والمخاطبين، فأعلى الرّتب هو الانتساب لحزب الله، ومن ثمّ عدل إلى الأقلّ منها من حيث القرب من النّبوّة، وأحد أثقالها المتروكة بعدها، وبهذا نقل السّامعين من الإيمان بالقيم المعروضة إلى الأخذ بها والاعتراف بصحّتها، والإقرار بحقائقها، وهذا لا يتحقّق إلّا لمن يعي طبيعة عقول المخاطبين وبناءها النّفسيّ.

---

(1) جمهرة خطب العرب: ١٧.

**٥-المواضع:**

هي منطلقات حجاجيّة أعمّ من القيم وهرميّتها، يلجأ إليها الخطيب لرفع درجات الإذعان، فيرى (شيشرون) أنّها "عبارة عن مخازن للحجج أو مستودعات حجج"[١]، وربّما هذا هو سبب تسميتها بذلك، ويصنّفها (بيرلمان) إلى صنفين:-

الأوّل: المشتركة: وهي إثباتات عامّة جدًا تتعلّق بما يُفترض أنّه أكثر قيمة في ميادين مختلفة.

الثاني: الخاصّة: وتُعنى بما هو أفضل في حالات خاصّة[٢]، وهي المواضع تُقسّم إلى أقسام، هي:

١-مواضع الكمّ: هي تلك الّتي تؤكّد أنّ شيئًا أفضل من آخر يعود لمعايير تتعلّق بالكمّ، كالمال الأوفر أفضل من المال الأقلّ، والكلّ أفضل من الجزء.

٢-مواضع الكيف: وهي بالضدّ من الكمّ، من حيث أنّها ذات خاصّية في وحدتها الشّكليّة في مواجهة الجمع، كالحقّ الّذي يعلو فوق كلّ شيء.

٣-مواضع التّرتيب: وتُعنى في ترتيب التّفكير، كالمبادئ والقوانين، ومواضع الموجود أفضل من المحتمل، كقولنا: عصفورٌ باليد خيرٌ من عشرة على الشّجرة[٣].

وسنتناول خطبة جامعة لأقسام المواضع كافة، وذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن عبّاس حينما سأله معاوية(ما تقول في عليّ؟)، فقال:**" رضي الله عن أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التّقى، ومحمل الحجا، وبحر النّدى، وطود**

---

(١) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣١١.

(٢) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٧، وينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته:٣١١-٣١٢.

**النّهى، وكهف العلا، للورى داعيًا إلى المحجّة، متمسّكًا بالعروة الوثقى، خير من آمن واتّقى، وأفضل من تقمّص وارتدى ، وأبرّ من انتعل وسعى، وأفصح من تنفّس وقرا، وأكثر من شهد النّجوى-سوى الأنبياء والنّبيّ المصطفى-صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد؟، وأبو السّبطين فهل يقارنه بشر، وزوج خير النّسوان فهل يفوقه قاطن بلد؟، للأسود قتّال، في الحروب ختّال، لم ترَ عيني مثله ولن ترى، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد، إلى يوم التّناد"[1].**

انفتحت هذه الخطبة على محاور مختلفة من المواضع، فيبدو جليًا أنّ الخطيب يريد إثبات الرّتبة العليّة لشخصيّة أمير المؤمنين على باقي المسلمين جميعًا، فنجد أنّ المواضع الأولى عُنيت بـ(الكيف)، كقوله: "علم الهدى، كهف التّقى، ومحمل الحجا..."، فأثبت بذلك أنّ عليًّا يمثّل خطّ الاستقامة، وصراط الحقّ وعمود التّقوى الّذي لا يُعلى عليه، وهو معيار التّفاضل الأساس بين المسلمين من المنظور القرآنيّ الّذي لا يقبل الطّعن.

أمّا المحور الآخر فقد انفتح على مواضع(الكمّ)، كقوله:(بحر النّدى)، وقوله:(خير من آمن واتّقى، وأفضل من تقمّص وارتدى، وأبرّ من انتعل وسعى، وأفصح من تنفّس وقرا، وأكثر من شهد النّجوى)، وصيغ أفعل التّفضيل هذه خدمت مضامين الخطاب، فالخطيب أثبت بها حقّ تقدّم منزلة الإمام على غيره، حينما جعله (أتقى وأفصح وأبرّ...)، فالقيم المعروضة في شخصيّة الإمام هي صفات قائمة في ذاته، فلا أحد يتقدّمه في المناقب والفضائل، والمنازل العليا بناءً على معايير كميّة واضحة.

ولو تتبّعنا الخطبة من مطلعها إلى خاتمتها لكشفنا أنّها خاضعة إلى سياسة

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٩٢-٩٣.

ترتيب مُحكمة للأفكار، اتّبع الخطيب سُلّمًا حجاجيًّا تراتبيًّا من الأعلى إلى الأدنى، فقد بدأت بالأعظم أهمّيّة وأسماها أمرًا إلى الأقلّ منها منزلة، والخطيب في ذلك يتناوب بين قيم مختلفة، فتارة مجرّدة وتارة ملموسة، إذ يمنح الأفضليّة والأسبقيّة للأكبر شأنًا(علم الهدى، كهف التّقى)، ثمّ يتدرّج إلى الأقلّ قدرًا، ولا نعني بذلك بالضّرورة أن نحطّ من قيمتها وأهمّيّتها، فـ"إنّ أقلّ قيمة تبقى قيمة رغم ذلك"[1] من منظور (بيرلمان)، لذا جاء الخطيب بترتيب تنازليّ فابتدأ بالمزايا الدّينيّة الكيفيّة والمجرّدة كالهدى والتّقوى؛ لأنّها أعظم الخصال وأوضحها في تلك الشّخصيّة الكبيرة، فقدّم القيمة الإقناعيّة الأقوى والأشدّ تأثيرًا؛ ممّا يجعلها أكثر قوّة وثقلًا ورهبةً في المتلقّي، أو الجاحد، الّذي لا تنفع معه إلّا الحجج القويّة في منطلق الخطاب، فالحجّة الأقوى في بداية الخطاب تؤسّس نقطة ارتكاز أو ضربة مفاجئة، فإذا اهتزّ شكّه صار مستعدًا للإذعان لها[2]، فهي كما يظهر منهجيّة حجاجيّة في ترتيب الأفكار المعروضة في الخطاب بهدف تحقيق الإقناع وزيادة الإذعان لحقائق تلك القيم والأفكار، والخطيب بهذا أبان عن استحقاق الشّخصيّة المعرّفة لكلّ تلك النّعوت، أي أنّه لم يأت بشيء غريب وغير مألوف في الإمام، وقد أحسن في التّدرّج لعرض تلك القيم الكامنة في شخصيّته على وفق هرميّة مرتّبة حجاجيًّا، وذات مسار انتقاليّ من فكرة إلى أخرى، ومن قيمة إلى أخرى، بوصفها حجّة تقوّيها وتعزّز حضورها في ذهن المتلقّي، ممّا أغلقت المجال أمام معاوية في إبداء أيّ اعتراض، أو تشكيك مضادّ للخطاب، فحقّق الخطيب الغايات المبتغاة، وكشف عن الصفات المجرّدة والمحسوسة، الّتي يتفرّد بها أمير المؤمنين عن غيره، فحمله على الإيمان والإقرار بشكل أو بآخر بكلّ ما جاء في الخطاب من مضامين خاصّة

---

(١) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٧.
(٢) ينظر:سورة التكوير-مقاربة حجاجية، د.عمار نعمة نغيمش، (بحث)،جامعة واسط، مجلة كلية التربية ،العدد :٣٩، ج٢، أيار ٢٠٢٠م :٢٢.

وعامّة، فجميع المواضع تركت أثرًا حجاجيًّا في دفع معاوية نحو اليقين، إذ قامت بخلخلة في بنية تفكيره، وأثارت انفعاله، وضمنت إذعانه ذهنيًّا، فلم يذكر صاحب الجمهرة حدوث أيّ ردّ فعل من معاوية تجاه هذا الخطاب، بل أقرّ به نسبيًّا.

ويبدو لي أنّ مواضع التّرتيب في الخطبة بدأت من العامّ وانتهت إلى ما هو خاصّ في شخصيّة الإمام، ويستهدف الخطيب من ذلك التّدليل على أخذ عليّ بزمام المناقب بشكل لا يمكن أن يفوقه أحد من المجتمع الإسلاميّ، وكذلك بوساطة آليّة تقديم معيار (الكيف) على معيار(الكمّ)، في الخطبة، لما لها من بعد إقناعيّ وحمولة حجاجيّة ترغم المتلقي على الاعتقاد والتّسليم بالخطاب من دون طعن، أو نقض.

# الفصل الثّاني

## تقانات الحِجاج في الخطابة الأمويَّة

### توطئة

- المبحــث الأوّلَ: الحجج شبه المنطقيّة الّتي تعتمد البنى المنطقيَّة.
- المبحث الثّاني: الحجج شبه المنطقيّة الّتي تعتمد البنى الرّياضيَّة.

## توطئة

يبدو يقينًا أنَّ البلاغة الجديدة، أو الحجاج البلاغيّ يفرز معارضة قويّة لكلّ بلاغة غير حجاجيّة، وهي حتمًا تتعارض مع المنطق الدّيكارتيّ؛ الّذي لا يؤمن بأيّ عقلانيّة غير العقلانيّة البرهانيّة، والّتي تتمثّل في البرهنة المنطقيّة الخاضعة للقياس المنطقيّ المطلق: كقولنا(كلّ اللغويين علماء-زيد لغوي- زيد عالم)[١]، إذ نرى أنفسنا أمام برهان منطقيّ صارم يتضارب مع بناء الحجاج البيرلمانيّ الاحتماليّ، الّذي يتمثّل في مجموعة من التّقانات الخطابيّة الموجّهة إلى جمهور عامّ، أو خاصّ بصدد إيقاع الإقناع في نفوس ذلك الجمهور، ليؤدّي إلى الإذعان لدعوى الخطيب وأفكاره، وفي مدار حواريّ حجاجيّ قائم على الاحتماليّة والنّسبيّة، إذ لا يكون الحجاج حاضرًا إلّا في وسط مواضع الشّكوك، ويكون قابلًا للإهمال والإبطال، إذ يرتبط بالشّبيه بالصّدق بعيدًا عن البرهنة المرتبطة بالمنطق والرّياضيات وغيرها من الأساليب الصّوريّة والاصطناعيّة الحتميّة[٢]، بمعنى أنَّ الحجاج غير الملزم وغير الاعتباطيّ هو وحده القمين بأن يحقّق الحرّيّة الإنسانيّة من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل، فإن تكون الحرّيّة تسليمًا اضطراريًّا إلزاميًّا بنظام طبيعيّ معطى سلفًا سيتمخّض عنه انعدام كلّ إمكان للاختيار، فإذا لم تكن ممارسة الحرّيّة مبنيّة على العقل، فإنّ كلّ اختيار يكون ضربًا من الخور، ويستحيل إلى حكم اعتباطيّ يسبح في خيال فكريّ[٣]، فالحجاج كما يبدو واضحًا تتحرّك أوتاره داخل بنية الخطاب الحواريّ، يتعدّد فيها المخاطب كمّيًّا، ويتنوّع كيفيًّا[٤]، ويكتسب فعاليّته من

---

[١]ينظر:الحجاج في اللغة والبلاغة(ديكرو وانسكومبر وبيرلمان إنموذجا)، أبو بكر العزاوي : (بحث): جامعة السلطان مولاي سليمان-المغرب:٩.

[٢] ينظر:المصدر نفسه: ٢٩.

[٣] الحجاج في الخطابة النبويّة:٣٨.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٣٨.

السّياق الاجتماعيّ، ليقوم على تبنّي تقانات حجاجيّة موّجهة بهدف التّأثير، وتحقيق الإذعان، فالتّفاعل الحاصل بين الخطيب ومتلقيه ليس بالضّرورة أن يؤدّي إلى نتائج ملزمة، إلّا أنّها تبقى ممكنة الوقوع، فهذه التّقانات على وفق المنظور البيرلمانيّ نوعين: اتّصاليّة تُقرّب بين العناصر المتباينة، وتقيم روابط اتّصاليّة بينها حتّى نتمكّن من صناعة بنية حجاجيّة متماسكة، والثّانية: انفصاليّة تعمل على إحداث القطيعة، وإفساد اللحمة الموجودة بين عناصر تكوّن عادة كلًّا لا يتجزّأ[١]، وما دامت البلاغة بوصفها إجراءً يُضاف إلى الحجّة ليُبنى بذلك(الحجاج البلاغيّ)، فهذا لا ينحصر على النّصّ الأدبيّ وحده فحسب، بل ينسحب على مجمل أنشطة اللغة والقول والخطابات، فيقول (مايير) بهذا الصّدد: "إنّ كلّ شيء قد أضحى تواصلًا، من الصّداقة إلى الحبّ، ومن السّياسة إلى الاقتصاد، حيث نجد العلاقة تُقام وتُفسخ بناءً على فشل، أو نجاح البلاغة، وإذا كان كلّ خطاب تواصل، وكلّ تواصل يقوم على البلاغة، فإنّ وراء كلّ حجاج بلاغة، ووراء كلّ بلاغة حجاج، ما دام هنالك استمالة يقصد بها الإقناع"[٢]، وتجدر الإشارة إلى أنّ (بيرلمان) وإن كان يصرّ على ضرورة التّمييز بين الخطاب الحجاجيّ والبرهنة، فإنّه يعدّ البرهنة في بعض الأحيان شكلًا من أشكال الحجاج، إلاّ أنّها تختلف عنه من حيث كونها تركّز على جانب واحد هو الصّوريّ الاستنتاجيّ الإراديّ من المخاطب[٣]، فإذا كانت البرهنة تسلب إرادة المتلقين بصورتها المنطقيّة والحسابيّة، فإنّ الحجاج يذهب إلى التّأثير وصناعة الاتّفاق في إطار يتيح الحرّيّة في الممارسة البشريّة.

يتّضح لنا أنّ حجاج (بيرلمان) يقوم على تقانات مختلفة، وتتوزّع بين نوعين كبيرين"الحجج القائمة على الوصل، والحجج القائمة على الفصل؛ الأولى تُمكّن من

[١] ينظر:الحجاج في الخطابة النبوية: ٣٥-٣٦.
[٢] الخطاب الحجاجي(أنواعه وخصائصه): ٦٩.
[٣] ينظر:الحجاج في اللغة والبلاغة: ١٠.

نقل القبول الحاصل حول المقدّمات إلى النّتائج، والثّانية تسعى إلى الفصل بين عناصر ربطت اللغة، أو إحدى التّقاليد المعترف بها بينها"[1]، وهي وسائل مهمّة لها أثرٌ كبيرٌ في توجيه بوصلة الحجاج، الّذي يرتكز على المقدّمات ذات الحمولات الفكريّة الإقناعيّة، الّتي تصنع المنطلق الأوّلي في العمليّة الحجاجيّة لصناعة الاستدلال على طروحة ما، أو رأي معيّن للحصول على تسليم الجمهور، وقد صنّف الباحثون تلك المقدّمات على وفق المنظور البيرلمانيّ على صنفين: المجموعة الأولى: ما كانت تتصل بالوقائع من حقائق وافتراضات، والمجموعة الثّانية: ما كانت تتّصل بالقيم ومراتبها، وموضع الأفضل فيها[2]، كما صنّف المنظّرون التّقانات الحجاجيّة المؤسّسة لبنية الحجاج على نوعين:

النّوع الأول: حجج قائمة على الوصل(طرائق الوصل أو الاتّصال).

النّوع الثّاني: حجج قائمة على الفصل(طرائق الفصل أو الانفصال)[3].

وتُقسم الحجج القائمة على الوصل على:

١-حجج شبه منطقيّة.

٢-حجج مؤسّسة على بنية الواقع.

٣-حجج مؤسّسة لبنية الواقع[4].

وما يعنينا من هذه التّقانات الحجاجيّة في هذا الفصل هو(الحجج شبه المنطقيّة)، وسُمّيت بهذه التّسمية لأنّها تقترب من الفكر الصّوريّ ذي الطّبيعة البرهانيّة والرّياضيّة، لكنّها تختلف عنه في كونها تفترض دائمًا القبول بدعاوى ذات طبيعة

---

(١) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٥٧.

(٢) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٤٢-٤٦.

(٣) ينظر:الحجاج أطره وتقنياته ومنطلقاته: ٣٢٤-٣٢٥.

(٤) ينظر:الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٥٧.

غير صوريّة، وتعتمد على استعمال الحجّة[1]، بمعنى أنّها غير ملزمة في العمليّة الإقناعيّة، بينما تكون الحجج المنطقيّة ملزمة وقطعيّة، ومع ذلك فإنّها تصنع تقاربًا بين البرهان والحجاج، لكنّها تثير الاعتراض وتقبل النّقض، في حين لا يكون ذلك في الحجج المنطقيّة الّتي تكون بعيدة عن لغة النّقض، وترى الدّكتورة سامية الدّريديّ أنّ هذه الحجج تمثّل "منزلة بين منزلتين، فإنّها تثير إشكالًا محيّرًا تمامًا كأيّ منزلة وسطى متأرجحة بين قطبين متناقضين، ولكنّنا نعلم كذلك أنّ الحجاج في جوهره ينبذ قانون(الكلّ، أو لا شيء)، أي يرفض الصّرامة في ضبط الحدود والفروق، ويجد في المنطقة الوسطى المتّشحة بالغموض تربة خصبة"[2]، ولهذا آثرنا أن نتناولها على مبحثين لأهمّيّتها تبعًا لفرعيها (شبه منطقيّة تعتمد البنى المنطقيّة، وشبه منطقيّة تعتمد البنى الرّياضيّة).

---

(1) ينظر: الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٥٧.

(2) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٩١.

## المبحث الأوّل

## الحجج شبه المنطقيّة الّتي تعتمد البنى المنطقيّة

### أ-التّناقض وعدم الاتّفاق.

ونقصد بذلك أن يتضمّن الخطاب قضيّتين إحداهما تنفي الأخرى، وعرضهما سيؤدّي حتمًا إلى تبنّي إحداهما واستبعاد الأخرى، وعادة ما يفضي هذا الاستبعاد والإقصاء إلى إثارة السّخرية، فالتّناقض غالبًا ما يسهّل الكشف عنه، وهذا التّعارض يكون المسبّب المباشر للضحك؛ لذا عدّ (بيرلمان) السّخرية والهزأ من أهمّ أسلحة الحجاج[١]، فينبغي أن لا نكون في الخطاب الحجاجيّ أمام تناقض بل أمام تعارض، "وحينما يقع المرء دون رغبة منه في تضارب بين قاعدة أثبتها، أو دعوى دافع عنها أو موقف تبنّاه وبين دعوى أو قاعدة سبق أن أثبتها وكانت مسلّمًا بها عند الجميع؛ ويعدّ بوصفه عضوًا في الجماعة مقنعًا لها[...]، ممّا يفرض على المرء أن يختار، وأن يعيّن القاعدة الواجب إتّباعها في حالة وجود تضارب"[٢]، فخلاف ذلك سيكون عرضةً للضّحك والسّخرية، ومن ثمّ يفسد التّناقض دعوى ويثبت أخرى، وهو كما يبدو يهدم العمليّة الحجاجيّة، ويقدّم (بيرلمان) مثالًا "يتعلّق بالشّخص الّذي يزعم أنّه لم يسبق له أن قتل كائنًا حيًّا، والّذي يبيّن له أنّه بمعالجة جرح متقيّح، سوف يضطر إلى قتل عدد هائل من الميكروبات"[٣]، فالتّعارض في الحجاج سلبيّ جدًا، ويجعل الخطيب يقع في مأزق خطير يعمل على دحض متبنّياته الفكريّة، في حال لم يحسن التّملّص من فخّ المغالطة والتّناقض.

---

[١] ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب(تطبيقات في خطب ابن نباته): ٧٢.
[٢] نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٥٩-٦٠.
[٣] المصدر نفسه: ٥٩.

وقد حضر هذا التّكتيك الحجاجيّ كثيرًا في خطب العصر الأمويّ، نظرًا لضرورة التّبكيت في الجدال والمناظرة، ومن ذلك خطبة الحسن(ع) في أتباعه حول الصّلح مع معاوية، قوله: **"فإنّ الله قد هدى أوّلكم بأوّلنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وكانت لي في رقابكم بيعة،تحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمت، وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه، وإنّ لهذا الأمر مدّة، والدّنيا دول، وإنّ الله تعالى قال لنبيّه (ص):"وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين"{الأنبياء:١١١}**[١].

إنّنا نعلم أنّ الحجّة المركزيّة في خطب العلويين الّتي أقاموا عليها دعوتهم إنّما هي الانتساب إلى البيت النّبويّ، كما هي السّند الوثيق في بناء الخطاب لديهم، فمن الطبيعيّ أن يلحّ أئمّتهم وخطباؤهم على هذه الحجّة، فالحسن في هذه الخطبة قد جاء بألفاظ أشارت إلى هذه الفكرة العقديّة (أوّلنا، آخرنا)، التي مثّلت لحظة الاستهواء والاستمالة، إذ دقّ من خلالها أبواب قلوب السّامعين، واستثار عاطفتهم، ليقيم بعدها حجّته شبه المنطقيّة القائمة على عدم الاتّفاق بين ما أبدوه له من مخالفة لأوامره ونواهيه، وبين بيعتهم المسبقة لهذا الحدث، فنفوسهم كانت مندفعة ومشحونة نحو قتال معاوية، فجاء بحجّته بقوله:**(كانت لي في رقابكم بيعة....)**، فما يدعون إليه يخالف متبنّياتهم المسبقة القائمة على البيعة، والّتي تقضي بوجوب الانقياد للإمام والانصياع له في كلّ أمر، ممّا ألزمهم حجّة بالغة الأثر، في محاولة إقناعهم بجدوى الصّلح، وحكمة القرار السّياسيّ، والتّحذير من عواقب العصيان، ليكبح جماح نفوسهم، ورغبتهم العارمة بالحرب، في حين كان الخطيب متّجهًا إلى الموقف الدّبلوماسيّ المسالم، وكأنّه حينما حثّهم على ذلك، كان في موقف السّؤال (كيف تفعلون ما لا يفعل إمامكم؟!)، فأحدث هذا الاعتراض وظيفة حجاجيّة اخترقت

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٢.

إراداتهم وعقولهم وأذعنتها، وعملت على زيادة تأييدهم وانصياعهم لقرار الحسن، فمن غير المقبول أن يكون هنالك تناقض، أو عدم اتّفاق بين بيعتهم وأفعالهم، فألزمهم ذلك أن يسالمون من يسالم، ويحاربون من يحارب، ويبايعون من يبايع درءًا للفتنة.

نجد أنّ هذا الخطاب الحسنيّ دفع أتباعه المتحمّسين للقتال إلى الإقناع والإذعان والإعراض عن التّمرّد والتّذمّر بناءً على القاعدة المبنيّة على أصل البيعة، والواقع أنّ الحسن أراد من أتباعه الطّاعة سواء أكان قائمًا أو قاعدًا، فهو يمثّل الخطّ النّبويّ بوصفه امتدادًا طبيعيًّا له، والّذي لا يمكن أن يخطو خطوات خاطئة كما يفكّرون، فضلًا عن البيعة الّتي تستلزم ذلك، ولمّا كانت الإمامة على هذا النّحو، فهي ما يقرّب النّاس من الخير ويبعدهم عن الشّرّ، إذن هي لطفٌ إلهيٌّ، كما كانت النّبوّة كذلك، فهي على النّبوّة تُقاس[1]، ولهذا كان الخطيب يمثّل منطلق النّبوّة، والهدف لكليهما واحد، فهما يمثّلان خطًّا واحدًا في المجتمع الإسلاميّ عند العلويين؛ ولا يمكن لأتباعهم الاعتراض على أحكامهم واعتقاداتهم وآرائهم، فهي حجج لها اتّفاق مسبق مثّلت نقطة ارتكاز مهمّة دعمت طاقة الحجّة شبه المنطقيّة، وأسهمت في زيادة التّسليم بدعوتها، والاعتقاد بصحّتها، وقبول رأيها في المحصّلة النّهائيّة، فقد أطّر هذا الأمر لقبول تدريجيٍّ بشرعيّة الصّلح، فوضع الحجّة كما يظهر لم تكن برهانيّة محضة كونّها تقبل الاعتراض فليس كلّ المبايعين يؤمنون بقطعيّة الطّاعة والرّضوخ، ولا بلاغيّة بحتة، بل كانت منطقة وسطى بين منطقتين، وهذا أقوى أنواع الحجاج لكونه قائم على نشاط عقول المتلقّين ووعيهم بالخطاب، ممّا يتولّد عن ذلك قناعات كبرى بأفكار الخطيب، فالبرهان الحجاجيّ هو "ما ليس برهانًا علميًّا أو بلاغة عاطفيّة، إنّه يقع بينهما، وفي الوقت نفسه يتميّز عن التّطويع أو العنف، إنّه

---

[1] ينظر:تيارات الفكر الإسلامي: ٢١٨.

يتعارض هكذا مع كلّ أشكال القسر، ويظلّ الفضاء المحدّد على هذا النّحو واسعًا"[1]، والّذي عمّق من حدّة الحجاج إشارة الحسن إلى أنّ انتقال الحكم إلى معاوية ما هو إلّا فترة اختبار لمدة منقضية، والأيام دائرة، والحقّ سيرجع إلى أهله بوصفه نتيجة طبيعيّة، وقد أسهم الختم القرآنيّ للخطبة بدلالة ثقيلة على الأتباع والأنصار حول الصّلح، وعزّز موقفهم، ورسّخ قناعتهم بصنيع إمامهم.

وحضرت هذه التّقانات الحجاجيّة في خطب الزّبيريين، ومن ذلك خطبة عبدالله بن الزّبير في مجلس معاوية حينما سأله عن حاجته، إذ قال: **"نعم، المهاجرون والأنصار تردّ عليهم فيئهم، وتحفظ وصيّة نبيّ الله فيهم، تقبل من محسنهم، وتتجاوز عن مسيئهم. فقال معاوية: هيهات هيهات؟ لا والله ما تأمن النّعجة الذّئب وقد أكل أليتها. فقال ابن الزّبير: مهلًا يا معاوية، فإنّ الشّاة لتدرّ للحالب، وإنّ المدية في يده، وإنّ الرجل الأريب ليصانع ولده وهو الذي خرج من صلبه، وما تدور الرّحاءُ إلّا بقطبها، ولا تصلح القوس إلاّ بعجبها"**[2].

يطالب ابن الزّبير بحقوق المهاجرين والأنصار من بيت مال المسلمين الّذي منعه معاوية عنهم، وأنّه يطالبه بحفظ وصيّة النّبيّ(ﷺ) فيهم، إلّا أنّ معاوية يواجهه باعتراض مستوحى من بيئة العرب، بقوله(**ما تأمن النّعجة الذّئب...**)؛ أي بمعنى أنّهم قد غدروا به وحاربوه في صفّين، وإن لم يكن هذا الاحتمال فحقده عليهم لربّما يأتي من أنّهم قتلوا أجداده وأسلافه من البيت الأمويّ في بدر وأُحد، وحتّى لا نبتعد كثيرًا عن صلب الحديث الحجاجيّ، فإنّ ابن الزّبير واجهه باعتراض أبان عن عدم اتّفاق حجّة معاوية مع ما يتبناه من موقفٍ إزاء المهاجرين والأنصار، فنقض اعتراضه وردّ الحجّة عليه، وبصورة مستوحاة من بيئة العرب كذلك، فقال له:(إنّ

---

(1) الحجاج في التواصل: ٥٦.
(2) جمهرة خطب العرب: ١٦٥-١٦٦.

الشّاة لتدر للحالب....)، فإذا لم تأمن النّعجة الذّئب، فإنّ الشّاة تعطي لمن يحلبها وإن كانت السّكين في يده بارزة، على الرّغم من أنّ ذبحها واقع في أيّ لحظة من اللحظات بيد ذلك الحالب، ورغم هذا الأمر لم تمنع العطاء عن صاحبها، وكذلك الحال يجب أن يكون مع معاوية في رعيّته سواء كانوا من المناصرين أو المناوئين.

ويرى الدّكتور محمّد العمريّ أنّ عماد هذه الحجّة في مدار هذه المناظرة هو المثل التّشبيهيّ القائم على الاستعارة والتّرميز، الّذي ترك أثرًا استقرائيًّا يقوم على المشابهة بين حالتين في مقدّمتها، ويُراد استنتاج احديهما بالنّظر إلى نهاية مماثلتهما[1]، ومن ثمَّ تخدم القيمة الحجاجيّة للمثل أطروحة الخطيب وتزيد من قناعة الخصم، لتدفعه إلى التّسليم والإقرار، فابن الزّبير فرض على صاحبه هذا القياس شبه المنطقيّ بردّ الحجّة المناقضة الّتي نسفت مسوّغات الحاكم، ليجعله يتأمّل في هذا الموقف، ومن ثمّ يراجع قراره بشأن عطاء المهاجرين والأنصار من بيت المال، وقد أتت الطّاقة الحجاجيّة لخطاب عبدالله بن الزّبير عن طريق حجّة عدم الاتّفاق بين دعوى الحاكم ومسوّغاته الحجاجيّة، والّتي ارتقت إلى مصاف القياس شبه المنطقيّ، وهو ما بدا واضحًا في جوهر التّناظر الخطابيّ، الّذي اعتمد صورتين مأخوذتين من صور الحياة في البيئة العربيّة، وقد أوغل عبدالله في تأكيد عدم التّوافق بشكل عمّق فيه مشروعيّة حقوق تلك الفئة في الدّولة الإسلاميّة، من خلال رفد خطابه بقياس آخر هو أنّ الرّجل ليتعاطف مع ولده، ويلين مع الّذي خرج من صلبه، وهو مع ذلك لا يأمن له، وبالمحصّلة عليه أن يتقرّب إليه ويأخذ بيده، وأراد من هذا أن يحمل معاوية على التّيقين والتّسليم لما يرنو إليه، فقد ألزمه الحجّة، وألقى عليه قولاً حجاجيًّا ثقيلًا، فمعاوية وإن كان يعلم بعداوتهم وبغضهم إلّا أنّ ذلك لا يبيح له منع عطائهم، فالإسلام قد كفل حقوق جميع المسلمين، فضلًا عن

---

[1] في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٨٢.

الإشارة إلى وصيّة النّبيّ(ﷺ) بهؤلاء القوم، ممّا جعله يخضع لمآرب الخطاب الزّبيريّ ويخنع له، حتّى بلغ الأمر باستنجاد معاوية بمن يكفيه لسان ابن الزّبير كما يروي الدّكتور أحمد زكي صفوت[1]، وعلى ما يبدو أنّ هذا الاعتراض وعدم الاتّفاق ليس منطقيًّا خالصًا، وإنّما صنعه الخطيب ليضفي على خطابه ذلك البعد الحجاجيّ البلاغيّ القائم على المقابلة والتّعارض، الّذي أثبت مشروعيّة مطالب ابن الزّبير من معاوية، ولذلك يرى (بيرلمان) أنّ انعدام التّوافق الّذي يبتعد عن التّناقض الصّوريّ يؤدّي إلى عزل وردّ حجّة الخصم ليقيم حجّة ثانية تقتضي قرارًا جديدًا[2]؛ أي بمعنى يقوّض القرارات المسبقة الّتي تتعارض مع رغبات الخطيب وأفكاره، وهذا من شأنه أن يمدّ القول بشحنة حجاجيّة كبيرة تعمل على تحقيق المبتغى الموسوم من الخطاب.

ومن حجج التّعارض وعدم الاتّفاق ما ورد في خطبة الحجّاج في أهل الكوفة، قوله:**"يأهل الكوفة، إنّ الفتنة تُلقح بالنّجوى، وتُنتج بالشّكوى، وتُحصد بالسّيف؛ أما والله إن أبغضتموني لا تضرّوني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودّتكم، زعمتم أنّي ساحر، وقد قال تعالى:(لا يفلح السّاحر){طه:آية٦٩}،وقد أفلحت، وزعمتم أنّي أعلم الاسم الأكبر، فلِمَ تقاتلون من يعلم لا تعلمون"**[3].

يعلم الجميع أنّ بني أميّة كانوا يرون أنّهم يمثّلون السّلطة الشّرعيّة والسّياسيّة الّتي انعقد عليها اجتماع الأمّة، إلّا أنّهم كانوا لا يغفلون أنّ ظفرهم بالخلافة جاء من خلال القوّة، ولهذا لم يكونوا قادرين على إثبات شرعيّة خلافتهم بالأدلّة، والحجج

---

(١) ينظر:جمهرة خطب العرب: ١٦٦.
(٢) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٩٥.
(٣) جمهرة خطب العرب: ٢٩٥.
*النّجوى:المسارة.

الدّامغة، ومن هنا نلحظ لجوء خطبائهم إلى المغالطة والمناورة، أو التّهديد بالعنف، ولكنّ الأمر في هذه الخطبة اختلف كثيرًا عمّا هو مألوف في مدار لغة الحجَّاج في بقيّة خطبه، فقد سلك سبيل الاعتراض والنّقض لرؤية أهل الكوفة في ولايته على العراق، وذلك ليس غريبًا على أحد أعمدة البيان والفصاحة في العصر الأمويّ، فبعد أن حذّر من عواقب الفتنة، وإظهار التّرفّع والتّفاخر والتّعالي عن مشاعر نفوسهم تجاهه حبًّا أو بغضًا، أظهر لنا نسق الحجّة شبه المنطقيّة القائمة على الاعتراض وبقياس مضمر محتمل، ليُحرّك أذهان المتلقين نحو القناعات الّتي يروم إليها، فهو يخاطب أهل الكوفة ويُفنّد دعوتهم، ويُكذّب خطابهم، ويكشف عدم اتّفاق حجّتهم مع ما تبنّوه من تهم، فزعم أهل الكوفة بسحر الحجّاج كان لا يتّفق مع الحقيقة والواقع، بدليل النّصّ القرآنيّ الّذي أسهم بشحن حجّة الاعتراض بالطّاقة الحجاجيّة، وبالنّتيجة أنّ الحجّاج قد أفلح، وهذا يتعارض مع ما ذهبوا إليه من إدّعاء، فإذا كان الله تعالى يثبت بأنّ السّاحر لا يفلح، فكيف أفلح الحجّاج؟، والمحصّلة من هذا البرهان شبه المنطقيّ القياسيّ أدّى إلى بطلان تلك الدّعوى، فمن يصدّق دعوتهم سيُكذب الله، وحاشى لله تعالى عزّ وجلّ أن يكذب أو يُخطئ، وهو الخالق العظيم عالم الغيب والشّهادة، فلا مناص من تبكيت دعوتهم، ودحض أسطورتهم.

**الحجّاج ساحر-----دعوى الخصم**

**لا يفلح السّاحر---- كلام الله لا يمكن أن يكون خطأً**

**أفلح الحجّاج-----حجة اعتراض شبه منطقيّة أنهت الجدل حول شخصيّة الحجّاج.**

أمّا قوله:**(زعمتم أنّي أعلم...)**، فهو لا يختلف كثيرًا عن مدار الحجّة السّابقة، فهو يخاطبهم باستفهام إنكاريّ أسهم بزيادة فاعلية الحجج، وأيقظ الحركة الفكريّة في

عقولهم، إذ أدّى الاستفهام معنىً بلاغيًّا أفاد الإنكار والتّوبيخ والتّقريع، وأبطل حجّة أهل الكوفة؛ لأنّه كشف وفضح مظاهر القصور في آليّة تفكيرهم، وعدم الاتّفاق والتّناسب بين منطلقات خطابهم ونتائجه، ومخالفته الحقيقة والواقع، ممّا قاد إلى فرض حصارٍ حجاجيّ سجاليّ عليهم، فإن كانوا يدّعون بعلميّته بالاسم الأكبر، فهو بطريق أو بآخر يعترفون بأنّه لا يُغلب، ولا يمكن أن ينكسر، لأنّ من يعلم ذلك لا يخسر في أيّ حال من الأحوال، وهذا يفضي إلى خطئهم في مقاتلة الحجّاج، فكيف يقاتلون من لا يُغلب ولا يُهزم؟ فاعتراضه كان ملائمًا لتبكيت حجّتهم، وإيلامهم على صنيعهم، فما أعلنه الخصم في دعواه كان يحمل فيه ما يقوّضه، أي أنّه يحمل في داخله عناصر تدمّر حجّته، فلا يصمد أمام حجاج الخطيب(1)، فقلب الحقائق عمل على تسليط الضّوء على ضعف المستوى الفكريّ لديهم كان السبيل إلى النّيل منهم أولًا، وتعطيل خطابهم المزعوم ثانيًا، وتهاوي أطروحته أمام اعتراض الخطيب شبه المنطقيّ، ونشأ عن هذا تسليم وإذعان.

**يعلم الاسم الأكبر-----دعوى الخصم**

**الّذي يعلم الاسم الأكبر لا يُغلب---نتيجة أفضت إلى تقريعهم لقتالهم من لا يُهزم.**

فما قام به الحجّاج انتصر لنفسه بالتّدليل شبه المنطقيّ، فعمل على استمالة نفوسهم، والظّفر بقناعتهم، بعد أن زجّهم في جوٍّ عقليٍّ وصلوا به إلى مسعى الخطيب المنشود، بواسطة النّتائج المستنبطة من حجج التّعارض، وتفنيد كلّ المزاعم، حيث أصبحت حججهم مواضع قوّة لخطاب الحجّاج.

ويأتي أبو حمزة الشّاري لمّا بلغه أنّ أهل المدينة يعيبون أصحابه وأتباعه بحداثة أسنانهم، وخفّة أحلامهم، فيقول:**"وقد بلغني أنّكم تنتقصون أصحابي! قلتم هم شباب أحداث، وأعراب جفاة، ويحكم يا أهل المدينة؟ وهل كان أصحاب رسول**

(1) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ١٩٧.

**الله إلّا شبابًا أحداثًا؟ أما والله إنّي لعالم تتابعكم فيما يضرّكم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، شبابٌ، والله، مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، وأطلاح سهر، باعوا أنفسًا تموت غدًا بأنفس لا تموت أبدًا..."[١].**

إنّها بلاغة الحجاج بحقّ، فذكر الشّاري مزاعم الخصم وفي الآن نفسه ردّ عليها بحجج تناقض أقوالهم ومزاعمها، مناقشًا إيّاها، ولرأيها بغية ردع متبنّياتها وقمع أفكارها، وتفنيد دعواها، ليزيل من النّفوس أثرها، فقد ادّعى أهل المدينة أنّ أتباع الشّاري أغلبهم من الشّباب الأحداث، وهو بطبيعة الحال يعترف بذلك ويقرّ بحقيقته، إلّا أنّه اعترضها باعتراض ينقض أساسها، ويضعف قوّتها، بحجّة شبه منطقيّة حينما ردّ عليهم بأنّ الكثير من أخيار صحابة النّبيّ(ص) كانوا أحداثًا وشبابًا باستفهام إنكاريّ تقريريّ يفيد دلالة التّثبيت والتّحقيق، فهو أوقعهم في مأزق لا يمكنهم النّجاة منه، فإن كانوا يعيبون أصحابه تبعًا لصغر سنّهم، فإنّهم بطريق أو بآخر سيعيبون أتباع رسول الله(ص)،وهذا يحيل بدوره إلى الانتقاص من شخص النّبيّ كذلك، وهذا القياس شبه المنطقيّ قلب البرهان على أصحابه، وإثبات تناقض رأيهم، وتقويض دعواهم، و"لا شكّ أنّ المنهج في الخطابة يستند إلى الأدلّة، والدّليل برهنة؛ لأنّنا إذا قبلنا دليلًا من الأدلّة افترضنا أنّه فرع من البرهنة عليه، ومن ناحية أخرى البرهنة الخطابيّة هي القياس المضمر، والقياس المضمر هو أرقى الأدلّة وأفضلها، وهو نوع من القياس العامّ"[٢]، ولعلّ الشّاري ألزمهم الحجّة استنادًا إلى حقائق ووقائع يقينيّة ومركزيّة في

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٧٥.
(٢) فنّ الخطابة، د.أحمد محمّد الحوفيّ، دار الفكر العربيّ، مطبعة الرّسالة، ط٣، د.ت: ٩٤.

الإسلام، فأصحابه صورة من صور أصحاب الرّسول، فقد كان أوّل المناصرين والمصدّقين للنّبيّ(صلى الله عليه وسلم) الإمام عليّ(عليه السّلام)، وهو من الفتيان حينئذٍ، الّذي يمتلك ثقلًا في نصرة الدّعوّة والنّبيّ(ص)، وكأنّ لسان حال الشّاري يقول: إذا كان أصحاب رسول الله أحداثًا فلِمَ تعيبون عليّ ذلك؟!، وهذا الخطاب دفع اعتراضهم ونقض أساسه، فهو قياس شبه منطقيّ يحمل المناوئين على الإذعان والتّسليم بصدق دعوى الخطيب وصوابها، بعد أن سدّ عليهم الطريق نحو محاججة رؤيته المبنيّة على أمور مسلّم بها، ومتّفق عليها مسبقًا، فقد جعل من حجّة أهل المدينة حجّةً له، وشاهدًا على علوِ منزلة أتباعه، لا أن تكون حجّة تخدم دعوى الخصم، فرماهم بسهمهم، وضربهم بسيفهم، وهذا الوجه البلاغيّ الحجاجيّ في قلب حجّة الخصم يقود إلى توليد أكبر شحنة حجاجيّة ممكنة في الخطاب، كونها استمدّت طاقتها من المناهضين أنفسهم، ممّا يجعل قواهم الفكريّة والعقليّة في حالة شلل تامٍّ أمام الخطيب، لاسيّما بعد أن أصبحوا سجناء لبرهان ودليل دعواهم في هذا الموقف التّناظريّ والحواريّ، الّذي اعتمد الفضاء شبه المنطقيّ لتحقيق الفعل الحجاجيّ في طيّات الخطاب الخارجيّ بواسطة تدعيم حجّة عدم الاتّفاق، وبذلك لا يكون انتفاء الاتّفاق منطقيًّا خالصًا، بل يبقى في منطقة وسطى تبتعد عن التّناقض الصّوريّ المنطقيّ؛ لأنّ انعدام التّوافق لا يفرض قرارًا بشكل قسريّ على المتلقّي، وإنّما قوّته الحجاجيّة تقتضي قرارًا جديدًا ومغايرًا عمّا سبق الخطاب[1]، وهذا ما صنعه حجاج الخطيب، فسفّه رأيهم بعد أن جاء بدعوى الخصم ومن ثمّ عمد إلى تفنيدها، والكشف عن تناقضها بحجّةٍ أزالت عن أصحابه كلّ التّهم والموبقات الّتي

---

(1) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه):١٩٥.

رموها بهم أهل المدينة، بل ورفعت من شأنهم، ومكانتهم، ومنزلتهم، لاسيّما أنّه وصفهم بـ**(الشّباب المكتهلون)**، وهو طباق لفظيّ خدم أطروحة الخطيب الحجاجيّة، وأزاد الخطاب قوّة ودلالة، طباق جاء بدلالة ضدّيّة نسفت أباطيل الخصم، فإنّهم وإن كانوا أحداثًا، إلّا أنّهم مكتهلو الأرواح والأبدان من طقوس التّقوى، والتّهجّد، والعبادات، والزّهد، وحبّ الجهاد في سبيل الله، والكفّ عن المحرّمات، فهم رهبان الليل، وفرسان النهار على الرّغم من حداثة أعمارهم، فالشّاري يحاول استمالة النّاس واستهوائهم إلى مذهبه بشكل أو بآخر من خلال وصفه لحياة هؤلاء الفرقة، وبمشاعر هائجة تتلاطم أمواج صاحبها حبًّا للأصحاب والأتباع، فهم أناس يقضون حياتهم في فضاء العبادة والصّلاة ومجاهدة أعدائهم صباح مساء، فليس غريبًا أن يكونوا أنضاء عبادة، مقرحي الأعين، وهم مع ذلك يجدون لذّة ونشوة ما بعدها نشوة في حياتهم هذه، المليئة بالشّقاء والعناء لما يتوقعونه بعد هذا الضّناء من جزاء وثواب ورضا إلهيّ يتوّج بحسن العاقبة[1]، وهذا طابع مألوف في الفكر الخارجيّ.

لا نراهم إلّا كالمتصوّفة الّذين أفنوا أيامهم في حبّ الذّات الإلهيّة، والاحتراق في نار العشق الإلهيّ، الّذين عزفت نفوسهم عن الملذّات والشّهوات، المنصبّة على أجواء التّطهير الرّوحيّ، بروح ترنو إلى الآخرة، وهذا يتّضح من استمداد الشّاري معنى قوله تعالى:**"ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله"**{البقرة:٢٠٧} في نهاية الخطبة، وهذا يجعل من نفوس المناهضين مقبلة على الاستمالة للخطيب وأصحابه،

(١) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية، د.إحسان النص، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٥: ١٠٣.

نظراً لما جاء به من أنساق حجاجيّة مختلفة أفضت إلى دفعهم من غير شكٍّ نحو الإقناع والتّيقين بكلام الخطيب، وتغيير وجهة نظرهم في فرقة الشّاري وموقفهم منها.

لقد أشار الباحث في تنظير هذه التّقانة الحجاجيّة إلى أحد أهمّ أسلحتها في الخطاب، ألا وهو الحجاج القائم على السّخريّة، إذ يرى (بيرلمان) أنّها تعدّ من إحدى أقوى ترسانتها المؤثّرة في مدّ الخطاب بالطّاقة الإقناعيّة النّافذة في الجدال، وعلى الخطيب إذا ما سعى إلى كسب احترام الآخرين لوجهات نظره وتصوّراته عن مختلف الأمور أن لا يقدّم بدون تأمّل وتروٍّ قضيّة مغلوطة وإلّا تعرّض للتّهكّم والضّحك، بل من الممكن أن يتبع ذلك تغيير رأيه حينما يقع التّعارض، وسيكون عندها عرضةً للاستهزاء إذا لم يكن مستعدًا لتقديم المبرّرات[1]، فحجّة التّعارض تأتي في الخطاب الّتي تعتمد على النّيل من الآخر عن هذا الطّريق، نتيجة ما بدر منه عن أمر معيّن أو حقيقة ما، من أجل تحقيق غاية إقناعيّة، فضلًا عن توضيح الحقائق له ولمن معه، حتّى يتمكّن من إزالة القناع عمّا طرحه النّدّ من آراء، فيتكفّل حجاج التّعارض عندها بتوليد خطاب مقنع، ومعضّد بالتّهكّم والازدراء، ينسجم مع ظروفه، وينقض مزاعم الخصوم، ويكشف زيفها، ويفسد قضيّتها، وهذا سيؤول حتمًا بالنّهاية إلى صناعة الإذعان والتّسليم في نفوس المتلقّين، وقد تمثّلت هذه الحجّة في مناظرة وقعت بين الحسن(ع) ومروان بن الحكم(٦٥هـ) في مجلس معاوية، إذ حاول مروان أن يطعن وينال من شخص الإمام والعلويين جميعًا، فقال: **"أسرع الشّيب إلى شاربك يا حسن، ويقال إنّ ذلك من الخرق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكنّا معشر بني هاشم، أفواهنا عذبة شفاهها، فنساؤنا يُقبلنّ علينا بأنفاسهنّ وقبلهنّ، وأنتم معشر بني أميّة فيكم بخرٌ شديد، فنساؤكم يصرفنّ**

---

[1] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٠.

**أفواههنّ وأنفاسهنّ عنكم إلى أصداغكم، فإنّما يشيب منكم موضع العذار من أجل ذلك، قال مروان: إنّ فيكم خصلة سوء. قال: وما هي؟. قال: الغُلمة. قال: أجل، نُزعت الغلمة من نسائنا، ووضُعت في رجالنا، ونُزعت الغلمة من رجالكم، ووضُعت في نسائكم، فما قام لأمويّة إلّا هاشميّ؛ فغضب معاوية وقال: قد كنت أخبرتكم، فأبيتم حتّى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم، وأفسد عليكم مجلسكم"**(١).

هذه المناظرة تضمّنت اختلافات حول عدّة أمور، وجاءت الاعتراضات مبنيّة على السّخريّة من الآخر، من أجل خلق الإذعان عند الخصم وكلّ الحاضرين بوصفهم من أتباع الأمويين في ذلك المجلس، إذ يتّضح هذا الأمر ويتبيّن من طبيعة الرّدّ الحسنيّ على مزاعم مروان بن الحكم، الّذي أثار اعتراض الإمام سخريّة واضحة من شخصه، ونسبه، وعشيرته، فالادّعاء المروانيّ يعتقد أنّ إسراع الشّيب إلى الشّارب كان علامة على حمق الإمام، إلّا أنّ الخطاب الحسنيّ الاعتراضيّ قد فنّد هذا الادّعاء وكذّب صحّته، وأبان عن تناقضه مع الحقائق، معوّلًا على صفات يتحلّى بها الهاشميّون دون الأمويين، فطيبة أفواههم تجعل نساءهم تُقبل عليها، أمّا بنو أمية ففي أفواههم رائحة نتنة تنصرف عنها نساؤهم إلى الأصداغ، فيشيب عندهم جانبا اللحية، وقد عمل هذا على تقبيح مروان، واستحقار قدره، والاستهزاء منه ومن قبيلته إلى درجة الضحك والإيلام الشّديد، فالخطاب الحسنيّ جاء قويًّا وواعيًا ومناسبًا لمقتضى الحال، وبصورة مباغتة غير متوقعة، كسر به أفق المتلقي، وأربك دعوته، ودحض حقيقتها الموهومة؛ ممّا جعل دعوى مروان عرضة للشكّ والرّيب أمام الحاضرين في المجلس.

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٣٠-١٣١.
*البخر:النتن، العذار: جانب اللحية، الغلمة:شدّة الشّهوة.

أمّا الاعتراض الحسنيّ الثّاني على الادّعاء المروانيّ بغلمة الهاشميين فقد جاء أشدّ تأثيرًا من الرّدّ الأوّل وأقوى، والّذي تعلّق به ضمنيًّا، فالإمام أقرّ بصحّة ما جاء به مروان وسلّم به، إلّا أنّه راح يجعلها خصلة حسنة لا سوء فيها، وأمرًا لا مثلبة فيه، بل هو منقبة للهاشميين، فالغلمة موضوعة برجالهم لا بنسائهم، خلاف الأمويين تمامًا، إذ يظهر أنّ الحجّة المتولّدة من الاعتراض منحها قيمة حجاجيّة مضادّة للخطاب المروانيّ، فمن الشّأن الطّبيعيّ والواقعيّة المقبولة أن تكون القوّة الجنسيّة في الرّجال أشدّ وأقوى لغايات كثيرة، وهذا قلب المعادلة لصالح الهاشميين، فالإمام كشف الأسرار المروانيّة، وهتك أستارها، الّتي يختبئ خلفها المروانيّون، فصيّرها ارتدادًا عكسيًّا عليهم، من قبيل لكلّ فعل ردّ فعل مساوي له في القوّة معاكس له في الاتّجاه، وهذا ما رفد الخطاب بحجاج ناجع ومؤثّر للغاية، إذ نقض الإمام رأي مروان، وأضعف قوّته، فالتّعارض بين قاعدتين في ضوء المقام الّذي تقالان فيه يكون موضع سخرية، فصاحبه هزأة، والهزأ مجاله المقال عن علاقته بالمقام، الّذي يدفعنا إلى أن نضحك منه، فهو ذلك القول الّذي يتعارض بدون أيّ مبرّر مع آراء سائدة ومقبولة، ومعنى قول (بيرلمان) أن لا يتعارض مع الرّأي السّائد بدون مسوّغ، إنّه يولّي أهمّيّة للتّبرير وأنّ الحجّة شبه المنطقيّة تستمدّ قوّتها من قيامها، فسلاحها هو إماطة اللثام عن التّعارض في أطروحات الخصم الّتي لا تتّفق مع الوقائع والحقائق التي يتبنّاها[1]، ولهذا كشف الإمام عن تعارض ما تبنّاه مروان في أطروحته مع القيم والوقائع، والمعطيات الإنسانيّة الطّبيعيّة والمقبولة، وأشار طه عبد الرّحمن إلى تحلّي الحجاج بصفة الحواريّة والتّداوليّة من حيث أنّه فعاليّة حواريّة جدليّة، فهو يتّخذ الطّابع الفكريّ المقاميّ والاجتماعيّ، فيراعي مقتضيات الحال بالتّضافر مع معارف مشتركة ومطالب إخباريّة وظرفيّة، إذ إنّ البعد

---

[1] ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٢٦-٣٢٧.

الإقناعيّ يلتزم الصّور الاستدلاليّة الّتي تبتعد عن البرهانيّة الضيّقة، فالمناظرة تكوّن الصّورة الحقيقيّة للحجاج التّداوليّ، لأنّه ينهض على حواريّة مبنيّة على عرض الحقائق والآراء أو الاعتراض عليها، والمقصديّة الإقناعيّة للآخر بصوابها أو إبطالها، ولهذا يرى عبد الرّحمن أنّ كلّ خطاب استدلاليّ يقوم على المقابلة والمفاعلة الموجّهة يسمّى مناظرة[١]، فطبيعة الاعتراض الحسنيّ كانت منسجمة مع المقام والوقائع الاجتماعيّة، الّتي جعلت من الخصم موضعًا للسّخرية والانتقاص، وعرضةً للاحتقار والانتهار، فأظلم جوّ ذلك المجلس، وأفسد مجلسهم كما قال معاوية، ويبدو لنا أنّ هذا الانفعال لدى معاوية يمكن أن نعدّه حجّة بالغة التّأثير كما يذهب (أرسطو)[٢]، فذلك دليل آخر على شدّة وقع الخطاب الحسنيّ على مروان ومعاوية وأشياعهم، فحملهم على التّسليم والخضوع لمضمون الاعتراضات الحسنيّة.

## ب-التّماثل والحدّ في الحِجاج:

يُنظر إلى التّماثل نظرة شبه منطقيّة، إذ يكون فيه"المعرِّف والمعرَّف متماثلين لفظًا، ممّا يحملنا على عدّ اللفظ الثّاني واردًا على سبيل المجاز، ويمثّل لذلك(بيرلمان) بالقول: المرأة هي المرأة، وهي عبارة لها قيمتها الحجاجيّة في مقامات خاصّة"[٣]، ويبدو أنّ (بيرلمان) يشير إلى بون بين الطّرفين، وأنّهما لا يتطابقان على الحقيقة تمامًا، ويؤول التّماثل على الظّاهر إلى المشابهة، إلّا أنّه في جوهره يتغاير كلّيًّا عن المشابهة بين المعرِّف والمعرَّف، ويظهر أنّ ذلك يتطلّب

---

(١) ينظر:في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ٥٧.

(٢) ينظر:الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، بحث:ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو الى اليوم: ٢٦٣.

*وردت هذه التّقانة بشكل كبير كونها تعمل تبكيت آراء الخصم، ومن تلك الخطب ردّ عبدالله بن عباس على عبدالله ابن الزّبير، ومناظرة ابن الزّبير مع الخوارج.

(٣) الحجاج في الخطابة النبوية: ٣٦.

عمليّة ذهنيّة فكريّة من المتلقي في سبيل الوصول إلى مكامن أسراره ودلالاته، وإذا ما وقع ذلك فهو ينتهي إلى بناء قناعات كبيرة بسياق الحجّة، الّتي بها نسق التّماثل الحجاجيّ في اللفظ الثّاني لمعرفة أوجه الاشتراك والتّماثل بين اللفظين[١]، ليترك للمتلقي مساحة كبيرة يخوض بها حوارًا فكريًّا مع الخطاب بهدف تقويمه إيجابيًّا أو سلبيًّا[٢]، من دون أيّ صرامة منطقيّة قطعيّة وإلزاميّة، تفسد البعد الحجاجيّ في طيّات القول، فيرى (بيرلمان)"أنّ التّشابه اللفظيّ يمكن أن يؤدّي إلى تناقض ظاهريّ بواسطة التّأويل، بإعطاء كلّ واحد من اللفظين معنى مغاير، كقولنا: الأعمال هي الأعمال، فمن يسمع هذه العبارات أو من يقرؤها هو الّذي يعطيها كلّ مرّة التّأويل المناسب، بمعنى أنّ دلالتها تتحدّد بحسب المقام"[٣]، فنفهم من ذلك أنّ الحمولة الدّلاليّة للفظ الثّاني لها طاقة حجاجيّة بلاغيّة كبرى، بعيدة عن هدف الحشو والتّحصيل الحاصل على وفق المنظور البيرلمانيّ، فهي المسؤولة عن حركة لولب العمليّات الإقناعيّة في الخطاب، كونها تختزل تلك الشّحنة الحجاجيّة لكلام الخطيب، الّتي تحمل الجمهور على الإذعان والإقرار بعد الجهد التّأويليّ لمضمون التّماثل في مجرى الخطاب، وقد عمد خطباء الأحزاب المتجادلة في العصر الأمويّ على توظيف هذه التّقانة في خطابهم الحجاجيّ.

ومن ذلك ما جاء في خطبة الحسن(ع) بعد استشهاد والده أمير المؤمنين(ع)، قوله:**"أيّها النّاس:من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمّد رسول الله(ص)، أنا ابن البشير، أنا ابن النّذير، أنا ابن الدّاعي إلى الله بإذنه والسّراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم**

(١) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٢٧.
(٢) ينظر: الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه): ٢٠٠.
(٣) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٤.

**تطهيرًا، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه إذ يقول:"ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا"{الشورى:٢٣}، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت"**[1]**.**

تبرز حجّة التّماثل بشكل واضح في منطلق الخطبة بعد النّداء، وكأنّ النّداء جاء لعمل ضربة تنبيه لأذهان المتلقّين لأهمّيّة ما سيأتي، وكأنّه لحظة استهواء، فليس يخفى أنّه أسلوب يعمل على إنتاج حركة حواريّة وتواصليّة يتفاعل معها المخاطب، فضلًا عن توجيهه نحو الأمر المطروح لاستقطاب اهتمامه، وشدّ إحساسه تجاهه، فجاء الحسن(ع) بعد ذلك بحجّة التّماثل بين لفظين(**عرفني، عرفني**)، فظاهر الكلام يوحي بتطابقهما لكنّه في الحقيقة يتضمّن مغايرة كبيرة، فاللفظة الأولى لربّما أتت لدلالة المعرفة السّطحيّة لشخص الإمام دون التّوغّل بسرّه المكنون، أمّا اللفظة الثانية فهي من حملت الطّاقة الحجاجيّة في الخطاب، فهي لم تضف إلى اللفظة الأولى أيّ وضوح في مفهوماتها الدّلاليّة، ولكنّها منحتها زيادة في الدّلالة، بوصفها الدّلالة المجازيّة المتعلّقة بالمقام، فقد تكون للإشارة إلى ذلك البعد العقديّ والدّينيّ، الّذي يمثّله في المجتمع الإسلاميّ، فهو سليل النّبوّة، وابن أهل البيت الأطهار، ولذلك تكون ولايته أصلًا من أصول الدّين، بل من أهمّ أصوله فالإيمان لا يتمّ إلّا بالاعتقاد بالإمامة، وإنّ استمرار الرّسالة الإلهيّة مرتبط بوجود الإمام؛ لأنّه المعصوم وحده من دون الأمّة، فهو المرجع المؤتمن في الدّين، وكذلك في الدّنيا[2]، وهذا النّسق الخطابيّ الحجاجيّ بالانتساب إلى النّبيّ(ص) يعدّ عمود الخطاب لدى العلويين كما وضّحنا في موضع سابق، الّذي يصنع الإقناع والتّيقين في نفوس متلقّيهم سواء كانوا من المناصرين أو من المبغضين.

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٨.

[2] ينظر:تيارات الفكر الإسلامي: ٢١٠.

فلا ينبغي أن نفهم اللفظتين على أنّهما مترادفتين لفظًا ودلالة كما تُعلّمنا المعجمات اللغويّة، فهذا سينتهي بنا إلى اتّهام الخطيب بعدم ترابط أقواله، وافتقاره للبلاغة، والّذي يترتّب على هذا إعادة تأويل اللفظ الثّاني وإسناد دلالة ثانية له كما فعلنا أعلاه، فيظهر أنّ لفظة(عرفني) الثّانية أبانت الصّورة تمامًا، وأماطت اللثام عن منزلة كبرى يتحلّى بها الإمام، إذ يقتضي من ذلك مناصرته من المسلمين ومبايعته بعد استشهاد الإمام عليّ(ع)، ممّا أضفى هذا طاقة حجاجيّة دعمت أطروحته، وأكّدت على وجوب إمامته، ودفعت النّاس إلى التّصديق والتّيقين بذلك، ولم يكتفِ الحسن بهذا، بل راح في نهاية المطاف يحتج بحجّة التّماثل غير التّامّ في حقه بالولاية بواسطة قوله تعالى:"ومن يقترف حسنة نزد لها فيها حسنًا"، إذ جعل من اقتراف الحسنة في النّصّ القرآنيّ هي مودّة آل بيت النّبيّ(ص)، فالآية القرآنيّة كانت صلة لما قبلها، ومكمّلة لقوله تعالى:"**قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودّة في القربى**"[1]، فهذا التّناص قام بدعم حجاجيّ كبير يدفع المخاطبين إلى الاستجابة للخطاب، وهذا ما حدث فعلًا بعدما أنهى خطبته، إذ تمّت مبايعته.

حريٌّ بنا أن نشير إلى أنّ الحسن في هذه الخطبة وظّف التّماثل بصورة ثانية، تختلف عن المطابقة التّامّة بين اللفظين(المعرِّف والمعرَّف)، بمعنى لا يقوم على تعريف الشّيء بنفس لفظه، وإنّما بإيراد المعنى الذي يريده من ذلك اللفظ، فهو حينما استطرد في تعريف نفسه كانت الألفاظ مختلفة من حيث الظّاهر إلّا أنّها كانت متّفقة على تأكيد دلالة مركزيّة كما يفعل ظاهر التّكرار[2]، فهو ابن الرّسول محمّد(ص)، **البشير، النّذير، الدّاعي إلى الله، السّراج المنير، من أهل البيت...**، فجاء متناغمًا مع مقاصده، وغاياته من الخطاب، ومنسجمًا مع الحقائق، ليبيّن نسبه

(1) ينظر:في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٩٣.

(2) ينظر: في نظرية الحجاج(دراسات وتطبيقات)،د.عبدالله صولة، مسكلياني للنشر، تونس، ٢٠١١: ٤٥.

الشّريف، الّذي سيجعل السّامعين في حالة إقرار كلّيّ، وقناعة تامّة بأحقيّة ولايته بعد أبيه، ولا شكّ أنّ القرابة والانتساب إلى البيت المحمّديّ يعدّ من أقوى الحجج، ويمثّل حجر الزّاوية في بناء دعوة العلويين[1]، الّتي تحقّق الاستمالة والاستقطاب العاطفيّ والعقليّ والدّينيّ، فحبّهم دين ومثوبة، وبغضهم كفرٌ وثبور، وطاعتهم مفترضة على جميع المسلمين، ولذلك يُكثّف حضور هذه الحجّة في مجمل خطبهم السّياسيّة والدّينيّة والتّناظريّة، فالتّذكير بهاشميّتهم وتأكيدها تركت أثرًا مهمًا في الإقناع، كما جاءت خطبة له في عهد خلافته بهذه الصّورة الحجاجيّة في قوله:**"نحن حزب الله المفلحون،وعترة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأقربون، وأهل بيته الطّاهرون الطّيّبون، وأحد الثّقلين..."**[2]، وما قلناه أعلاه ينطبق على هذا المقطع كذلك.

ومن حجج التّماثل اللفظيّ ما جاء في خطبة عبيدالله بن زياد(٦٧هـ) بعد ضربه هانئ بن عروة(٦٠هـ)، وحبسه في السّجن، إذ قال:**"أمّا بعد، أيّها النّاس:فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا، ولا تفرّقوا، فتهلكوا وتذلّوا وتُقتلوا، وتُجفوا وتُحرموا، إنّ أخاك من صدّقك، وقد أعذر من أنذر"**[3].

لا مراء أنّ بني أميّة وولاتهم قد نالوا الخلافة كُرهًا بناءً على قوّة السّيف، وعلى الرّغم من ذلك كانوا يطالبون الرّعيّة بالطّاعة والولاء، وتحذيرهم من مغبّة الفتنة والمعصية، إذ يرون أنفسهم أصحاب الحقّ الشّرعيّ بالخلافة، وقد انطوت خطبهم على التّهديد والوعيد تارة، والتّرغيب تارة أخرى، وهنا نجد حجّة التّماثل قد قامت بخلق خطاب بلاغيّ حجاجيّ مؤثّر، استمال السّامعين نحو الخطاب، إذ إنّ التّماثل بين (طاعة) الأولى والثّانية، أحال إلى تصعيد بلاغيّ دلاليّ مكثّف دعم أطروحة

---

(١) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٦.
(٢) جمهرة خطب العرب: ١٧.
(٣) المصدر نفسه: ٣٩.

الخطيب، فهو يجعل من اللفظة الثانية الخاصّة بطاعة ولاة الأمر أو الخلفاء الأمويين ضرورة حتميّة مثل طاعة الله سبحانه، ولا تقلّ عن أهمّيّتها، لدفع المخاطبين إلى الامتثال لأوامر الخلفاء، وردعهم عن نكث بيعتهم لهم، فاللفظة الثانية وإن كانت تختلف ظاهريًّا عن الأولى المتعلّقة بالذّات الإلهيّة إلّا أنهّا تشبّثت بدلالتها باطنيًّا، فأصبحت لها دلالة مجازيّة سببيّة مستقلة لم تكن معدة سلفًا، أحالت الى سببيّتها بنزول الفرقة والذّلّة، والهلاك والحرمان على المخالفين من الرّعيّة، فزادت من طاقتها الحجاجيّة بوصفها تمثّل قرارات سلطة شرعيّة واضحة ومبرّرة لعقاب المخاطبين في حال تجاسرهم عليها، ممّا أضفى قدسيّة ظاهرة على الخلفاء الأمويين، وهذا التّطابق والتّماثل ينتج بعد أن يقوم المتلقي بعملية تأويليّة ذهنيّة للوصول إلى المبتغى المستهدف من الخطبة، وقطع الطريق أمام مناصري الحسين(ع)، فيؤول التّماثل في ظاهره إلى المشابهة، إلّا أنّ جوهره يختلف عنه، فهو عملية ذهنيّة خفيّة تحتاج من المتلقي حدسًا داخليًّا خفيًّا يعينه على الاقتناع بالحجج التي يطرحها التّماثل في لفظه الثاني لمعرفة أوجه التّماثل الّتي أراد المحاجج الإبانة عنها من تمثيله بها حتّى تحقّق الإذعان والإقناع عند المتلقي[1]، فهو يتركه في مساحة تفكير واسعة تحمله على اتّخاذ قرار محدّد من غير الإلزام القسريّ، الّذي ينسف بناء الخطاب الحجاجيّ، فجاء التّرغيب بطاعة الخلفاء بإذعان المتلقّين، وردعهم عن الثورة ونصرة القيام الحسينيّ، وسفرائه في الكوفة، ليس هذا فحسب بل سعى إلى تعضيد ذلك بلغة تهديد عالية، تتوعّد العازمين على الخروج عن حكم البيت الأمويّ، والتّهديد بإنزال أشدّ العقوبات بكلّ من يرغب بذلك، فـ(الباتوس) السّلبيّ القائم على بلاغة العنف، الّذي يثيره الخطيب في نفوس المتلقين

[1] ينظر:الحجاج في نثر العصر العباسي الأول(مرجعياته وتمثلاته)، محمد صبري تومان، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد، كلية التربية(ابن رشد)، ٢٠١٩: ٧٥.

يعمل على تحريك الجمهور ويوجّهه إلى قرار يخدم قضيّته، ويستطيع أن يؤثّر في أحكامهم وما يحملونه من وجهات نظر حول تلك القضيّة، ومن ثم يوجّه ردّ الفعل النّاجمة من ذلك التّعنيف[١]، فخطباء الأمويين كانوا يعمدون في خطبهم إلى تهديد من تسوّل له نفسه بالثّورة والعصيان بالويل والثّبور، ويتوعّدون الخارجين عليهم بالتّنكيل وسوء المصير[٢]، لينزل بهم هذا الخطاب وجلًا مفزعًا من الخروج على حكم البلاط الأمويّ لما أبداه من الخطيب من استعداد لقمع المعارضين، ولعلّ استعمال أسلوبي التّرغيب والتّرهيب كان يستهدف الخطيب من خلالهما إذعان المتلقين، وإخضاعهم لطاعة الخلافة، وحملهم على خذلان سفراء الإمام الحسين(ع)، ولاسيّما مسلم بن عقيل(ع)(٦٠هـ)، لشلّ حركة الثّورة، وصدّ سيلها الإصلاحيّ، إذ إنّ الخطيب عمد إلى التّنويع في الأسلوب المشفوع بحجّة التّماثل اللفظيّ ليكفل لخطابه الإقناع، والإثارة التي تحقّق الاستمالة، بتحريك العواطف رغبةً ورهبةً، وسكينةً وخوفًا، كما ورد ذلك في خطبة زياد بن أبيه(٥٣هـ) بالبصرة:**"وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، ولقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة..."**[٣]، فجاء التّماثل غير التّامّ بين لفظتي(**أحدثتم، وأحدثنا**) كحجّة مقنعة دلّت على مشاكلة واضحة، للبرهنة على مشروعيّة العقاب، وتسويغ الجزاء، لما اقترفوه من ذنب وجرم، فانفتحت اللفظة الثّانية على دلالة الجزاء العادل للمخالفين في رؤية الخطيب، وبتصوير في غاية الخيال المرعب، بوصفها ردًّا حازمًا ومنسجمًا على اللفظة الأولى الّتي جاءت لدلالة العصيان البصريّ للحكم الأمويّ، ليصنع بذلك

---

[١] ينظر: الباتوس: من الخطابة إلى تحليل الخطاب (من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف)، د.حاتم عبيد:بحث:ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف:د.حافظ إسماعيلي علوي،ج٢: ٦٥.

[٢] ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ٩٤.

[٣] جمهرة خطب العرب: ٢٧٢.

فزعًا مهوّلًا جاء من لغة العنف، التي أثارت الانفعال في نفوسهم من أجل تأهيلهم لتقبّل الخطاب والإذعان له، فهو "ضرب من التّهيئة النّفسيّة والإعداد الانفعاليّ يقوم بهما الخطيب تجاه جمهوره"(١)، لتوجيه بوصلة قرارهم بعد إحداث هزّة شعوريّة مناسبة تدفعهم إلى تبنّي وجهة نظر الخطيب، من حيث دفعهم نحو التزام الطّاعة، والامتناع عن القيام بالثورات مستقبلًا، لحملهم على الخضوع المطلق للخلافة الأمويّة.

وخطب عبدالله بن الزّبير بعد مقتل أخيه مصعب(٧٢هـ) على يد الأمويين، فقال:**" الحمد لله الذي له الخلق والأمر، وملك الدّنيا والآخرة، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء[...]فإن يُقتل فقد قُتل أبوه وعمّه وأخوه، وكانوا الخيار الصّالحين"**(٢).

لا يُخفى أنّ عبدالله بن الزّبير منذ بداية الخطبة قد اتّكأ على النّصّ القرآنيّ{آل عمران:٢٦-٢٧}، الذي يحظى أساسًا بحجّة التّماثل، ويبدو لي أنّ هذا التّوظيف قد عمد إليه ليتّشح خطابه بوشاحين مؤثّرين، أوّلهما النّصّ القرآنيّ للاستئناس وخلق جوّ دينيّ، ليورث كلامه البهاء والوقار وسلاسة الموقع(٣)، فضلًا عن السّلطة التي يمتلكها النّصّ القرآنيّ على بقيّة الأقوال في المجتمع الإسلاميّ، وثانيهما التّماثل المنبثق من بين الألفاظ القرآنيّة المتكرّرة في طيّات الخطاب، ليقرّ دلالة الاستسلام والإيمان بإرادة السّماء، والاعتقاد بالقدر الإلهيّ، فالمشيئة الإلهيّة حكمت بنزع حكم مصعب وموته، وهي دلالة اللفظة الثّانية (ممن يشاء)، التي تماثلت مع اللفظة الأولى(من يشاء)، وكذلك الحال بالنسبة لعزّة الخلق جميعًا، فهي أمور متعلّقة

(١) ينظر:الباتوس:من الخطابة إلى تحليل الخطاب(من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف): ٦٦.
(٢) جمهرة خطب العرب: ١٧٥-١٧٦.
(٣) ينظر:البيان والتبيين:ج١: ١١٨.

بالأمر الإلهيّ، فهذا التّماثل بين الألفاظ أوحى للمتلقّين أنّ ما وقع مقدّرًا من الله، ويحيل إلى فكرة مركزيّة تفيد بتأكيد قدرة الله وسيطرته على النّظام الكونيّ في نهاية المطاف، وجعله خاضعًا للتغيير في أيّ لحظة، طبقًا لمشيئة الله أحكم الحاكمين، ولربّما جاء بهذا ليزيل من أذهان سامعيه صورة جبروت السّلطة الأمويّة وقوّة بطشها للمعارضين، في سبيل الحفاظ على ولائهم له في الحجاز، والاستمرار على انتهاج خط المعارضة ضدّ سياستهم.

فجعل من قتل مصعب شهادة تسرّ لها النّفوس، وتطيب بها القلوب، ليزيد من تفاعل السّامعين وتناغمهم مع هذه الأطروحة العقديّة، الّتي ذهبت إلى الحكم على شهادة أخيه على يد عبد الملك بن مروان في العراق، بناءً على تصوّرات عملت على إثارة مشاعر السّامعين، وتحريك وجدانهم الدّينيّ إزاء ما حصل، ليكسب أهواءهم، واستمالة مشاعرهم، وزيادة قناعتهم بفحوى الخطاب، وهذا ما يسمى بالمحاججة الانفعاليّة، وهي "نوع من الحجاج يسعى إلى التّأكيد على مشاعر الجمهور، وذلك بأن يستثير إشفاقه أو خشيته...وهو بهذا يوجّه البناء الحجاجيّ نحو الفعل الانفعاليّ الّذي يضمّ المشاعر والأحاسيس والعواطف الدّاخليّة"(١).

أمّا التّماثل اللفظيّ غير التّامّ بين(يُقتل، قُتل) في قوله: **"فإن يُقتل فقد قُتل أبوه وعمّه وأخوه"**(٢)، أوحى بأنّ قتل مصعب قد ماثل الصّالحين في مصيرهم وعاقبتهم، فالتّماثل بين لفظتي(يُقتل، قُتل)، انتهى إلى نتيجة أفادت بأنّه جرى على ما جرى عليه الأسلاف الأخيار من منظوره الخاصّ، ليقنع السّامعين بعلوّ منزلة القتيل وحسن عاقبته، فهو يقدّم نسقًا حجاجيًّا في اللفظة الثّانية لتنفتح على دلالة صفة مركزيّة في حياة آل الزّبير، تثبت بأنّ مصيرهم الحتميّ القتل الّذي يحيل على

(١) عندما نتواصل نتغير-مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج،عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٦: ١٦٩.
(٢) جمهرة خطب العرب: ١٧٦.

الشّهادة بحسب رأيه، ويرى (بيرلمان) أنّ اللفظ في اللغة يرتبط بتصنيفات سابقة وبأحكام قيمة تمنح مسبقًا تلوينات عاطفيّة، إيجابيّة، أو سلبيّة، وبشكل لا يملك المطابقة الكلّيّة، تنتهي إلى تقديم تعريف واصف تمنحه القيمة الحجاجيّة، الّتي تعمل على إقرار هذه الحجّة شبه المنطقيّة، الّتي بوساطتها عُدّ المعرَّف والمعرِّف قابلين بأن يعوّض أحدهما الآخر(١)، وهذا ما رام إليه ابن الزّبير في هذا الموضع، فقام بإضفاء قيمة حجاجيّة لدلالة اللفظ المكرّر، أكّدت على أنّهم قوم صالحون لا يموتون على الفراش، وإنّما طعنًا بالرّماح، وتحت ظلال السّيوف على حدّ تعبيره، وهي تلويح إلى بني مروان الّذين لم ينالوا هذه الكرامة لا في جاهليّة ولا في إسلام، ممّا أزاد من إثارة تعاطف الجمهور؛ لينقل أحاسيسه ومشاعره لهم حتّى يكونوا في حالة اهتياج عاطفيّ، وتصديق موقن بفضائل آل الزّبير، وعلياء مكانتهم عند الله عزّ وجلّ، ويستدلّ على ذلك باستدلال شبه منطقيّ وبقياس مضمر يفرض على السّامع جهدًا تأويليًّا للوصول إلى المقاصد والغايات المبتغاة، فلو لم يكونوا الزّبيريين من رجال الله الصّالحين والعابدين لما كرّمهم بالشّهادة على خلاف أعدائهم من البيت المروانيّ؛ حيث يرتكز هذا الحجاج على الاستدلال بناءً على قاعدة المعتقدات الخاصّة، الّتي يقبلها المخاطَب بوصفها أحكامًا ثابتة وعامة تؤثّر في الجميع(٢)، حيث ذكّرهم بمقامهم ومنزلتهم في المجتمع الإسلاميّ.

ولو قمنا برسم هذا الاستدلال لتوصّلنا إلى الآتي:

**قتل مصعب بن الزّبير----حجّة**

**قتل الأب والعمّ والأخ----حجّة**

(١) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٢-٦٣.

(٢) ينظر:عندما نتواصل نتغيّر: ١٦٩.

**النّتيجة: آل الزّبير من الصّالحين الكرام، وعبدالله كذلك، ومصيرهم الحتميّ هو الاستشهاد.**

ولم تغب حجّة التّماثل عن خطب الخوارج فهذا حيّان بن ظبيان يخطب في أصحابه لحثّهم على الخروج للقتال قائلًا:**" يا قوم: إنّ الله جمعكم لخيرٍ، وعلى خيرٍ، والله الذي لا إله غيره، ما سررت بشيءٍ قط في الدّنيا بعد ما أسلمت سروري لمخرجي هذا على الظّلمة الأئمّة، فو الله ما أحبّ أنّ الدّنيا بهذا غيرها لي، وأنّ الله حرمني في مخرجي هذا الشّهادة"**[1].

نحن نعلم أنّ الخوارج قد أجمعوا على وجوب الخروج على أئمّة الجور والفسق في عقيدتهم، ولعلّهم أشدّ المعارضين قوّة وجرأة للحكم الأمويّ كما تنقل لنا المصادر[2]، إلاّ أنّهم سلكوا طريق الجدل والحوار، وإثارة العاطفة والوجدان في خطبهم، من أجل الدّفاع عن عقيدتهم وتصوّراتهم الدّينيّة، إذ نلحظ هنا أنّ الخطيب قد أطلق حجّة التّماثل اللفظيّ في بداية خطبته(لخير، خير)،وهو جناس تامّ، حيث أجرى في حجاجه منطلقًا من بؤرة عقديّة خارجيّة محضة، الّتي لا يمكن لأنصاره أن ينكروها، فاللفظة الأولى كأنّما جاءت لتعطي معنى أو دلالة عامّة لكلّ ما هو مستحسن ونافع من الأعمال، بمعنى آخر أنّ جمعهم كان شكلًا من أشكال البرّ بوصف شموليّ.

أمّا اللفظة الثّانية فأطلّت على دلالة مركزيّة خاصّة تحثّهم على الاندفاع نحو القتال والشّهادة في سبيل الله؛ لأنّهم كانوا يتعجّلون تلك النّقلة من الدّنيا إلى دار البقاء، ليشحن نفوس الأتباع بتلك الرّغبة تجاه التّضحيّة ومجاهدة الولاة الظّالمين، ليصل بالنّتيجة إلى غايته الحجاجيّة الإقناعيّة بوجوب القتال، فالتّطابق الظّاهريّ بين

---

(1) جمهرة خطب العرب: ٤٤٥.
(2) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٤.

الألفاظ يؤدي إلى تناقض ظاهريّ بواسطة التّأويل، بإعطاء كلّ واحد من اللفظين معنىً مختلفًا في نسق هذه الحجّة، ويرى (بيرلمان) أنّ الكثير من الوجوه البلاغيّة تلجأ إلى مثل هذه العبارات، لتضفي على اللفظ الواحد المعاني المختلفة(١)، فالدّلالة الثّانية حملت شحنة حجاجيّة أفادت التّرغيب، والخير هنا لربّما هو استعجال لقاء المنيّة، واستعذاب كأس الرّدى في سبيل الله، والاستبسال في قتال الفجّار، فالخوارج قد عُرفوا بالزّهد في الدّنيا، والانصراف عن ملذّاتها، والاستخفاف بالموت والتّرحيب بلقائه(٢)، ولذلك راح الخطيب يوطّد هذا المعنى في مفاصل الخطبة، فقد جعل سروره يتعلّق بأمر الخروج على السّلطة الظّالمة، والفوز بالشّهادة، ونيل رضوان الله، وبما أنّه يمثّل رئيس الفرقة فلا شكّ أنّ هذا سيؤول إلى تدعيم حجاجيّ يحقق الإقناع والتّأثير في نفوس أصحابه، ليحتذوا حذوَ قائدهم، فهم يدينون له بالولاء والطّاعة بعد المبايعة، وهذا سيكون بمنزلة الاستدلال شبه المنطقيّ يدفعهم إلى الإيمان والاعتقاد، ويحملهم على الفعل، فإذا كان القائد بهذا الاندفاع والرّغبة؛ إذن بطريق أولى ينبغي أن يقتدي به الأصحاب والأتباع.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة صالح بن مسرَّح يعظ أصحابه قائلًا:**" أوصيكم بتقوى الله، والزّهد في الدّنيا، والرّغبة في الآخرة، وكثرة ذكر الموت، وفراق الفاسقين، وحبّ المؤمنين، فإنّ الزّهادة في الدّنيا ترغّب العبد فيما عند الله، وتفرِّغ بدنه لطاعة الله، وإنّ كثرة الموت تخيف العبد من ربّه، حتّى يجأر إليه، ويستكين له، وإنّ فراق الفاسقين حقٌّ على المؤمنين، قال الله في كتابه:" ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدًا، ولا تقم على قبره، إنّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا**

(١) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٤.
(٢) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٤.

**وهم فاسقون"، وإنّ حبّ المؤمنين للسّبب الّذي يُنال به كرامة الله ورحمته وجنّته، جعلنا الله وإيّاكم من الصّادقين الصّابرين"**[1].

وردت حجّة التّماثل بين الألفاظ **(الزّهد، الزّهادة)، و(ذكر الموت، ذكر الموت)، و(فراق الفاسقين، فراق الفاسقين)، و(حبّ المؤمنين، حبّ المؤمنين)**، إذ دلّت جميع الألفاظ الأولى على معنى يختلف تمامًا عن الّذي أتت به اللفظة الثانية، فالزّهد الأول جاء بوصفه جزءًا من وصايا الخطيب للعزوف عن ملذّات وشهوات الحياة الدّنيا، والرّكون إلى الله، أمّا اللفظة الثانية فأحالت إلى دلالة أخرى وضّحها بوصفها وسيلة من وسائل التّقرّب إلى الله، والجنوح نحو عبادته، أمّا ذكر الموت الأولى فدلّت على حقيقة حتميّة واقعة لا محالة، والموت الثانية جاءت لدلالة إنزال الخشية والخوف من الرّبّ، ليأوي إلى كهف الله والاستجارة به، والاستكانة له، وجاءت فراق الفاسقين الأولى كوصف عامٍّ يصحّ على أيّ منحرف عقديًّا ودينيًّا، أمّا الثانية فأتت لتبيّن أنّ هذا الفعل واجب تكليفيّ على كلّ مؤمن بدلالة النّصوص القرآنيّة الواردة، الّتي مثّلت شواهد حجاجيّة مؤثّرة، أمّا حبّ المؤمنين الأولى فهي وصيّة تحث على المودّة والوئام بين المسلمين، أمّا الثانية فجاءت لتكشف عن قيمتها العمليّة، فهي السّبب المباشر لنيل كرامة الله ورحمته وجنّته، وهذا ما يحتاج إليه المجتمع الإسلاميّ اليوم حقًّا، ولكي لا نبتعد عن صلب الحديث، فإنّ هذا التّماثل يعمل على استقطاب وعي المخاطبين في كلّ مرّة تتردّد فيها الألفاظ، لتقوده بالنّهاية إلى النّتيجة الموسومة من الخطاب، ببثّ روح الرّغبة والتّوجّه إلى تلك المفازة الكبرى من جزاء كلّ عمل من هذه الأعمال، في فضاء مملوء بالاعتقاد، ومندفع نحو إنجاز الفعل.

---

(1) جمهرة خطب العرب: ٤٥٩.

## ج-الحجّة القائمة على العلاقة التّبادليّة:

تقوم هذه الحجّة على علاقة ذات نزعة تقترب من المنطقيّة، بيّد أنّها تظلّ شبه منطقيّة فحسب، لقدرتها ومرونتها على تقبّل الرّدع والنّقاش والتّشكيك، وتُوصف بأنّها إسناد لحكم واحد إلى أمرين ندّعي أنّهما متماثلان، والحقيقة أنّنا لو أخضعناها للتّحقيق والتّدقيق لتوصّلنا إلى فروق عديدة بينهما[1]، فيرى (بيرلمان) أنّ النّظر في قضيّتين تنتميان لصنف أو جنس واحد، يلجأ المحاجج فيها إلى المطابقة بين كائنين، أو حالتين بطريقة واحدة تحقيقًا لقاعدة العدل، ولكونها تنتمي إلى نفس الفئة، فينبغي أن تُعامل بالمثل، من خلال استدعاء حالة سابقة ومماثلتها بالحالة المطروحة، فالاقتداء بالسّوابق ليس إلّا تطبيقًا لقاعدة العدل[2]، كقوله تعالى:**" ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون*وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون"{المطففين:١-٣}**، وهي تشبه قولنا: أترضاه لنفسك ولم ترتضه لغيرك؟!، فـــ" التّعامل مع وضعيّتين متشابهتين بطريقتين مختلفتين يعدّ سلوكًا غير عادل، ومن هذا القبيل توجّه تهمة الكيل بمكيالين إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة في تعاملها غير العادل مع القضايا العربيّة، فإن تمتلك إسرائيل أسلحة الدّمار الشّامل مسألة مقبولة، أمّا أن تمتلكها دولة عربيّة كالعراق، فأمر خطير يبرِّر شنّ الحرب عليها"[3]، فيبدو لنا أنّ هذه الحجج القائمة على العلاقة التّبادليّة تقوم وتنهض على معالجة وضعيّتين على نسق واحد معالجة مماثلة من غير انحياز، وتمتلك هذه الحجج قوّة عكسيّة تُطبّق قاعدة العدل على حالتين متناظرتين، نسعى من خلالها

---

(1) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٠١.
(2) ينظر:الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٤.
(3) المصدر نفسه: ٦٤-٦٥.

بالقيام بعمليات قلب وضعيّات تكشف غرابة ومفارقة قضايا مختلفة كما يرى (بيرلمان).

ومن شواهد هذه الحجّة في خطب العصر الأمويّ، الّتي تنوّعت فيها صور توظيف الحجّة التّبادليّة، ما جاء في مقطع من خطبة الإمام الحسن(ع) للرّدّ على معاوية حينما طالبه بقتال الخوارج في الكوفة،إذ **قال:"سبحان الله! تركت قتالك-وهو لي حلال-لصلاح الأمّة وألفتهم، أفتراني أقاتل معك؟"**[١].

في الخطبة ما يدلّ على حجّة التّبادل الّتي تقتضي العدل في التّعامل مع المواقف المتناظرة، إذ عالج الإمام وضعيّتين قريبتين جدًا من بعضهما إلى حدّ التّناظر، فذهب إلى توظيف الاستفهام الإنكاريّ لتبكيت رأي الخصم، فضلًا عن تقريعه وتوبيخه، فكانت حجّة العدل ناجعة جدًا في معالجة الموقف، وحقّقت صدمة لدى المتلقّي، فالخطيب يتساءل كيف يبيح لنفسه أن يقاتل مع معاوية ضدّ الخوارج، وهو الّذي ترك القتال مسبقًا ضدّ معاوية، مع أنّه في الحالة السّابقة كان القتال مباحًا وحلالًا، ولربّما كان سببًا من أسباب صلاح الأمّة، وهذا يناقض العدل، وفي الخطاب الحسنيّ تعريض زاد من حجاجيّة الرّفض للقتال، والانصياع لمطالب معاوية، فمن يتأمّل مفاصل القول يجد دلالة تفيد حرمة القتال معه ضدّ الخوارج، فهو لا يمتلك الشّرعيّة بالخلافة، لكونه اغتصبها بقوّة السّيف لا بحكم الأهليّة والأحقيّة، فضلًا عن جملة من التّحوّلات في الظّروف السّياسيّة والاجتماعيّة، وهذا الرّدّ كان مبنيًّا على علاقة شبه منطقيّة قائمة على أساس العدل والمساواة، ليدعم القيمة الحجاجيّة للخطاب، فربط القضيّتين انتهى إلى بلاغة في الحجّة المستندة إلى حقائق الواقع، الّتي حققت إقناعًا كليًا لدى المتلقّي.

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٤.

ومن شواهد حجّة التّبادل أيضًا، ما ورد في مقطع من خطبة الإمام الحسن(ع) كذلك، في الحثّ على الجهاد،قوله:"**فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبّون إلاّ بالصّبر على ما تكرهون**"[1].

العلاقة في هذه الخطبة تبدو متناظرة ومبنيّة على حجج عكسية قائمة على قاعدة العدل، إذ أنّ المخاطبين ينبغي عليهم أن يعوا أنّ العطاء الإلهيّ لن يكون إلّا جزاءً قبالة ما يقدّموه من تضحية وصبر على أشدّ المكاره، ألا وهو القتال.

**المقدّمة الأولى: لستم نائلين ما تحبّون...**

**المقدّمة الثانية: الصّبر على ما تكرهون...**

**قاعدة العدل: تنالون ما تحبّون= تصبرون على ما تكرهون(علاقة تبادليّة واضحة).**

فالخطيب وضعهم أمام معادلة حجاجيّة تبادليّة تتطلّب منهم التّأمّل والتّفكّر، ووضّحت حقيقة راسخة في العقيدة الإسلاميّة، ومفادها أنّ من لم يقاتل في سبيل الله، ويصبر على مرارة هذا الرّكن الوثيق في هذا الموقف فلن ينال ما يحبّ ويرغب، فهو حتمًا طريق شائك ومُزجّج، تجد النّفوس متثاقلة منه إلى الأرض إلّا من كان على هدى وتقوى، ويؤمن بأنّه بيّنة من بيّنات العقيدة الإسلاميّة، ولهذا أشار إلى النّاس أنّ من يريد أن ينال نعيم الدّنيا والآخرة، عليه أن يدرك بعدمية حدوث ذلك إلّا بسلوك درب الجهاد، والانخراط في جحافل جيش الإمام وإن كان كُرهًا كما يقول الله سبحانه وتعالى:"**كُتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم**"{**البقرة:٢١٦**}، فالنّصّ القرآنيّ جاء كشاهد لتدعيم القول بطاقة حجاجيّة عميقة في نفوسهم، وتزيد من التّيقين والتّسليم عند أصحابه، الّذين كانوا قد تثاقلوا عن القتال معه ضدّ معاوية، فمن العدل إذن أن يشمّوا غبار القسطل حتّى ينالوا العطاء جزاءً على ذلك، فالمنافع

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٩.

آتية بعد العطاء، ويذهب (ليونال بلنجي) إلى أنّ الحجّة القائمة على هذه العلاقة في معناها العامّ تمثّل اعتراضًا شائعًا.....بل إنّ الحجّة ذاتها تؤسّس حجاجيّة متواترة عند الجميع(١)، لأنّها تنطلق من نقطة العدالة في الأمور، ووضع الأشياء موضعها، وهو أمر بيّن وواضح في الخطاب.

ومن توظيف العلاقة التّبادليّة ما جاء في خطبة عبدالله بن عمر(رض)(٧٣هـ) في مجلس معاوية، قوله:**"فإنّ هذه الخلافة ليست بهرقليّة، ولا قيصريّة، وكسرويّة، يتوارثها الأبناء من الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي"**(٢).

ولج عبدالله بن عمر في خطابه هذا إلى أعمق نقطة في الحجاج بتسخيره حجّة العدل، حيث تناغمت وانسجمت مع الموقف الآني للخطاب، الّتي تقتضي أن تطبّق هذه القاعدة على وضعيّتين متناظرتين، فالخطيب يطالب بتطبيق العدل بعد أن اتّخذ من حجّة المثل كسلاح حجاجيّ رمى به معاوية بقوله:**(كسرويّة، هرقليّة، قيصريّة)** الّذي كان يروم لتنصيب يزيد من بعده، فالخلافة الإسلاميّة ليست شبيهة بطبيعة نظام الحكم في تلك الأمم والحضارات، فالنّظام الإسلاميّ يفرض شروطًا ثقيلة على من يتولّى خلافة الأمّة، ومن ثمّ جاء الخطاب بحجّة تبادليّة تجري بالعدل والإنصاف، فلو كانت الخلافة بهذه الصّورة الانتقاليّة لكان الخطيب القائم بها بعد أبيه عمر بن الخطّاب(رض)، وهذا يدفع المتلقّي على إعادة النّظر في موقفه، وحمله على التّغيير، فالحجاج قلب وجهة النّظر، ودعا معاوية إلى تأمّل القرار والتّفكّر به، فمدار الحجاج كان كقولنا:(ضع نفسك مكاني)، لتكون النّتيجة تفنيدًا لرأي الخصم، ودحض شرعيّة تكليف يزيد خليفةً للمسلمين، والبرهنة على أنّ الخلافة الإسلاميّة لا تقوم على الوراثة، فأكثر ما يكون توظيف هذه الحجّة في

---

(١) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٠٣.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٢٤٨.

النّصائح للإقناع بقضيّة معيّنة، قد يكون المتلقّي جاهلًا بها أو خافية عنه، والتّنبيه له بجدوى الأمر الّذي يريد الإقدام عليه[١]، فتقود المتلقّين إلى التّسليم والإذعان لأفكار الخطيب وطروحاته.

**مقدّمة حجاجيّة أولى:الخلافة ليست بهرقليّة ولا قيصريّة ولا كسرويّة يتوارثها الأبناء عن الآباء.**

**مقدّمة حجاجيّة ثانية: لو كانت كذلك لكان عبدالله بن عمر خليفة بعد أبيه.**

**نتيجة تيقينيّة:عدم شرعيّة خلافة يزيد بعد معاوية.**

وقد أكّد عبدالله بن عمر هذه الحجّة في خطبة أخرى وبلهجة أشدّ وطأة، بقوله:**" يا معاوية، لقد كان من قبلك خلفاء، وكان لهم بنون، ليس ابنك بخيرٍ من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك"**[٢]، فقد اقتضت كذلك تطبيق العدل من معاوية، استنادًا إلى مبدأ المعالجة المحايدة لقضيّتين متناظرتين، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق تمامًا كذلك على هذه الخطبة.

نرى أنّ هذا الصّنف من الحجج يقوم على تثبيت مبادئ العدل في القضايا الاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة، ليكن سائدًا في الوضعيّات المتناظرة لأجل الوصول إلى حلول سليمة ومعالجات مقنعة، ومعضّدة بالدّليل والبرهان، لتمرير رؤى الخطيب وتصوّراته عبر قناة هذا النّسق من الحجج، وبمنأى عن التّعقيد والغموض.

ويستعمل عبد الملك بن مروان هذه الحجّة في خطبة له قائلًا:**"أيّها النّاس، إنّ الله حدّ حدودًا، وفرض فروضًا، فما زلتم تزدادون في الذّنب، ونزداد في العقوبة، حتّى اجتمعنا نحن وأنتم والسّيف"**[٣].

---

[١] ينظر:آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي الشهري، بحث: ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، د.حافظ اسماعيلي علوي، ج١: ٨٧.

[٢] جمهرة خطب العرب: ٢٥٧.

[٣] جمهرة خطب العرب: ١٩٢.

لا شكّ أنّ التّعامل مع الآخر ينبني على قاعدة المثل بالمثل، وهي صورة من صور العدالة، وشكل من أشكال العلاقة التّبادليّة، وتفضي إلى تحقيق العدل، فأشار عبد الملك إلى النّاس أنّ الله وضع أحكامًا وفروضًا ينبغي لهم التّقيّد بها، ولربّما كان يلوّح إلى بطلان الخروج عن طاعة ولاة الأمر، بوصفه خروجًا عن طاعة الله، فضلًا عن توظيف حجّة التّبادل، إذ عالج ذلك الموقف بمبدأ التّماثل في المعاملة بناءً على طبيعة سلوكيات أهل مكّة وتعاملاتهم مع السّلطة الأمويّة، فكلّما ازدادوا في عصيانهم وتمرّدهم، ازدادت السّلطة شدّةً وبطشًا في تنفيذ العقوبة، وهذا ما يسمّى بالتّعامل بالمثل، الّذي يعطي الخطاب حجاجًا ناجعًا، وقادر على التّأثير في السّامعين، وكبح جماح نفوسهم المندفعة نحو التّذمّر والتّمرّد على حكم البلاط الأمويّ، لتزداد قناعة المجتمع المكّيّ بهذه الحجّة بوصفها بُنيت على ربط وضعيّتين مشتركتين كانت الأولى سببًا للثّانية، وقد عُولجت معالجة عادلة وواضحة، بوصفها ردًّا لا يخرج عن نطاق العدل، وتمثيلًا لمبدأ لكلّ جرمٍ وذنبٍ قصاص، وحريٌّ بنا أن نشير إلى أنّ بلاغة لغة العنف في الخطاب أسهمت بتحصين المتكلّم، وجعله أكثر قدرةً على مواجهة المخاطبين من دون أن يبدوا أيّ اعتراض مضادّ لما عرضه من حقائق، بعد أن استنفر في نفوسهم شعور الخوف.

**المقدّمة الحجاجيّة الأولى:الزّيادة في الذّنب----خروج عن الطّاعة.**

**المقدّمة الحجاجيّة الثّانية: زيادة عقوبة السّلطة قوّة---- ردّ فعل عادل.**

**النّتيجة المبتغاة من النّسق الحجاجيّ التّبادليّ: الامتناع عن العصيان والتّمرّد، والتزام الطّاعة.**

ظهرت لنا دعوة صريحة من الحاكم لأهل مكّة بالطّاعة، والخضوع، والتّسليم، فالمتلقّون يفترضون أنّ الخطاب يوحي إلى تصرّفهم بشكل مماثل لو كانوا في موقع

عبد الملك، ولتعاملوا بالطّريقة نفسها مع الخارجين عن ولايتهم، وهذا يدعم مفهوم القصاص والجزاء العادل، فضلًا عن أنّه ظهر بصورة تهديد ووعيد رادعة.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الخوارج في بناء خطابهم الحجاجيّ، ومن ذلك ما جاء به أبو حمزة الشّاري في الرّدّ على أهل المدينة حينما عابوا عليه صغر سنّ أتباعه، فاعترضهم بحجّة التّبادل الّتي تقتضي حكمًا واحدًا على واقعتين أو حالتين متناظرتين، إذ قال:**"ويحكم يأهل المدينة! وهل كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وآله المذكورون في الخير إلاّ شبابًا أحداثًا"**[١].

جاءت الحجّة بسياق الأسلوب الاستفهاميّ الإنكاريّ للتّبكيت، فضلًا عن التّقريع المؤثّر في العقول والعواطف، بوصفها آليّة إقناعيّة تملي عليهم تطبيق قاعدة العدل، فالتّوجيه الاستفهاميّ له قيمة استدلاليّة وشحنة حجاجيّة تفترض وجود إجماع كلّي على وجود ذلك الأمر[٢]، فإذا كانوا أهل المدينة يعيبون أصحابه، فإنّ ذلك يلزمهم بأن يعيبوا على رسول الله(ص) أتباعه من الصّحابة الشّباب الأخيار، ولهذا ينبغي لهم مراجعة تصوّراتهم ومقاييسهم ومعاييرهم في تقييم الأتباع، وإلّا وقعوا في مأزق الكيل بمكيالين، فالعدل يقتضي حكمًا واحدًا، ومعالجة واحدة تنظر بعين محايدة غير منحازة إلى طرف ما، فكان حجاج خطاب الشّاري يستند إلى مبدأ قلب الوضعيّات، ليدفع المخاطبين لإعادة النّظر في طبيعة تفكيرهم، وغرابة حكمهم على أصحابه، فالذين يمجّدونهم من صحابة النّبيّ(ص) كانوا أيضًا من الشّباب الأحداث، وهذا لا يمنع عليه أن يكونوا أصحابه صورة من صور أصحاب رسول الله(ص)، ولا شكّ في أنّ هذا ألزمهم الحجّة، الّتي أيقظت وعيهم باستحضار حقائق مسبقة لها ثقل مركزيّ في عقلهم الجمعيّ، وبنائهم الفكريّ والعقديّ، ويذهب(بيرلمان) إلى أنّ

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٧٥.
(٢) ينظر:الحجاج مفهومه ومجالاته: ٧١.

"الاقتداء بالسّوابق ليس إلّا تطبيقًا لقاعدة العدل"[1]، إذ تسعى هذه الحجّة دائمًا إلى تمرير حكم ما من حالة معيّنة إلى أخرى لاحقة عليها[2]، ولهذا ما كان للمناهضين إلّا الإقرار والتّسليم بصحّة دعوى الخطاب.

فكانت الخطبة عبارة عن بناء حجاجيّ قائم على وفق الشّكل الآتي:

**مقدّمة أولى: يُعاب أصحاب الشّاري أنّهم شباب أحداث.**

**مقدّمة ثانية: أصحاب رسول الله(ص) شباب أحداث.**

**النّتيجة الأولى: يُعاب على أصحاب رسول الله، وهذا لا يجوز.**

**النّتيجة الثّانية: لا يُعاب على أصحاب أبي حمزة الشّاري.**

ومن عيون الخطب التي بُنيت على حجّة العدل، ما جاء في خطبة الحسن البصريّ(رض) قوله:**"لا يستحقّ أحد حقيقة الإيمان، حتّى لا يعيب النّاس بعيبٍ هو فيه، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم، حتّى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه،[...]فلا تحقرنّ شيئًا من الخير وإن صغر، فإنّك إذا رأيته سرّك مكانه، ولا تحقرنّ شيئًا من الشرّ وإن صغر، فإنّك إذا رأيته ساءك مكانه"**[3].

يلزم الواعظ الحسن البصريّ النّاس بما يلزمون به غيرهم، وفي حقيقة الأمر أنّ هذه الخطبة نبعت معانيها من معين الحديث الشّريف**"لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه"**[4]، وليس يخفى أنّ الحجّة في مضمون الخطبة قائمة على العلاقة التّبادليّة، الّتي تحقق الاستمالة والإفحام، لتنفذ قوّتها الحجاجيّة إلى ألباب المتلقين، فالحجاج هنا تحصّن بالقيمة شبه المنطقيّة، الّتي تمنح منتج الخطاب التّأثير الفكريّ، والنّفسيّ، والوجدانيّ، بحيث يصبح المتلقي في حالة إذعان تامّ، وتسليم

---

(1) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٤.

(2) ينظر:الحجاج في الخطابة النبوية: ٣٦.

(3) جمهرة خطب العرب: ٤٨٨.

(4) ينظر:الحجاج في الخطابة النبوية: ٧٣.

موقن بمضمون الخطاب، فليس من العدل أن نعيب الآخرين، وفي الآن نفسه لا نعيب أنفسنا، ولا نحاول أن نصلحها، ونوقظها من غيّها، وتوجيهها إلى طرائق الرّشاد والصّلاح.

وكذلك الحال بالنسبة إلى طبيعة العمل سواء أكان في الخير، أو في الشرّ، فالعلاقة متجلّيّة بين الأمرين، فهما متماثلان ويتطلّبان معالجة واحدة، فالإنسان بفطرته قد تسرّه صغرى الأشياء، وتسيء له صغرى الأشياء، وهذا يجري على الآخرين أيضًا، ممّا ينبغي للمرء أن لا يقلّل من شأن الأمور أبدًا بقضّها وقضيضها، وانطلاقًا من مبدأ تحقيق العدل على الجميع، وأعتقد أنّها دستور عمليّ لكلّ إنسان في الحياة، فالتّوظيف الحجاجيّ كان ناجحًا جدًّا، ويدفع النّاس إلى الإيمان والاعتقاد بعدالة عظات الخطيب، وأبعادها الإصلاحيّة والخلقيّة.

يبقى على الباحث أن يشير إلى ورود هذه الحجّة كثيرًا في جميع خطب الأحزاب، ولاسيّما السّياسيّة والوعظيّة، ومنها خطب عمر بن عبد العزيز(رض) ذات الطّابع الإصلاحيّ، وخطبة عبيد الله بن زياد في أهل البصرة، وخطبة يزيد بن وليد حين قتل الوليد بن يزيد،....وغيرها.

## المبحث الثّاني

## الحجج شبه المنطقيَّة الّتي تعتمد البنى الرّياضيَّة.

يُبنى الخطاب الحجاجيّ في البنى الرّياضيّة على قواعد رياضيّة تؤسّس خلفيّتها العميقة ونسيجها الدّاخليّ، وتمدّها بالطّاقة الحجاجيّة، وقوّتها الإقناعيّة[١]، وتأتي هذه الحجج بصور مختلفة، ومن أهمّها ما يلي:-

### أ-حجّة التّعديّة:

تتّسم هذه الحجّة بخاصيّة شكليّة وصوريّة، تتّصف بها ضروب من العلاقات في خطاب معيّن، وتتيح لنا مجالًا لإثبات أنّ العلاقة بين (أ) و(ب) من ناحية و(ب) و(ج) من ناحية أخرى هي علاقة واحدة تقودنا إلى استنتاج أنّ العلاقة نفسها موجودة بين (أ) و(ج)، وضروب العلاقات الّتي تقوم على هذه الخاصّيّة أصناف مختلفة، ومنها علاقات التّساوي والتّفوّق والتّضمّن والاشتمال[٢]، ويتبيّن من هذه المعادلة أنّ النتيجة(أ=ج) تحمل شحنة حجاجيّة ناجعة للغاية، إلّا أنّ هذه الحجّة يمكن أن تنفذ قوّتها الإقناعيّة في أيّ خطاب، فلو نظرنا إلى المثل الّذي ضربه عبدالله صولة:(عدو عدوّي صديقي)، الّذي ينتج دلالة تفيد بأنّ(صديق عدوّي عدوّي) [٣]، لوجدنا أنّه لا يصدق على الدّوام؛ فمن الممكن أن يكون صديق عدوّي صديقًا لي، فالحجّة هنا بعيدة عن الصّرامة المنطقيّة وإن وظّفها الخطيب في علاقة تبدو منطقيّة جدًا، وكثيرًا ما وردت هذه الحجّة في خطب العصر الأمويّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي بكر بن عبد الرّحمن المخزوميّ القرشيّ(٩٤هـ) في مقام

---

[١] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٠٣.
[٢] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٢٩.
[٣] ينظر: المصدر نفسه: ٣٢٩-٣٣٠.

النّصيحة والتّحذير للحسين(ع)،في **قوله:"يا بن عمّ، إنّ الرّحم يظائرني عليك. ولا أدري كيف أنا من النّصيحة لك، فقال:يا أبا بكر، ما أنت ممّن يُستغشُّ، فقال أبو بكر: كان أبوك أشدّ بأسًا، والنّاس له أرجى، ومنه أسمع، وعليه أجمع، فسار إلى معاوية، والناس مجتمعون عليه-إلاّ أهل الشّأم- وهو أعزّ منه، فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصاً على الدّنيا وضِنًّا بها، فجرّعوه الغيظ وخالفوه، حتّى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه، ثمّ صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا، وقد شهدت ذلك كلّه ورأيته. ثمّ أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك، تقاتل بهم أهل الشّأم وأهل العراق[...]، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذُلك من أنت أحبّ إليه ممّن ينصره، فاذكر الله في نفسك، فقال الحسين: جزاك الله خيرًا يا بن عمّ، فقد أجهدك رأيك، ومهما يقض الله يكن، فقال: وعند الله نحتسب أبا عبدالله"**(1).

تظهر حجّة التّعديّة بشكل واضح، إذ أكّد الخطيب للحسين بأنّ الخذلان واقع لا محالة ممّن كتبوا إليه بالقدوم إلى الكوفة لإعلان البيعة، ورفع رايات الانتفاض ضدّ حكم البلاط الأمويّ، فرفد أبو بكر خطابه بحجّة التعديّة شبه المنطقيّة ذات الصّبغة الحجاجيّة، الّتي تقوم على الضّمير كما يسمّيها (أرسطو)، الّذي يطلق عليه (بيرلمان) تسميّة الدّليل شبه المنطقيّ القياسيّ(2)، فأفاد من وقائع أحداث سابقة، فذكّر الحسين بخذلان هؤلاء القوم لأبيه، وتثاقلهم عنه، ومن ثمّ صنيعهم بأخيه بعد ذلك، ليثبت أنّ الرّحلة محفوفة بالمخاطر، وقد تخفق في تحقيق أهدافها، في محاولة لمنعه من المسير إليهم، فالخطاب معضّد بالدّليل والحجّة شبه المنطقيّة الدّامغة، وقائم على دلائل شبه قطعيّة إن صحّ رأينا، بناءً على تصوّرات وتجارب مسبقة،

(1) جمهرة خطب العرب: ٤٤-٤٥.
(2) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٣٠.

وإذا ما قمنا برسم مخطط لآليّة عمل هذه الحجّة على شكل معادلة رياضيّة فإنّها ستكون بهذه الصّورة:

**أ-أهل الكوفة خذلوا الإمام عليّ(ع)---(الأب) وهو أقوى وأشدّ والنّاس مجتمعة عليه.**

**ب-أهل الكوفة خذلوا الإمام الحسن(ع)---(الأخ).**

**النّتيجة(ج) الإمام الحسين سيواجه الخذلان حتمًا وقتله واقع.**

يظهر لنا أنّ العلاقة الأساسيّة الّتي تضبط نسق هذه الحجّة، تقوم على استنتاج علاقة جديدة انطلاقًا من تسخير عنصر ثالث ليتمّ المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأوّل والثّاني(١)، وهو كما نعلم ما حصل في ذلك العصر، الّذي يزيدنا يقينًا أنّ هذا التوظيف كان دقيقًا وواعياً أنّ المتلقي قد أقرّ بصحّة الخطاب، وسلّم بوقوع ذلك بشكل غير مباشر بإشارته إلى الرّضا بقضاء الله سبحانه وتعالى، إذ إنّه لم يدافع عنهم كونه عارفًا بنفوسهم وإيمانهم الضعيف، ولكنّ التكليف الشّرعيّ يملي عليه الخروج لطلب الإصلاح في أمّة جدّه رسول الله، فالمنطلق العقائديّ والدّينيّ كان الدّافع الحقيقي لذلك، وإن كان أهل الكوفة قد كتبوا إليه المواثيق والعهود، فقد كان هذا الهاجس حاضرًا في ذهن الحسين، وقد صرّح به في أكثر من خطبة فيما بعد، ولاسيّما خطبته في أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة(٢)، ولكنّ كلّ هذا لا ينفي البناء الحجاجيّ الّذي جاء به الخطيب، فقد ارتكزت قوّته الإقناعيّة على صورة عمل هذه الحجّة شبه المعصومة من الطّعن.

ومن ذلك ما خطب به الحسين(ع) غداة يوم استشهاده، قوله:**" يا عباد الله، اتّقوا الله، وكونوا من الدّنيا على حذر، فإنّ الدّنيا لو بقيت على أحد، أو بقى عليها**

---

(١) ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١٢٩.

(٢) ينظر:جمهرة خطب العرب: ٤٨.

**أحد، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولى بالرّضاء، وأرضى بالقضاء، غير أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الدّنيا للفناء..."**[١].

الشّاهد في الخطبة قوله:(**فإنّ الدّنيا لو بقيت على أحد أو بقى عليها أحد**)، يرغب الحسين بإقامة الحجّة في مسألة الفناء البشريّ، واعتمد في ذلك حجّة التّضمين، وهي علاقة شبه منطقيّة توضّح أنّ قضيّة ما تتضمّن قضيّة أخرى[٢]، فالنّاس لا يمكن أن تظفر بالبقاء، ولو أردنا رسم هذه المعادلة الحجاجيّة لكانت على وفق هذا الشّكل:

**أ-لو الدّنيا بقيت على أحد---لم تبق على السّابقين(الموت حتميّ والخلود ممتنع على البشر).**

**ب- بقى عليها أحد------الموت واقع (البقاء أمر لم يحصل).**

**ج- الأنبياء لم يبقوا- حتّى الأنبياء أدركهم الموت(البقاء مستحيل على البشر ولو كانوا أنبياء).**

حجّة التعديّة أفادت نتيجة الموت والفناء بناءً على علاقات مسبقة، رصدها الخطيب في سبيل تحقيق الإقناع، ونفخ روح الاعتقاد والإيمان بالمسألة، وحثّهم على الورع والتّقوى، والتّحذير من الانجراف وراء الرّغبات الدّنيويّة، وحملهم على الزّهد، والعزف عن الملذّات ، فنرى أنّ كلّ قضيّة طرحها الخطيب أتت وقد ولّدت دلالة أخرى، فالعلاقة شبه المنطقيّة بنت حجاج الخطاب، ودعمت سطوتها، وزادت من قوّة أثرها في جمهور الخطيب عقلًا وعاطفةً[٣]، لكونها تعلّقت بالمشهورات العقديّة، الّتي تعدّ بمنزلة أسباب تضمن للخطاب برهانه؛ فهي خليقة أن تنفذ إلى

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٥١.

[٢] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٢٩.

[٣] ينظر:الحجاج والبلاغة وآفاق التأويل(بحث في الأشكال والاستراتيجيّات)، د.علي الشبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا-بنغازي، ٢٠١٠: ١٤٢.

قلوب سامعيها بناءً على خبرة الخطيب بحاجات جمهوره وتصوّراتهم وأفكارهم، فحجّة التّعديّة دائمًا ما تكوّن قنوات وسائطيّة تشرّع الحقائق، وترشّح اليقينيّات[1]، فلا جدال في تقبّل الإنسان الحقائق البديهيّة، أو المسلّمات العقديّة أو الاجتماعيّة من غير أيّ شكّ قد يعتريه حولها.

وإذا ما سأل سائل كيف جعلتم الموت والفناء حجّة شبه منطقيّة في هذه الخطبة؟! وهي تتّسم بالصّرامة المنطقيّة بوصفها نهايّة حتميّة على جميع الخلق، سيكون جوابنا على محورين: الأوّل: إنّ الحجّة كانت ليست بالموت بحدّ ذاته، وإنّما بالتّقانة الّتي عزّزت تأثير هذه الحقيقة على نفوس المخاطبين، ودفعهم على التّوجّه إلى طرق الرّشاد.

أمّا المحور الثّاني: إنّ هناك من لم يمت بإذن الله كما هو معلوم في عقائد مختلفة، وإن كانوا هؤلاء القوم مستبعدون من هذا الأمر، إلّا أنّ الحسين وظّفها لغاية إقناعيّة بواسطة تدعيمها بتقانة التّعديّة، ليضمن لها فاعليّتها الاستدلاليّة وثقلها على وجدانهم، من حيث وقوعها على الغالب الأعمّ من البشر وليس جميعهم، وإن قلنا بخلاف ذلك سوف نصطدم بأمور وسننّ عقديّة لا نرغب في الخوض فيها قدر الإشارة إليها جوابًا على إشكال قد يحصل من القارئ الكريم.

ومن عيون تلك الخطب الّتي حضرت فيها حجّة التّعديّة ما قاله في العراق بعد لقائه جيش ابن زياد في محاولة لإقناع القوم بأحقّيّة آل بيت النّبوّة في الخلافة من خلال هذه التّعبئة الفكريّة، وحملهم على التّخلّي عن نصرة البيت الأمويّ، فمضى يخاطبهم بقوله:**"أمّا بعد، أيّها النّاس، فإنّكم إن تتّقوا وتعرفوا الحقّ لأهله، يكن**

---

(1) ينظر: الحجاج والبلاغة وآفاق التأويل: ١٤٥.

**أرضى لله، ونحن أهل البيت-أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسّائرين فيكم بالجور والعدوان"[١].**

الشّاهد في الخطبة قوله:(**فإنّكم إن تتّقوا وتعرفوا الحقّ لأهله، يكن أرضى لله**)، وإذا ما قمنا بتحويل ما جاء في هذا القول إلى معادلة رياضيّة لتوصّلنا إلى الآتي:

**أ-من تقوى الله معرفة النّاس الحقّ لأهله.**

**ب- رضا الله عن النّاس بمعرفة أصحاب الحقّ.**

**ج- أصحاب الحقّ هم أهل البيت وطاعتهم ومبايعتهم فيها رضا الله لأنّهم أصحاب الحقّ الشّرعيين.**

فالعلاقة واضحة ومتساوية بين (أ) و(ب) ، و(ب) و(ج) فيكون (أ=ج)، فالحجّة في خطبة الحسين بُنيت على حجّة التّعديّة الّتي أفادت التّساوي بين أطراف المعادلة المبنيّة على مقدّمتين صادقتين، ومن خلالها حاول الخطيب أن يقنع القوم بشرعيّة ولايته في تولّي الأمر، وقد افترض على المخاطبين نصرته ومبايعته، وخلع بيعة الأمويين، الّذين يحكمون بالظّلم والجور والفجور، وهذا أسهم في زيادة نجاعة الحجّة لاسيّما بعد أن كانت موالاة آل النّبيّ فيها رضا الله، والمختصّة بتلك العترة دون غيرهم، وهي فكرة عقديّة ينطلق منها خطباء العلويين لتبكيت حجج خصومهم وحملهم على الاعتقاد بحقّهم في الحكم، كون إمامتهم تعدّ أصلًا من أصول الدّين، وهم يستدلّون على ذلك بالنّصّ والوصيّة[٢]، وهو أمر ثابت الاعتقاد لدى العلويين وأئمّتهم.

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٤٦-٤٧.

[٢] ينظر: تيارات الفكر الإسلامي: ٢١٠-٢١١.

ومن صور هذه الحجّة ما جاء في خطبة معاوية وقد سقطت ثنيتاه فقال:**"لئن ابتليتُ لقد ابتلى الصّالحون قبلي، وإنّي لأرجو أن أكون منهم، ولئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلي، وما آمن أن أكون منهم..."**[1].

يظهر لنا جليًّا أنّ الخطاب قائم على حجّة التّعديّة، ويتّضح كذلك القياس المضمر النّاتج من استعمال هذه الحجّة، وحتّى يكون معاوية في مصاف الصّالحين عمد إلى هذه التّقانة الحجاجيّة، الّتي تتيح للخطاب بأن يحقّق الاعتقاد، فالشّاهد قوله:(**لئن ابتليت لقد ابتلى الصّالحون قبلي**)، ولو قمنا بنقل هذا النّصّ إلى صورة المعادلة الرّياضيّة، لكانت على وفق الشّكل الآتي:

**أ-ابتلاء معاوية.**

**ب-ابتلاء الصّالحون قبل معاوية.**

**ج.معاوية من الصّالحين.**

إذ يعوّل الخطيب على المتلقي في إعادة إنتاج المعنى المطلوب والدّلالة المستهدفة من الخطاب في عمليّة ذهنيّة تقوم معه بعلاقة حوار فكريّ وعقليّ، وهذا يقينًا سيزيد من الطّاقة الحجاجيّة الّتي تخترق عقول المخاطبين وقلوبهم، ويبدو لي أنّ معاوية وإن مال إلى استعمال هذا النّوع من الخطاب الحجاجيّ في سبيل تحقيق الإقناع، والحمل على الإيمان بصلاحه واستقامته، إلّا أنّه لم يكن هو نفسه على ثقة واقتناع حقيقيّ بدعواه؛ لأنّه عطف على حجّة التعديّة رجاءً يتوقف عنده السّامع والقارئ، فهو لم يكن على يقين تامّ، وهذا قد يفسد حجّته الخطابيّة ويضعها في موقف حرج للغاية، وقد يرى آخرون غير ما رأينا، ولربّما يُفسّر ذلك على أنّه نوع من التّودّد والتّلطّف كسلاح متمكّن من زمام القلوب، وكسب مشاعر الحضور.

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٢٣٤-٢٣٥.

أمّا الشّاهد الثّاني فقوله:**(لئن عُوقبت لقد عوقب الخاطئون من قبلي)**، ويجري عليه كلامنا السّابق، من حيث توظيف حجّة التّعديّة في مقام كلّ المخطئين سيواجهون العقاب في نهاية المطاف.

ولعلّ غياب هذه الحجّة عن خطب الخوارج جاء من كونها تحتمل قياسًا على حقائق أخرى، ولأنّهم لم يكونوا يتحمّلون فكرة القياس بغيرهم، فعقائدهم وطروحاتهم نابعة من صميم الدّين، ومن فكر الخوارج العقديّ، الدّائب في حبّ الله والجهاد في سبيله في مختلف الأحوال، والدّعوة إلى التّمسّك بتعاليم دينه الحنيف، ومجاهدة أهواء النّفس الأمّارة بالسّوء؛ فهم يعلنون مبادئهم في غير مواربة؛ ويجاهرون كلّ مخالف للعقيدة الخارجيّة بلا هوادة، فهم لا يشكّون بأنّهم لوحدهم على الحقّ، والمخالفين على ضلال مبين[١]، كما رأينا في خطبهم السّابقة، والّتي سوف تأتي في مباحث لاحقة.

**ب-حجّة تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له:**

يُستنتج من حجّة التّقسيم نتيجة متعلّقة بالكلّ بعد أن نستدلّ على كلّ جزء من أجزائه[٢]، لبيان أنّ حكمًا ما ينطبق على كلّ جزء ينطبق تبعًا لذلك على الكلّ[٣]، وعلى هذا الشّكل تبدو هذه الحجج مقنعة في الظّاهر بصبغتها الرّياضيّة، ولكنّها تبقى في الحقيقة شبه منطقيّة فحسب[٤]، ومردّ ذلك لأنّ الأجزاء لا تعبّر في كلّ الحالات بدقّة عن الكلّ، إذ يؤتى بها لغايات مرجوّة للبرهنة على وجود المجموع، ومن ثمَّة تقويّة الحضور، بمعنى إشعار الغير بوجود الشّيء الّذي يروم الخطيب إلى

---

(١) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٥.
*ينظر: خطبة السيدة زينب(ع) : ١٣٨، وخطبة عمر بن عبد العزيز: ٢٠١-٢٠٤ في الجمهرة، وخطبة معاوية :٢٥٩، ...وغيرها.
(٢) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٨.
(٣) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٠٧.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٧.

تقسيمه، عبر التّصريح بوجود أجزائه، فعلى سبيل المثال برهنتنا على أنّ مدينة بحالها قد هُدّمت، لشخص ما ينفي هدمها، فيلجأ الخطيب إلى تعداد الأحياء المتضرّرة تعدادًا شاملًا، وهذا التّعداد يأتي أيضًا لغاية حجاجيّة تفيد إبراز حضور الأشياء إذا كان المخاطب لا ينكر الضّرر[1]، فهذه الحجّة تبدو مشحونة بطاقة عالية لتحصيل اليقين، ولهذا يؤكّد (بيرلمان)على التّعداد الشّامل للأجزاء، وإلاّ تحطّم كلّ ما بناه الخطيب وأثار ضحك الآخرين[2].

ومن شواهد هذا النّوع من الحجج ما جاء في خطبة الحسن(ع) قوله: **"يأهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مرامي الله،، صائب على أعداء الله، نكالٌ على فجّار قريش، لم يزل آخذاً بحناجرها، جاثمًا على أنفاسها، ليس بملومة في أمر الله، ولا السّروقة لمال الله، ولا بالفروقة في حرب أعداء الله، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابه، وقاده فاتّبعه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فصلوات الله عليه ورحمته"**[3].

راح الحسن يحتجّ لمناقب والده أمير المؤمنين، ويبيّن فضله على السّابقين والآخرين، ويشير بفضائله في الإسلام، ليزيد من تقريع السّامعين وتوبيخهم، وبخطاب مدجّج بالحجج، الّتي اتّخذت تقانة التّقسيم الحجاجيّ، فجعل من شخصيّة الإمام الكلّيّة مقسّمة على أجزاء مكمّلة لبعضها البعض، وكأنّها مجموعة أغصان لشجرة من المناقب، ليزيد من حضورها في أذهان السّامعين، ويرفدها بطاقة حجاجيّة تذعن لها عقولهم، وتطرب إليها قلوبهم، وتؤنّب بها ضمائرهم على خذلان مثل هذه الشّخصيّة، فهو سهم من سهام الله المصوّبة على أعدائه، وحاصد أرواح

---

(1) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٣١.
(2) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٦٨.
(3) جمهرة خطب العرب: ١٣.
*الفروقة:شديد الفزع.

الكافرين والمشركين، الجاثم على أنفاسها؛ فقد قتل الأبطال وخاض الأهوال، صاحب نفس لا ملومة ولا سروقة ولا بالفروقة، وفيها إشارات إلى إخلاص، وزهد، وورع، وتضحيات ذلك الإنسان وبسالته، فهو العالم بأسرار الكتاب، الّذي لا تأخذه في حدود الله لومة لائم وعاتب، فإن تكن هناك معايير ومقاييس لتقديم عليّ(ع) لعمري فإنّ واحدة من هذه المناقب تكفيه حجّة بأن يكون الرّجل الأوّل في الإسلام بعد النّبيّ(ص)، فتوظيف التّقسيم جاء ليخدم الأطروحة المتبنّاة، وليسهم في تحشيد القناعات بالقضيّة الكلّيّة المركزيّة، الّتي تفضي إلى إبراز حضور أفضليّة الإمام عليّ(ع) المنسجمة والمتّسقة مع معطيات ودلائل لا يمكن دحضها بحجّة متناقضة، فالعقل بالفطرة ينساق إلى ما هو منطقيّ وسليم.

وتكمن نجاعة هذه الحجّة في زيادة الإقناع لدى السّامعين، فالتّفريع والتّقسيم سياسة خطابيّة توقع الجمهور، وتحمله على الإقناع بوجاهة القول المعروض فكرًا وأهدافًا، لما تُحظى به من انسجام شكليّ متأتٍ من التّوسّل بالعلاقات الرّياضيّة، الّتي تجعل من الخطاب منطويًا على ضروب من الوثاقة العقليّة لتقويّة معتقدات الجمهور، ومضاعفة يقينه بالقضيّة الكلّيّة[1]، ولهذا يلجأ الخطباء كثيرًا إلى تقانة تقسيم الكلّيّات إلى أجزاء بهدف التّأثير الحجاجيّ، والنّفوذ العقليّ للخطاب.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة عبدالله بن عبّاس(٦٨هـ) للرّدّ على مروان بن الحكم، إذ كشف الأسرار، وأزاح الأستار الّتي يختبئ خلفها مروان، وأبان عن حقيقته المطموسة بتاريخ مظلم، ومقام مذموم عند الله ورسوله، **إذ قال:"وإنّك لتقول ذلك يا عدوَّ الله، وطريد رسول الله(ص)، والمباح دمه، والدّاخل بين عثمان ورعيّته، بما حملهم على قطع أوداجه..."**[2].

---

(1) ينظر:الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: ١٤٨.
(2) جمهرة خطب العرب: ١٠٤.

أدار ابن عبّاس دقّة الخطاب الموجّه إلى مروان نحو المسكوت عنه، إذ أفجعه بردٍ قاسٍ هزّ كيانه، وحطّم كبرياءه، وأماط اللثام عن مثالبه، فذكّره بما يحطّ من شأنه، ويذهب بماء وجهه، وينزل بقدره إلى الحضيض، وقد اتّكأ الخطيب في بيان حقائق المخاطَب على حجّة التّقسيم، لكونها تفرز خطابًا يكون أكثر إيلامًا ووجعًا في نفس المتلقي، ويسهم في زيادة إذعانه لهذه الحقائق، وإقناع السّامعين بدونيّة شخصيّته، فهي تتيح له مساحة كبيرة في إيراد مثالب الخصم، فقد استند الخطيب فيها إلى معطيات وقائع تاريخيّة حدثت في زمن سابق، فمروان ما هو إلّا طريد رسول الله(ص) مع أبيه[١]، والمباح دمه[٢]، والمسبّب للفتنة الّتي وقعت بين عثمان (رض)، والمناهضين الّذين حملهم على قتله، فجاء التّقسيم شاملًا نوعًا ما، ومقنعًا ومبرهنًا على بشاعة خصال الخصم وفظاعتها، إذ أعطت التّقسيمات قوّة حجاجيّة كبيرة فضحت الخصم أمام أصحابه في مجلس معاوية، وزادت من إقراره وتسليمه بحقيقة وقوعها، فضلًا عن أثرها بزيادة حضور تلك المثالب في أذهان الحاضرين في المجلس، ممّا جعل حجّة الخطاب المعروض أكثر تأثيرًا، بالنّظر إلى حدوث نوع من التّناظر بين قيم المخاطَب وتصوّراته، ومضمرات المخاطِب ومعتقداته[٣]، فالخطاب الحجاجيّ كما نعلم يولج في طيّاته كثيرًا البحث عن العيوب وتقصّي الأخطاء، وتضخيم مواطن الضّعف والزّلل، وينتهج دائمًا طريق السّخط والنّقمة والتّحقير والاستهزاء، في سبيل إبراز تفوّق الخطيب، فضلًا عن تشنيع صورة الخصم، وتقويض أطروحته، بالطّعن على علمه وشرفه وأمانته، والشّكّ في نواياه،

---

(١) ينظر:هامش رقم(١) في جمهرة خطب العرب: ١٠٤.
(٢) ينظر:هامش رقم(٢) في جمهرة خطب العرب: ١٠٤.
(٣) ينظر:الحجاج والبلاغة وآفاق التأويل: ١٤٨.

وتجريده من أقنعته، وإظهار حقيقته[1]، لغايات حجاجيّة ترغمه على الإذعان لعناصر الخطاب.

فيمكن القول أنّ مروان لا يستطيع أن ينكر ذلك وإلّا وقع في فخّ الكذب، ولم يبق أمامه إلّا القبول والاعتقاد بصحّة دعوى الخطيب، وأفضليّته عليه، لما اتّسم به خطاب ابن عبّاس من حجّة دامغة من حيث الدّقة، والتّقسيم الحسن، الّذي عمّق الاعتقاد بصحّتها وزيادة حضورها في وعي السّامعين؛ ممّا تسبّب في تدمير مزاعم مروان.

وتبرز حجّة التّقسيم كثيرًا في خطب العلويين؛ لأنّها تفسح أمامهم المجال لذكر مناقبهم وفضائلهم، والبيان عن منزلتهم، والإفصاح عن مآثرهم، والكشف عن خصوصيّة مكانتهم في الإسلام ومدى قربهم من النّبيّ(ص) نسبًا وخلقًا وديئًا، فالحجّة القويّة الّتي بُنيت عليها خطب العلويين، إنّما هي الانتساب إلى البيت النّبويّ الهاشميّ، ولم تكن هذه المعطيات حجّة لإثبات أحقّيتهم بالخلافة فحسب، بل كانت لتقريع المسيئين إلى هذا البيت العتيق، وإنذارهم بالعذاب الشّديد، والسّخط الإلهيّ على كلّ مناوئ، ومبغض، ومسيء، ومن ذلك ما جاء في خطبة السّيّدة أمّ كلثوم بنت عليّ في أهل الكوفة بعد مقتل الإمام الحسين(ع)، في قولها:" **وأنّى تُرحضون قتل سليل خاتم النّبوّة، ومعدن الرّسالة، وسيّد شبّان أهل الجنّة، ومنار حجّتكم، ومدره حجّتكم، ومفرخ نازلتكم، فتعسًا ونكسًا، لقد خاب السّعي، وخسرت الصّفقة، وبُؤتم بغضب من الله، وضُربت عليكم الذّلّة والمسكنة..."**[2].

---

(1) ينظر:الحجاج الجدلي(خصائصه الفنيّة وتشكّلاته الأجناسية) في نماذج من التراث اليوناني والعربي، د.عبدالله البهلول، دار كنوز، ط١، ٢٠١٣ :٨.

(2) جمهرة خطب العرب: ١٣٥.

*الرّحض: غسل عار قتل سبط النبيّ، مدره:دره عن القوم ومنع ودفع عنهم، مفرخ:مزيل ومُذهب.

لقد عمدت السّيّدة أمّ كلثوم(ع) في خطبتها الغرّاء إلى حجّة التّقسيم لزيادة تأثير الخطاب الموجّه إلى أصحاب الخذلان، والّذي يهدف إلى توبيخهم وإيلامهم على خذلانهم للحسين، والتّخلّي عن نصرته، فالسّيّدة لم تكتف بذكر اسم الإمام، ومن أجل التّعميق بالتّقريع والتّبكيت، لجأت إلى تفريع كلّيّة هذه الشّخصيّة إلى أجزاء أثبتت عظمة الذّنب الّذي اقترفوه بقتلهم الحسين، وللإيماء إلى منزلة الحسين الكلّيّة، والإبانة عن قيمتها العليا عند الله ونبيّه(ص)، وكذلك للإشارة إلى عتمة نفوس هؤلاء القوم الّذين تثاقلوا عن نصرته، فالحسين هو سليل خاتم الأنبياء، ومعدن رسالته، وجوهر تعاليمها وطقوسها وعباداتها، فضلًا عن أنّه سيّد شباب أهل الجنّة، ومنار المجتمع الإسلاميّ في الفضيلة والتّقوى، الّذي يكبح الشّبهات عن الدّين، ومزيل الخوف من قلوبهم، والفزع من نفوسهم، فالسّيّدة تشير إلى أنّ مصيرهم سيكون الهلاك، وخيبة السّعي، وخسارة الصفقة، ليكون جزاءهم الذّلّة والمسكنة، كونهم أقدموا على أمر تكاد السّموات أن يتفطّرن منه، وتنشقّ له الأرض، وتخرّ الجبال بسببه، فقتل الحسين سيكون سببًا مباشرًا لهذا العذاب الرّبانيّ أو السّخط الإلهيّ، إذ لا يخفى أنّ التّقسيم بتعريف شخصيّة القتيل نهضت بقوّة حجاجيّة في غاية الأهمّيّة داخل طيّات الخطبة، بل زاد من تأثيرها وتأنيبها الشّديد، وتقريعها المؤثّر، الّذي أسهم بزيادة شدّة عنفوان الخطاب التّوبيخيّ، وتحميله الشّحنة الإقناعيّة في تلك الأجزاء، الّتي أفادت هول عظمة مصرع الحسين(ع) بتلك الصّورة، إذ تبيّن حجّة التّقسيم أنّ الإقناع لا يتم إلّا بعد النّظر في جزئيّات الحجج كي يتحقّق الاعتقاد والإثبات بها، والجزئيّات تعدّ بمنزلة استنتاج رياضيّ يفضي لصحّة الكلّيّات، بل وزيادة الإيمان في نتيجة الخطاب الكلّيّة من خلال التّجزيء، فينتهي إلى جعل المتلقين في حالة إذعان تامّ، وتسليم مطلق بأجزاء الخطاب لينسحب على كلّيّة

الخطاب بالمحصّلة النّهائيّة، ومن خلال هذا التّكتيك الحجاجيّ ضربت السّيّدة عقول هؤلاء وقلوبهم معًا بتصويرها حقيقة هذه الشّخصيّة بتقانة التّجزئة.

ومن ذلك ما جاء عن مصقلة بن هبيرة الشّيبانيّ **قال:"سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عبّاس:ما السّؤدد فيكم؟. فقال:إطعام الطّعام، ولين الكلام، وبذل النّوال، وكفّ المرء عن السّؤال، والتّودّد للصّغير والكبير،وأن يكون النّاس عندك شرعًا..."**[1].

لم يكتف الخطيب بإجابة محدّدة تكون جوابًا كافيًا لابن عبّاس، فراح يُقسّم ذلك المجد إلى جزئيّات من القيم الأخلاقيّة والفضائل العليا الّتي يتحلّى بها آل صوحان في المجتمع العربيّ، والّذي أراده الخطيب من ذلك زيادة الضّغط الحجاجيّ على المتلقّي، وتأكيد حضور هذه الجزئيّات في ذهنه، ليفضي بها إلى إقرار سيادة هؤلاء القوم، الّذين تحلّوا بمكارم الأخلاق، وعلياء الخصال، ونحن نعلم أنّ الإنسان العربيّ بطبيعته تطرب جوارحه نحو من يُحظى بكلّ هذه الفضائل، والقيم المجتمعيّة، فالمجتمع العربيّ كما هو معروف عنه يؤكّد على تلك الأمور، إن لم يكن مقدسًا لها في عقله وتفكيره الجمعيّ، ومن هنا يظهر أنّ الخطيب تعمّد استدعاء معطيات مقاميّة تحقّق تأثيرات كبيرة في نفسيّة السّائل، وتعمل على تحقيق المطالب بواسطة هذا التّقسيم، ليدفع ابن عبّاس إلى الإيمان بالأجزاء المعروضة والاعتقاد بها، ومن ثمَّ ليقوده إلى اعتناق تامّ للحقيقة الكلّيّة للخطاب، الّتي تؤكّد سموّ وسؤدد آل صوحان.

وحضرت هذه الحجّة في خطبة ابن الزّبير في الرّدّ على معاوية، إذ قال:**"أسألكم بالله: أتعلمون أنّ أبي حواريّ رسول الله(ص)، وأنّ أباه أبا سفيان**

---

[1] جمهرة خطب العرب: ١٥٠.
*شرعًا: أي سواءٌ.

**حارب رسول الله(ص)؟، وأنّ أمي أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق، وأمّه آكلة الأكباد؟ وجدّي الصّدّيق، وجدّه المشدوخ ببدر، ورأس الكفر، وعمّتي خديجة ذات الخطر والحسب، وعمّته أمّ جميل حمّالة الحطب؟ وجدّتي صفيّة وجدّته حمامة؟ وزوج عمّتي خير ولد آدم محمّد، وزوج عمّته شرّ ولد آدم أبو لهب، سيصلى نارًا ذات لهب؟ وخالتي عائشة أمّ المؤمنين، وخالته أشقى الأشقين؟، وأنا عبدالله وهو معاوية"**[1].

نرى أنّ المناظرة كانت حامية الوطيس، ولهذا جاء الاعتراض ملائمًا ومناسبًا للمقام، وبطريقة شديدة التّأثير على المتلقّي، ولا تخلو من الخشونة والغلظة، والتّشنيع والتّبشيع لصورة الخصم، فالخطبة اتّسمت بعنف العبارة والحدّة، وإظهار المثالب، وتهوين المناظر، في سلسلة من التّفريعات النّسبيّة للبيت الزّبيريّ، والبيت الأمويّ، فلم يكتفِ ابن الزّبير بالقول أنا عبدالله ابن الزّبير وأنت ابن أبي سفيان، وإنّما ذهب إلى هذا التّقسيم ليزيد من قوّة خطابه الحجاجيّ بأفضليّة الخطيب على خصمه، بوصفها نتيجة كلّيّة ونهائيّة، فحجّة التّقسيم قامت بفعل برهانيّ شبه منطقيّ، ألزمت معاوية والحاضرين في ذلك المجلس بالإقرار والتّسليم على ارتقاء منزلة ابن الزّبير، وعلوّ مكانة آل الزّبير في الإسلام، على خلاف البيت الأمويّ القابع في حضيض الكفر، الّذي كان أغلب رجالاته ونسائه رؤوسًا من رؤوس الكفر، وأعمدة الشّرك، إذ أزال الخطيب السّتار عن تلك العورات والفضائح المخزيّة في تاريخ الأمويين دون أيّ حياء أو تردّد ليثبت تفوّقه على معاوية أولًا، وليزيد من احتقاره له ثانيًا، فـــ"من الطبيعي أن تتواتر في سائر الخطاب الحجاجيّ، وفي مختلف ضروب التّبادلات القوليّة علامات توتّر ومصادر إزعاج تبدو لشيوعها وكثرة ورودها في الخطاب كأنّها من لوازمه، مثل التّنازع والخصومة، والعنف والشّدّة، والدّحض

---

[1] جمهرة خطب العرب: ١٦٠-١٦١.

والتّكذيب، والثّلب والسّخريّة، والاعتراض والمغالطة، وتهوين أمر الخصم، وقطع حديثه"[١]، وكلّ هذا يأتي كما قلنا لإثبات علوّ شأن الخطيب على الخصم، أكثر من السّعي إلى الإقناع، ولهذا عمد عبدالله بن الزّبير إلى حجّة التّقسيم والتّعداد الشّامل للبيت الزّبيريّ من أجل عكس الصّورة المشوّهة للندّ أمام الحاضرين، معوّلًا على قوّة الحجّة شبه المنطقيّة، الّتي عضّدها بمناقب قومه المثيرة لعواطف الجمهور، ليتمكّن من تحريك أهوائهم، واستمالة نفوسهم، وحملهم على الإذعان والتّسليم بالنّتيجة الكلّيّة بعلياء منزلة ابن الزّبير على معاوية، فإحداث الانفعالات محرّك ضروري يذكّي العواطف والأهواء فيدفعها إلى الاعتقاد والفعل[٢]، فالخطيب متى ما جمع فضائل الذّات واستطاع أن يحدث حركة في الانفعالات، وأجاد بناء قوّة التّمثيلات، صارت خطبته أشدّ إقناعًا، وأعظم أثرًا في النّفوس.

ولم تغب هذه التّقانة الحجاجيّة عن مدار خطب الأمويين، ففي مناظرة بين أبي صخر الهذليّ(٨٠هـ) وعبدالله بن الزّبير، حينما منع الأخير عطاء الهذليّ من بيت مال المسلمين كونه أمويّ الهوى، قال أبو صخر:**"إذن أجدهم سباطًا أكفّهم، سمحة أنفسهم، بُذلاء لأموالهم، وهّابين لمجتديهم، كريمة أعراقهم، شريفة أصولهم، زكيّة فروعهم، قريبًا من رسول الله(ص) نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نُسبوا بأذناب ولا وشائظ ولا أتباع، ولا هم في قريش كفقعة القاع، لهم السّؤدد في الجاهليّة، والملك في الإسلام لا كمن لا يعدَّ في عيرها، ولا حكم آباؤهم في نقيرها وقطميرها، ليس من أحلافها المطيّبين، ولا من ساداتها المُطعمين، ولا من جُودائها الوهّابين، ولا من هاشمها المنتخبين، ولا من عبد شمسها المسوّدين، وكيف نقاتل الرّؤوس بالأذناب، وأين النّصل من الجفن، والسّنان من الزّجّ،**

---

[١] ينظر:الحجاج الجدلي: ٨.
[٢] ينظر:المصدر نفسه: ٧٠.

**والذّنابى من القدامى، وكيف يُفضّل الشّحيح على الجواد، والسّوقة على الملك، والجامع بخلًا على المطعم فضلًا"[١].**

يحتجّ الخطيب لهواه وميوله ورأيه في تقديم الأمويين وتفضيلهم؛ لمجد منازلهم، ومكانتهم في قبائل العرب، معتمدًا في ذلك على حجّة التّقسيم، حيث أسهب في ذكر شيّمهم وخصالهم، لتكون حجاجًا على علوّ قبّتهم ورتبهم على الزّبيريين في المجتمع العربيّ، إذ تظهر نزعة التّفاخر القبليّ في خطاب الهذليّ، الّذي استند إلى جملة من المعايير الاجتماعيّة والسّياسيّة في ذلك الحين، إذ سعى من خلالها إلى إثبات أسباب ميوله النّفسيّ إلى البيت الأمويّ، فهم أسخياء في العطاء، وكرماء في بذل الأموال....، ولهم المجد والسّيادة في الجاهليّة والإسلام، فلا يمكن أن يقاسوا بغيرهم من المهمّشين والمقصيين كما ورد في الخطاب الّذي لا يحتاج إلى توضيح، فأسهم التّقسيم بذكر فضائل الأمويين على شكل أجزاء ليدعم أطروحته، وليزيد من خلق حضورها في ذهن المتلقي، وإثبات سموّ مراتب الأمويين على الزّبيريين، والّذي يؤكّد أنّ الخطاب كان مؤثّرًا وناجعًا للغاية، ما ذكره صاحب الجمهرة من انفعال ابن الزّبير بسبب هذا الخطاب، فألقى به في قعر سجن عارم[٢]، وهو دليل على غضب عبدالله على الخطيب، فالقدرة على إحداث انفعال لدى المتلقّين يثبت قوّة الحجّة و تأثير مفاصل الخطاب عند (بيرلمان)؛ لأنّ الانفعال ما كان ليحدث لولا شدّة وقع الحجّة على المتلقي، ويظهر إلى جانب هذا سعي الخطيب إلى النّيل من ابن الزّبير، والحطّ من شأنه الاجتماعيّ في قريش من منطلق معايير قبليّة واضحة، ونحن نعلم

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٧٣-١٧٤.

*وشائظ: وشيظة القوم أي الحشو فيهم:والأصل وسائط. الفقع:الكمأة الرخوة، القاع:أرض سهلة مطمئنة. وهو مثل يُضرب في الذلّ لأنّه يوطأ بالأرجل. في عيرها: مأخوذ من المثل القائل(لا هو في العير ولا في النفير) ويُضرب للرجل: يحط أمره وقدره. النصل:الرمح.الجفن:غمد السّيف.الزجّ:حديدة أسفل الرمح.

(٢) ينظر:جمهرة خطب العرب: ١٧٤.

أنّ هذا العصر قد بُعثت فيه النّزعات القبليّة، ولاقت رواجًا كبيرًا في نثر الأدباء وشعر الشّعراء.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة عبد الملك بن مروان في مكّة، فقال:**"أيّها النّاس:إنّي والله ما أنا بالخليفة المستضعف(ويريد عثمان بن عفّان)، ولا بالخليفة المداهن(ويريد معاوية بن أبي سفيان)، ولا الخليفة المأفون(يزيد بن معاوية)، فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا"**[(١)].

حضرت حجّة التّقسيم منذ بداية الخطبة، وجاءت ملائمة للمقام ومنسجمة معه، فلم يكن أمام عبد الملك إلّا والتّعريض بجبروته، والإيماء بالتّهديد والوعيد للمعارضين، إذ"إنّ كلّ قول خلا عن الدّليل الّذي يثبته فلابدّ أن تصير القوّة هي دليله ،فإمّا أن يستند البرهان أو إلى السّلطان، فإذا ظهر انتفاء البرهان تعيّن ثبوت السّلطان"[(٢)]،فالحجّة على شرعيّة ولايته كانت غائبة عن الخطبة، ولهذا لجأ إلى التّقسيم الّذي يلوّح باستعمال القوّة والممارسات القمعيّة ضدّ أهل مكّة، الّذين جبلت نفوسهم على الانتفاض الثّوريّ المستمر ضدّ حكم البلاط الأمويّ، فسعى من خلال التّقسيم إلى كبح ذلك الحسّ الثّوريّ في نفوسهم، والّذي كشف أيضًا عن شخصيّة متجبّرة وطاغية، فلم يقل بأنّي عبد الملك بن مروان ولستُ كغيري من الخلفاء الضّعفاء السّابقين حسب منظوره الشّخصيّ، وإنّما عمد إلى التّفريع فهو ليس الخليفة المقتول، ولا معاوية المجامل، ولا يزيد ضعيف العقل والرّأي، فالاعتقاد بهذه الأجزاء من الخطاب يقود المتلقين إلى الانصياع للحقيقة الكلّيّة الطّاغوتيّة لهذه الشّخصيّة، ممّا سيبلور في أذهانهم صورة دمويّة عن هذا الخليفة، فتوظيف هذه التّقانة الحجاجيّة كان يستهدف خلق الرّهبة وزرع الخوف في قلوب الخصوم من

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٢.

(٢) إشكاليات الحجاج في المفهوم والتّوصيف: ٥١.

أهل مكّة، ليجعل منهم في موقف تأمّل وتدبّر في أمر ولاية الخليفة الجديد، الّذي يتّسم بالقوّة والبطش لكلّ المناوئين والمناهضين، فصنع خطابًا تذعن له النّفوس، وتحملهم على الفعل بالامتناع عن العصيان، والخروج عن طاعته خوفًا من بطشه، فهنالك علاقة متلازمة بين الخطاب السّياسيّ وبين العنف اللفظيّ كما يرى الدّكتور محمّد مشبال، فهو خطاب قائم على بلاغة العنف أو الحجاج بالتّهديد، وهو ما يُعرف في الحجاج بـ(الباتوس) السلبيّ القسريّ، الّذي يقوم على إقصاء الآخر ورميه في وهاد من الرّعب، أو محوه من الوجود في سبيل إرساء حكم الدّولة أو السّلطة[١]، كما فعل الخطيب في هذا الموضع، الّذي أنبأ باستعداده الكلّيّ بقتل كلّ المعارضين، وهو أمر مقبول حجاجيًّا.

ومن لطيف توظيف هذه التّقانة الحجاجيّة، ما جاءت به ليلى الأخيليّة في مجلس الحجّاج، فسألها الحجّاج: **" يا ليلى، ما أتى بك؟ فقالت: إخلاف النّجوم، وقلّة الغيوم، وكلب البرد، وشدّة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرّفد[...] فقال لها: صفي لنا الفجاج، فقالت: الفجاج مغبّرة، والأرض مُقشعرة....أصابتنا سنون مجحفة مُبلطة، ولم تدع لنا هُبعًا ولا رُبعًا، ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال؛ ومزّقت الرّجال، وأهلكت العيال..."**[٢].

انبجست من حجّة التّقسيم الّتي أوردتها ليلى دلالات حجاجيّة نافعة للغاية، إذ وصفت قسوة الظّروف البيئيّة والمعاشيّة خير وصف بوساطة التّوظيف الكنائيّ الحجاجيّ عن محنة قومها في الصّحراء، من خلال الانفتاح على كلّ جزئيّة من تلك الظّروف والأوضاع الحياتيّة، وتصويرها بشكل يثير الانتباه والتّرقّب، ويقلق الأسماع، ويحرّك الأهواء، ممّا أثار عاطفة الحجّاج، واستمال كبرياءه، فكانت هذه

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٨٢.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٤٠٨.

التّقانة الّتي قسّمت الظّرف البيئيّ على وحدات جزئيّة كافية لاستدراج الحجّاج، وحمله على الاعتقاد والفعل، ليأمر لقومها بالعطاء، فمظاهر القحط والجدب جاءت بشكل تعداد شامل وكلّي يضمن التّأثير في المتلقّين من قبيل حبس السّماء للمطر، وقلّة غيومها، وشدّة برودة أجوائها، وهول المحنة الّتي يمرّ بها القوم...الخ، ويرى الباحث أنّ تلك الظّروف وإن كانت حقيقة واقعيّة إلّا أنّها تعرّضت لشيء من التّصعيد والتّفخيم البلاغيّ المكثّف لتدعيم الخطاب بالحجّة، فكان الهدف من تغيير صورتها ومقاديرها استجداء عطف الحجّاج، واستمالة وجدانه، واستقطاب موافقته على العطاء، فالعمليّة الحجاجيّة قائمة على تفاعل بين المرسل للخطاب، والخطاب والمتلقّي؛ لأنّ الهدف من الخطاب هو إقناع الآخر ومحاججته عقليًّا وبرهانيًّا عبر مسار شبه منطقيّ اعتمد التّجزيء والتّفريع للوصول إلى مضاعفة تعاطف المستمع بشأن الأطروحات المقترحة، للحصول على موافقته القائمة على قناعة تامّة(١)، فنحن على دراية بأنّ الاعتقاد والإيمان بالأجزاء سيقود المتلقي إلى التّسليم بالحقيقة الكلّيّة لتلك الظّروف القاسيّة لقوم ليلى الأخيليّة، والّتي ستجعل الحجّاج في جوّ تيقينيّ يحمله على الاستجابة للنّداء، ويدفعه نحو الأمر لها بالجائزة، ولهذا كان لابدّ من إحداث الانفعالات الايجابيّة تجاه الخطاب بوصفها محرّكًا ضروريًا يحمل المتلقّي على الاعتقاد والفعل، بما يروم إليه الخطيب من أفكار ومقاصد وغايات، إذ جاء ذلك بفضل أثر الأسلوب الكنائيّ في صناعة التّأثير النّفسيّ في شخصيّة الحجّاج المعروفة بأنّها صّعبة المراس، ولا ننسى أنّها قد قامت أيضًا إلى جانب خطابها

---

(١) ينظر:من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، د.جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤: ٣١.

*كلب البرد: شدّته.وأصله السُعار الذي يصيب الكلاب والذئاب، الفجاج: الطريق الواسع بين جبلين، مجحفة: قاشرة.، مبلطة:ملزقة ولزق الرجل بالأرض من جلدة الحاجة، الهبع: الفصيل ينتج في الصيف (في آخر النتاج).، الربع:الفصيل الذي ينتج في الربيع(أول النتاج).، العافطة: الضائنة (النعجة).،نافطة:العنز.

الحجاجيّ بإلقاء أبيات شعر في غاية البلاغة، أرضت بها غروره وجبروته، ونجحت في ممارسة دورها السّياسيّ كمبعوثة أو ممثّلة عن قومها عند الحاكم.

وخطب المهلّب بن صفرة(٨٢هـ) قبيل سفره إلى العراق بعد أن استدعاه مصعب بن الزّبير، فاستخلف بأتباعه ابنه المغيرة، فجمع الناس وقال:**"إنّي قد استخلفت عليكم المغيرة، وهو أبو صغيركم رقة ورحمةً، وابن كبيركم: طاعةً وبرًّا وتبجيلًا، وأخو مثله: مواساةً ومناصحة، فلتحسن له طاعتكم، ويلين له جانبكم، فوالله ما أردت صوابًا قطّ إلّا سبقني إليه"**[١].

لم يأت المهلّب بحجّة التّقسيم إلّا لزيادة الإقناع بصلاح استخلاف ابنه على أصحابه، فعمد إلى تجزئة البنى الأخلاقيّة والقيميّة الّتي يحظى بها المغيرة، لحثّهم على الرّضا باستخلافه والقبول به، وحملهم على طاعته، والعمل على استمالة نفوسهم بضرب من التّرغيب، الّذي جاء به حجاج التّقسيم، فكلّ الأجزاء الّتي بها دلّت على صلاح الشّخصيّة السّويّة للمستخلَف، فما يصدق على الجزء من الخصال يصدق على الكلّ، فكانت هذه الحجّة متناغمة مع المقام، وناجحة في انتزاع الرّضا والاعتقاد بما طرحه الخطيب، فالمغيرة سيكون بمنزلة الأب لصغيرهم، والابن البار لكبارهم، ونعم الأخ لأقرانه؛ فهو سبّاق إلى الصّواب قبل أبيه، وهذا ما يجعل السّامعين في حالة إذعان بشكل أو بآخر إلى الحقيقة الكلّيّة الّتي يريدها الخطيب، من خلال اعتماد هذه الحجّة، الّتي قادت أتباعه نحو التّصديق والتّسليم والإقرار بصحّة دعوى المهلّب في استخلاف الابن، مستندًا إلى مجموعة من الفضائل السّلوكيّة، الّتي أشارت إليهم بضرورة القبول والطّاعة.

ويبقى علينا أن نذكر أحد البراهين المعتمدة على مبدأ تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له، برهان آخر يسمّى بـ(البرهان ذي الحدّين)، وهو كما يعرفه

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٤٥٠.

(بيرلمان)"شكل من أشكال الحجج يتناول فرضيّتين ليستنتج أنّه سواء وقع الاختيار على الأولى أو الثّانية نصل إلى الفكرة نفسها، أو الموقف ذاته، وذلك لأحد الأسباب التّالية: فإمّا لأنّهما تقودان إلى النّتيجة ذاتها، وإمّا لأنّهما تقودان إلى نتيجتين لهما نفس القيمة، ويكوّنان عادة أمرين يخشى حدوثهما، أو لأنّهما يقودان في الحالتين إلى عدم الاتّفاق مع قاعدة نتقيّد بها"[١]، ومن ذلك ما ورد في مخاصمة بين الحسن(ع) والمغيرة بن شعبة(٥٠هـ) في مجلس معاوية، إذ قال:**"والله ما نشعر بعداوتك إيّانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها، ولا يشقّ علينا كلامك...."**[٢].

أعطى الحسن للمغيرة حجمه الضّئيل، وقدره الصّغير في هذا التّقسيم الموجز والمؤثر، فأشار إليه بأنّ بغضه لآل عليّ(ع) لا يقدّم ولا يؤخّر شيئًا، أي أنّه خارج نطاق التّأثير الفعّال، فهو إن وقع لا يشعرون به، وإذا علموا به لن يحزنهم ذلك، فلن يؤثّر في مجدهم وشرفهم ما يقوله حقير الشّأن، حجمه كحجم بعوضة وقعت على شجرة كما وصفه الحسن في بداية الخطبة[٣]، فهي سواء وقعت عليها أو طارت لن تشعر بها، فالتّقسيم لم يأت لاستيفاء الأجزاء، وإنّما سلك الخطيب هذا المسار ليؤكّد به استعلاء مكانتهم، وعلوّ منازلهم، الّتي لا يمكن أن ينال من شأنها بغض باغض كالمغيرة، فالأمر سيّان سواء حدث أو لم يحدث فالنّتيجة واحدة، إذ اتّجه الخطيب في ردّه نحو بناء الحقيقة عن طريق اعتراض أحال على احتمالات لم تكن بالحسبان في ذهن المغيرة، ممّا أوقع صدمة نفسيّة في ذاته ووجدانه، وأشعره بضآلة وزنه الاجتماعيّ، فأفضى التّقسيم الحجاجيّ إلى الاستهزاء بالخصم، وبعثت على السّخريّة منه، إذ كان يتصوّر أنّه من الممكن أن ينال من مراتب هؤلاء الأعلام، الّذين لن يضرّهم، ولن ينفعهم ويحزنهم حبّ، أو بغض ابن شعبة.

---

[١] الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٠٩.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٣٠.
[٣] ينظر: المصدر نفسه: ٣٠.

## ج-إدماج الجزء في الكلّ(حجّة الاشتمال):

تقوم هذه الحجّة شبه المنطقيّة على مبدأ رياضيّ هو أنّ ما ينسحب على الكلّ ينسحب على الجزء من هذا الكلّ[١]، وبعبارة أخرى أنّه حجاج قائم على الأنموذج الآتي:"ما ينطبق على الكلّ ينطبق على الجزء"[٢]، من قبيل القاعدة الفقهيّة في تحريم الخمر:"ما أسكر كثيره فقليله حرام"[٣]، إذ تتّضح جوهريّة هذه الحجّة الّتي تنهض برؤية كمّيّة"فالكلّ يتضمّن الجزء من ثمّة فهو أهم بكثير من الجزء"[٤]، ولذلك تعدّ قيمة الجزء مناسبة لما تمثّله بالنسبة إلى الكلّ.

وقد ورد هذا النّوع من الحجج على لسان الخطباء في العصر الأمويّ كثيرًا، ولاسيّما في مقام الوعظ والعزاء بهدف مدّ الخطاب بطاقة الإقناع، ومن ذلك ما جاء في خطبة الحسين حينما دمج ذاته في كليّة البيت النّبويّ الهاشميّ في محاولة إقناع جيش الأمويين بحرمة قتله، وعظمة انتهاك حرمته، فقال:**"أمّا بعد: فانسبوني فانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم(ص)، وابن وصيِّه، وابن عمّه! وأوّل المؤمنين بالله، والمُصدِّق لرسوله بما جاء به من عند الله؟ أوليس حمزة سيّد الشّهداء عمّ أبي؟ أوليس جعفر الشّهيد الطّيّار ذو الجناحين عمّي؟..."**[٥].

دأب الحسين على تذكير القوم بنسبه ومنزلته، ولكي يقنع المتلقّين بشناعة صنيعهم إذا أقدموا على قتله، عمد إلى الاتّكاء على حجّة دمج الجزء بالكلّ في محاولة لتحقيق الإقناع عند القوم بالامتناع عن قتاله، وانتهاك حرمات آل بيته،

---

(١) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢١٠.
(٢) الحجاج أطره ومنطلقاته: ٣٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ٣٣٠.
(٤) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢١١.
(٥) جمهرة خطب العرب: ٥٢.

وبوصفه جزءًا من البيت النّبويّ، فإنّ هذا لا يبيح لهم ذلك الفعل، استنادًا إلى فكرة مؤدّاها أنّه ما ينطبق على الكلّ ينطبق على الجزء، فحرمته من حرمة البيت المحمّديّ، فما يجب لآل بيت النّبيّ من حقوق وحرمات، ينسحب كذلك على الحسين كونه جزءًا أساسيًا من أعمدة دار أركان البيت النّبويّ، ولو قمنا برسم معادلة رياضيّة للخطاب لتوصّلنا إلى ما يأتي:

**-ألست ابن بنت نبيّكم؟ وابن وصيّه.....الخ---يجب إكرام ذريّة أهل البيت.**

**-الحسين من البيت النّبويّ---- من ذريّة النّبيّ(ص).**

**-إذن يجب إكرام الحسين، واحترام حرماته.**

وهذا ما أضفى على الخطاب قوّة حجاجيّة واستدلاليّة لا تبيح للقوم ما سوّلت لهم أنفسهم، في محاولة ردعهم عمّا يريدون فعله وكفّهم عنه، فما الحسين إلّا امتدادًا للنّبيّ وآله الطّيبين الطّاهرين.

ومن ذلك أيضًا ما جاء به محمّد بن الحنفيّة (رض) المتوفّى(٨١هـ) في الرّدّ على عبدالله بن الزّبير وقد تنقّص من الإمام عليّ(ع)، فقال:**"يا معشر قريش، شاهت الوجوه، أينتقص عليٌّ وأنتم حضور؟ إنّ عليًّا كان سهمًا صادقا، أحد مرامي الله على أعدائه، يقتلهم لكفرهم، ويهوِّعهم مآكلهم، فثقل عليهم، فرموه بصرفة الأباطيل"**[1].

وبّخ ابن الحنفيّة القرشيين على التزامهم السّكوت، ورضاهم على ما أبداه ابن الزّبير، فلجأ إلى الدّفاع عن أبيه ضدّ زيف الادّعاءات، وأباطيل التّهم، فجعل من والده جزءًا لا يتجزّأ من مرامي الله على أعداء دينه، فدمج ذات والده إلى كلّيّة مقدّسة ترتبط بالذّات الإلهيّة للوصول إلى نتيجة حتميّة تفيد بأنّ الإمام سهم من سهام

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٩٠.

*شاهت:قبحت، يهوّعهم:قيّأه إيّاه.

الله، وأحد أركان القوّة العسكريّة للدعوة الإسلاميّة، وقاتل الكافرين والمارقين، وإذا قمنا بتحويل هذا النّصّ إلى معادلة رياضيّة لكانت على وفق هذا الشّكل:

**عليٌّ سهم صادق---حجّة**

**أحد مرامي الله---حجّة**

**النّتيجة يجب تبجيل الإمام عليّ(ع) ورفض الإساءة إليه.**

إذ أنّ هذا الاندماج دائمًا ما يمنح الخطاب بُعدًا حجاجيًّا مقنعًا، يجعل المتلقين في حالة تأمّل وتفكّر نظرًا لما تمليه عليهم هذه التّقانة من إبراز حقائق قد تكون مختفية، أو غائبة عن أنماط تفكيرهم، وهذا ما وقع في هذه الخطبة، إذ وظّف محمّد بن الحنفيّة خطابه الحجاجيّ من أجل غايتين، الأولى سبق ذكرها، والثّانية نقد السّاكتين وتجريحهم، الّذين غفلوا عمّا كان عليه الإمام عليّ(ع).

وقد وظّف عبدالله بن الزّبير هذه التّقانة في مفاخرة مع عمرو بن العاص، **إذ قال:"أقسمت عليكم يا معاشر قريش، أنا أفضل في دين الإسلام أم عمرو؟ فقالوا: اللهمّ أنت..."**[1].

ويبدو لي أنّ ابن الزّبير تعمّد الانتساب والاندماج بالكلّ ليمنح نفسه الأفضليّة في هذه المنازلة الحواريّة، فإنّ دمج الخطيب نفسه بوصفه جزءًا من كلّيّة الدّين الإسلاميّ كانت مناورة حجاجيّة ناجعة، ولاسيّما بعد تعضيدها بالانتساب إلى البيت الزّبيريّ، ولو لم يلج في هذا النّسق الحجاجيّ وتفاخر بذاته أمام ذات عمرو لما كانت تلك الإجابة من السّامعين بتلك الافضليّة والأسبقيّة على عمرو، ولو قمنا بتحويل هذا الخطاب إلى معادلة رياضيّة لوجدناها بهذا الشّكل:

**مقدّمة حجاجيّة-عبدالله أفضل أم عمرو في الإسلام؟.**

**مقدّمة حجاجيّة ثانية- أنت أفضل--- جواب المخاطبين.**

---

[1] جمهرة خطب العرب: ١٦٧.

**النّتيجة: عبدالله أفضل من عمرو، ولربّما هذه النّتيجة بواسطة الدّمج هي من رجّحت كفّة ابن الزّبير على عمرو.**

وكان لهذه الحجّة حضور كبير في خطب الأمويين ولاسيّما في مقامات التّعزيّة؛ فهي تُبنى في الأغلب الأعمّ على التّذكير بحتميّة الفناء، ووقوعه على جميع البشر على اختلاف صفاتهم، والميت ما هو إلّا واحد من الّذين دقت لهم ساعة الأجل كما دقّت لسابقيه، وستدقّ على لاحقيه، وهذا ما جاء به الوليد بن عبد الملك(٩٦هـ) بعد دفن أبيه، فقال:**"أيّها النّاس إنّه لا مؤخر لما قدّم الله، ولا مقدّم لما أخرّ الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه، وحملة عرشه من الموت موت وليّ هذه الأمّة، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار..."**[1].

افتتح الوليد خطبته بالحديث عن القدر المكتوب، والأجل المحتوم، الّذي لا يمكن أن يؤخّره شيء ولا يقدّمه شيء، وعطف على ذلك بحديث عقديّ يتّصل بحقيقة قارّة وراسخة، وعمود ثابت، وقدر نافذ لا محالة، ألا وهو الموت الّذي كتبه على الأنبياء وحملة العرش وجميع الخلق، وهي إشارة وعظيّة وتذكيريّة بشموليّة هذا القضاء الإلهيّ على جميع المخلوقات من الأنبياء والرّسل والملائكة، والأولياء الصّالحين، فلا مفرّ منه ولا مناص، فعبد الملك ما هو إلّا واحد من الخلق الّذي أتى عليه الموت كما أتى على السّابقين، ولمّا كان الأمر كذلك سيكون لزامًا على النّاس الإيمان والتّسليم بأمر الله سبحانه وتعالى، والرّضا بقدره، والتزام الطّاعة، ولزوم الجماعة، والابتعاد عن دروب الفتن.

ولم تغب هذه الحجّة شبه المنطقيّة عن خطب الخوارج، فهذا قطريّ(٧٨هـ) بن فجاءة خطب في الأزارقة، فقال:**"فاعلموا-وأنتم تعلمون أنّكم تاركوها لابدّ فإنّما هي كما وصفها الله باللعب واللهو، وقد قال تعالى:"أتبنون في كلّ ربع آية**

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٩٩.

**تعبثون* وتتّخذون مصانع لعلّكم تخلدون* وإذا بطشتم بطشتم جبّارين"، حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانًا، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانًا، وجُعل لهم من الضّريح أكنان، ومن التّراب أكفان، ومن الرّفات جيران، فهم لا يجيبون داعيًا..."[1].**

يؤكّد الخطيب على حقيقة الموت والفناء، وشموليّته على جميع المخلوقين، وضرب بذلك أمثلة وشواهد قرآنيّة وعقليّة تؤيّد وتثبت هذه الحقائق، فهو لم يأت بها على سبيل التّذكير فحسب، وإنّما لغايات إقناعيّة ومقاصد وعظيّة لحثّ قومه على الحذر من مغريات الدّنيا وملذّاتها، ودفعهم نحو الانتفاع والاتّعاظ من مواعظ الخالق، والاعتصام بحبل التّقوى، وهجر طرق الدّنيا، والتمسّك بحبال الطّاعة والزّهد والورع، ولكي يحقّق تأثيرًا حجاجيًّا فاعلًا في نفوس أصحابه لجأ إلى تقانة دمج الجزء بالكلّ، فليس هم إلّا مجموعة بشريّة كسائر المخلوقين الّذين طالهم الموت قبلهم، إذ أشفعه بذكر قوم عاد الجبّارين، الّذين أنزلوا الأجداث وصار القبر مسكنهم، وكفى بالموت واعظًا، وفي حقيقة الأمر هذا النّسق الحجاجيّ كثيرًا ما يرد في ساحة الوعظ والإرشاد، فهذا واصل بن عطاء(١٣١هـ) يقول:

**"أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله ، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأحضكم على ما يُدنيكم منه، ويُزلفكم لديه، فإنّ تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معادٍ..."[2].**

يدخل الخطيب ذاته بوصفه جزءًا من الكلّ، إذ جعل نفسه من الّذين يقع عليهم خطاب الوعظ والنّصح، ليقنع المخاطبين والسّامعين بصدق دعواه، وصفاء نيّته،

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٤٥٧.
*يدعون: وردت برواية أخرى (فلا يرعون) أي لا يرعاهم أحد، الأكنان: وقاء كلّ شيء وستره وغطاه، الرّفات: العظام البالية.
[2] جمهرة خطب العرب: ٥٠٢.

ونقاء سريرته في هذا المقام الخطابيّ، ليحثّهم بذلك على الاعتقاد والفعل بما طرحه عليهم من توجيهات وأوامر تدفعهم وتحملهم على تقوى الله، ولزوم طاعته، والانصراف عن الحياة الدّنيا وزينتها الزّائلة، والتّمسّك بحدود السّماء.

**د-حجّة الاحتمال.**

يقوم هذا النّوع من الحجج على أساس حظوظ المرء في تحقيق أمر ما أو إنجاز شيء معيّن أو اتّخاذ موقف محدّد واضح الخلفيّة، فهو الإيمان بأنّ المُطلق نادر، وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون في أغلب المواقف محتملًا لا مؤكّدًا[1]، وكما يبدو أنّ هذا النّوع من الحجاج قائم على افتراضات متوقعة، تُعزّز حجّتها بحجج أخرى لمدّها بطاقة حجاجيّة تزيد من قوّتها الإقناعيّة، لتحمل الجمهور على الإذعان لها، ومن ذلك ما جاء في خطبة معاوية وقد وفد عليه عبدالله بن عبّاس، قوله:**"لو ولّيتمونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم من التّرحيب والتّقريب وإعطائكم الجزيل، وإكرامكم على القليل، وصبري على ما صبرت عليه منكم..."**[2].

يكشف هذا المقطع القصير من الخطبة عن بعد حجاجيّ مؤثّر أفرزته حجّة الاحتمال، فمعاوية يريد أن يقول أنّ الولاية لو كانت لآل هاشم على الأمويين لما لقي الأمويّون كلّ هذا الإكرام والعطاء والصّبر من الهاشميين، ومعضّدًا ذلك بحجج أخرى دعمت قوّة حججه الاحتماليّة بقوله:**"إنّي لا أريد أمرًا إلّا أظمأتم صدره، ولا آتي معروفًا إلّا صغّرتم خطره، وأعطيكم العطيّة فيها قضاء حقوقكم، فتأخذونها متكارهين عليها..."**[3]، لذا هو يريد أن يثبت الحقائق المحتملة الوقوع في حال كانت الولاية للهاشميين على الأمويين، فالهاشميّون مواظبون على أن يردّون عليه

---

(1) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢١٣.
(2) جمهرة خطب العرب: ٩٥.
(3) المصدر نفسه: ٩٥-٩٦.

رأيه، ويحطّون من قدر صنيعه، وإن كان معروفًا كما يرى الخطيب، فضلًا عن أخذهم حقوقهم وهم متكارهون عليها، لا يجدون فيها كمال حقّهم وحظّهم، فهذه المزاعم عزّزت الطّاقة الحجاجيّة للأحداث المحتملة من ولاية الهاشميين، والسّلوكيات المحتملة مع الأمويين بوصفهم رعيّتهم.

ولكنّ ابن عبّاس ما كان ليسكت عن ذلك، فاعترضه بحجج احتماليّة مضادّة لما عرضه معاوية من حقائق بناءً على احتمال متوقّع غير مؤكّد لولاية الهاشميين على الأمويين، فقال:**"لو ولّينا أحسنّا المواساة، وامتننّا بالأثرة، ثمّ لم نغشم الحيّ، ولم نشتم الميّت، فلستم بأجود منّا أكُفّا، ولا أكرم نفسًا، ولا أصون لأعراض المروءة، ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدّنيا، وأعطى في الحقّ منكم في الباطل، وأعطى على التّقوى منكم على الهوى، والقسم بالسّويّة والعدل في الرّعيّة...فلا تبخلونا حتّى تسألونا، ولا تلفظونا حتّى تذوقونا"**[1].

يفترض ابن عبّاس حقائق مغايرة لما عرضه معاوية في حال ولايتهم على الأمويين، فهو يحتجّ بأنّ ولايتهم ستكون على خلاف ما احتمله معاوية، لحسن معاملتهم، وإغداقهم على الرّعيّة بما ينعمون به من أمور حسان يتفضّلون بها على غيرهم، ثمّ أنّهم لن يظلموا الأحياء، ولن يسبّوا الأموات، وفي ذلك إشارة إلى رضا معاوية بسبّ عليّ(ع) على المنابر، وحتّى يدعم قوّة حجاجه الاحتماليّة المضادّة لحجج معاوية؛ دأب على نفي أفضليّة الأمويين وتقدّمهم على الهاشميين فيما يخصّ مكارم الأخلاق، ومقاييس التّقوى، فالهاشميّون أجود، وأكرم، وأصون، وأعطى كرمًا ونفسًا ومروءةً، وأعطى للحقّ، وأقرب للتّقوى والهدى والصّلاح من الأمويين، وهذا ربط بين حجّة الاحتمال وما يترتّب عليها بالواقع ربطًا واضحًا، فالحقائق الواقعيّة كلّها تشير إلى تأكيد سمو نفوس الهاشميين، وعلياء منزلتهم على

---

(1) جمهرة خطب العرب: ٩٦.

بقيّة المسلمين من الأمويين وغيرهم خُلقًا ودينًا وكرامةً، وعلى ذلك يشهد الشّاهدون من مكوّنات المجتمع الإسلاميّ كافّة، ولم يكتفِ الخطيب بذلك وحسب، بل ونسب الظّلم إلى معاوية في بهتانه بما ساقه جُزافًا ضدّ العلويين من تهم زائفة لا صحّة لها إذا ما وصل الهاشميّون إلى دفّة الخلافة، وهي حجّة أخرى دلّت على ضلال خطاب معاوية، وعزّزت قوّة حجج خطاب ابن عبّاس.

ومن ذلك ما جاء في خطبة زهير بن القين(٦١هـ) بعدما طلب الحسين من أصحابه أن يتّخذوا من اللّيل حصنًا وسترًا للانصراف عنه، والنّجاة بأنفسهم ليلة استشهاده، **فقال:"والله لوددت أنّي قُتلت، ثُمّ نُشرت، ثُمّ قُتلت حتّى أُقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك"**(١).

يرتكز الخطيب على احتمال غرائبيّ في بناء خطابه الحجاجيّ، ليثبت لسيّده الحسين صدق اعتقاده، وثبات ولائه، ووفاءه بعهده، ومدى رغبته في الاندفاع صوب الموت من أجل الحسين وآل بيته، فهو يحتمل أنّه لو قُتل ألف قتلة، ثمّ بُعث حيًّا لما ترك نصرة الحسين، والدّفاع عن محارم أهل بيته، ما دام ذلك يضمن له ولأهله البقاء على قيد الحياة، فهو احتمال له أبعاد تيقينيّة بإيمان الخطيب بالقضيّة ويقينه بها، وإثبات ذلك للمتلقّي بالرّغبة الحقيقيّة بالقتال دونه، وهذا وإن دلّ على شيء فهو دلالة على عظمة نفوس أصحاب الحسين الّذين لم يبدّلوا تبديلا، ممّا يؤكّد ثباتهم وإصرارهم على الذّود عن آل بيت النّبوّة، والانتصار للثّورة الحسينيّة الإصلاحيّة ضدّ أئمّة الفسق والجور، ولهذا قال الحسين بحقّهم أنّهم خير الأصحاب وأفضلهم.

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٥٠.

ومن ذلك ما جاء في جزء من خطبة أبي حمزة الشّاري في تقريع أهل المدينة، قوله:**"تحملون قلوبًا في صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوةً من الحجارة، أو لم تلن لكتاب الله الّذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدّعًا من خشية الله..."**[1].

يظهر لنا أنّ الخطاب مشبع بألفاظ القرآن وأفكاره، ولا شكّ بأنّ هذا ما يُعرف به الخوارج، والّذي يعكس مدى تأثّرهم بالقرآن، والتّعلّق بحقائقه، فيبدو واضحًا أنّ اللغة القرآنيّة انفتحت على دلائل يريد منها الخطيب أن تثبت ضلال أهل المدينة، فقلوبهم الّتي أصبحت كالحجارة، أو أشدّ غلظة وقسوة لم تلن حتّى لكتاب الله، الّذي يُحتمل أنّه لو أُنزل على جبل لتصدّع خشية من الله، وهذا الاحتمال الّذي لم يحصل أعطى دلالة ابتعاد المخاطبين عن تقوى الله تعالى وخشيته، وعدم تمكّن الإيمان من قلوبهم على خلاف أسلافهم الصّالحين، من المهاجرين والأنصار الأوائل، فحجّة الاحتمال المُقتبسة من القرآن كما تبدو قد عزّزت قوّة الخطاب الحجاجيّة، والّتي أفادت التّقريع والتّأنيب، فألقت بظلالها على نفوسهم، وسدّت أمامهم الأبواب لإبداء الاعتراض أو الطّعن لخطاب الشّاري، فالنّصّ الدّينيّ يعدّ أهمّ دعائم الحجاج والتّأثير في الخطاب، فلا حجّة أعظم إقناعًا من النّصّ القرآنيّ، ولا نورًا أشدّ سطوعًا من دليله، لاسيّما إذا جاء بصورة التّضمين أو الاستلهام، الّذي يقول عنه صاحب المثل السّائر أنّه:"من محاسن الصّناعة البلاغيّة، وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجةً منها، لأنّها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التّضمين، بل على وجه الانتظام به"[2]، وربّما كان هذا أحد الأسرار الّتي تفسّر مدى تعلّق الخوارج بنفس القرآن لفظًا ومعنىً، بوصفه مخزن الأدلّة اليقينيّة، الّتي يذعن لها كلّ مؤمن بالدّعوة

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٤٧٨.

*الأثرة: التفضّل والإنعام على الغير، الغشم: الظّلم، لا تبخلونا: لا ترمونا بتهمة البخل.

[2] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير(٦٣٧هـ)،تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، ج١: ١٣٧.

الإسلاميّة، فيسهم إيراد النّصّ القرآنيّ على وجه الإشارة في إثبات أحكام الخطاب، ودعم قوّته الحجاجيّة، فضلًا عن أنّه محسنٌ بلاغيٌّ أسلوبيٌّ مؤثّر غاية التّأثير النّفسيّ في المتلقّين، لما يمتلكه من سلطة فكريّة مقدّسة سابقة لزمن الخطابات.

# الفصل الثّالث

## بلاغة الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع

- توطئة
- المبحث الأوّل: بلاغة الحجج المؤسّسة على بنية الواقع (التّعاقب والتّعايش) .
- المبحث الثّاني: الغائيّة.

## توطئـــــة

ترتكز هذه الحجج على الرّبط بين عناصر موجودة في الواقع، ويُفترض وجود اتّفاق بخصوصها، وهذا الاتّفاق يخوِّل الخطيب بناء خطابه الحجاجيّ انطلاقًا منها، ليضمن بذلك نجاعة الخطاب، وبسط أفكاره بشكلٍ يجعله يربط بين أحكام مقبولة وأخرى يسعى إلى جعلها مقبولة، هذا ما يخصّ الحجج المُؤسَّسة على بنية الواقع[١]، في حين تذهب الحجج المُؤسِّسة لبنية الواقع لتمكين الخطيب من بناء حجاجه انطلاقًا من إثبات حالة سابقة، أو وضع قاعدة عامّة، أو خلق قدوة تُستعمل تارة في بناء حقيقةٍ مجهولة، وفي اتّخاذ موقف منها تارة أخرى على وفق قانون التّناسب، إذ يبحث (بيرلمان) في هذا الإطار الاستعارات كذلك، ولكن ليس من منظور شعريّ، بل من منظور بلاغيّ حجاجيّ يبيّن مدى قدرتها على توجيه الفكر[٢]، ويبدو أنّ هذا النّوع من الحجج يمتلك قوّة تأثير كبيرة في صناعة الإقناع لأنّها" بمجرّد ما يتم الجمع بين عناصر من الواقع في علاقة معترف بها يصبح من الممكن أن نؤسِّس عليها حجاجًا يسمح بالمرور ممّا هو مقبول إلى ما نسعى لجعله مقبولًا"[٣]، فتصنيف هذه الحجج يقع ضمن الحجج الاتّصاليّة، لكونها تجعل من "الأحكام المسلّم بها والأحكام غير المسلّم بها عناصر تنتمي إلى كلّ واحد يجمع بينهما بحيث لا يمكن التّسليم بأحدهما دون أن يسلّم بالآخر"[٤].

---

(١) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٥٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٨.
(٣) المصدر نفسه: ٧١.
(٤) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣١.

لذا سنسلّط الضّوء على أهمّ ما في هذه الاتّصالات الحجاجيّة ومدى تأثير حججها، الّتي وظّفها خطباء الفرق المتصارعة في مناظراتهم وخطاباتهم في ذلك العصر، وما كان لها من أثر في بناء الخطاب الحجاجيّ، واستمالة النّاس له، لتمرير الأفكار والآراء بشكلٍ إقناعيّ يتجاوز كلّ الخطوط الاعتراضيّة للمخاطبين.

## المبحث الأوّل

## بلاغة الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع( التّعاقب، التّعايش ).

تعمل هذه الحجج على توجيه بوصلة الخطاب نحو جمع عناصر من الواقع في علاقة معترف بها، ومقرور بصحّتها، حتّى يتسنّى للخطيب أن يُؤسِّس عليها حجاجًا يُسمح له بالمرور ممّا هو مقبول إلى جعله ينفذ، ومعنى ذلك أنّها تقوم على علاقات لها حضور في الواقع، والّتي تُحظى بنوع من الاتّفاق من المخاطبين، ولهذا يتعمّد الخطيب إلى جعلها منطلقًا لبلورة حجاجه في اتّجاه معيّن ليفضي إلى الإقناع[١]، ومن هنا يظهر أنّ هذا النّوع من الحجج لا يرتكز على أساس المنطق، بل يتأسّس على التّجربة، والعلاقات الحاضرة بين العناصر المكوّنة للعالم، ويؤدّي وظيفة التّفسير والتّوضيح، التّفسير للأحداث والوقائع، والتّوضيح للعلاقات الرّابطة بين عناصر الواقع وأشيائه[٢]، فالخطاب الحجاجيّ في هذا الموضع يسعى إلى الرّبط بين أحكام مسلّم بها، وأحكام يسعى الخطاب لتأسيسها، وتثبيتها لجعلها مقبولة ومُسلّمًا بها بتقانة الرّبط الاتّصاليّ بين الظّواهر وبين نتائجها ومسبّباتها[٣]، ولهذا تبدو هذه الحجج أكثر إيغالًا في نفوس المخاطبين، وأشدّ إقناعًا لهم، ومن ثمّ يكون الخطاب الحجاجيّ فيها أكثر نجاعة، وأقدر على الفعل في المتلقي والتّأثير فيه، كلّما وافقت مراجعه وعناصره الواقع[٤].

وفي الحقيقة أنّ هذا النّوع من الحجج له أشكال وأنواع كثيرة، وعلاقات مختلفة تربط بين عناصره، ولهذا سنقف عند أهمّها، ومنها:-

---

[١] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧١.
[٢] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢١٤.
[٣] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣١-٣٣٢.
[٤] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢١٤.

## ١-التّعاقب(التّتابع):

تعتمد الحجج في هذا النّسق على ربط ظاهرة ما بأسبابها، أو بنتائجها، ونكون عندها أمام ثلاثة أضرب من الحجاج:

-حجاج يسير في اتّجاه البحث عن أسباب ظاهرة ما، فإذا كان الأمر متعلّق بأفعال مقصودة؛ يكون البحث عن الأسباب مصحوبًا بالبحث عن دوافعه.

-حجاج يهدف إلى تحديد آثار ظاهرة ما.

-حجاج يرمي إلى تقييم حدث ما بواسطة نتائجه.

ويظهر من ذلك أنّ الحجج المرتكزة على علاقة التّعاقب، هي الحجج الآتية:

### أ-الحجّة السّببيّة:

ويقوم هذا الصّنف من الحجج على العلاقات السّببيّة الّتي تربط بين أحداث لها سمة التّعاقب والتّتابع، وتستهدف الرّبط بين كلّ تلك الأحداث المتتابعة برابط سببيّ يصل بينها، ويقدّم (أوليفي روبول) لهذه التّقانة الاستدلاليّة مثالًا على آليّة عمل هذه الحجّة"إذا كان جيش ما يملك دائمًا معلومات دقيقة حول العدوّ فإنّنا نستنتج أنّ المخابرات عنده ممتازة، وأنّها ستظلّ كذلك دائماً"[١]، ويرى أحد الباحثين أنّ للوصل السّببيّ ثلاثة ضروب من الحجاج:

-حجاج يحيل على الرّبط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببيّ، مثال: اجتهد فتنجح.

-حجاج يرمي إلى أن يُستنتج من حدثٍ ما قد وقع سببٌ قد أحدثه وأدّى إليه، مثال:نجح لأنّه مجتهد.

---

[١] الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢١٥.

-حجاج يستهدف التّكهّن بما سيُنجز عن حدثٍ ما من نتائج، مثال: هو يجتهد فسينجح[1].

هذا الرّبط السّببيّ له اتّجاهين: الأوّل يمرّ من السّبب إلى النّتيجة، والثّاني يمرّ من النّتيجة إلى السّبب، وقد حضرت هذه الحجّة في مختلف خطب الفرق والأحزاب في العصر الأمويّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(ع) في الرّدّ على الوليد بن عقبة بن أبي معيط(٦١هـ)، الّذي حاول النيل من الإمام عليّ(ع) في مجلس معاوية، إذ قال الحسن:**"وأمّا أنت يا وليد، فوالله ما ألومك على بغض عليّ، وقد جلدك ثمانين في الخمر، وقتل أباك بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله صبرًا، وأنت الّذي سمّاه الله الفاسق وسمّى عليًّا المؤمن..."**[2].

يتّجه الحسن في خطبته إلى تسويغ الموقف السّلبيّ من الوليد تجاه الإمام عليّ(ع)، ليدعم بذلك خطابه بشحنة حجاجيّة تستند إلى الحجّة السّببيّة، التي وضّحت الرّابط السّببيّ لطبيعة ذلك الموقف المعادي لتلك الشّخصيّة، فالحسن يسوّغ له ذلك حينما جعل للبغض أسبابًا ومسوّغات؛ لأنّ الإمام قد جلده ثمانين جلدة في عهد عثمان بعد سكره في مسجد الكوفة، فضلًا عن هلاك أبيه بسيف ذي الفقار، ولهذا نرى أنّ هناك معنى الترفّع والتّسامي عن لوم الوليد، وعمّا أبداه من كره وحقد على آل عليّ، وهذا من شأنه أن يجعل المخاطب في موقف ضعيف الحجّة والحيلة، ممّا يدفعه إلى الإقرار بصحّة الخطاب الحسنيّ، ولكي يزيد الإمام الإيلام وشدّة الوقع في نفس الوليد أمام الملأ في مجلس معاوية، عمد إلى تذكيره بأنّه الفاسق بشهادة السّماء، في حين شهدت لعليّ(ع) بالإيمان، وقد سارت خطبة التوّاب

[1] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٢-٣٣٣.
[2] جمهرة خطب العرب: ٢٨-٢٩.

المسيّب بن نجبة(٦٥هـ) في الرّدّ على إبراهيم بن محمّد بن طلحة(١١٠هـ) على نسق مشابه لهذه الخطبة، وما قلناه أعلاه ينطبق عليها تمامًا[١].

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة الحسين(ع)، قوله:**"أيّها النّاس: إنّها معذرة إلى الله عزّ وجلّ واليكم، إنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم أن أقدم علينا، فإنّه ليس لنا إمام، لعلّ الله يجمعنا بك على الهدى..."**[٢].

يبدو واضحًا كيف بنى الحسين خطابه الاحتجاجيّ على مبدأ التّعاقب، فهو يربط بين حدث المجيء إلى العراق بالرّابط السّببيّ الّذي يبرّر قدومه، وهو توالي كتب الاستدعاء والاستقدام، وقدوم الرّسل إليه في الحجاز، وطالبته بأن يكون إمامَ أهل العراق، ويرى الباحث أنّ الحسين قد قدّمَ وأخّرَ في سلسلة أقوال الخطبة لزيادة التّأثير النّفسيّ على السّامعين، ومدّ حجّته بطاقة إقناعيّة، وكأنّ أصل الكلام هو(أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم، فأتيت إليكم)، وهذا الخطاب كما يظهر يسير على نسق حجاجيّ تعلّق بدوافع المجيء بحجّة سببيّة مهمّة ارتبطت بكتب أهل العراق ورسله، فضلًا عن إثارة مشاعرهم، واستنهاض هممهم، وإلقاء الحجّة عليهم، وتذكيرهم بعهودهم ومواثيقهم، الّتي كانت تطالب الحسين وتدعوه إلى القدوم إلى أمصارهم، وكأنّي بالخطيب يتساءل لماذا دعوتموني إذا لم تكوني على صدق ويقين من نصرتي، فسياق الخطاب وإن كان يظهر بطابع الحوار مع المخاطبين إلّا أنّه ضمنيًّا كان يبتغي تنديد تثاقلهم المتوقع وخذلانهم المرير؛ ممّا زاد من ضراوة الخطاب، وتأثيره في نفوسهم، بعد أن التحمت سلسلة الخطاب بروابط سببيّة منطلقة من ذوات المخاطبين.

---

(١) ينظر:جمهرة خطب العرب: ٦٦.
(٢) المصدر نفسه: ٤٦.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين، فهذا معاوية يربط أخذ البيعة ليزيد من بعده بوقائع سابقة، قوله:"**أيّها النّاس: قد علمتم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قُبض ولم يستخلف أحدًا، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه فلمّا حضرت الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنّة نبيّه، فلمّا حضرته الوفاة رأى أن يجعلها في ستّة نفر اختارهم من المسلمين، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كلّ ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد، لما وقع النّاس فيه من الاختلاف، ونظرًا لهم بعين الإنصاف"**[(١)].

الشّاهد في الخطبة قوله:"**فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد، لما وقع النّاس فيه من الاختلاف...**"، فلا يخفى على القارئ أنّ معاوية جعل من مقدّمة خطبته لوحةً من الذّرائع السّببيّة والدّوافع الحجاجيّة، الّتي تثبت صحّة رأيه، وصواب صنيعه في أخذ البيعة ليزيد، وقد وظّفها بروابط سببيّة، وحججًا دامغة في محاولة إقناع المخاطبين، وزيادة إذعانهم وقبولهم بتولّي يزيد خلافة المسلمين من بعده، إذ إنّ هذا الاستدراج انتهى إلى نتيجة أفادت بضرورة خلافته خدمةً لمصالح المجتمع الإسلاميّ، وتحقيقاً للإنصاف، فهو خطاب حجاجيّ يسير في اتّجاه تسويغ الدّوافع للقيام بهذا الأمر، ويستهدف التكهّن بما سيكون عن هذا التّنصيب من نتائج تخدم المسلمين كما يرى الخطيب، ويبدو أنّ كلّ ما أورده الخطيب في مقدّمة الخطبة كان تأطيرًا لصالح رأيه، إذ وظّف رموزًا دينيّة تتحلّى بسلطة في نفوس الجمهور لتدعيم الأطروحة الّتي يريد إطلاقها، فيرى (فيليب بروطون) أنّ استخدام حجج السّلطة والرّموز تكون عادةً في ظروف حرجة، وأوضاع صعبة بهدف أن نقنع الآخر بما نريد

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢٥٩.

ونرغب به[1]، ليسعى بذلك إلى الدّفاع عن هذا الأمر، إذ إنّ إلحاحه على ذكر تلك الأحداث السّابقة كان يستهدف اجترار أذهان سامعيه وعواطفهم إلى ما يبتغيه، تمهيدًا لاستقطاب قناعاتهم، وكسب تأييدهم لذلك التّنصيب، فالخطاب السّياسيّ يهدف إلى جعل المتلقّين يعتقدون أنّ ما سيكون منبثقًا من تشخيص مصالح المسلمين، فضلًا عن سيره على خطى النّبيّ(ص) وصحابته الأخيار، فيرى الباحث أنّ معاوية استطاع أن يخلق جوًّا حميميًا بينه وبين المتلقّين بسرد تلك الوقائع ليمرّر بعد ذلك طروحته، بعد أن حرّك أهواءهم، ليكون خطابه أشدّ إقناعًا، وأكثر تأثيرًا بصناعة الإذعان والتّيقين.

وحتّى تتحقّق المنافع الكبرى للمسلمين؛ ألزم الخطيب نفسه في مطالبة المجتمع الإسلاميّ بمبايعة يزيد، في خطبة بُنيت على سلسلة حجج سببيّة قد تكون خفيّة على القارئ، ولكنّها أسهمت في نجاعة الخطاب لتسديد ما سعى إليه الخطيب من المقاصد المبتغاة، بدليل أنّها انتهت بتقانة الحجّة السّببيّة، الّتي سوّغت الدّعوى بالمبايعة للابن، إذ أطلق النّتيجة"رأيت أن أبايع ليزيد"[2]، ليمرّ بعدها بالأسباب والحجج السببيّة بشكلٍ متتابع، السّبب الأوّل:" لما وقع الناس فيه من الاختلاف"[3]، ليوهم المتلقّين بأنّ ذلك سيدرأ الفتن والخلافات، والسّبب الثّاني:" نظرًا لهم بعين الإنصاف"، أي: عملًا للإنصاف تقرّر تنصيب يزيد لخلافة المسلمين، ولا شكّ أنّ لخطباء العصر الأمويّ قدرات جبّارة في تمرير أفكاره تحت ذرائع مختلفة، كالّذي جاء به معاوية في هذه الخطبة.

---

[1] ينظر:الحجاج في التواصل: ٨٢-٨٣.
[2] جمهرة خطب العرب: ٢٥٩.
[3] المصدر نفسه: ٢٥٩.

ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز(رض)، قوله:" **أيّها النّاس، أصلحوا سرائركم، تصلح لكم علانيّتكم، وأصلحوا آخرتكم، تصلح دنياكم، وإنّ امرأ ليس بينه وبين آدم أب حيّ لمعرق في الموت**"[١].

عرض عمر بن عبد العزيز خطابه الوعظيّ على وفق هذه الصّورة، فهو يربط الأمور بشكلٍ تتابعيّ جليّ وواضح للمتلقّي، إذ جعل من صلاح السّرائر سببًا لإصلاح ظاهرهم، وصلاح آخرتهم سببًا لإصلاح دنياهم، من قبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والمسارعة إلى فعل الخيرات، وأعمال البرّ، بوصفها جسرًا إلى الصّلاح الدّنيويّ، فالرّابط السّببيّ أسّس خطابًا حجاجيًّا منح قائله قوّة إقناعيّة لحمل الجمهور على الفعل، لاسيّما أنّه ركن إلى التّرغيب بالنّتائج بعد المرور بالأسباب، ممّا دفع المخاطبين إلى الاعتقاد بأهمّيّة تلك الأعمال والأفعال، كونها تنطلق من رؤية دينيّة محضة أفرزت مناخ الاستهواء، فهذا من قادهم لقبول الرّأي العمريّ، والاندماج معه بصورة إيجابيّة، بعد أن أثار الخطيب أهواءهم بتقانة (الباتوس الإيجابيّ) بالتّضافر مع(اللوجوس الخطابيّ) من أجل قبول دعواه، ووجهة نظره، إذ يقول (أرسطو) عن (الباتوس): إنّه الأحوال الّتي يكون عليها الجمهور عندما يثير الخطاب انفعالاتهم، وتلك الانفعالات هي التّغيّرات الّتي تجعل النّاس يغيّرون رأيهم وأفعالهم، وكلّ شيء يتعلّق بأحكامهم، وعادةً ما تكون مصحوبة باللذة والمشاعر المختلفة، الّتي تقضي في نهاية الأمر إلى الإذعان والتّسليم للخطاب[٢]، وهذه إحدى صور الاشتغال الحجاجيّ، الّتي دائمًا ما يتحصّن بها الخطيب، ليتّشح خطابه بالطّابع الإقناعيّ، ويُحظى بالمقبوليّة والمصداقيّة ولاسيّما إذا ما كان يثير العاطفة والانفعال بأمور مثل صلاح الآخرة بالنسبة إلى الإنسان المسلم.

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٢٠١.
[٢] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٥٨.

ولم تغب هذه الثّقانة عن خطب الزّبيريين، فذلك عبدالله بن الزّبير يخطب قائلًا بعد مقتل أخيه مصعب: **"إنّ مصعبًا قدّم أيره، وأخّر خيره، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة، وترك حلبة أهل الشّأم؛ حتّى غشيته في داره، ولئن هلك مصعب إنّ في آل الزّبير خلفًا منه"**(١).

يبدو لي أنّ عبدالله بن الزبير يشير إلى الرّبط بين طبيعة صنائع مصعب وأفعاله، وبين حادثة قتله في العراق، فهو يرى أنّ انشغال أخيه بالأمور الغريزيّة، وعدم التّيقّظ لما يُحاك من مؤامرات أهل الشّأم، وتحشّد جيوشهم سببًا أفضى إلى غزوهم داره، وقتله فيما بعد ذلك، فهذه الحجّة الاتّصاليّة أبانت عن حادثة القتل والعلاقة بينها وبين مسبّباتها، والّتي وضّحت طبائع شخصيّة مصعب، الّذي انشغل بأمور جعلته ضحيّة سهلة المنال، ولقمة سائغة بيد أهل الشّأم، الأنصار المخلصين للأمويين.

فالخطيب كما يظهر يعلّل سبب هلاك أخيه ويبرّره، وبنمط حجاجيّ إقناعيّ قائم على التّرابط السّببيّ، ولكنّنا نرى أيضًا أنّها دعوة في الوقت نفسه إلى أنصار الزّبيريين في الحجاز للعزوف عن الملذّات، والغرائز، والرّغبات، والتّفطّن لما يُحاك ضدّهم من مؤامرات ودسائس، ولهذا أشار ابن الزّبير في آخر خطبته إلى أنّ هنالك من هو خلف لمصعب، وكأنّها إشارة إلى بقيّة زبيريّة صالحة تتمثّل في ذات الخطيب، وتختلف تمامًا عمّا كان عليه مصعب في حياته.

وقد حضرت الحجّة السّببيّة في خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في مقطع من خطبة المستورد بن علفة المتوفى (٤٣هـ): **"إذا أفضيت بسرِّي إلى صديقي فأفشاه لم ألمه، لأنّي كنت أولى بحفظه"**(٢).

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ٤٤٢.

يتبنّى المستورد آليّة التّتابع ليؤسّس لخطابه البعد الحجاجيّ القائم على الرّابط السّببيّ، فهو يرمي إلى أنّ الإفشاء ما كان ليكون لو أنّه احتفظ بسرِّه لنفسه، كونه الأولى بالحفاظ عليه، فيجعل من حدث الإفضاء السّبب الرئيس لانتشار أسراره، وكما يبدو أنّه سلك الضّرب الثّاني من تقسيمات الدّكتور عبدالله صولة للوصل السّببيّ، الّذي يُستنتج من أنّ حدثًا ما وقع نتيجة لسبب أحدثه وأدّى إليه[١]، وفي الحقيقة هذا ما منح لهذا الكلام الوعظيّ بلاغة في الإقناع، وحمل المتلقين على العزوف عن البوح لأسرارهم الشّخصيّة.

وجاء أبو حمزة الشّاري ليوظّف هذه التّقانة الحجاجيّة في خطبة بتقريع أهل المدينة، قوله: **"...وأنتم أهل الضّلالة والجهالة، استعبدتكم الدّنيا فأذلّتكم، والأماني فأضلّتكم، فتح الله لكم باب الدين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدّنيا ففتحتموه، سِراعٌ إلى الفتنة، بطاءٌ عن السّنّة، عميٌ عن البرهان، صمٌّ عن الفرقان..."**[٢].

إنّ تهجّم الشّاريّ على أهل المدينة ووصفه إيّاهم بـ(أهل الضّلالة والجهالة) قائم على رابط سببيّ حجاجيّ، سوّغ هذا التّهجّم، فانقياد نفوسهم لملذّات الدّنيا وشهواتها، كان رابطًا سببيًّا فسّر به إذلالهم وهوانهم، كما أنّ طول آمالهم وتعلّقهم بأمنياتهم، ورغباتهم الدّنيويّة كانت سببًا في انحرافهم عن الصّراط، وحقيقةً أنّ هذه الجرأة كانت تُحسب للخوارج في خطابهم مع الآخر، فهم لا يجيدون لغة الملاطفة والموارية والمداهنة، وإنّما يعمدون إلى البيان والمجاهرة بمعايب خصومهم، وإظهار مطاعن أعدائهم ومثالبهم بلا هوادة، ولا يخفى علينا أنّ اشتغال آليّة التّعاقب السّببيّ كان موفّقًا بالتّنديد والتّثريب، وتحقيق التّيقين والإذعان في نفوس المخاطبين، إذ ألقى الخطيب عليهم الحجّة الواضحة المتسبّبة باستذلالهم وضعفهم،

---

[١] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٢-٣٣٣.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٤٧٩.

الّتي خيّمت على نفوس المجتمع المدنيّ آنذاك، الّذي ابتعد عن سبل الهدى والرّشاد، وناقض المسار الّذي سار عليه آباؤهم من الصّحابة الأكرمين.

ويرى الدّكتور محمّد مشبال أنّ الهجوم على الآخر(الخصم) فيما سمّي بحجّة (آدهومنيم) يعدّ وسيلة من وسائل بناء إستراتيجيّة (الإيتوس)؛ أي إنّها حجّة مكمّلة لحجّة مشاعر الخطيب وأهوائه، أو صورتها السّلبيّة في الخطاب[1]، من أجل بناء خطاب تيقينيّ حجاجيّ.

**استعبدتم الدّنيا ---رابط سببيّ انتهى إلى ----إذلال**

**الأماني--------رابط سببيّ انتهى إلى -----ضلال**

ويبدو لنا أنّ اتّهام الخطيب لأهل المدينة بسدّ أبواب الدّين، وفتح أبواب الدّنيا، ومسارعتهم إلى الفتنة، والصّدّ عن السّنّة، كان تعنيفًا في غاية التّأثير، فهم لم يعودوا يبصرون البرهان، ولا يقرؤون القرآن، وهذا من شنائع الأفعال، وفظائع الأعمال، الّتي أوحت لهم بضرورة تأمّل حالتهم النفسيّة، والخضوع التامّ لمضامين الخطاب الخارجيّ.

## ب-الحجّة البرغماتيّة(النفعيّة):

ينظر (بيرلمان) إلى هذه الحجّة بوصفها حجّة النّتائج، الّتي تقوم بتقييم الفعل، أو الحدث، أو القاعدة أو أيّ شيء آخر تبعًا لما سيحدث من نتائج إيجابيّة أو سلبيّة[2]، وتُحظى بأهمّيّة كبرى في الخطاب الحجاجيّ، فهي بالنسبة إلى (بنتام)"الحجّة الوحيدة الصّالحة حين يتعلّق الأمر بتبنّي معيار ما"[3]، نظرًا لما سبق نرى أنّها

---

[1] ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢١٩.

*حجّة آدهومنيم:هي حجّة مقبولة تمامًا بشرط أن تدعمها الوقائع، وتقوم على الربط بين موقف ما وبين نتائجه.

[2] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٢.

[3] المصدر نفسه: ٧٤.

تقوم على الاستدلال بالنّتائج إلى درجة أنّه لا تحتاج لتبرير، فالنّتائج عادةً ما تكون معاينة، أو متوقّعة محقّقة، أو محتملة[١]، وهذا ما يمنحها طاقة إقناعيّة تحمل المتلقّي على الإقرار والتّسليم، فمدار عمل هذا النّوع من الحجج إذن يرتكز على تثمين حدث ما بذكر النّتائج، وبهذا لا يكون المقصود منها مجرّد التّثمين بل وتوجيه العمل أيضًا[٢]، وحضرت هذه الحجّة في خطب العصر الأمويّ كثيرًا، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(ع) في الرّدّ على مستنكري الصّلح، قوله**:" أمّا بعد: فإنّكم شيعتنا وأهل مودّتنا، ومن نعرفه بالنّصيحة والاستقامة لنا، وقد فهمت ما ذكرتم، ولو كنت بالحزم في أمر الدّنيا، وللدّنيا أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس منّي وأشدّ شكيمة، وكان رأيي غير ما رأيتم، لكنّي أشهد الله وإيّاكم أنّي لم أرد بما رأيتم إلّا حقن دمائكم، وإصلاح ذات بينكم، فاتّقوا الله، وارضوا بقضاء الله، وسلّموا لأمر الله، والزموا بيوتكم، وكفّوا أيديكم، حتّى يستريح برٌّ، أو يُستراح من فاجر؛ مع أنّ أبي كان يحدّثني أنّ معاوية سيلي الأمر، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشّجر ما شككت أنّه سيظهر"**[٣].

محل الشّاهد في قوله:**"لكنّي أشهد الله....إلاّ حقن دمائكم، وإصلاح ذات بينكم"**، فلجوء الإمام إلى الكشف عن النّتائج الإيجابيّة المترتّبة عن وقوع الصّلح ودوافعه كانت في غاية الأهمّيّة الإقناعيّة، إذ أعطى للخطاب حجّة جليلة القدر، استمدّت قوّتها من قدسيّة الدّماء، الّتي أراد الحسن حقنها، والحفاظ عليها من الهتك والسّفك، فضلًا عن إصلاح الشّرخ الحاصل بين أصحابه وأتباعه، ليوجّه الأتباع على التمسّك بأوامره، والاقتداء به، وإخماد نيران نفوسهم المضطرمة نحو الحرب، وأزعم أنّ الطّاقة الحجاجيّة الضّاغطة أخذت بعدًا ثانيًا، ذلك الّذي يسمّيه (بيرلمان)

(١) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٤.
(٢) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٣.
(٣) جمهرة خطب العرب: ١٦.

بالتّوجيه السّلوكيّ للمخاطبين، فالحجّة هنا وإن هلهلت حجج خطاب الأتباع شكلًا ومضمونًا، إلّا أنّها راحت تعطي قيمة تقويميّة لسلوك مستنكري الصّلح، فتوجيه الخطيب إيّاهم إلى تقوى الله والرّضا بقدره، والتّسليم لأمره، كان خطابًا إصلاحيًّا وتوجيهيًّا لهؤلاء المستنكرين، أسهم في تزايد نجاعة الخطاب وحملهم على الفعل، والاعتقاد بجدّية الصّلح، وصواب القرار الحسنيّ السّياسيّ، لاسيّما أنّه ختم خطبته بأنّ هذا الأمر واقع لا محالة، ومعاوية سيتبوّأ الخلافة ولو سار إليه بالجبال والشّجر، وذلك ما أنبأه به والده أمير المؤمنين قبل استشهاده، وهذا الأمر إنّما هو حكم السّماء، وقضاء الله، ولا مردّ لقضائهن ولا معقب لحكمه، والإيمان بهذه الأشياء من الحقائق الثّابتة في نفوس المسلمين جميعًا، أثبتها الله في محكم كتابه، وحثّ عليها نبيّهم، ويظهر أنّ الإمام أشار إلى أصحابه بأنّه" يتلقى المعارف والأحكام الإلهيّة، وجميع المعلومات من طريق النّبيّ، أو الإمام من قبله، وإذا استجدّ شيء لابدّ أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوّة القدسيّة الّتي أودعها الله تعالى فيه، فإن توجّه إلى شيء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقيّ لا يخطأ فيه"(١)، فالخطاب الحسنيّ أفلح في تبكيت حجّة المعترضين على الصّلح، وتخطّي دفاعاتهم الحجاجيّة، فرجّح كفّة رأيه على رأيهم، ودفعهم إلى التّسليم والتّيقين، فضلًا عن توجيههم لأمور رسمها الخطيب في خطبته بناءً على النّتائج الإيجابيّة المترتّبة عن ذلك الصّلح.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في نصيحة محمّد بن الحنفيّة(٨١ هـ) في محاولة لمنع الحسين(ع) من الذّهاب إلى العراق، قوله**:" إنّي أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار، وتأتي جماعة من النّاس، فيختلفوا بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى**

---

(١) تيارات الفكر الإسلامي: ٢١٦.

**عليك، فيقتتلوا فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأمّة كلّها نفسًا وأبًا وأمًّا أضيعها دمًا، وأذلّها أهلًا"**[١].

يبني ابن الحنفيّة خطابه التّحذيريّ الحجاجيّ على الأثر السّلبيّ من نتائج الذّهاب إلى تلك الأمصار، التي دعت لاستقدام الحسين للثّورة ضدّ الأمويين، فالخطيب لا يأمن لأخيه الخروج إليها، خوفًا من انشطار عصا الدّاعين له، فيقع الاختلاف فيما بينهم، فيكون أوّل ضحايا السّيوف، فضلًا عن النتائج السّلبيّة الأخرى من ضياع دم خير الأمّة، ووقوع أهله تحت سياط الذّلّ والاستعباد في حال تلبية نداء الاستدعاء والاستقدام، فالخطاب اتّشح بغطاء حجاجيّ قائم على النّتائج الواقعة من الخروج، والأثر المترتّب عليه، ليكفّ به إرادة الحسين، إذ تعدّ هذه الحجّة من أهمّ وسائل الخطاب الحجاجيّ؛ لما لها من تأثير مباشر وعميق في توجيه السّلوك؛ لأنّ الاستدلال بالنّتائج لا يحتاج بالضّرورة إلى تبرير، فالمخاطب يراها ماثلة تتحقّق أمامه، وهي كفيلة بصناعة الإقناع، وتبنّي وجهة نظر الخطيب[٢]، وحقيقة الأمر أنّ هذا النّصح كان مقنعًا للغاية لو كان المتلقّي غير الحسين، فهو ليس من باب التّنبؤ، وقد حدث ذلك فعلًا، ولكنّ كما قلنا في موضع سابق أنّ الحسين مع علمه بذلك مُلزمٌ به، وهو تكليف شرعيّ كما يرى العلويّون، فالإمام منوّط بمهام دينيّة، تنبع من معين النّبوّة تكفل للرّسالة الإسلاميّة الدّيمومة والاستمرار، وإن كان ذلك على حساب أرواحهم، وأجسادهم، وأهلهم، وأموالهم، وهذا ما شهدته واقعة كربلاء فعلًا، فالارتباط واضح بين الإمامة والالتزامات الشّرعيّة المنوّط بها، ولا يمكن له أن يتخلّف عنها في أيّ حال من الأحوال؛ لكي يضمن للدّين الإسلاميّ البقاء والوجود

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٣٥.

(٢) ينظر:رسائل ابن أبي الخصّال(دراسة حجاجية) ،أطروحة دكتوراه، حسن عفات غضيب، كلية الآداب-الجامعة المستنصرية، ٢٠١٩: ١٣٦.

في نفوس الأمّة، وقد جاءت خطبة ابن عبّاس مشابهة لهذا النّسق في نصيحته للحسين[١]، وما قلناه هنا ينطبق عليها تمامًا.

وهذا النّسق كثير الحضور في خطب العلويين؛ لأنّه ينفتح على مشاهد واضحة للمتلقي بعد أيّ موقف أو حدث معيّن، ممّا يجعل المخاطبين في حالة إيمان ويقين بما يأتي به الخطيب بناءً على ما يترتّب من نتائج نافعة، أو مضرّة، ولاسيّما في خطب الحسين، الّذي كان يرى أنّ البقاء مع الإقرار بولاية يزيد ما هو إلّا ذلّة وعبوديَّة وبرما، والشّهادة في سبيل الله ما هي إلّا فوز ومجد كتبها الله لآل بيت النّبيّ، ولعلّ خير مصداق على ذلك قوله في إحدى خطبه:**"فإنّي لا أرى الموت إلّا شهادة، ولا الحياة مع الظّالمين إلّا برما"**[٢].

ومن خطب العلويين الّتي سارت على هذا النّسق الحجاجيّ، ما جاء في خطبة الأحنف بن قيس التميميّ(٧٢هـ) في نصيحته لقومه، قوله:**" يا بني تميم تحابّوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم، يصلح لكم دينكم، ولا تغلّوا يسلم لكم جهادكم"**[٣].

لا يخفى على القارئ أنّ التّميميّ ركن إلى توظيف حجّة المنفعة في جملة من النّصائح الموجّهة لقومه، وحتّى يضمن نجاعة الخطاب لجأ إلى استظهار النّتائج الإيجابيّة المكتسبة عن هذه الأفعال والأوامر، ليحملهم على العمل بها، وتحقيق الإذعان والتّصديق عليها من قبلهم، رغبةً لما يروه من أمور ماثلة تتحقق بأفعال التّودّد والسّخاء، وجهاد النفس، وهذا كلّه من شأنه أن يدفع السّامعين لتبنّي وجهة نظر الخطيب، والامتثال بوصاياه؛ نتيجةً للقوّة الإقناعيّة لتلك النّتائج المرضيّة،

---

[١] ينظر:جمهرة خطب العرب: ٤٢.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٤٧.
[٣] المصدر نفسه: ٣٥٨.

فضلًا عن توجيه وتقويم السّلوكيّات العامّة للقبيلة نحو ما يحقّق المنفعة الشّاملة، فالحجاج النفعيّ في الخطبة قائم على وفق الشّكل الآتي:

**الحبّ نتيجته اجتماع الكلمة.**

**البذل نتيجته اعتدال الأمور.**

**جهاد البطون والفروج نتيجته صلاح الدّين.**

**عدم الغلّ نتيجته سلامة الجهاد.**

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين، وقد كان حاضرًا بشكلٍ كبير جدًا؛ لأنّه يتيح لهم مساحة كافية لتهديد الرّعيّة الثّائرة على بلاطهم، وكبح جماح نفوس المعارضين، وتنفيرهم من الخروج، فضلًا عن وعيد الخارجين بالتّنكيل والثبور، ومن ذلك ما جاء في خطبة النّعمان بن بشير(٦٥هـ)، قوله:**"أمّا بعد، فاتّقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإنّ فيهما يُهلك الرّجال، وتُسفك الدّماء، وتُغصب الأموال"**[١].

كان خطباء الأمويين يعمدون إلى تسمية الثّورات بـ(الفتنة) لاتّخاذها حجّة على الرّعيّة، بأنّ ذلك ليس إلّا خروجًا على الحاكم الشّرعيّ، ومع هذا كانوا يصرّون على المجاهرة بالنّتائج السّلبيّة النّاتجة عن كلّ تمرّد أو ثورة على بلاط الخليفة، وهذا ما يفضي إلى إضفاء الطّابع الحجاجيّ القائم على قوّة السّلطة القامعة، والواعدة بسوء المصير للثوّار، في محاولة لصدّ سيل الانتفاضات المتعاقبة بالاستناد إلى التّلويح بالعواقب الوخيمة الّتي تنتظر الثوّار من سفك الدّماء وغصب الأموال، أي بمعنى أنّ ثمّة تلازمًا بين الخطاب السّياسيّ الأمويّ بوصفه خطابًا إيديولوجيًّا، وبين العنف اللفظيّ الكامن في خطبهم؛ فهو كما يرى (بول فاليري)

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٣٧.

خطاب يقوم على معارضة فكرة بلكمة بدل معارضتها بفكرة أخرى[١]، لترهيب المخاطبين وتهديدهم في حال انخراطهم مع المعارضين، ولعلّ هذه النّتائج تقدّم الذّرائع الكفيلة بتحقيق الإقناع، وتمرير رأي الخطيب، الّذي يوحي بانحراف مقاصدهم عن المسار الصّحيح كما يرى الخطيب، ليحضّ الرّاغبين بالخروج على الامتناع عن ذلك، والالتزام بتوجيهات الخطيب السّياسيّة والسّلوكيّة، واتّخاذ موقف يضمن لهم بقاء مصالحهم الخاصّة، بعد أن أومأ الخطيب بما سينجم من الفتنة والفرقة على وفق المسمّيات الخاصّة بالخطاب السّياسيّ الأمويّ، فالبلاغة المهيمنة على خطاب الأمويين هي بلاغة العنف، أو الحجاج بالتّرهيب؛ أي بما يُصطلح عليه بالبلاغة القديمة بإثارة الأهواء، أو (الباتوس)، ولكنّه كما يرى د.محمّد مشبال (باتوس) قسريّ لا تقوم الإستراتيجيّة الإقناعيّة فيه على الحوار مع الآخر، بل يسعى إلى كسب المنازلة الحواريّة بالعدوانيّة والوعيد بالممارسات القمعيّة، وبثّ الرّعب، وإقصاء الخصم في سبيل إرساء السّلطة، أو ترسيخ إيديولوجيّة معيّنة، فالفطرة البشريّة تخاف الشّرور الّتي تنزل بهم التّدمير والأذى الشّديد، والّتي تبدو عادةً قريبة، وواقعة محتملة[٢]، ولهذا نرى أنّ إثارة الخوف في نفوس السّامعين ناجعة في السّيطرة على توجيه سلوكهم وقراراتهم، وإقناعهم بدعوى الخطاب بإرغامهم على القيام بفعل ما، أو تغيير رأيهم تجاه موقف ما، ومن هنا نفهم لماذا جاء الخطيب بلغة العنف اللفظيّ في خطبته، ووعيد الثّائرين بقوّة العقوبات المحتملة ردًّا على أيّ موقفٍ سلبيٍ تجاه البلاط، فالفضاء اللغويّ للخطبة المُحاط بـ(الباتوس) وميول المتلقين ونوازعهم، المثير لانفعالاتهم النّفسيّة حقّق الإذعان، فلا شكّ أنّ الدّماء مقدّسة، والأموال أثمن الأشياء على الإنسان، والتّهديد بسفكها وزوالها يعمل

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٨٢.
[٢] ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٢.

على خلق رعشة الخوف والتّثاقل في قلوب المجتمع الكوفيّ، ممّا يجعلهم يوقعهم تحت نطاق سيطرة نفسيّة تامّة تحرّكها بوصلة إرادة الخطيب، وقناعاته الخاصّة.

ولهذا يقول(مايير): إنّ القدرة على الحجاج الجيّد، أي القدرة على صناعة الإقناع والتّيقين تقتضي المعرفة بما يمكن أن يحرّك الذّات الّتي يوجّه إليها الخطاب، أي معرفة ما يحرّك أهواءها، لتحقيق المقاصد المختلفة[١]، فهذا الحجاج المبني على العنف كان موفّقًا للغاية من الخطيب، لأنّه كان عارفًا بما يُثبّط من عزيمة هؤلاء القوم، الّذين خذلوا الحسين في ذلك العهد، وقد سارت خطبة عبيدالله بن زياد(٦٧هـ) على وفق هذا المنوال أيضًا، وفي الموقف ذاته في وعيد أهل الكوفة في حال نصرة الحسين[٢]،وما قلناه في هذه الخطبة ينطبق عليها كذلك.

قد أشرنا إلى أنّ هذه التّقانة حضرت بشكلٍ كبير جدًا في خطب الأمويين؛ نظرًا لأنّها تفسح لهم مجالًا واسعًا لتبكيت حجج الثّائرين، وتثبيط شكيمتهم بلغة التّهديد والوعيد، ونتائج التّأثير المعكوس بفعل النّهي لدفع الضّرر[٣]، إلّا أنّ ذلك لم يمنع من توظيفها في الوعظ والإرشاد، ومن ذلك ما جاء في وصيّة عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز(٨٦ هـ) حين ولّاه مصر، فقال:**"وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسّلام، يأنسوا بك، وتثبت في قلوبهم محبّتك، وإذا انتهى إليك مشكل، فاستظهر عليه بالمشاورة، فإنّها تفتح مغاليق الأمور..."[٤].**

أراد عبد الملك أن يشير إلى النّتائج الايجابيّة المكتسبة من القيام بأفعال يقوم بها عبد العزيز في مواقف مختلفة قد تصادفه في مجلسه، ليحمله على الفعل، والعمل

---

(١) ينظر:من بلاغة الخطاب إلى بلاغة الحجاج، محمد الولي، كنوز المعرفة، الأردن-عمان ، ط ١ ، ٢٠١٦ : ١٢٤.
(٢) ينظر:جمهرة خطب العرب: ٣٩.
(٣) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٦٣-١٦٤.
(٤) جمهرة خطب العرب: ١٩٨.

بهذه الوصايا السّلوكيّة، فكما نعلم أنّ أيّ حاكم يرغب أن يكون له في نفوس رعيّته وداد وألفة، ولهذا وجّهه للبدء بالسّلام في حال خروجه إلى المجلس، كما أنّه لا يريد أن يقع في مأزق الالتباس والتّحيّر في موقف ما يستوجب منه حكمًا، أو قرارًا محدّدًا؛ ونظرًا لذلك أرشده للأخذ بالمشاورة، الّتي سيترتّب عليها نتيجة إيجابيّة تفتح له مستعصيات الأمور في فضاء الحكم والولاية، ولا شكّ في أنّ هذا مدّ الخطاب بطاقة حجاجيّة لتحقيق الاعتقاد، فالخطيب تعمّد إلى ذكر النّتائج الّتي ستؤول إليها تلك الأفعال، ليجعل من المخاطب في حالة إذعان تامّ، وتسليم كلّي بصحة الدعوى، ليصنع نمطًا حجاجيًّا يظهر الأثر النّاجم عن موقف أو فعل معيّن(١)، ليتيح له الاتّفاق حول الغاية من تلك المواقف والأفعال انطلاقًا من نتائجها الايجابيّة أو السّلبيّة، فضلًا عن انطواء الخطاب على قيمة توجيهيّة وتقويميّة، من قبيل السّبق بالسّلام، والأخذ بالمشورة لتعود عليه بتلك النّتائج المفترضة، الّتي يسعى من خلالها الخطيب إلى إنتاج ممارسات تسهم في بناء الفوائد الشّاملة، وقد سارت خطبة مروان بن الحكم في نصيحته لابنه عبد العزيز(٨٦هـ) على وفق هذا المنوال الحجاجيّ أيضًا، وما قلناه هنا ينطبق عليها تمامًا(٢)، وكذلك الحال في خطب عمر بن عبد العزيز الوعظيّة، وغيرها من خطب البيت الأمويّ.

ولم يغب هذا الصّنف عن خطب الزّبيريين على قلّتها، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير صبيحة اليوم الّذي بات فيه الحجّاج على أعتاب أبواب مكّة، فأخذ يستنهض همم أصحابه، فقال:**"صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم؛ لا**

(١) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٥٩.
(٢) ينظر:جمهرة خطب العرب: ١٩١.

**أعلم امرأ كُسر سيفه، واستبقى نفسه، فإنّ الرّجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل..."**[١].

الأوامر العسكريّة الصّادرة من القادة قد تكون غير مؤثّرة ونافذة، ما لم تُشفع بحجج تحمل الجند على انجاز الفعل والامتثال بها، والالتزام بالتّوجيهات، فأمر عبدالله بصون السّيوف، والاستبسال بالقتال في منازلة تبدو غير متكافئة جدًا مع الجيش الأمويّ وفقًا للمعطيات؛ ولكنّه جاء متسلّحًا بجملة من النّتائج السّلبيّة المبنيّة على حالة انتزاع السّلاح من مقاتليه، فهو الموضع الّذي سيكون فيه المقاتلون بين أظفار المنيّة والموت؛ لأنّه عندها سيكون المقاتل في حال شبيهة بحال المرأة، بوصفه هدفًا مستساغًا لمرمى أسنّة الجيش الأمويّ، فالخطاب الحجاجيّ القائم على غاية الحفاظ على السّلاح لإدامة زخم المعركة، وتفادي النّتائج الضّارّة بالجيش الزّبيريّ، إذ يرى (بيرلمان) أنّ الحجّة البرغماتيّة مؤثّرة في توجيه الفعل، والحمل على الإذعان، لاسيّما في تبنّي موقف، أو حدث معيّن تبعًا للنّتائج المحتملة[٢]، فالحجّة النفعيّة قامت على إقناع الجند بالتمسّك والانضباط بالأوامر بناءً على وقائع خاتمة الانكسار المخيّب للآمال في حال وقوع ما حذّر منه الخطيب، فالنّتائج تمتلك قيمة حجاجيّة يُفترض أن يكون حولها اتّفاق، وواقع الأمر أنّ ما جاء به عبدالله بن الزّبير يَحظى بذلك، فكانت تقوم على التّوجيه والتّقويم لسلوك وتحرّكات الجند في الميدان لاتخاذ تدابير معيّنة، استجابةً لغايات يريدها القائد الزّبيريّ، لمواصلة القتال، والمضي في محاربة كتائب الجيش الأمويّ الجرّارة، وللمحافظة على النّفس قدر الإمكان.

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٨٠.

[٢] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٢.

وقد حضرت الحجّة النّفعيّة بشكلٍ كبير في خطب الخوارج، ولعلّ مردّ ذلك يعود إلى كثرة المجاهرة والبيان عن النّتائج الايجابيّة، الّتي يخرجون من أجلها في وقائعهم ضدّ خصومهم، فضلًا عمّا يُشاع في خطبهم من أجواء عباديّة ووعظيّة يدعون بها النّاس إلى الزّهد والتّقوى، والعزوف عن ملذّات الدّنيا وعدم الاطمئنان لها؛ ليذكّروهم بحسن العاقبة في حال انشغالهم بالعبادات والجهاد، واحتقار الحياة، والانصراف عن متاعها الزّائل، ومن ذلك ما جاء في خطبة قطريّ بن الفجاءة المتوفّى(٧٨هـ)، قوله:**"فانية فانٍ ما عليها، لا خير في شيء من زادها إلّا التّقوى، من أقلّ منها استكثر ممّا يؤمنه، ومن استكثر منه استكثر ممّا يوبقه، ويطيل حزنه، ويبكي عينيه، كم واثق بها فجعته، ذوي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي اختيالٍ فيها قد خدعته، وكم من ذي أبّهة فيها صيّرته حقيرًا، وذي نخوة قد ردّته ذليلًا، وكم من ذي تاج قد كبّته لليدين والفم، سلطانها دول..."**[١].

تتمحور خطب الخوارج حول مركزيتين أساسيتين:(الثّورة، والزّهد)، ولربّما جاء المحور الزّهديّ ليخدم المركزيّة الأولى بشكلٍ أو بآخر، من أجل تحرير نفوس المخاطبين من أصفاد مغريات الدّنيا ورونقها، ودفعهم للانخراط في الجيش الخارجيّ، ومع هذا نحن لا ننكر تلك الطّقوس العباديّة الثّقيلة الّتي أكهلت شبابهم كما يقول الشّاري، أمّا في هذا الموضع فجاء الخطيب واعظًا ومشفقًا، وكما هو معلوم يستمدّ الخطاب الدّينيّ بلاغته من ارتباطه بمقام تخاطبيّ يقوم على توجيه ضربات الوعظ إلى المخاطب[٢]، الّذي وُضع في موضع"الغافل المقصّر فيما يجب عليه"[٣]، فتذكير المخاطبين بفناء الحياة وما عليها، وحثّهم على التّقوى، وحملهم على الزّهد فيها، جاء لتأهيل الأذهان والقلوب لما سيأتي بعد ذلك، فبنى خطابه

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٥٥-٤٥٦.

(٢) ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٩١.

(٣) في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٤٣.

الحجاجيّ على جملة من النّتائج المتحققة حتمًا ليزيد من قوّة إقناع الخطاب الإرشاديّ، ونقل المتلقّي من موضع الغفلة والتّقصير إلى وضع العمل بالواجبات الملقاة على عاتقه، ومن ثمّ نقله من حيز الإيمان القلبيّ إلى حيز الممارسة الفعليّة في فضاء حجاجيّ وجدانيّ لحمله على العمل بما يؤمن به(١)، إذ يشير إلى دفعة من النّتائج الايجابيّة في حال الانصراف عن متاع الدّنيا، ويعكس الصّورة في حال الانغماس في ملذّاتها، فإذا كانت الحال الأولى تؤدّي لحسن العاقبة والخاتمة، فإنّ الثّانية تؤدّي لنتائج مغايرة، ويرى مشبال أنّ قوام الموعظة الدّينيّة خطاب قائم على إثارة الأهواء في المقام الأوّل(الباتوس) من خوف وحزن، ودهشة، وقلق ولذّة....الخ، من أجل التّأثير في الوجدان العاطفيّ، وإثارة النّوازع، والحمل على الأفعال(٢)، فحجّة المنفعة أبانت عن نتائج مقلوبة تحمل المتلقّين على الإذعان والتّسليم لدعوى الخطيب، كونها تنطلق من حتميّات وافتراضات متحققة على تجارب أمم سابقة لا يمكن إنكارها في حال من الأحوال، والّذي عضّد هذا الأمر توجّه الخطيب إلى مسار السّرد لصور كثيرة دارت حول الإنسان الّذي يركن للدّنيا، ونصوّرها على وفق الشّكل الآتي:

**أســـــبــــــــاب نتـــــــائــــج**

**واثـــــــــق بهـــا-------- فـــجعتـــــــــه**

**ذي طمــــأنينـــــــة-------صرعتـــــــــــه**

**ذي اختيـــــــــــال------ خدعتـــــــــــه**

**ذي أبّــــــــــــهة------- صيّرتــــــــه حقــيرًا**

**ذي نخــــــــــــوة----- ردّتــــــــه ذليـــلًا**

(١) ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٩١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩٠.

وفي الحقيقة أنّ هذه النّتائج لا مراء ستدفع السّامعين للتّسليم والإقرار بها، لما جاء فيها من عواقب مظلمة استمالت مشاعرهم، واستفزّت وجدانهم، بعد أن صوّر النّهايات الحتميّة لكلّ من آوى إلى الدّنيا ذات المتاع الزّائل، إذ يتّضح أنّ توظيف النّسق الحجاجيّ المبني على حجّة النّتيجة أتى لإثارة الأهواء (الباتوس) في نفوس السامعين لحملهم على قبول دعواه، وتبنّي وجهة نظره، فالمخاطب يتأمّل تلك الانتقالات والتّقلّبات المختلفة لأحوال الإنسان، والّتي أضفت على الخطاب نوعًا من التّأثير والقبول، فقطريّ بن الفجاءة نجح في توجيه رؤيتهم الفكريّة إلى الإيمان برسالة الخطاب، انطلاقًا من معرفة سيكولوجيّة الجمهور، وأحواله النّفسيّة وما يحرّكها ويؤثّر فيها، والعوامل الّتي تحقّق الانفعال لدفعهم إلى التّسليم بأحكام الدعوى، لاسيّما بعد أن جاء بإستراتيجيّة خطابيّة تحمل المخاطبين إلى جوّ الخوف والقلق بنتائج مثيرة للرّغبة والرّهبة في آنٍ واحد، وهي عماد الحجّة الّتي صاغها لتصوير الأحوال المختلفة للإنسان في حياته.

وأعتقد أنّ الخطيب اشتغل على تفعيل البعد العقديّ والنّفسيّ لشحن خطابه بأكبر طاقة حجاجيّة ممكنة، ولمّا كان الخطاب الخارجيّ يتحرّك على أوتار المسائل الدّينيّة؛ فإنّه لا ريب سيعتمد على برهنة الخطاب بإحدى الوسائل الإقناعيّة بغية الوصول للغايات المرجوّة، وردم الفجوات بينه وبين المتلقّين، لضمان الحصول على الاستجابة والتّنفيذ، فبلاغة الحجاج جاءت تدعو السّامعين للانسحاب من العالم الدّنيويّ، والانغماس في العالم الآخرويّ، فالحجاج قائم على أساس النّتائج الّتي سيجنيها كلٌّ من الجانح إلى الآخرة، والرّاغب في الدّنيا، ومن ذلك أيضًا ما جاء في مقطع من خطبة صالح بن مسرح(٧٦هـ)، قوله:" **ألا فبيعوا لله أنفسكم طائعين،**

**وأموالكم تدخلوا الجنّة آمنين، وتعانقوا الحور العين، جعلنا الله وإيّاكم من الشّاكرين الذّاكرين، الّذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون"[١].**

يسعى الخطيب إلى استمالة العاطفة، وتهييج الوجدان من خلال إقحام نسق التّرغيب بما سيلقى المتلقّون من جزاء وثواب عظيم، إذا ما نحروا أنفسهم لله طاعةً وعبادةً، وبذلوا أموالهم سعيًا إلى نيل رضوان الله، والتماسًا لحسن العاقبة، فهذه المفاهيم الدّينيّة تعمل على بناء أفعال سلوكيّة، أو ترسخ طقوسًا جهاديّة في حياة الخوارج توقًا إلى ملذّات العالم الآخر بأسلوب دراميّ مثير بمعانقة الحور العين وما شابه ذلك، فالنّتائج الايجابيّة تشعّ بالمفازات الكبرى المكتسبة من هذه الأعمال؛ لتضمن الحصول على رغبة السّامعين بها، فهي لا شكّ لها حجّة مقنعة وطاقة حجاجيّة مؤثّرة للغاية، استمدّتها من الأثر المترتّب على تلك الأفعال، فالجنّة والحور العين نتيجة كبرى، ومفازة أيما مفازة لدى الإنسان المسلم(الخارجيّ)، الّذي لديه رغبة مستعرة في فناء نفسه بالجهاد، وبذل ماله لله سبحانه وتعالى، وأعتقد أنّ كلّ إنسان لا يستطيع الصّمود أمام هكذا مكافآت حسّيّة ومتع جنسيّة تجنح لها النّفس وتطرب لها القلوب، وهذه وسائل خطابيّة تمارس ضغطًا فعالًا على الأهواء النّفسيّة، الّتي يروم الخطيب المرشد لإثارتها في وجدان الجمهور، لينجز بذلك الإقناع المطلق، والتّسليم التامّ؛ ليحملهم على الفعل، انطلاقًا من عنصر التّأثير الانفعاليّ القائم على دعوى لا خلاف عليها في أبجديات المجتمع الإسلاميّ؛ لأنّها أفكار سائدة وشائعة في الثّقافة الإسلاميّة، وتمثّل جزءًا من تفكير العقل الجمعيّ للمسلمين في شرائع الدّين الإسلاميّ وعقائده، من أجل توجيه بوصلة رغباتهم نحو هذه التّضحيات، وجعلهم يتّجهون بكلّ كيانهم نحو الذّات الإلهيّة والعالم الآخر[٢]،

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٦١.

(٢) ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٩٧.

والتخلّي عن عالمهم الدّنيويّ الزّائل انطلاقًا من التّأثير العاطفيّ الحجاجيّ للموعظة الدّينيّة.

ومن خطب الخوارج الّتي جاءت على وفق هذا المنوال، خطبة أبي حمزة الشّاري في تقريع أهل المدينة[١]، وحُظيت بغلبة لغة التّهديد والوعيد بناءً على نتائج سلبيّة، وعواقب وخيمة في حال نصرتهم لآل مروان.

## ٢-التّعايش(وجوه الاتّصال التّواجديّ):

ويقوم هذا الصّنف من الحجج انطلاقًا من علاقات تعايش بين الأشياء وترابطها، تصنع أحد الأسس الّتي يُبنى عليها الخطاب الحجاجيّ في البلاغة؛ فقد تتركّب القيمة الحجاجيّة من الحظوة الشّخصيّة الّتي يمتلكها شخص ما، أو مجموعة أشخاص، أو فئة معيّنة أو حتّى مفهوم ما أو سلطة ما على المتلقي، والّتي تسهم في بناء فعّاليّة الإقناع، وصياغة ثقافات جديدة[٢]، فالخطيب" يلجأ لسلطة أي مصدر؛ إمّا لدعم دعوى معيّنة، أو لتقييم وتأويل سلوك ما، أو حكم معيّن، أو قول صادر عن هذا المصدر، وإمّا للحضّ على محاكاة فعله"[٣]، لذا يتّجه إلى استعمال أنماط من الحجج المختلفة، فتعمل على مدّ الخطاب بطاقة حجاجيّة كما يرى (بيرلمان)، وتلك الأنماط هي:

### أ-حجّة الشّخص وأعماله:

لا شك أنّ لكلّ إنسان صفات تختص به دون غيره، وهو بطبيعته ينشئ أعمالًا وأحكامًا مختلفة تجاه الأشياء، يترتّب عليها تقويم الآخرين في ضوء تلك الصّفات

---

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٧٧.
(٢) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٣٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٣٣.

والأعمال والأحكام[١]، ولهذا يتبنّى علم" الأخلاق والقضاء مفهومي(الإنسان وأعماله) من حيث هما مفهومان مترابطان متواشجان لا فكاك لأحدهما عن الآخر"[٢]، فيحكمان على طبيعة العمل وعلى صاحبه في الوقت نفسه، إذ لا يمكن في أيّ حال من الأحوال الحكم على أحدهما دون الآخر؛ فالأعمال جزء من الإنسان، والعلاقة اتّصاليّة بين جوهر الشّخص وأعماله المتجليّة من ذلك الجوهر، فيرى (بيرلمان) أنّ هذه العلاقة لها أهمّيّة قصوى، فعلاقة الشّخص بالفعل المسنود إليه تعدّ الأنموذج الأصليّ لعدد كبير من روابط التّعايش[٣]، لذا يمكننا أن نبني الحجّة بناءً على علاقة التّعايش بين الأشياء، وهي علاقة حصرها بعض الباحثين في الذّات بصفاتها، أو الشّخص بأفعاله، وسنتمكّن عندها من بناء الحجّة انطلاقًا من هذه العلاقات، الّتي تتمثّل في تفسير حدث أو موقف ما، أو التّنبّؤ به في ضوء الذّات الّتي يعبّر عنها، أو يحيلها، أو يوضّحها[٤]، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن في الرّدّ على معاوية في مجلسه بعد أن تنقصه ملأ معاوية وشتموا أباه أمير المؤمنين، في قوله:**"اسمع يا معاوية واسمعوا، فلأقولنّ فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم، أنشدكم الله أيّها الرّهط أتعلمون أنّ الّذي شتمتموه منذ اليوم صلّى القبلتين كلتيهما، وأنت يا معاوية بهما كافر، تراها ضلالة وتعبد اللّات والعزّى غواية، وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه بايع البيعتين كلتيهما بيعة الفتح وبيعة الرّضوان، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث، وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه أوّل النّاس إيمانًا، وأنت يا معاوية وأباك من المؤلّفة قلوبهم، تسرّون الكفر وتظهرون الإسلام، وتستمالون بالأموال، وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنّه كان صاحب راية**

---

[١] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٤.
[٢] المصدر نفسه: ٣٣٤.
[٣] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٦.
[٤] ينظر:الحجاج في الشعر العربي: ٢٢٨.

**رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم بدر، وأنّ راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه؟ ثمَّ لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلّى الله عليه وآله، ومعك ومع أبيك راية الشّرك، وفي كلّ ذلك يفتح الله له، ويُفلج حجّته، وينصر دعوته، ويصدق حديثه، ورسول الله صلّى الله عليه وآله في تلك المواطن كلّها عنه راضٍ، وعليك وعلى أبيك ساخط..."[1].**

ولئن كان العمل يجلو جوهر الإنسان ويفسّره، اتّخذ الخطيب من الأعمال منطلقًا حجاجيًّا، لتبكيت حجج الخصوم ولاسيّما معاوية، والبيان عن أفضليّة عليّ(ع) على هؤلاء الرّهط ورئيسهم، فراح يُعدّد أعمال أبيه ويربطها بذاته؛ لتكون برهانًا تؤكّد منزلته في الإسلام، وعلوّ منارته وشأنه، فضلًا عن الإبانة عن مدى التّأثير السّلبيّ لأعمال الخصم على الدّعوة الإسلاميّة، ليرسّخ بذلك فضل الثّريّة على الثّرى، فأعمال الإمام يقرّ بها الأعداء قبل الأتباع، ولا يمكن لأيّ أحد أن ينكر ويعترض على تلك المناقب، فهي بلا شكّ حقائق ثابتة لدى الجميع، وهذا الضّرب من الحجاج تظهر الأعمالُ الشخصَ وتؤثّر في صورته، على نحو ما تنجلي صورته من الأعمال وتؤثّر فيها؛ لأنّنا نقيّم الأعمال في ضوء الصّورة الّتي تتمثّل بها الشّخص، كما نقيّم الشّخص انطلاقًا من ضوء أعماله[2]، ولهذا فالعلاقة بين الشّخص وأعماله علاقة تفاعليّة؛ لأنّنا نرسم صورته في أذهاننا بناءً على الأعمال الّتي يقوم بها، إذ يتمخّض عن هذه الأعمال الصفات الشّخصيّة، فكان الخطاب الحسنيّ ناجعًا في الكشف عن مدى عظمة شخصيّة أبيه ومجدها في الإسلام، ويقابل ذلك تقبيح صورة الخصم في أذهان الحضور نتيجةً لما بدر منه من أعمال سيئة للغاية إزاء الرّسالة السّماويّة ورسولها الكريم، فشتّان بين من صلّى القبلتين وبين من كفر بهما ونكثهما،

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٢٢-٢٣.

[2] ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٤٣.

وبين أوّل المسلمين إيمانًا وبين المؤلفة قلوبهم....، فما كان إلّا أن ينصر الله حجّة أمير المؤمنين ودعوته، وكسب رضا الله ورسوله، في حين نزل سخط النّبيّ على معاوية وأبيه نظرًا لما بدر منهما من أعمال مسيئة، تكفّلت في فضح صورتهما المضلّة في أيّام الدّعوة الإسلاميّة، وهذا كفيل بأن يثبت ما رام إليه الخطيب، وإنزال الإذعان والتّسليم في نفوس السّامعين بدعوى الخطاب بشكلٍ طوعيّ وإراديّ.

يمكن القول إنّ هذا النّسق الحجاجيّ حاضرٌ بشكلٍ كبير جدًا في خطب العلويين، ولاسيّما في مناظرات عبدالله بن عبّاس في الرّدّ على الخصوم، إذ يتّخذ من ذلك سبيلًا إلى تبكيت حجج المناوئين ودحض أسطورتها، والانتصار للإمام عليّ(ع) بناءً على توظيف الأعمال الّتي تتكفّل في الإفصاح عن البون الكبير بين هذه الشّخصيّة وبين المبغضين لآل بيت النّبوّة من الأمويين ومن شايعهم على ذلك[1]، ومن ذلك ما جاء في خطبة زهير بن القين(٦١هـ) في أهل الكوفة يدعوهم إلى نصرة الحسين وخذلان الطّاغية عبيد الله بن زياد، قوله:" **إنّنا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطّاغية عبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا بسوء، عُمر سلطانهما كلّه، ليسملان أعينكم، ويقطّعان أيديكم وأرجلكم ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النّخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم؛ أمثال حجر بن عديّ وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه**"[2].

اعتصم الخطيب بالنّمط الحجاجيّ المبني على أعمال الشّخص من أجل الكشف عن الصّورة الجبروتيّة لشخصيّة الوالي عبيد الله وخليفته يزيد، فالأحكام الّتي نكوّنها عن الأشخاص عادةً ما تكون ناتجة عن أعمال الشّخص، ويرى (بيرلمان) أنّ هذا النّسق من الحجاج منطلق للتّنبؤ بأعمال غير معروفة، أو تأويل أعمال غير

---

(1) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٩١-٩٢-٩٣.
(2) المصدر نفسه: ٥٤.

معروفة، ولمّا كانت الأعمال الجنائيّة ملازمة لشخصيّة ابن زياد كان لزامًا أن يقوم الخطيب بتذكير الجمهور بتلك الأعمال السّابقة بوصفها حجّة ناجعة في إقناع أهل الكوفة بدمويّة هذا الوالي، كما أنّه تكهّن بتكرارها في حال بطش سيطرته على المدينة، ممّا يدفع المخاطبين إلى الاعتقاد بصحّة مضمون الخطاب، إذ يرى (بيرلمان) أنّ الأفعال السّابقة للشّخص تسهم في تكوين صورته، وسمعته الحسنة، أو السّيّئة[1]، وسواء أكانت هذه السّمعة إيجابيّة أم سلبيّة، فإنّها ستكون رصيدًا يندمج مع صورة شخصيّته عند الآخرين، فقد استدعى الخطيب أحداثًا سابقة انفتحت على أعمال لا يقبلها الدّين، وترفضها الأعراف الإنسانيّة، لتزيد من حضور الصّورة العنيفة والوحشيّة لعبيد الله في أذهان المخاطبين، فمن قتل حجر بن عديّ وهانئًا شرّ قتلة سيكون مستعدًا تمامًا لقتلهم بنفس الطّريقة كذلك، فالغاية كانت حجاجيّة من ذكر الأعمال لكي يحمل أهل الكوفة على التّيقين والاعتقاد بصحّة الخطاب الزّهيريّ، وحملهم على نصرة الحسين، وخذلان طاغية الكوفة وخليفته المشؤوم.

وفي سياق آخر تحدّث (بيرلمان) عن إمكانيّة إلغاء، أو كبح التّفاعل بين تأثير الشّخص في الفعل، أو تأثير الفعل في الشّخص، وتُسمّى هذه التّقانة بتقانة(الإلغاء)[2]، ومن ذلك ما جاء في خطبة التّوّاب المسيّب بن نجبة المتوفى (٦٥هـ) في الرّدّ على إبراهيم بن محمّد بن طلحة، الّذي هدّد ووعد التّوّابين بالويل والثّبور، فقال المسيّب:**" يابن النّاكثين: أنت تهدّدنا بسيفك وغشمك؟ أنت والله أذلّ من ذلك، إنّا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدّك، والله إنّي لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل مصر حتّى يثلّثوا بك جدّك وأباك"**[3].

---

(1) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٨.
(2) ينظر: المصدر نفسه: ٨٠.
(3) جمهرة خطب العرب: ٦٦.
*سمل عينه:فقأها بحديدة محماة، الغشم: الظّلم والقوّة الوحشيّة.

عزم الخطيب على استعمال تقانة قطع التّفاعل بين الشّخص وأعماله المشار إليه في الخطبة، فما جاء من تهديد ووعيد لا ينسجم مع معطيات الصّورة الحقيقيّة ومؤشّراتها الخاصّة بـ(إبراهيم بن محمّد)، ويتعارض مع حقائق تحيل على صورة مختلفة تمامًا من الّتي حاول الظّهور بها، ولهذا كان ثوب القوّة والوعيد فضفاض المظهر، فعزم الخطيب على الرّدّ عليه بلغة الاستصغار والاستحقار متناغمًا مع واقع الحال من النّاحية الحجاجيّة، لاسيّما أنّ الشّخص المعني بالخطاب أقلّ شأنًا، وأصغر قدرًا من ذلك الوعيد، ولكي يعمّق التّقريع بقطع الرّبط بينه وبين ما أوحى إليه من أعمال التّهديد، قام الخطيب باستدعاء جملة الحقائق السّابقة، الّتي لا نرغب في الخوض فيها كثيرًا بقدر ما وضحّنا آليّة عمل هذه الحجّة، الّتي انتزعت من شخصيّة المتهجّم القدرة على التّأثير الفعليّ، وسلبت منه مظهر القوّة، لعجزه الحقيقيّ عن التّمكّن من فعل ذلك، بل حمل الخطيب المتلقي على الاعتقاد بمضمون الخطاب، والإقرار بما جاء به من تصوّرات مبنيّة على حقائق مُسلّم بها، وتنفتح على أفكار عن طبيعة صورته الشّخصيّة الحقيقيّة في أذهان الثّائرين من التّوّابين، لاسيّما بعد أن جاء في مطلع الخطبة بذلك السّؤال الاستنكاريّ، الّذي خرج إلى دلالة استلاب القدرة، فضلًا عن الازدراء والتّحقير، وتقليل الشأن.

وقد سارت خطبة عبدالله بن عبّاس على هذا المنوال الحجاجيّ في الرّدّ على ابن العاص، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا[1]، ولم تغب حجّة الشّخص وأعماله عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة روح بن زنباع(٨٤هـ) يؤيّد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة، فخطب قائلًا:**"... وأمّا مروان، فوالله ما كان في الإسلام صدعٌ قطٌّ، إلّا كان مروان ممّن يشعب ذلك الصّدع، وهو الّذي قاتل عن**

(١) جمهرة خطب العرب: ٦٦.

**أمير المؤمنين عثمان بن عفّان يوم الدّار، والّذي قاتل عليًّا بن أبي طالب يوم الجمل...."**[1].

كان العقل الجمعيّ في المجتمع الشّاميّ مؤمنًا بصلاح مروان وأتباعه، وحتّى ينمّي ازدياد قناعة السّامعين بشرعيّة هذه البيعة غدا يسرد جملة من الأعمال الّتي ترنو إلى سماعها قلوب هؤلاء قبل آذانهم، فهو الّذي يصلح الشّقّ في المجتمع الإسلاميّ، وهو الّذي ذاد بالدّفاع عن الخليفة الثّالث، ولكنّ أكثر الأعمال تأثيرًا في توجيه مسار الاعتقاد بهذه البيعة كما يبدو كان قتاله لأمير المؤمنين عليّ(ع)، فالصّورة المرسومة عنه في التفكير العقليّ الشّاميّ سلبيّة جدًا ولا نريد الخوض في هذا الأمر، فكأنّما هذا العمل كان منقبة لا تضاهيها منقبة في نفوسهم الضّالة عن سبيل الهدى والرّشاد، ولهذا عمد الخطيب إلى دغمها في طيّات الخطبة؛ ليركّب بذلك صورة إيجابيّة عن مروان في ضوء الأعمال، إذ تضطلع هذه الأعمال في تكوين بعد دينيّ إيجابيّ، وتصوّرات حسنة عن الشّخصيّة، وهو ما يسمّيه (بيرلمان) بـ(التّداخل بين العمل والشّخص)[2]، وتوظيف هذا الأمر يمثّل نمطًا حجاجيًّا مهمًا في سياق الخطاب، يدفع من خلاله الخطيب المخاطبين لتبنّي دعوى ما ، أو قضيّة ما من دون أيّ تعسّف.

وقد سارت خطبة الحجّاج على هذا النّسق الحجاجيّ في مسجد الكوفة[3]، واعتصم فيها بتوظيف حجّة الشّخص وأعماله في تهديد أهلها ووعيدها.

وحضرت هذه الحجّة في خطبة عبدالله بن الزّبير في أهل مكّة بعد مقتل الحسين(ع)، قوله:**"...أفبعد الحسين نطمئنُّ إلى هؤلاء القوم، ونصدّق قولهم، ونقبل لهم عهدًا؟ لا، ولا تراهم لذلك أهلًا، أما والله لقد قتلوه، طويلًا بالليل قيامُه،**

---

(1) جمهرة خطب العرب: ٣٣٦.

(2) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٤.

(3) ينظر:جمهرة خطب العرب: ٢٨٨-٢٩١.

**كثيرًا في النهار صيامُه، أحقّ بها هم فيهم منهم، وأولى به في الدّين والفضل، أما والله ما كان يبدِّل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصّيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذّكر الرّكض في تطلاب الصّيد(يعرّض بيزيد) فسوف يلقون غيًّا"**[1].

في كلّ خطبة لابدّ من الاستمالة وكسب الاعتقاد، ولاسيّما في موضوع سياسيّ، فآليّة تهييج مشاعر السّامعين، والقبض على زمام عواطفهم يؤدّي إمّا للثّورة، أو إلى السّكينة بعد حوادث الاغتيال خصوصًا، وحتّى يحدث هذا سيكون لزامًا على الخطيب أن يسند خطابه بجملة من البراهين النّافعة، والحجج السّاطعة في موضوع مهمٍّ كهذا، لذا تبنّى عبدالله حجّة الشّخص وأعماله؛ ليؤسِّس خطابًا حجاجيًّا على بعدها الإقناعيّ، فهو يحثّ على عدم الوثوق بأهل العراق بعد خذلانهم للحسين؛ لكذب قولهم، وخيانتهم لعهودهم؛ فقد قتلوا من يقوم اللّيل عبادةً، ويقضي نهاره صائمًا، وغيرها من أعمال الفضيلة والعبادات، ولذلك سيلقى الأمويّون خسرانًا مبينًا بقتلهم لسبط رسول الله؛ فالأعمال المذكورة للقتيل تصوّر للمخاطبين أبعاد هذه الشّخصيّة، كما أنّها تؤثّر في وجهة نظرهم إليها من الوهلة الأولى؛ فالعلاقة بين الشّخص وطبيعة أعماله قائمة على التّفاعل والتّرابط، وتدفع المتلقين إلى التأمّل والتّدبّر في مكنونات الشّخص، ومن هنا نفترض أنّ ثمّة استجابة انفعاليّة قد حصلت تجاه الخطاب، واندفاع بإيجابيّة تجاه الشّخصيّة المعنيّة، فالحظوة الّتي يمتلكها الحسين في العقل الجمعيّ الإسلاميّ أسهم كذلك بشكل كبير في استقطاب قناعات السّامعين بدعوى ابن الزّبير، الّذي خرج إلى إثبات سوء صنائع أهل العراق، وتقريعهم على خذلانهم له، فضلًا عن التّهجّم على السّلطة الأمويّة آنذاك، فالاحتجاج بالصّورة الايجابيّة لشخصيّة الثّائر بواسطة أعماله أنزلت اليقين في

---

(1) جمهرة خطب العرب: ١٦٨-١٦٩.

نفوسهم من جهة، وأظهرت حرارة عاطفة الخطيب تجاه ما حصل كما يرى الباحث، أو لربّما كان ذلك يستهدف حمل السّامعين على الاعتقاد بشرعيّة الثورة بعد هذا الأمر، وإعلان الانتفاض ضدّ البلاط الأمويّ، وإظهار البيعة كما حدث بُعيد انتهاء الخطبة[١]، فقد كان من الضّروري أن ينعى الحسين، ويذكر أعماله لتحشيد النّفوس، واستغلال وقائع هذا الحدث لخلع يزيد.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الخوارج، وحضرت كثيرًا في طيّاتها، لاسيّما في خطب زعمائهم، ومن ذلك ما جاء في خطب المستورد(٤٣هـ) والشّاري[٢]، ويشير (بيرلمان) إلى ضرب حجاجيّ آخر على وفق علاقة الشّخص وأعماله، إذ تقوم حجّة(المجموعة وأفرادها) في المؤسّسات والأنظمة السّياسيّة، يكون فيها الفرد تجلٍّ لمجموعة ذات سلطة، وتؤثّر صورة الفرد في المجموعة الّتي ينتمي إليها، على نحو ما تؤثّر المجموعة في الصّورة الّتي نكوّنها عن الفرد[٣]، وهذا التّفاعل ينتهي إلى التّقييم الايجابيّ، أو السّلبيّ، فقد حاجج الجاحظ للعرق الأسود بمجموعة من الأفراد الّذين ينتمون إلى هذا العرق ممّن برعوا ونبغوا في مجالات معرفيّة متعدّدة[٤]، فالمجموعات تتجلّى من خلال أفرادها، والصّورة الّتي نكوّنها عنها تنعكس على موقفنا من أفرادها، ولعلّ قولنا:( أرني من تنتمي إليهم لأحكم عليكما) مشابه تمامًا لقول (بيرلمان) من حيث المضمون الفكريّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة الشّاري، قوله:" **وأنتم يأهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قومٍ مؤمنين**"[٥].

---

[١] ينظر: جمهرة خطب العرب: ١٦٩.
[٢] المصدر نفسه: ٤٤٧-٤٧٠.
[٣] ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٤٤.
[٤] ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٤٤.
[٥] جمهرة خطب العرب: ٤٧٧.

يبدو أنّ الخطيب قصد توظيف حجّة(المجموعة وأفرادها)، وبما أنّ الأفراد في المجموعة تعكس الصّورة الايجابيّة أو السّلبيّة، الّتي تفرزها عن تلك المجموعة، عمد إلى ذكر مروان بن الحكم وآله لزيادة إقناع أهل المدينة بضلالة هذه الفرقة، ولتقويض المشروع المروانيّ الّذي يسعى إلى الاستيلاء على السّلطة، فالانطباع العام بطبيعة الحال في المجتمع الإسلاميّ كان سلبيًّا وسيّئًا عن المروانيين، فآل مروان يمثّلون صورة ممقوتة في الأوساط الإسلاميّة ولاسيّما في المدينة؛ لما ارتكبوه من بشائع الأفعال، وقبائح الأعمال من آثام وعدوان على المسلمين، فعاثوا في الأرض الإسلاميّة فسادًا وجورًا، لذا كان الخطاب الخارجيّ ناجعًا في إذعان المخاطبين، والإقرار لما جاء به من حقائق لا يجهلها السّامعين، ويمكن القول أنّ الّذي عمّق من حدّة التّبكيت والتّقريع في الخطبة، هو لغة الوعيد الإلهيّ بحلول العذاب والعقاب في حال انتصارهم لآل مروان، الّذي يعدّ مروان في تلك المجموعة رأس الهرم، ورمزها الأعلى.

وقد سارت على منوال هذه الحجّة الكثير من خطب العلويين والزّبيريين؛ لأنّهم عادةً ما يتفاخرون ويحتجّون بأسماء أفراد لها من الثّقل في العقل والوجدان الجمعيّ الإسلاميّ الشّيء الكثير، وتسخير ذلك من أجل تقويض مخطّطات الحزب الأمويّ، ولربّما كان الأمر على خلاف ذلك حينما يذكرون أسماء جماعات وأفراد في الحزب الأمويّ لها انطباع سلبيّ في الوسط الإسلاميّ، وكلّ ذلك لتبكيت حجج الأمويين، ونسف شرعيّة خلافتهم.

### ب-حجّة السّلطة:

من اليقين أنّ حجّة السّلطة تحظى بأهمّيّة خاصّة في الخطاب الحجاجيّ، ويلجأ إليها الخطباء في الاحتجاج لفكرة، أو رأي، أو دعوى ما اعتمادًا على قيمة صاحبها، وفي الحقيقة أنّ الكثير من المعتقدات لا تتأسّس إلّا على تبريرات غير

مباشرة فتستدعي هذه الحجّة[1]، ويرى (بيرلمان) أنّ هذه التّقانة تُستثمر فيها هيبة شخص، أو مجموعة أشخاص لدفع المخاطب لتبنّي دعوى ما، والسّلطات الّتي تعتمدها هذه الحجّة متنوّعة: فقد تكون الإجماع الكلّيّ، أو الرّأي العامّ تارة، وقد تكون فئات من النّاس تارة أخرى، مثل الأنبياء والعلماء والفقهاء والفلاسفة، وقد تخرج أحيانًا إلى سلطة غير بشريّة مثل الفيزياء، أو المذهب، أو الكتب السّماويّة المنزّلة[2]، وعادةً ما تأتي هذه الحجج في موضع غياب حجج مقنعة، أو قد تأتي دعمًا لحجج أخرى كما لاحظنا في مواضع سابقة حينما عضّد النّصّ القرآنيّ حجاج التّقانات الأخرى، وقد لا أتّفق مع (بيرلمان) فيما يخصّ مجيئها في مواضع يتعسّر حضور فيها حجج مقنعة؛ لأنّ الخطباء يزجّون هذه الحجج لزيادة التّأثير الإقناعيّ الضّاغط على المتلقّين لتحقيق الاعتقاد والإذعان التّامّ، وليس لغياب حجج مقنعة، وأنّ الّذي يستعملها سيعمل على الرّفع من قيمة السّلطة الّتي تنسجم مع دعواه، والغضّ من السّلطة الّتي تدعم الخصم، فكلّ السّلطات قابلة للنقاش باستثناء السّلطة الإلهيّة[3]، وقد كان حضور هذه الحجّة مُكثّفًا في خطب العصر الأمويّ، ولاسيّما حجّة السّلطة الدّينيّة بأبعادها المختلفة، لسببين مهمّين: الخلفيّة الدّينيّة للخطباء، وطبيعة البناء الثّقافيّ والفكريّ للمخاطبين، فلا شكّ أنّهم يقرّون بها من دون اعتراض، أو ريب قد يساور نفوسهم، فضلًا عن ميول ألبابهم إلى سماع الخطاب الدّينيّ الحجاجيّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسين لحثّ أصحابه، وأصحاب الحرّ على الجهاد، قوله: **" أيّها النّاس، إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحُرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا**

(1) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: ٢٣٢.
(2) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٩.
(3) ينظر: المصدر نفسه: ٧٩.

**لسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيِّر عليه بفعل أو قول، كان حقًّا على الله أن يُدخله مدخله"**[١].

من الواضح أنّ استنفار همم المخاطبين، واستنهاض نفوسهم إلى الثّورة، ما كان ليكون بهذه الصّورة الحجاجيّة المؤثّرة إلّا من خلال زجّ حجّة السّلطة، لزيادة الضّغط في إقناع عقولهم، واستمالة عاطفتهم، والتّسليم بصحّة دعوى الخطيب، ولاسيّما بعد أن جاء بكلام نبيّ الأمّة لينزل بهم التّيقين بوجوب التّغيير قولًا وفعلًا، وإلّا سيكون مصير السّاكتين والقاعدين عن ذلك مشابهًا لمصير كلّ الحكام الجائرين، فالحسين جعل من كلام جدّه رسول الله منطلقًا حجاجيًّا ناجعًا لدفع المخاطبين إلى الاعتقاد بهذا الحكم العقديّ؛ لأنّ استعمال أقوال وأفعال مصدر ذي حظوة يسهم في دعم الدّعوى وبناء قيمتها استنادًا إلى قيمة مصدرها[٢]، ولهذا كان لزامًا على الأصحاب الاندفاع نحو الخروج لقتال الأمويين، بعد أن عبث بنو أميّة بمعالم الدّين، واستحلّوا حرامه، ونكثوا ميثاق الله، وخالفوا سنّة نبيّه، وقد عملوا بالإثم والعدوان.

ولقد كان توظيف حجّة سلطة النّصّ الدّينيّ في خطب العلويين حاضرة كذلك، ومن ذلك ما جاء في مطلع خطبة السّيّدة زينب(ع)(٦٢هـ) في مجالس يزيد، والّتي اتّكأت فيها على جملة من النّصوص القرآنيّة لتبكيت المشروع الأمويّ وتقويضه، الّذي ادّعى يزيد بشرعيّته بعد قتل الحسين، إذ قالت:" **أظننت يا يزيد أنّه حين أُخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السّماء فأصبحنا نُساق كما يساق الأسارى، أنّ بنا هوانًا على الله؛ وبك عليه كرامة؟ وأنّ هذا لعظيم خطرك؟ فشمخت بأنفك، ونظرت**

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٨.
(٢) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٣٥.
*عطفيك: جانبيك وهي كناية عن إعجابه بنفسه، متّسقة:منتظمة، أُمهلت ونُفّست:فسح لك في أمرك، نملي:نمهل.

**في عطفيك، جذلان فرحًا، حين رأيت الدّنيا مستوسقة لك، والأمور متّسقة عليك، وقد أُمهلت ونُفّست، وهو قول الله تبارك تعالى:( وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ){آل عمران: آية ١٧٨}،...وستردُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم برغمك، وعترته ولحمته في حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشّعث وهو قول الله تبارك وتعالى:( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ){آل عمران:آية١٦٩}"[1].**

قوّضت السّيّدة زينب الرّؤية اليزيديّة في شرعيّة قتل الحسين، وبالاستناد إلى حجّة السّلطة، بتوظيف النّصّ القرآنيّ الإلهيّ بهدف إذعان يزيد وكلّ الحاضرين في مجلسه إلى مضامين الخطاب الزّينبيّ، إذ كان يزيد يعتقد بأنّ استذلال آل الحسين يعدّ مفازة وكرامة له من الله بعد أن رأى الأمور منساقة ومنتظمة إليه، إلّا أنّ السّيّدة نسفت أساس هذه الرّؤية من خلال دلالة النّصّ لتبكيت حجّته، وتكوين صورة جديدة طرحت رؤية مضادّة التّصوّرات، ومتغايرة الأفكار مع الاعتقاد السّائد لدى يزيد وملأه، فالله جلّ ذكره يُمكّن الكافرين العابثين في الأرض لزيادة آثامهم، ومن أجل تمهيدهم للعذاب المهين، وليس من أجل إكرامهم، وتعظيم قدرهم، وإعلاء شأنهم، ويبدو أنّ البلاط اليزيديّ لا يختلف حاله عن حال الكافرين بعد أن قتل سبط رسول الله، وأسر أهله، وسوقه بنات رسول الله، لذا كان توظيف النّصّ القرآنيّ في خضم الخطاب موفّقًا في رفع القيمة الحجاجيّة لسلطة الخطاب الزّينبيّ، الّذي تناغم مع دعواها، فضلًا عن الغضّ من قيمة سلطة الخصم، وتبكيت حجّته، فكلّ السّلطات

---

[1] جمهرة خطب العرب: ١٣٦-١٣٧.

قابلة للجدال والنّقاش ما عدا السّلطة الإلهيّة[1]، والذي أكّد دلالة الدّعوى الزّينبيَّة الحجاجيّة تسخيرها لنصّ قرآنيّ آخر رسّخ قناعة تامّة عند الخصم بفظاعة ما اقترفه من إثم بحقّ آل بيت النّبيّ(ص)، فالنّصّ القرآنيّ جاء لإثبات مكانة الشّهداء الّذين قاتلوا في سبيل الله، فهم أحياء مكرمون، من الحسين وآل بيته الأطهار، إذ أصبح فيما بعد مقتل الحسين سببًا في استمالة النّاس، وتكاثر أنصار الحزب الشّيعيّ، وإثارة نقمة المسلمين الشّاملة على بني أميّة[2]، أمّا يزيد سوف يلقى النّبيّ(ص)وهو ذليل صاغر، وسيُساق إلى نار الظّالمين، بوصفه مشابهًا لحال الكافرين، الّذين حاربوا الدّين، وظلموا الرّسول وآله الطّيبين.

وحضرت هذه الحجّة في خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير بعد أن طالبه الخوارج بالتّبرّؤ من أبيه وطلحة وسبّهما، فقال:**" إنّ الله(وله العزّة والقدرة) في مخاطبة أكفر الكافرين، وأعتى العتاة، بأرأف من هذا القول، فقال لموسى ولأخيه صلّى الله عليهما:( اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى *فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى* ){طه: آية ٤٢-٤٣}،وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:( لا تؤذوا الأحياء بسبّ الموتى)، فنهى عن سبّ أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدوّ الله وعدوّ الرّسول، والمقيم على الشّرك.."[3]**.

في ظلّ هذا المعترك يسعى ابن الزّبير إلى تبكيت الخطاب الخارجيّ، وإجهاض دعواه، ودفعهم إلى تبنّي خطابٍ جديدٍ ومغايرٍ ينسجم وطبيعة المرجعيّة الدّينيّة الإسلاميّة، ويتناغم مع الخطاب القرآنيّ، والسّنّة النبويّة، فحجّة السّلطة

---

(1) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٩.
(2) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٩.
*الرغم: الذلّ، اللحمة:القرابة، القدس:الطّهر، الشعث:التفرّق
(3) جمهرة خطب العرب: ١٧١.

جاءت بخطاب معارض لمآرب الخوارج، ومبني على حقائق قرآنيّة فنّدت هذا السّلوك، ونقضت صحّته، فالله سبحانه وتعالى أمر موسى وهارون بمخاطبة الجبروت الفرعونيّ بكلام أكثر ليّنًا، وأرأف خطابًا من خطاب الخوارج، على الرّغم من أنّه أكفر أهل الأرض، وأنّ رسول الله(ص) قد نهى عن سبّ الأموات، فقد نهى عن سبّ أبي جهل على الرّغم من أنّه رأس من رؤوس الكفر، إكرامًا لابنه عكرمة، وهذا ما دفع الخوارج إلى إعادة النّظر في مطالبهم، وحملهم على الاعتقاد بصحّة الدّعوى، والكفّ عن مطالبة عبدالله بسبّ أبيه وصاحبه وشتمهما، ولاسيّما أنّ الخوارج أرواحهم معلّقة بالقرآن، وأحكام الدّين الإسلاميّ، فلن تسمح لهم نفوسهم بالتّضاد مع تعليمات القرآن، وسنّة النّبيّ(ص)، وهذا سيضاعف من الطّاقة الحجاجيّة لسلطة النّصوص في الخطاب، الّذي عمل على صناعة الإذعان، وإنزال الإيمان بما جاء به الخطيب، الّذي عضّد ذلك بنصوص قرآنيّة أخرى في آخر الخطبة، وأكّدت صواب دعوى ابن الزّبير في امتناع المؤمن عن التّبرّؤ والسّبّ، إذ قال:**" وأنتم تعلمون أنّ الله جلّ وعزّ قال للمؤمن في أبويه:(وإن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أن تُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا في الدّنيا معروفا){لقمان:آية١٥}، وقال جلّ ثناؤه:(وقولوا للنّاس حسنًا){البقرة:آية٨٣}**، فالنّصّ القرآنيّ في هذه الخطبة كان أشبه بوسيلة استقطاب واستدراج، ومقياس للأحكام والقضايا(١)، إذ كانت سلطة النّصوص قوّة ضاغطة انطلاقًا من قدسيّتها في نفوس هؤلاء بشكلٍ خاصّ، والمجتمع الإسلاميّ بصورة عامّة، فالخوارج في تصوّراتهم لا تعلو حجّتهم حجّة إلّا حجج القرآن، لإجماعهم على عدّ الآيات القرآنيّة

---

(١) ينظر:سلطة النص(قراءات في توظيف النص الديني)، عبد الهادي عبد الرحمن، الانتشار العربي، بيروت ، ط١، ١٩٩٨: ٨٦.

المعين الأوّل لعقائدهم(١)، لذا كانت وسيلة تأثير بالغة في تغيير مواقفهم، ولاسيّما في هذا الموقف مع ابن الزّبير، الّذي اقترب من موقف واصل بن عطاء حينما وقع وأصحاب له في قبضة الخوارج(٢)، فراح عبدالله يستقطبهم نحو حجج سلطة النّصّ القرآنيّ والحديث النّبويّ، لدفعهم إلى التّسليم والإقرار بترك هذا السّلوك، والعدول عنه، وعدم مطالبة الخطيب به.

ولم يترك ابن الزّبير حجّة السّلطة الدّينيّة في هذه الخطبة إلى نهايتها، فعمد إلى دغم قول النّبيّ(ص) بحقّ طلحة لمّا قُطعت إصبع له في يوم أحد: **" سبقته إلى الجنّة"**(٣)، وقوله:" أوجب طلحة"(٤)، فضلًا عن استدعائه قول الصّدّيق(رض): **"ذاك يومٌ كلّه أو جلّه لطلحة"**(٥)، والصّدّيق ممّن كان الخوارج يؤمنون بشرعيّته، وصدق إمامته، ووجوب مبايعته، وهذا القول أيضًا كان له الأثر الحجاجيّ المهمّ بمعيّة أقوال النّبيّ(ص) بحقّ طلحة، إذ رفع من قيمة الاعتراض على مطلب الخوارج، وناهض سلوكهم بشكلٍ مقنع بمنأى عن التّعقيد، وبعيد عن الضّبابيّة، فحتّى إن لم يكن قول النّبيّ وصاحبه بحقّ طلحة مقطوعًا به، فسلطة النّصّ القرآنيّ تثبت أنّهما في الجنّة، إذ قال عبدالله: **" والزّبير حواريّ رسول الله(ص) وصفوته، وقد ذكر أنّهما في الجنّة، فقال الله عزّ وجلّ:( لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ**

---

(١) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ٤٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٧.
(٣) جمهرة خطب العرب: ١٧٢.
(٤) المصدر نفسه: ١٧٢.
(٥) المصدر نفسه: ١٧٢.

**يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)"{الفتح:آية١٨}**[١]، فالتّبرّؤ منهم وشتمهم يخالف سنن القرآن، ويعارض أحكامه.

وقد جاءت خطبة مصعب بن الزّبير في البصرة مبنيّة كلّها على سلطة النّصّ القرآنيّ لأبعاد دينيّة واضحة، وغايات سياسيّة مفهومة[٢].

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين على قلّتها، وذلك يرجع إلى تولّيهم الخلافة عن طريق القوّة، فلم يكونوا قادرين على إثبات حقّهم في تولّي أمور المسلمين بحجج القرآن الدّامغة، والبراهين القاطعة[٣]، إلّا أنّ ذلك حضر في خطب قادة جيوشهم، وفي الخطب الوعظيّة في لبعض خلفائهم، ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز في النّهي عن استصغار الذّنوب والتماس التّوبة، **قوله:" أيّها النّاس، لا تستصغروا الذّنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتّوبة منها، إنّ الحسنات يُذهبنّ السّيئات، وذلك ذكرى للذاكرين. وقال عزّ وجلّ:( وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)"**[٤]**{آل عمران: آية ١٣٥}.**

لم يكن الخطيب يريد أن يظهر بمظهر الواعظ فحسب، بل سعى لنقل حالة السّامعين من الحالة النّظريّة والشّعوريّة بالتّماس مع النّصّ القرآنيّ إلى الحالة العمليّة في تفادي حالة استصغار الذّنوب، وحثّهم على المعاودة الدّائمة لالتماس التّوبة، واستند الخطيب في ذلك إلى سلطة النّصّ القرآنيّ ليدفع المخاطبين للإيمان بالقول، وحملهم على الفعل؛ لما تملكه هذه السّلطة من طاقة حجاجيّة تذعن لها

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٧٢.
(٢) المصدر نفسه: ١٨١.
(٣) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ٩١.
(٤) جمهرة خطب العرب: ٢٠٨-٢٠٩.

النّفوس، وتعتقد بصحّتها العقول، فالقضيّة الّتي طرحها الخطيب كانت ناجعة حجاجيًّا بعد استدعاء سلطة دينيّة أثبتت صواب الدّعوى، ونالت قبولًا كلّيًا من المتلقّين، ودفعت كلّ الاعتراضات والشّكوك الممكنة.

ويشير (بيرلمان) إلى نوع من الحجج يتفرّع من حجّة السّلطة يحظى بــ(الإجماع) أو(الرّأي العامّ)، يمكن أن تضطلع بطاقة حجاجيّة ثابتة في الخطاب، ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز في حثّ النّاس على التّقوى، وتذكيرهم بالمعاد، لزجرهم عن اللهثّ وراء ملذّات الدّنيا، قوله:" **أيّها النّاس، إنّكم ميّتون، ثمّ إنّكم مبعوثون، ثمّ إنّكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم، يأيّها النّاس، إنّه من يُقدّر له رزق برأس جبل، أو بحضيض أرض يأته، فاجملوا في الطلب"**[1].

كلّ الحقائق الّتي جاء بها الخطيب تحظى بسلطة القبول الجمعيّ(الرّأي العامّ) في المجتمع الإسلاميّ، فالمسلمون جميعًا يقرّون بالموت والفناء، ويؤمنون بالبعث من القبور في يوم الحساب، فحتّى وإن كانوا صادقي الإيمان فثمّة تقصير تجاه الله سبحانه وتعالى، وإن كانوا كاذبين فالهلاك سيكون مصيرهم المحتوم، ولهذا كان الخطاب مؤثّرًا في نفوسهم، نظرًا لاحتكامه إلى جملة من المفاهيم والحقائق الدّينيّة البديهيّة لدى المسلمين، إذ كان هذا التّوظيف محكومًا بضرورات مقاميّة؛ ومن ذلك رأي المخاطب وبنائه العقديّ؛ إذ ينبغي للخطيب أن يستدعي سلطة تُحظى بموافقة متلقّيه، فهو يعوِّل كلّ التّعويل على مخاطبيه في استدعاء سلطة من أنواع السّلط؛ من ذلك أن تعدّ جزءًا من ثقافة هذا المخاطب حتّى لا يضطرّ الخطيب إلى توضيح

---

(1) جمهرة خطب العرب: ٢٠٥.

مقوّمات السّلطة الّتي يحيل إليها[1]، ويرى الباحث أنّه محور(المناطق الرّخوة) سهلة الاختراق، الّتي يمكن أن يتوغّل من خلالها الخطيب إلى عمق منطقة القرار لدى المخاطبين، ليحملهم على الإيمان والاعتقاد بمضامين الخطاب، فذلك محور مهم جدًا من محاور نجاعة التّواصل مع الآخرين.

أمّا ما يخصّ حضور حجّة السّلطة في خطب القادة العسكريين كان كبيرًا للغاية، ليحضّ الجند على القتال، والاندفاع نحو الانخراط بجحافل الجيوش من أجل الجهاد في سبيل الله أثناء فتح الأمصار، ومن ذلك ما جاء في خطبة قتيبة بن مسلم الباهليّ(٩٦هـ) في الحثّ على الجهاد وقد تهيّأ لغزو(طخارستان) أوزبكستان حاليًا، إذ قال فيها:" **إنّ الله أحلّكم هذا المحلّ ليعزّ دينه، ويذبّ بكم عن الحُرمات، ويزيد بكم المال استفاضةً، والعدوّ وقمًا، ووعد نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال:( هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ){التوبة: آية ٣٣}، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثّواب، وأعظم الذّخر عنده، فقال:(ذلك بأنّهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيل الله، ولايطئون موطئًا يغيظ الكفّار ولا ينالون من عدوّ نيلًا إلّا كُتب لهم به عمل صالح، إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديًا إلّا كُتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون"**[2]، **ثمّ أخبر عمّن قُتل في سبيله أنّه حيٌّ مرزوق، فقال:"ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في**

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٣٦.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٣٠٤-٣٠٥.

**سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربّهم يُرزقون، فتنجّزوا موعود ربّكم، ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر، وأمضى ألم، وإيّاكم والهويني"[١].**

تكاد تكون هذه الخطبة قرآنية بشكلٍ تامّ، وما كان هذا إلّا وسيلة خطابيّة مثلى من أجل التّأثير في النّفوس، واستمالة أحاسيس الجند، بالاستناد إلى حجّة السّلطة المتمثّلة بالنّصّ القرآنيّ، الّذي انفتح على مفازات كبرى، ووعود إلهيّة مغريّة سيغدق الله بها على المجاهدين، وهذا العطاء من الثّواب العظيم حتمًا سيدفع السّامعين إلى الإذعان لمآرب الخطاب، والاعتقاد بفرضيّات الجزاء الإلهيّ لعباده المقاتلين، فكان القائد العسكريّ موفقًا في زجّ النّصوص القرآنيّة في الخطبة لزيادة نجاعة الخطاب الحجاجيّ، وحمل الجند على تبنّي رأي الخطيب، وانجاز الفعل، والانغماس في القتال، من خلال التوسّل بآليّة الإحالة إلى سلطة ذات قوّة عظمى تمثّلت بالوعد الإلهيّ، فكأنّما قتيبة قدّم نفسه بوصفه لسان الله، إذ كان الخطاب أشبه ببوصلة توجيه لإرادة الجند ومعنوياتهم، وأسهم بفرض هيمنة تامّة على توجّهات المخاطبين، وتخطّي الدّفاعات الاعتراضية، بعد أن استقطب وجدانهم بالجزاء والثّواب، وطمعًا بالمناقب والفضائل، فالمجاهدون لن يصيبهم أيّ مكروه، ونصرهم واقع، وأجرهم كبير، وقتلاهم أحياء، فكلّ ما ورد في نصوص السّلطة القرآنيّة من شأنه أن يحقّق الإقناع، ويبثّ السّكينة والطّمأنينة في نفوس الجند، ودفعهم نحو البروز لنصرة القائد، وقد سارت خطب القائد طارق بن زياد(١٠١هـ) على المنوال نفسه في حثّ الجند على القتال من خلال التّوسّل بحجّة السّلطة كذلك.

وحضرت هذه الحجّة كذلك في خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في خطبة قطريّ بن الفجاءة، إذ استند إلى حجّة(الإجماع) أو الاتّفاق العامّ في التّحذير من

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٣٠٤-٣٠٥.

الدّنيا، والتّذكير بزوالها، والحثّ على العزوف عن رغباتها وملذّاتها، إذ قال:"**ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارًا، وأوضح منكم آثارًا، وأعدّ عديدًا، وأكثف جنودًا، وأعتد عتادًا، وأطول عمادًا، تُعبّدوا للدّنيا أيّ تعبّد! وآثروها أيّ إيثار! وظعنوا عنها بالكره والصّغار! فهل بلغكم أنّ الدّنيا سمحت لهم نفسًا بفدية، أو أغنت عنهم فيما أهلكتهم بخطب؟ بل قد أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعقرتهم بالمصائب...**"[١].

انفتح الاستفهام الاستنكاريّ على دلالة التّقرير؛ لإقرار دفعة من الحقائق البديهيّة المتّفق عليها مسبقًا بين الخطيب والمخاطبين، وهذا الطّابع شائع جدًا في خطب الخوارج، فكلّ ما جاء في طيّات الخطبة يقرّ به السّامعون من دون حاجة لأيّ مسوّغات؛ لأنّه يتناغم مع بنائهم العقديّ، ممّا ترك أثرًا ثقيلًا في نفوسهم دفعهم إلى الإيمان والاعتقاد، والحمل على الفعل، والأخذ بمواعظ الخطبة، فالزّهد في الدّنيا ومتاعها من أهم الأركان الفكريّة والعقائديّة لدى الخوارج، الّتي بُنيت عليها خطبهم؛ لأنّهم يحتقرون لذّاتها، وينفرون من متاعها الباطل، ويتعجّلون لنقلة الخلد[٢]، ولهذا جاء قطريّ بمجموعة المعطيات الحقيقيّة، الّتي تُحظى بالسّلطة الجمعيّة لتمرير طروحته الوعظيّة، ورسالته التّذكيريّة بزوال الدّنيا، الّتي أراد لربّما منها اليقظة بعدما رأى ما رأى من استشراء الغفلة والنّسيان في نفوس الخوارج، وانحرافهم عن خطوطهم السّلوكيّة، ليحضّهم على الاعتقاد بزوال هذه الدّار، ودفعهم إلى التّمسّك بعقائدهم، وعدم الانفكاك عنها، وبقياس واضح مع السّابقين من الأمم، الّذين لاقوا الفناء على الرّغم من قوّتهم وبطشهم، فأخذتهم بالفواجع، وأهلكتهم بالعظائم، فهي بائدة على كلّ حال.

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٥٦.
(٢) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٥.

ويبقى على الباحث أن يشير إلى تجاوزه حجّة السّلطة المستندة إلى الرّمز؛ فأكثر الرّموز الواردة في خطب العصر الأمويّ كانت دينيّة محضة، ولا تختلف كثيرًا عن حجّة السّلطة الدّينيّة، وهذا ما دفعنا لتفادي التّكرار، فمن توظيف تلك الحجج ما جاء في جزء من خطبة الإمام الحسين لاستقدام زهير بن القين(٦١هـ) بعد أن نصح القوم، قوله:**" أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه، وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء، وأبلغت لو نفع النّصح والإبلاغ"**[١].

ونحن نعلم أنّ مؤمن آل فرعون رمزٌ من الرّموز الدّينيّة في الورع والتّقوى، الّذي كان صادقًا في نصحه ووعظه لقومه، وكذلك زهير، ولكنّ هذا لم ينفع مع قوم فرعون، ولا مع قوم الحسين، فقد غشيت بصيرتهم عن رؤية صراط الهُدى والرّشاد.

أمّا الرّموز الاجتماعيّة والأسطوريّة فقلّما حضرت، ومن ذلك توظيف الحجّاج الحجّة الأسطوريّة بقوله لأهل العراق:**"...هل شغب شاغب، أو نعب ناعب أو زفر زافر إلّا كنتم أتباعه وأنصاره..."**[٢]، إذ أراد تقريع نفوسهم، ودفعهم للإذعان والخضوع للسّلطة، ونبذ التّمرّد والثّورات المستمرّة ضدّ البلاط الأمويّ، فالنّعيب في الثّقافة العربيّة يرتبط بالغراب، وإذ طالما عُدّ الغراب في الأساطير نذير شؤم أو شرّ، ولوّح الحجّاج به إلى أنّ صورة هؤلاء المتمردين يشبهون صورة حال هذا الطّائر في الأذهان؛ ليُنفّر بذلك نفوس المخاطبين من الإصغاء للمعارضين، والامتناع عن نصرتهم وطاعتهم.

أمّا حجج الرّمز التّاريخيّة، والّتي تتّصل بشكل أو بآخر بأبعاد دينيّة محضة، فقد كان حضورها ملموسًا لاسيّما في المناظرات ومقام الرّدود، ومن ذلك ما جاء في

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٤.

خطبة زياد بن أبيه(٥٣هـ) في الرّدّ على معاوية بعد أن كتب إليه كتابًا يتهدّده فيه[1]، فخطب قائلًا:**" العجب من ابن آكلة الأكباد، وقاتلة أسد الله، ومظهر الخلاف، ومسرّ النّفاق، ورئيس الأحزاب..."**[2].

إذ استعمل حجّة التّرميز الاجتماعيّ التّاريخيّ بالإشارة لهند بنت عتبة أمّ معاوية، الّتي مثّلت بجثث المسلمين ولاسيّما حمزة(رض)، وأحال التّرميز كذلك لأبي سفيان والد معاوية، حامل راية الشّرك في وجه النّبوّة، فسعى الخطيب بذلك إلى تبكيت أثر ذلك الكتاب، وتفريغ محتواه الفعليّ وتقويض مشروعه، وجعله خارج نطاق التّأثير، فضلًا عن كشف حقائق الخصم التاريخيّة والاجتماعيّة المظلمة في التّاريخ العربيّ والإسلاميّ.

**٣ـالغائيّة:**

نظرًا لتشعّب هذا الصّنف من الحجج وأهمّيّته، وما سيأخذه من حيّز أوسع من بقيّة الأصناف الأخرى سنرجّئ الحديث عنه، فقد أفردنا له مبحثًا خاصًا به في هذا الفصل، لنستفيض في الحديث عن تفصيلاتها وآليّة عملها.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦٦، هامش رقم(١).

(٢) جمهرة خطب العرب: ٢٦٦.

# المبحث الثّاني

# الغـائيّة.

## توطئة:

إنّ السّلوك البشريّ في مختلف أنماطه عادةً ما يُمرّر تحت ظلال حجّة(الغاية تبرّر الوسيلة)، ولهذا يرى (أوليفي روبول) بأنّ الغائيّة تضطلع بدور أساسيّ في الأحداث الإنسانيّة، إذ نشتقّ منها حججًا كثيرة تُؤسّس كلّها على الفكرة المؤمنة بأنّ قيمة الشّيء تتّصل بالغاية الّتي يكون لها وسيلة، أي بمعنى أن السّلوك الإنسانيّ بدأ يُبرّر بقولنا:(من أجل كذا، عملت كذا)(١)، وقد حضرت هذه الحجّة بشكلٍ لافت في خطب العصر الأمويّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة المختار بن عبيدة الثّقفيّ في السّجن(٦٧ هـ)، إذ كان يردّد على زائريه قوله:**" أمّا وربّ البحار، والنّخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتُلنّ كلّ جبّار، بكلّ لدن خطّار، ومهنّد بتّار، في جموع من الأنصار، ليس بميل أغمارٍ، ولا بعزل أشرارٍ، حتّى إذا أقمت الدّين، ورأبتُ شعب صدع المسلمين، وشفيتُ غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر النّبيين، لم يكبر عليَّ زوال الدّنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى"**(٢).

يتأمّل القارئ الكريم توالي أسلوب القسم منذ استهلال الخطبة، ولعلّ هذا يرجع إلى أنّ المختار يمهّد لما سيأتي بعده من جليل الخطر، وعظيم الأمر، فيرى صاحب العمدة أنّ الاستهلال" استدراجٌ إلى ما بعده"(٣)، إذ يتكفّل بدفع المتلقي إلى مواصلة

---

(١) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٢١.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٧٥-٧٦.
(٣) العمدة في محاسن الشعر ونقده: ٣٦٤.

الانتباه والمتابعة والتّرقّب، ليكشف له الخطيب عن الفعل المزمع القيام به، ألا وهو (القتل) للجبّارين، ومن أجل ماذا؟، من أجل غايات سامية تحظى بالقبول في المجتمع الإسلاميّ عامّةً، ليبرّر الخطيب الوسيلة(القتل)، بهذا الهدف، أو الغاية، ويمرّر أطروحته بشكلٍ مقنع، ومُعضّد بحجج دينيّة تستقطب التّفاعل والالتحام معها من المخاطبين؛ بوصفها وسيلة مهمّة من وسائل الحجاج كونها تعمل على نقل المتلقّي من حالة شعوريّة إلى حالة تتأثّر بأحكام الخطيب، ولهذا كانت غاية إقامة عمود الدّين، وردم الصّدع بين صفوف المسلمين، فضلًا عن شفاء صدورهم بقتل قتلة الحسين، وإدراك ثأره مبرّرًا شرعيًّا لتلك الوسيلة، فكلّ هذه الغايات يُكتب لها الاستحسان والقبول عند أيّ مسلم، بل إنّها تمثّل جزءًا مهمًّا من كتلته العاطفيّة والدّينيّة، وهذا من شأنه أن يضمن للخطاب فاعليّة تأثيراته النّفسيّة، ونجاعته الحجاجيّة في الجمهور، ويرى الدّكتور محمّد العمريّ أنّ هذا الارتباط بين البعد الدّينيّ للخطبة، وبين الصّناعة الصّوتيّة أدّى وظيفة حجاجيّة إقناعيّة، وذلك أنّ توقيع الكلام وتوازن فقراته، يكاد يكون حجّة على صدقه(١)، ومدى عمقه، لما جاء به من دلالات تطرب إليها النّفوس، وتتوق لها القلوب، فالمحاجج البارع يسعى لجعل مخاطبيه في أقوى حالات الإرهاف والانتباه؛ ونجاح ذلك يتطلّب حذقًا باللغة، والوعي بإمكانات المقام الشّامل، ثمّ المعرفة بآفاق الانتظار الثّقافيّة، والدّينيّة، والاجتماعيّة للمعنيين(٢)، ويظهر من هذا أنّ المختار نجح في تمرير دعواه بإطار الغائيّة الحجاجيّ بصورة مدهشة.

---

*المهامه:البلد المقفر البعيد، لدن: الرّمح اللين الذي لا يقصف، خطّار: ميل: الجبان، أغمار: من لم يجرّب الأمور، أعزل: من لا سلاح له، الشّعب:الصّدع أو الشقّ.

(١) ينظر:في بلاغة الخطاب الإقناعي: ١١٦.

(٢) ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة: ١٢٤.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة معاوية في أهل الكوفة، **قوله:" يأهل الكوفة، أتراني قاتلتكم على الصّلاة والزّكاة والحجّ، وقد علمت أنّكم تصلّون وتزكّون وتحجّون، ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد أتاني ذلك وأنتم كارهون"**[١]**.**

تبدو لغة البطش والاستبداد واضحة من بداية الخطبة، فهو يقدّم نفسه بصورة الحاكم الدّمويّ، ولهذا يقرّ معاوية بأن قتاله لأهل الكوفة لم يكن مبنيًّا على أسس دينيّة صرفة؛ فهو يعترف بأنّهم قوم أصحاب دينٍ، إلّا أنّه يعلن بالغاية الّتي أراد منها تبرير سلوكه العدوانيّ ضدّهم، فالخطيب يكشف عن غايته بصراحة مطلقة من غير مواربة أو لين، ويفصح عن رغبته العارمة ليكون واليًا على رقابهم، ولربّما هذا الشّعور متأتّي من شغف الانتقام من هؤلاء القوم؛ لأنّهم كانوا يمثّلون المعقل الحقيقيّ، والقاعدة الكبرى لأتباع الإمام عليّ(ع)، ولهذا أشار إلى كرههم لولايته، فالمنطق الّذي يدعو به معاوية منطق السّلطة، وهو حجّته الدّامغة في هذا الموضع؛ لأنّ فكرة الحقّ الإلهيّ عادةً لم تكن واضحة في خطب الأمويين[٢]، ولهذا استند الخطيب إلى الإيحاء بالقوّة مع الغاية لدفع المتلقّين إلى الخضوع المطلق للسّلطة الأمويّة وفق استراتيجيّة التّرهيب والتّعنيف لتحقيق الإذعان والتّسليم، فالغائيّة هنا نفذت انطلاقًا من تعضيدها بالقوّة القسريّة للخطاب، الّتي أطلقت المخاطبين في فضاء مشحون بالتّهديد، ومتلبّد بالعنف من أجل إرساء السّلطة، والتحكّم ببوصلة مواقفهم وإراداتهم بعد أن ظفر بخلخلة بنائهم العاطفيّ والنّفسيّ، فالتّخويف نحسبه ضربًا من ضروب (الباتوس) السّلبيّ القسريّ، الّذي يتنكّب سبل الحجاج الوجدانيّ

[١] جمهرة خطب العرب: ١٤.
[٢] ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ٩٢.

المقبول بلاغيًّا وأخلاقيًّا[1]، المثير لفزع السّامعين بهدف صناعة التّماهي مع إراداته، والخضوع المطلق لحكم البيت الأمويّ، فالخطيب كان يدرك تمامًا أنّ مخاطبة هؤلاء الخصوم، المناوئين لخلافته لا يمكن أن تكون ناجعة إقناعيًّا بدون استراتيجيّة الوعيد القائمة على الإقصاء والتّهميش للآخر بنظرة عدوانيّة متشدّدة، لذا كانت الغاية من محاربته لهم هي فرض السّلطة على من يفترض فيهم المعارضة دون أن يحفل بآرائهم ومواقفهم من خلافة الخطيب، فنرى توجّه لغة الخطبة إلى خطاب الهيمنة والسّيطرة والكراهيّة، وبيان لغة الانتقام، ليحملهم على ما يريد بالتّرهيب.

ويرى الباحث أنّ طغيان لغة التّهديد والرّعب لم تضمن نجاعة الحجّة في خطب الأمويين كما يرى أغلب الباحثين؛ وأفترض أنّه لو كانت تلك اللغة ذات أثر كبير في نفوس المعارضين لتوقف سيل تلك الثّورات المتواليّة على البلاط الأمويّ، الّتي أطاحت بخلافتهم القائمة على الدّماء، فحتّى معاوية في خطبته هذه وإن بنى حجاجه على الغاية من منطلق السّلطة؛ إلّا أنّها لم تثمر بتأثير على المدى البعيد في المجتمع الكوفيّ، فالانتفاضات استمرّت على الرّغم من كلّ أعمال البطش والإرهاب، وحتّى لا أقع في فخّ المغالطة أعتقد أنّ لغة العنف في خطب الأمويين كانت ناجعة ومؤثّرة في نفوس المحايدين وحسب؛ بهدف منعهم من الانتماء للأحزاب المعارضة، ولفرض حصار شديد على تلك الحركات، ومنع تمدّدها في أوساط المجتمع الإسلاميّ، الّتي قد تفرز خطرًا حقيقيًّا على أسوار الخلافة الأمويّة.

وقد حضرت هذه الحجّة في خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في مقطع من خطبة تشاوريّة بين عبدالله بن الزّبير وأمّه أسماء بنت أبي بكر(رض) المتوفاة(٧٣هـ)، **قوله:"...هذا والله رأيي، والّذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا، ما**

---

[1] ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٨٢-٢٨٣.

**ركنت إلى الدّنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلاّ الغضب لله أن تستحل حُرمه..."**[1].

يبرّر ابن الزّبير خروجه عن طاعة الأمويين بالغاية الّتي خرج من أجلها، ودوافعها الدّينيّة، ألا وهي إعلاء كلمة الله، والغضب لشرائعه، والحفاظ على قيم الدّين، وعدم السماح للأمويين بأن يهتكوا معالم الإسلام، فيجعلوا حلاله حرامًا، وحرامه حلالًا، فالخطيب لم تكن ثورته قائمة على الرّغبة في ملذّات الدّنيا، ولا الرّكون إلى مغرياتها، بل كان منتفضًا غضبًا لله، وهي الغاية الأسمى في الأعراف الإسلاميّة، الّتي ينشدها التّفكير الجمعيّ الإسلاميّ، فالخروج كان وسيلةً لتحقيق هذه الغاية، الّتي يسعى إليها الإنسان المسلم في كلّ الأحوال لحماية حدود الدّين، وتعاليم السّماء من الضّياع على يدّ الأمويين، ومن المؤكّد أنّ هذه الغاية تُحظى بمقبوليّة واقعيّة، ومصداقيّة واضحة في نفس المتلقي، ومدّت الخطاب بطاقة حجاجيّة كبيرة دفعت السّيّدة أسماء(رض) للاعتقاد بصحّة دعوى ابنها عبدالله.

وجاء أبو حمزة الشّاري ليوظّف هذا النّسق الحجاجيّ في خطبته بالرّدّ على أهل المدينة حينما عابوا أصحابه، قوله في أصحابه:**" حتّى إذا رأوا سهام العدوّ وقد فوّقت، ورماحهم وقد أُشرعت، وسيوفهم وقد انتُضيت، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت، استخفّوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخفّوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة، ولقوا شبا الأسنّة، وشائك السّهام، وظُبات السّيوف بنحورهم، ووجوههم وصدورهم، فمضى الشّاب منهم قُدمًا..."**[2].

دارت أفكار الخوارج في خطبهم على إظهار الاستخفاف والاستحقار بأعدائهم، واللامبالاة بما يعدّونه لهم من كتائب الجند؛ لأنّهم كانوا لا يحفلون بالموت، بل

---

(1) جمهرة خطب العرب: ١٧٨-١٧٩.
(2) المصدر نفسه: ٤٧٥-٤٧٦.

يستطيبون به طمعًا بالجزاء، فهم قوم يتعجّلون لقاء المنيّة، ويستعذبون كؤوس الرّدى من أجل الفوز بنعيم السّماء[1]، وهذا ما أراد الشّاري الإبانة عنه، ويحتجّ بأنّ أصحابه كانوا يزدرون بالكتائب من أجل وعيد الله بحسن العاقبة، وعظيم العطاء، فهذا الاستخفاف وسيلة تؤدّي لغاية تنتهي برضوان الله، والانتصار لدينه، والاندفاع نحو الاشتباك سعيًا إلى الفوز بثوابه، إذ إنّهم لا يبالون بالنّجاة إذا ثارت الحرب ، وحُمي الوطيس، فتراهم يلاقون السّيوف، ومطر السّهام بكامل أبدانهم ابتغاءً لمرضاة خالقهم، وكأنّه بذلك يشير إلى أنّ الموت في ميدان الجهاد وسيلة لها قيمة كبرى، وغاية مثلى، تتّصل بالسّعادة، وحسن العاقبة بعد لقاء المصارع.

جاء الخطيب بأسلوب متدفّق بالعاطفة الجائشة، والّتي تنبع من صدق العقيدة، والإيمان بالعقيدة الخارجيّة، وشدّة تعلّقهم بالمثل العليا الّتي نادى بها الدّين الإسلاميّ، ممّا استدرج فيه عاطفة المخاطبين نحو الخوارج لحملهم على الاعتقاد والتّسليم برؤى الخطيب، والإقرار بصلاح أتباعه على صغر سنّهم، فكانوا من الشّباب الّذين بلغوا رزانة الكهول بسداد رأيهم ونضوج عقلهم، ومن العاكفين على العبادات والطّاعات، المنتفضين للجهاد في كلّ الوقائع من أجل الظّفر برضوان الله، والفوز بجنّته، إذ نرى أنّ هذا الأسلوب القائم على التّصوير البارع، والخيال الواسع، حقّق الاستمالة والتّأثير في قلوب أهل المدينة بالتّعاضد مع المقاصد الغائيّة، بعد أن قام بتبكيت حججهم القائلة بفساد أصحابه، ودحض أسطورتها.

وتتفرع من الغائيّة حجج أخرى لا تقل أهمّيّة عن التّقانة الرّئيسة، وهي:

**أ-حجّة التّبذير.**

**ب-حجّة الاتّجاه.**

---

(1) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٤.

*فوّقت: أي أُعدّت للرّمي، أُشرعت: سُدّدت، أُنتضيت: أُستلّت، شبا الأسنّة:حد كلّ شيء، ظبة: حد السّيف.

**ج-حجّة التّجاوز.**

وسنسلّط الضوء على أبعادها الحجاجيّة ومؤثّراتها في الخطاب تباعًا، فهي حجج مهمّة في تحقيق الإقناع والتّسليم لدى المخاطبين.

**أ-حجّة التّبذير:**

لا ينبغي أن تُفهم هذه الحجّة فهمًا سلبيًّا بناءً على التّسمية التي جاءت بها، وإن كان ظاهرها يوحي إلى الحجج الزّائدة، والبراهين الرّابيّة على الحدّ، وإنّما يجب فهم التّبذير بالمعنى الّذي تتحدّد بمقتضاه مدى النّجاعة الحجاجيّة، والقوّة الإقناعيّة، لهذا النّسق من الحجج[١]، وتتمثّل صورة هذه الحجّة القائمة على الاتّصال والتّتابع دون الارتكاز على السّببيّة، بما جاء به (بيرلمان) من تبرير يقدّمه عادةً مالك البنك لشريكه الّذي أفلس، فيقول:" بما أنّنا شرعنا في إنجاز هذا العمل وضحّينا في سبيله بما لو عرضنا عن تمامه لكان مضيعةً للوقت وللجهد، فإنّه علينا أن نواصل إنجازه"[٢]، فزجّ هذه الحجّة يأتي بوصفها أداة تبرير استمراريّة الأعمال وتمريرها، إذ إنّ تركها يؤدّي إلى تبديد الجهد المبذول، فتكون الغاية منها إقناع المتلقي بالعزوف عن قرار التّرك لعمل قطع فيه عدّة مراحل، ليصل من خلالها الخطيب لنتيجة مقنعة جدًا، ولهذا تأتي بمعاني التّتابع الواقعيّ لضرورة استكمال شيءٍ ما على نفس الطّريق، وقد شاع هذا الصّنف من الحجج في خطب العصر الأمويّ، ومن ذلك ما جاء في مطلع خطبة الإمام الحسن(ع) في أصحابه بعد الصّلح، قوله:" **والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم، وأخرج من الشّرك أوّلكم، وحقن دماء آخركم، فبلاؤنا عندكم قديمًا وحديثًا أحسن البلاء، إن شكرتم أو كفرتم**"[٣].

---

[١] ينظر:الحجاج والبلاغة آفاق التأويل: ١٥٣.
[٢] الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٣.
[٣] جمهرة خطب العرب: ١٣.

يرى (بيرلمان) أنّ توظيف هذه الحجّة قد يأتي حينما يقوم الخطيب بالرّبط بين تضحية سابقة وأعمال لاحقة، وهذا ما سعى إليه الخطيب في هذه الخطبة، فقد كان يدعو أصحابه إلى الاستمرار بالتمسّك والاعتصام بمنهج النّبيّ(ص) وآله الأطهار؛ لأنّهم العروة الوثقى، الّتي كرّم الله بها المسلمين، وأخرجهم من ظلمات الشّرك والكفر، ومن ثم أشار لصنيع نفسه بحقن دمائهم، فبلاء آل محمد كان وما زال قائمًا، سواء شكروا أو أنكروا، فهذا التّتابع بالإشارة إلى معروف وإحسان آل بيت النّبوّة على المسلمين، يقتضي من الأصحاب المرابطة على الطّاعة لإمامهم، والثّبات على البيعة والهدى؛ ليوحي إليهم بضرورة الالتزام، واستمرار الاعتقاد بمنزلة الخطيب الدّينيّة، والإيمان بكلّ القرارات السّياسيّة الّتي عقد بها الاتّفاق مع معاوية، وإلّا ضاعت تضحيات النّبيّ(ص)، ورسالته السماويّة، فمنطلق الإمامة هو منطلق النّبوّة، فهي تنبثق من النبوّة، وتسير على خطّها الفكريّ والدّينيّ، ومن ثمّ تقوم بأداء الرّسالة بعد انتهاء مرحلة النّبوّة[1] في منظور العلويين، فلم يترك الإمام أيّ مجالٍ ليقيموا حجّة تناظر حجّته، أو تعترض على ما جاء به من حقائق الأمور، فإنّ الخروج عن ولايتهم سيكون حتمًا ضياعًا لدينهم، وإفسادًا لصلاحهم، وهتكًا لدمائهم، فالاستمرار على نهجهم نجاة، والقطيعة معهم هلاك.

ويمكن النّظر إلى الخطبة من زاوية أخرى لئلا نقع في مأزق المبالغة فيما قلنا أعلاه، فنقول: إنّ الحسن جاء بهذا التّتابع ليثبت للمخاطبين بأنّه سائر على طريق جدّه(ص) وأبيه(ع)، ومواظب على نهج المآثر والمناقب على الرّغم من ظروف الأحداث السّياسيّة المرتبكة آنذاك، الّتي آلت إلى انتقال الخلافة للبيت الأمويّ، حتّى يقنع السّامعين بأنّه لم يتوقف عن العمل بسيرة النّبيّ(ص) ووصيّه، سواء أشكروا ذلك أم أنكروه، من أجل إزالة الشّبهات الّتي تعلّقت في أذهان الأتباع والأصحاب

---

(1) ينظر:تيارات الفكر الإسلامي: ٢١٨.

حول جدوى القرار السّياسيّ، الّذي أدّى إلى حدوث انشقاقات في صفوف الأتباع، فهذه الحجّة كما يظهر يصعب رفضها؛ لأنّها رسمت صورة خطة العمل السّياسيّ للخطيب، وما يحظى به من منزلة ومرتبة يتعسّر نقضها من قبلهم، ولا خيار أمام الأتباع إلّا الاستجابة والإذعان للخطاب الحسنيّ.

ومن ذلك ما جاء في مقطع من خطبة الإمام الحسين في يوم الطفّ وهو يعقد حوارًا حجاجيًّا مع قيس بن الأشعث(٦٦هـ)، الّذي طلب منه أن يبايع يزيد، فقال الحسين:" **لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذّليل، ولا أقرّ إقرار العبيد**"[١].

نرى أنّ الخطاب الحسينيّ الاحتجاجيّ قام على ركيزة مهمّة تستوجب الإيمان باستكمال طريق الثّورة، الّذي يؤدّي إلى الشّهادة، لينهي ما شرع من أجله، فطبيعة الجواب الحسينيّ كان يعكس يقينًا بضرورة التّواصل والتّتابع على الاتّجاه الثّوريّ، فلن يبايع، ولن يقرّ مهما كلّف الأمر، وهذا ينفتح على مدى تمسّك الإمام بقدسيّة الخروج على جبابرة البلاط الأمويّ، إذ يعمل هذا الخطاب على استقطاب المخاطبين إلى التّصديق والاعتقاد بما يجري إليه الإمام من صلاح وإصلاح وتغيير، بعد أن أقسم بذلك، وقدّم له التّعليل والتّبرير، والتّدليل على صحّة موقفه المعارض لتولّي يزيد الخلافة.

وقد سارت خطبة أسماء بن أبي بكر(رض-٧٣هـ) في ولدها عبدالله على وفق هذا المنوال الحجاجيّ أيضًا، فقالت:" **أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنّك على حقّ واليه تدعو فامض له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بني أميّة، وإن قلت كنت على حقّ؛ فلّما وهن أصحابي ضعفتُ،**

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٥٣.

**فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدّين، وكم خلودك في الدّنيا؟ القتل أحسن، والله لضربة بالسّيف في عزّ، أحبّ إليّ من ضربةٍ بسوط في ذلٍّ"**[1]**.**

لله درّ أسماء رضوان الله عليها، فلقد أوجزت العبارة، وأوجبت الاستجابة، فسياق الخطاب الحجاجيّ جاء داعيًا عبدالله إلى مواصلة جهاد بني أميّة، والاستمرار في الدّعوة للحقّ والأمر بالمعروف، والمضي قُدمًا فيه، بعد أن قطع أشواطًا كبيرة في هذا الطّريق، الّذي قُتل عليه الأصحاب والأتباع، ولعلّ هذا أفضل بكثير من أن يترك المهمّة، وينسحب من المنازلة، وهي حجّة تقتضي ضرورة الثّبات والعزيمة، والاستعداد لمواجهة كتائب الجيش الأمويّ، وعدم السماح لهم بالتّمكين من إذلال رقبة ابن الزّبير، ولكي تقطع أسماء الطّريق أمام عبدالله نحو الشّعور بالانهزام والضّعف حتّى مع هوان الأتباع جعلت ذلك ليس بمصاف أفعال الأحرار، ولا أهل الدّين، فالخلود في الدّنيا محال، والقتل أحسن وأعظم شأنًا من الحياة في ذلّ، ويبدو أنّ هذا التّرغيب بالاستمرار نحو الاندفاع بالجهاد، ينبع من قلب أمٍّ يتأجّج بحبّ الله، والانتصار لدينه، فقد كان محفّزًا حجاجيًّا عاطفيًّا كبيرًا لإقناع الابن بضرورة التّواصل بمعارضة تندّد بفساد الحكم الأمويّ، الّذي طمس معالم الدّين، وأعلى منارة الشّيطان، وإلّا كيف تدفع أمٌّ ولدها، وفلذّة كبدها نحو حمِام الوطيس، ورؤوس الأسنّة؟!، وهذا ما جعل الابن في حالة انفعال تامّ، وفي اعتقاد مطلق بقدسيّة الاستمرار بالكفاح المسلّح ونقله من الحالة الوجدانيّة إلى الحالة العمليّة لمواصلة المشوار الجهاديّ حتّى مع ظروف صعبة كتلك الظّروف، فالانكسار والتّقاعس عن التّواصل والتّتابع في النّضال سيهدر كلّ التّضحيات في حال التخلّي عن ذلك، فتصبح كالهباء المنثور، ممّا يُحتّم عليه الالتزام بالموقف الجهاديّ لصون الجهود السّابقة من الاندثار والضّياع، فينبغي له أن يندفع نحو

---

[1] جمهرة خطب العرب: ١٧٨.

القيمة الايجابيّة النّاتجة من المضي في الاتّجاه نفسه، والثّبات على الموقف المعارض حفاظًا على المكتسبات السّابقة.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عتبة بن أبي سفيان(٤٣ هـ) بعد أن بلغه أنّ أهل مصر ينوون الثّورة، فقال**:" إنّ الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة، فأعطى كلّ ذي حقّ حقّه، وكان والله أذكركم إذا ذُكِّر بخُطّة، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقّه، نعمة من الله فيكم، ونعمة منه عليكم، وقد بلغنا عنكم نجمُ قولٍ، أظهره تقدّم عفوٍ منّا، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أُنس الحقّ، بإحياء الفتنة وإماتة السُّنن، فأطاكم لله وطأة، لا رمق معها حتّى تنكروا منّي ما كنتم تعرفون، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون، وأنا أشهد عليكم الّذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصّدور"**[١].

يشير الخطيب إلى مجموعة من المكتسبات السّابقة للمخاطبين بعد أن تربّع معاوية على عرش الخلافة، ليسعى من خلالها التّأثير على إراداتهم طوعًا أو كرهًا، ويحذّرهم من مغبّة تضييع تلك الأمور في حال خروجهم عن طاعة الخليفة، فمحتوى الخطاب جاء بجملة من النّتائج السّيّئة الّتي سيؤول إليها الخروج عن حكم البلاط، فهو يحاول أن يقنع المخاطبين بمواصلة الطّاعة، والثّبات على العهد؛ لأنّ المعارضة ستبدّد عليهم كلّ ما اكتسبوه من الحقوق مسبقًا، ولكي يزيد من نجاعة الحجّة راح يطلق نعت (وحشة الباطل) على الثّورة على حدّ تعبيره؛ لتضليل إراداتهم وتوجّهاتهم، فضلًا عن بثّ دبيب الخوف في نفوسهم من خلال التّهديد بالبطش، وتغيير كلّ السّلوكيات السّابقة الّتي كان يتعامل بها الوالي مع أهل مصر، حيث أنّهم سيعتقدون أنّ هذا ليس من فعال عتبة بن أبي سفيان، ونحن ندرك تمامًا

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢٢٠.

*نعمة: قد تكون منّة وهي تصحيف، نجم قول: من نجم الشّيء إذا ظهر وطلع، الرّمق:بقيّة الحياة، خائنة الأعين: المسارقة في النّظر إلى الحرام.

أنّ بلاغة العنف لها أثر كبير في قلب المعتقدات والآراء، وتغيير المواقف، وهذا الرّبط بين الأعمال السّابقة واللاحقة للثورة يدفع الثائرين إلى الإذعان والتّسليم لأوامر الخطاب الحجاجيّ المبني على عدم التّفريط بالمغانم السّابقة؛ فالرّعيّة لا شكّ أنّها حريصة على تلك المكتسبات، فهي لا تريد أن تخسرها في حال من الأحوال، ولا تدعها تذهب أدراج الرّياح، ونفترض أنّ الخطيب نجح في جعل المخاطبين في موضع نشاط عقليّ لدفعهم نحو تأمّلات ذهنيّة، وإقامة موازنات بين أوضاع الظّرف السّابق للثورة، وبين ما سيكون من أحداث تتبع النّهوض، فينبغي إذن أن يواظبوا ويستمروا على طاعة الخلافة الأمويّة، ونبذ الانتفاض، والاستمرار على الاعتقاد بشرعيّة خلافة البلاط، من أجل الحفاظ على تلك المنجزات الإيجابيّة، وعدم التّفريط بها بعد هذه الأشواط الكبيرة تحت ظلال الحكم الأمويّ.

ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز: **" أيّها النّاس: من ألمّ بذنب فليستغفر الله عزّ وجلّ وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب، فإنّما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال، وإنّ الهلاك كلّ الهلاك الإصرار عليها"**[1].

يشير (بيرلمان) إلى أنّ هذا النّسق من الحجاج يحضر كثيرًا عند الوعّاظ حين يدعون النّاس إلى ترك المعاصي، مؤكّدين أنّ باب الجنّة ما زال مفتوحًا أمام المذنبين؛ لأنّ الله غفّار رحيم مهما عظمت الذّنوب والآثام، فهم يعتمدون حجّة التّبديد، فبما أنّ باب التّوبة مفتوح وأنّ الله يمكن أن يغفر لهم ذنوبهم، فلماذا يضيّعون أو يبدّدون هذه الفرصة[2]، ولهذا يصرّ الخطيب على الاستغفار، ويلحّ على التّوبة، فباب الله لا يُسدّ ما داموا أحياء، وحذّر من مغبّة الإصرار على ارتكاب

(١) جمهرة خطب العرب: ٢٠٨.
(٢) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٤.

المعاصي والذّنوب المؤدّية إلى الهلاك، ليحملهم على اليقين والاعتقاد بمواصلة الاستغفار وطلب العفوّ في حال وقوعهم في معصية ما، فالمخاطبون يدركون صحّة هذا الخطاب الّذي يقتبس أفكار القرآن الّتي أكّدت هذا المعنى كثيرًا في سور كثيرة، فالإنسان مندفع نحو الوقوع في الخطيئة، إلّا أنّ ذلك لا يعني أن ينقطع عن طلب الغفران، والأوبة إلى الله، فالرّبّ ينظر لعباده بعين الرحمة قبل كلّ شيء، وقد سار الحسن البصريّ في إحدى خطبه الوعظيّة على شاكلة هذا النّسق الحجاجيّ(1)، وما قلناه هنا ينطبق عليها تمامًا.

وخطب حيان بن ظبيان(٥٩هـ) بعد مقتل زعيم الخوارج المستورد بن علفة قائلًا:" **أمّا بعد: فإنّ الله عزّ وجلّ كتب علينا الجهاد، فمنّا من قضى نحبه، ومنّا من ينتظر، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم، ومن يكن منّا من ينتظر فهو من سلفنا القاضين نحبهم؛ السّابقين بإحسان، فمن كان منكم يريد الله وثوابه، فليسلك سبيل أصحابه وإخوانه، يؤته الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة، والله مع المحسنين"(2).**

يستشف القارئ الكريم بأنّ ما يكمن وراء هذا الخطاب دعوى مبطّنة تطالب الخوارج بالتّواصل والمتابعة في الجهاد، فالخطيب كان يخشى أن يدبّ شعور الانكسار والاستسلام في نفوس المخاطبين، والانقطاع عن الاستمرار في النّضال المسلّح في سبيل إرساء الأسس الّتي قام عليها مذهبهم، والمثل والقيم الإسلاميّة العليا، الّتي كان يتشدّد لها الخوارج، فهم يجمعون على وجوب استمرار الثّورة ضدّ أئمّة الجور والفسق، إذ يرون أنّ الخروج وجوبي إذا بلغ عدد المنكرين على أئمّة الضّلال أربعين رجلًا، ويسمّون هذا الحدّ:(حدّ الشّراء)، أي الّذين اشتروا الجنّة

---

(1) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٨٨.
(2) جمهرة خطب العرب: ٤٤٣.

عندما باعوا أرواحهم، فعليهم وُجب الخروج حتّى يموتوا، أو يظهر دين الله، وتخمد معالم الكفر والجور، ولا يحلّ عندهم المقام والقعود، إلّا إذا نقص عدد المنكرين عن ثلاثة رجال، فإن نقصوا جاز لهم ذلك، وكتموا عقيدتهم[1]، ولهذا يحثّ الخطيب السّامعين على المداومة في الكفاح، والفناء من أجل الهدف والمبدأ، وبصورة بلاغيّة حجاجيّة تستنفر همم الخوارج، وتحضّهم على الاقتداء بالسّابقين، واستكمال ما شرعوا من أجله، وعدم الانفصال عن خطّهم الثّوريّ؛ حتّى لا تضيع تضحيات الأوّلين، ويبدّدون دماء شهدائهم سدى، ليحقّق التّيقين والاعتقاد لدى المخاطبين بصحّة الخطاب، ودفعهم إلى الإذعان لما أتى به من طروحات عقديّة تمسّ صميم العقيدة الخارجيّة، فضلًا عن تدعيم الطّاقة الحجاجيّة للخطاب بالاقتباس القرآنيّ{الأحزاب:آية٢٣}، الذي يُحظى بقدسيّة واضحة، وسلطة عليا في تضاريس الخارطة الفكريّة والعقديّة للخوارج، فجعله قوّة ضاغطة تنقلهم من حالة الشّعور النّفسيّ المنكسر إلى الحالة الانفعاليّة المحترقة بلهيب الحماس، والإيمان بضرورة المواظبة على درب الجهاد، وقتال السّلطة الحاكمة من أجل الفوز بثواب الدّنيا، ونعيم الآخرة، ولو تمعّنا قليلًا في الاقتباس القرآنيّ لوجدنا أنّ النّصّ القرآنيّ ينفتح كذلك على حجّة التّبذير، الّذي يدعو المؤمنين للوفاء بالعهد في البأساء والضّرّاء، والمضي على ما مضى عليه الأوّلون من الشّهداء، الّذين لم يبدّلوا تبديلًا، فما تردّدت نفوسهم، وما شكّوا في دينهم، ولم ينحرفوا عن صراط الشّهادة، لذا نرى أنّ لعنف العاطفة في الخطاب الخارجيّ أثرًا حجاجيًّا في إثارة انفعال الخوارج، وحملهم على الفعل والاعتقاد، فالخطاب وإن كان موجّهًا إلى العقل إلّا أنّه لا يحقّق التّأثير ما لم يعمل على استمالة الجوانب العاطفيّة، لاسيّما أنّ جذوة نفوس الخوارج كانت مستعرة الإيمان بالقضيّة الخارجيّة.

---

[1] ينظر: تيارات الفكر الإسلامي: ٢٢.

**ب-حجّة الاتّجاه:**

يسعى الخطيب الحجاجيّ إلى توظيف حجّة الاتّجاه حينما يكون في موضع التّحذير من عواقب إتباع سياسة المراحل التّنازليّة كالقول: إذا تنازلت هذه المرّة، سيتوجّب عليك أن تقدّم تنازلات أكثر في المرّة القادمة، والله أعلم أين ستقودك أو ستتوقف بك سياسة التّنازل هذه؟، وقد تأتي هذه الحجّة للتّحذير من منتهى شيوع ظاهرة ما، ممّا يسمّى بحجّة الانتشار، أو حجّة العدوى[١]، فيرى (بيرلمان) أنّ هذا النّسق يستهدف التّحذير التّدريجيّ حينما تكون هناك مسافة كبيرة تفصل بين مسلّمات المستمع ودعاوى الخطيب، وحتّى يحسن التّقريب بينها يلجأ إلى التّدرّج من (أ) إلى (ب) ومنها إلى (ج)، ليصل بنهاية الأمر إلى (د)، بدلًا من أن يصدم المتلقّي بالانتقال المباشر من(أ) إلى (د)، فالخطيب يعترض على الخطوة الأولى؛ لأنّها ستكون المنحدر الزّلق، الّذي لن يتوقف، وسيقود إلى تنازلات أخرى، تؤول إلى الاستسلام والانهيار[٢]، لذا تقوم هذه الحجّة على التّحذير من "المضي في اتّجاه يفضي إلى نتيجة في سلسلة من المراحل السّيّئة؛ كلّ مرحلة أسوأ من سابقتها؛ ممّا تقتضي من جهة وجود سلسلة من المراحل نحو هدف معيّن يتّسم غالبًا بأنّه مقلق، وتقتضي من جهة أخرى صعوبة إن لم يكن استحالة التّوقف ما دمنا مضينا في الطّريق الّتي توصّلنا إليه"[٣]؛ أي بمعنى أنّه في الأخير يستهدف تفادي هدف أو أمر غير مرغوب نتحاشى نتائجه، وقد حفلت خطب العصر الأمويّ بهذا النّسق الحجاجيّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة محمّد بن الحنفيّة في نصيحة لأخيه الحسين، قوله:" **إنّي أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار، وتأتي جماعته من النّاس،**

---

[١] ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٣.
[٢] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٥.
[٣] في بلاغة الحجاج: ١٦٠.

**فيختلفوا بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلوا فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأمّة كلّها نفسًا وأبًا وأمًّا أضيعها دمًا، وأذلّها أهلًا"**[١].

لا يخفى أنّ تحذير محمّد بن الحنفيّة جاء على وفق دفعات وخطوات مرحليّة، لوّحت للمخاطب بخطورة الموقف المنطوي على عدّة نتائج سلبيّة كما وضحّنا في موضع سابق، فشدّ الرّحال من المدينة إلى أحد الأمصار محفوف بالمخاطر، ولكي لا يباغت الحسين بالنّتيجة (ضياع الدم، ذلّ الأهل) بشكلٍ صادم يؤثر في نجاعة الخطاب، ويضعف من قوّة حجّته، عمد إلى إتّباع أسلوب الخطوات المتسلسلة، فهو يظهر خشيته عليه من وقوع الاختلاف والانقلاب بين النّاس فيكونوا طائفتين، يقتتلوا فيما بينهم، وضحيّة الاقتتال سيكون الحسين، وكلّ هذا مبني على ما يؤول إليه الخروج من المدينة لتلك الأمصار، في محاولة لإقناع الحسين بالبقاء، ومنعه من أمر المغادرة حتّى وإن كان ذلك الأمر مقبولًا أو حسنًا عند المتلقّي، فالتّحذير جاء بصور تدريجيّة كشفت عن سوء النّتائج، الّتي يريد الخطيب من المتلقّي تجنّبها، وتحاشي حدوث آثارها السّيّئة، وقد سارت خطبة زهير بن القين على شاكلة هذا النّسق في إقناع أهل الكوفة بنصرة الحسين، وخذلان عبيدالله بن زياد بناءً على خطوات التّنبيه والتّرهيب من سلوكيات الطّاغيّة عبيدالله[٢]، وما قلناه في هذه الخطبة ينطبق عليها تمامًا.

ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن عبّاس في الرّدّ على معاوية بعد أن قال معاوية:**" إنّ في نفسي لحزازات يا بني هاشم، وإنّي لخليق أن أدرك فيكم الثّأر، وأنفي العار، فإنّ دماءنا قبلكم، وظُلامتنا فيكم"**[٣]، **فقال ابن عبّاس:" والله إن**

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٣٥.
(٢) المصدر نفسه: ٥٤.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٩.

**رمت ذلك يا معاوية لتُثيرنّ عليك أُسدًا مُخدرة، وأفاعي مطرقة، لا يفثؤها كثرة السلاح، ولا تعضُّها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم، يضربون قُدُمًا قدُمًا من ناوأهم، يهون عليهم نُباح الكلاب، وعُواء الذّئاب، لا يفاتون بوترٍ، ولا يُسبقون إلى كريم ذكر، وقد وطّنوا على الموت أنفسهم، وسمت بهم إلى العلياء هممهم، كما قالت الأزديّة:**

**قومٌ إذا شهدوا الهياج فلا ضـــربٌ ينهنههم ولا زجــرُ**

**وكأنّـــــــهم آساد غينة قد غرثت وبلّ متونها القطـــــرُ**

**فلتكوننّ منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك، وكان أكبر همّك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طغامٌ من أهل الشّأم وقوك بأنفسهم، وبذلوا دونك مُهجهم، حتّى إذا ذاقوا وخزَ الشِّفار، وأيقنوا بحلول الدّمار، رفعوا المصاحف مستجيرين بها، وعائذين بعصمتها، لكنت شِلوًا مطروحًا بالعراء، تسفي عليك رياحُها، ويعتورك ذئابُها، وما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمتك، ولا إزالتك عن معقود نيّتك، لكنّ الرّحم الّتي تعطف عليك، والأواصر الّتي توجب صرف النّصيحة إليك"**[1].

تتوافق سياسة التّحذير التّدريجيّ تمامًا مع رغبات الخطيب في تغيير مسار موقف المتلقّي من دعوى ما، لاسيّما إذا كان هذا الموقف ينتهي إلى عواقب سيّئة جدًا لا تتماهى مع المساعي النّهائيّة، فيعترض عبدالله بن عبّاس في هذه الخطبة

---

*مخدرة:لزمت العرين، يفثؤها: يمنع أو يسكن غليانها، القدم:الشّجاع الّذي يمضي أمام أمام، ناوأهم:عاداهم.

[1] جمهرة خطب العرب: ١٠٩-١١٠.

*نهنهه عن الأمر:كفّه وزجره، الغينة: بالكسر الأجمة. وبالفتح الأشجار في سهل بلا ماء فهي غيضة، غرثت: كفرح جاع فهو غرثان، الحشاشة:بقيّة الروح في المريض والجريح، الطّغام:الأوغاد، العراء:الفضاء لا يستتر بشيء، سفت الرّيح التّراب: حملته وذرته، الأواصر: أصلها الأوامر وهو تحريف.

على اعتزام معاوية سلّ السّيوف ضدّ بني هاشم، فذلك سيقوده لنتائج لا يُحمد عقباها، وستؤول به في نهاية الأمر إلى ما ليس بالحسبان، فهي منطلق بداية النّهاية لخلافة معاوية؛ لأنّ ذلك سيثير نوازع الغضب لدى أسود بني هاشم، المتواريّة في عرينها عن الأنظار، الّتي لا تكترث بقعقعة السّلاح، ولا تحفل بالجراح، فسيوفهم ماضية في ضرب رقاب أعدائهم، ولا يبالون بنباح الكلاب، ولا يخافون الذّئاب، فهم السّبّاقون لكلّ فضيلة، وكريم ذكر، الواهبون للموت أنفسهم، السّامية للعلياء عزائمهم، وهذا الأمر يكوّن خطرًا حقيقيًّا على معاوية، ويصيّره إلى حال أشبه بحال ليلة الهرير، الّتي رام فيها الهروب للنّجاة من ضربات العلويين، فلولا أوغاد أهل الشّأم الّذين افتدوه بأنفسهم، ومن ثمّ ما لبثوا إلى الاستنجاد بحرمة المصاحف على رؤوس الرّماح بعد أن ذاقوا مرارة طعنات سيوف العلويين، فهذا المسار المتدرّج في رسم مشهد مقاتلي بني هاشم في حال تعرّضهم لأيّ اعتداء من معاوية، أسهم في مدّ الخطاب بطاقة حجاجيّة أثنت المتلقي عن موقفه المزمع؛ لأنّ الخطيب كان على يقين تامّ بصفات قومه، فسيوفهم حداد تحملها سواعد فتية أنجاد، وهذا ما بثّ الفزع في أحاسيس الخصم، وجعله يرتعد هلعًا ممّا قد يحدث فعلًا، لاسيّما بعد أن ذكّره بما صنعه هؤلاء الأعلام في ليلة صفّين، ولعمري أنّ الخطيب قد جهر بأنّ هذا التّحذير لا يأتي من رغبته بصرف معاوية عمّا عزم، وإنّما جاء من حقّ الرّحم العاطفة، أو حقنًا لدماء المسلمين جميعًا، والظّروف الّتي توجب النّصح، ولعلّ هذا أكّد أنّ تلك النّتائج يقينيّة وحتميّة متوقّعة في حال إصرار معاوية على قتال العلويين، فأسلوب عبدالله الحجاجيّ كان ناجحًا للغاية، فالانتقال من (أ) الّذي يمثّل نيّة معاوية على قتال بني هاشم إلى (ب)، الّذي يمثّل انتفاض قومه، ومنه إلى (ج) النّتائج المتحققة من ذلك الانتفاض وبصور مرحليّة، ليصل أخيرًا إلى (د) وهو يمثّل المرحلة الأخيرة، والخاتمة الانهزاميّة أمام العلويين، الّتي ستؤدّي إلى عزله عن

الحكم، والإطاحة به من عرش الخلافة، ويبدو أنّ هذا الشّيء روّع المتلقي، وحقّق مساعي الخطيب بإجهاض الحرب، وإطفاء نارها، وإرغام معاوية على العدول عن موقفه الأوّل لتحاشي حدوث هذه الوقائع.

وقد سارت خطبة عديّ بن حاتم الطّائيّ(٦٨هـ) في مجلس معاوية على وفق هذا المنوال كذلك، وفي موقفٍ مشابه لهذا الموقف، وما قلناه في خطبة عبدالله بن عبّاس ينطبق عليها تمامًا[١]، وكذلك خطبة الأحنف بن قيس التّميميّ(٧٢هـ) في مجلس معاوية[٢].

وحضرت هذه الحجّة في خطب الأمويين كذلك، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن زيد الأنصاريّ(٣٢هـ) أحد ولاة البلاط على الأمصار، وقد جنح أهل مدينة إلى الخروج لقتاله، قوله:**"أمّا بعد: فقد بلغني أنّ طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألت عن الّذي دعاهم إلى ذلك ما هو؟ فقيل لي زعموا أنّهم يطلبون بدمّ الحسين بن علي، فرحم الله هؤلاء القوم،....، وعلام يقاتلونني؟ فوالله ما أنا قتلت حسينًا ولا أنا ممّن قاتله، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه، فإنّ هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين، ليسيروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم، وأنا لهم على قاتله ظهير، هذا ابن زياد قاتل الحسين، وقاتل خياركم وأماثلكم،...، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم، فيقتل بعضكم بعضًا، ويسفك بعضكم دماء بعض، فيلقاكم ذلك العدوّ غدًا وقد رققتم"**[٣].

قد أبان الخطيب عن البراءة من دمّ الحسين، وذهب يعلن بأنّه ليس من قتلته المجرمين، ولا من الّذين قاتلوه، وحتّى يؤكّد ذلك بات يُثني على الثائرين، وأعطى

---

[١] ينظر: العقد الفريد: ج١: ١٢٨.
[٢] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٣٥٦.
[٣] جمهرة خطب العرب: ٦٥.

لهم الأمان في الخروج والظّهور للأخذ بثأره، إلّا أنّه حذّرهم ونهاهم عن الاقتتال الدّاخليّ، ووجّههم لقتال ابن زياد، قائلًا بأنّ الاستعداد لذلك أولى، وأكثر صوابًا من وقوع ذلك الاقتتال، الّذي سيؤدّي إلى ضعف قوّتهم أمام العدوّ، وهذا ما يسعى إليه الخصم حتّى يسهل عليه كسر شوكتهم، وإجهاض ثورتهم، فنلاحظ أنّ الخطيب جاء بالتّحذير من الوقوع في الخلاف فيما بينهم بعد أن حرف مسار الخطاب من التّبرّؤ إلى دقّة التّوجيه العسكريّ وكأنّه قائد الانتفاض؛ لأنّ الخلاف والانشقاق سيقودهم إلى العديد من النّتائج السّلبيّة، الّتي ستنهك قوّة بأس جيشهم، وتأخذ منه المأخذة الكبرى من صلابتهم قبل النّزال مع العدوّ، وهذا الأمر مطمع الطّاغية ابن زياد، الّذي سيدحرهم قبل تحقيق غايتهم بقتل كلّ من قاتل الحسين، وفي الحقيقة أنّ طبيعة هذه الانتقالات من البراءة إلى إعطاء الأمان، ومن ثمّ الانتقال إلى الحثّ على قتال ابن زياد، والتّحذير من عواقب وقوع الاقتتال الدّاخليّ قبل لقاء العدوّ، جاءت بخطوات متسلسلة واعية أسهمت في رفد الخطاب بشحنات حجاجيّة ناجعة، وأكثر إقناعًا من لو أنّه جاء بذلك دفعة واحدة يفقد فيها الخطاب طاقته الحجاجيّة المؤثّرة لتحقيق الغايات المرجوّة، فقد عمل هذا التّدرّج الحجاجيّ على تيقين السّامعين ببراءة الخطيب من دمّ الحسين من جهة، والاعتقاد بصحّة الخطاب التّوجيهي والإرشاديّ من جهة أخرى، ليحملهم على الفعل، والالتزام بما أبداه من توجيهات عسكريّة في غاية الأهمّيّة للوصول لمآربهم في قتل قتلة الحسين، والأخذ بثأره، فلو وقع القتال قبل ملاقاتهم العدوّ لأفضى ذلك إلى نتيجة من المراحل السّيّئة، وكلّ مرحلة أسوأ من سابقتها، فهذه الحجّة تقتضي من جهة وجود سلسلة من المراحل نحو هدف معيّن يتّسم غالبًا بأنّه سلبيّ وغير نافع[1]؛ بمعنى أنّه ينطوي على نتائج معاكسة للهدف المنشود من الثّوّار، ولهذا نهى الخطيب عن الوقوع في شرخ الانقسام

---

[1] ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٦٠.

وبخطوات مرحليّة أبانت عن التّكهّنات الخطيرة، الّتي ستجهض ثورتهم إذا ما حدث ذلك؛ فكان لزامًا عليهم أن يتمسّكوا بأوامر الخطيب إذا أرادوا الوصول إلى الغايات، لاسيّما أنّه جاء متناغمًا مع كتلتهم العاطفيّة (الباتوس)، وهذا من شأنه أن يترك فيهم ذلك الأثر لدفعهم نحو إنجاز الفعل، وإذا ما أردنا أن نرسم هذا التّدريج الحجاجيّ في الخطبة لكان وفق هذه الصّورة الآتية:

**قتال ابن زياد---المرحلة الأهمّ.**

**الخلاف الدّاخليّ--اقتتال داخليّ---سفك الدّماء--لقاء العدوّ بحالة ضعف--أمنية العدوّ----نتيجة عكسيّة لأهداف الانتفاض---خيبة الأمل وعدم إدراك الثّأر.**

وقد سارت خطبة عبد الملك بن مروان على وفق هذا المنوال في التّحذير من الوقوع في المعصية، ومضلّات الفتن، وما قلناه أعلاه ينطبق عليها تمامًا[1].

ومن ذلك ما جاء في خطبة عبيدالله بن زياد في الكوفة، قوله:**" أمّا بعد، أيّها النّاس: فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا، ولا تفرّقوا، فتهلكوا وتذلّوا وتُقتلوا، وتُجفوا وتُحرموا، إنّ أخاك من صدّقك، وقد أعذر من أنذر"**[2].

جاءت صيغة النّهي المنفتحة على لغة التّحذير من عواقب الاختلاف والخروج عن طاعة الخلافة بنتائج سلبيّة وسيّئة للغاية في حال وقوع ذلك، فهذا الأمر سيكون السّبب في وقوع (أ) الهلاك، والذّلّ (ب)، والحرمان من العطاء (ج)، لينتقل إلى المرحلة النّهائيّة (د)، الّتي تقتضي من السّامعين الخضوع التّامّ، والإذعان المطلق لمضامين الخطاب، والثّبات على الاعتصام بالخلافة الأمويّة، والامتناع عن نصرة الحسين؛ لأنّ ذلك سينتهي بهم إلى مصير مظلم جدًا، ويؤدّي لسلسلة من المراحل المعتمة، الّتي يجري التّخويف من نتائجها المظلمة، لكي يحاصر القيام الحسينيّ،

---

(1) جمهرة خطب العرب: ١٩٣.
(2) المصدر نفسه: ٣٩.

ومنعه من التّمدّد في أروقة الكوفة، ويرى (روبول) أنّ رفض أمرٍ ما حتّى وإن اعترفنا بأنّه مقبول وحسن في ذاته عند السّامعين؛ سيكون وسيلة حجاجيّة نافذة لمنع حصول غايات لا نريدها، ونتائج لا يرغب بها المخاطبون[1]، فلجوء الخطيب إلى هذه الحجّة كان يستهدف إبعاد أهل الكوفة عن الانتصار للثّورة الحسينيّة، وإجهاض كلّ الحركات المناصرة، بوصفها أعمالًا تؤدّي لنتائج يتحاشى أهل الكوفة حدوثها، فالنّهي عن الاختلاف والفرقة جاء لدفع الضّرر، الّذي سيؤول إليه الخروج عن طاعة البلاط الأمويّ، إذ يذهب مشبال إلى أنّ هذه التّقانة تحضّ المتلقّين على الالتزام الحتميّ، والّتي تدعو لعدم القيام بفعلٍ ما نظرًا لما يتركه من أضرار، ونتائج سلبيّة ينجم منها خطر كبير[2]، انطلاقًا من الاستمرار في هذا التّوجّه المعارض لحكم الخلافة.

ودخل رجل على هشام بن عبد الملك(١٢٥هـ) يومًا، **فقال:" يا أمير المؤمنين، أحفظ عنّي أربع كلمات، فيهنّ صلاح ملكك، واستقامة رعيّتك.قال: وما هنّ؟. قال: لا تعد عدّةً لا تثق من نفسك إنجازها، ولا يغرنّك المرتقى وإن كان سهلًا إذا كان المنحدر وعرًا، واعلم أنّ للأعمال جزاء، فاتّق الله، وأنّ للأمور بغتات، فكن على حذر"**[3].

أبان الخطيب عن خطّة الحكم الّتي يجب أن يعمل بها الخليفة، ويسير على منوالها في حال أراد الحفاظ على خلافته ورعيّته من الانحراف والضّياع، وحتّى يقنع هشام عكف على حجّة الاتّجاه القائمة على التّدرّج في التّحذير، والذّعر من عاقبة الوقوع في مآزق الحكم، فالخطوة الأولى(أ) جاءت حول إعداد العدّة، و(ب) دلّت على عدم الاغترار، و(ج) جاءت لإظهار جزاء الأعمال، والتّنبّه لعواقبها،

---

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٢٥.
(٢) ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٦٠.
(٣) جمهرة خطب العرب: ٥٠٧.

وصولًا إلى الخطوة(د)، التي انفتحت على دلالة في غاية الخطورة، بأخذ الحيطة والاحتراس، والتّوجّس الشّديد من لدن الخليفة، فهذه الخطوات المتدرّجة أضفت على الخطاب طاقة إقناعيَّة أبهرت الخليفة، ودفعته نحو التّصديق والعمل بها، اعتقاداً بصحّة أفكارها، والإذعان التّامّ لكلّ ما جاءت به من توجيهات مهمّة، استطاعت تخطّي كلّ الدّفاعات الاعتراضيّة للخليفة، وتجاوز عظمة كبريائه، فهذا المسار الحجاجيّ حقّق الإقناع انطلاقًا من الارتكاز على حجّة المخاطرة[1]، والنّهي عن أفعال ينجم عنها خطرٌ كبيرٌ يهدّد بلاط الخلافة، ويفسد الرّعيّة.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن مطيع العدويّ(٧٣هـ) في الكوفة، فخطب فيهم قائلًا:" **فاتّقوا الله واستقيموا، ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم، وإلّا تفعلوا فلوموا أنفسكم، ولا تلوموني، فوالله لأوقعنّ بالسّقيم العاصي، ولأقيمنّ درأ الأصعر المرتاب**"[2].

جاءت حجّة الاتّجاه التّحذيريّة معضّدة بلغة التّهديد والوعيد، فرفض ولاية الخطيب على الكوفة سيقود أهلها لجملة من الأضرار البالغة؛ لأنّ الرّفض سيكون وسيلة إلى غايات يتفادون حدوثها، ولهذا كانت حجّة مثيرة، استفزّت انتباه المخاطبين، وتدفع الاعتراض في نفوسهم، وتنهاهم عن التّمرّد والعصيان، بعد أن استطاع ابن مطيع حمل السّامعين على التّفكير والتّأمّل بما قد يحدث فعلًا باستنفار عواطفهم، ممّا يحقّق استجابة آنيّة من (باتوس) المعنيين بالخطاب بلغة عنف شديدة، ليدفعهم إلى إنجاز الفعل، وهو القبول بولايته على الكوفة، فاستدعاء الأهواء(الخوف والقلق) يصبح ناجعًا حجاجيًّا في الخطاب السّياسيّ عادةً لبلوغ الأهداف، وتمرير الدّعوى لصالح توطيد حكم الدّولة.

---

(١) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٦٣.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٧٦-٧٧.

وحضرت هذه الحجّة في خطب الخوارج كذلك، ولاسيّما في خطبهم في التّحذير من الدّنيا، فخطب قطريّ بن الفجاءة(٧٨هـ) على منبر الأزارقة **قائلًا:" أمّا بعد: فإنّي أحذّركم الدّنيا، فإنّها حلوة خضرة، وحُفّت بالشّهوات، وراقت بالقليل، وتحبّبت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزيّنت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرّارة ضرّارة، خوّانة غدّارة، وحائلة زائلة، ونافذة بائدة..."**[1].

لا يخفى على القارئ الكريم كيف تدرّج الخطيب في سلسلة التّحذير من الدّنيا، ويستمر لأسطر أخرى في تصوير تحوّلات قد تطيح بالإنسان إذا ما آمن لها، وركن إليها، لينتهي إلى نتيجة (د) لحمل الخوارج على الزّهد فيها، والعزوف عن ملذّاتها المؤقتة، والانصراف عن متاعها الزّائل، لذا كلّ نتائجها كانت عسيرة على الإنسان، فمصيرها الانقلاب والتّحوّل الدّائم فلا حال يدون فيها، بل هي موطن الفناء في نهاية الأمر، وكلّ أوضاعها لا تعرف الاستقرار، فأسلوب التّحذير الاعتراضيّ على الخطوة الأولى، التي قد تنبّه المتلقي من الوقوع في منحدر الدّنيا الزّلق قائم على سلسلة من التّكهّنات المستقبليّة، التي تحظى باتّفاق مسبق من لدن السّامعين، أسهم في تحقيق الإقناع، والاستجابة لفحوى الخطاب، والعمل بمضمونه انطلاقًا من الإيمان بهذه الحجج المتتابعة، إذ سعى بها الخطيب إلى إنزال اليقين في قلوب الخوارج بسوء عواقب الآمنين بالدّنيا، والواثقين بخلودها، فحجّة الاتّجاه تسعى لرفض موقفٍ تأويليّ بما سيؤول إليه من أمور، فلا يمكن أن يكون الخوارج على ثقة من الأيّام، ومرتعين في وهمها، ومطمئنّين لأحوالها، لئلّا يقعوا في فخاخها الّتي تبعدهم عمّا ينشدون في طلب الآخرة؛ لأنّها ستكون الوسيلة المؤدّية لنتيجة لا تُحمد عقباها، وترفضها نفوسهم رفضًا قاطعًا، لذا يقتضي عليهم أن يراقبوا نفوسهم،

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٥٤-٤٥٥.

*درأ:الميل والعوج في القناة، الأصعر:ميل في العنق وانقلاب في الوجه، وبتشديد العين تكبّر وإعراض.

وعدم إيكالها إلى رغباتها العارمة في الشّهوات؛ خوفًا من انتشار هذه الظّاهرة؛ لأنّ سلسلتها إذا بدأت لن تنتهي، وستفسد المنظومة العقديّة للخوارج، ولن يعرفوا إلى أين ستأخذهم في نهاية المطاف، إذ إنّ رفض أمرٍ ما بما سيؤول إليه من نتائج سلبيّة، سيجعل من المتلقي في حالة إقناع طوعيّ، وإيمان إراديّ بموقف الخطيب من قضيّة ما، والاعتقاد بدعواه(1)، وقد سارت خطب الحسن البصريّ(رحمه الله) الوعظيّة على وفق هذا المنوال الحجاجيّ كذلك(2)، وما قلناه في الخطب السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

## ج-حجّة التّجاوز:

إذا كانت حجّة الاتّجاه تقوم على التّحذير من مصير عمل قد يورّطنا في منزلق نخشى نهايته وعاقبته، فإنّ حجّة التّجاوز تؤدّي إلى إمكانيّة الذّهاب أبعد في اتّجاه معيّن، بدون أن يُستشف من هذا الاتّجاه حدودًا أو نهايات، وذلك مع إعلاءٍ يتزايد باستمرار لقيمة ما. ومن ذلك قول الأستاذ لتلامذته: كلّما اجتهدتم أكثر، كان ذلك أفضل(3)، بمعنى أنّها في جوهرها" تؤكّد إمكانيّة السّير دائمًا نحو نقطة أبعد في اتّجاه ما دون أن نلمح للسّير في ذاك الاتّجاه حدًّا وذلك بفضل تزايد مطّرد في قيمة ما"(4)، فهذه الحجّة تقوم على عدّ أمر ما، أو حدث ما عُدّ عائقًا، أو عقبة مجرّد وسيلة لبلوغ مستوى أعلى للقيمة، وما عدّ إشكالًا مجرّد أمر عارض يمكن خلافًا للظّاهر توظيفه للوصول إلى الغاية الموسومة من الخطاب(5)، ومن ذلك ما جاء في خطبة المختار الثّقفيّ(٦٧هـ) في أهل الكوفة بعد هرب والي الزّبيريين، قوله**:" ألا**

(1) ينظر:الحجاج والبلاغة وآفاق التاويل: ٢٨٧.
(2) ينظر:جمهرة خطب العرب: ٤٩٢-٤٩٤.
(3) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٧٦.
(4) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٢٦.
(5) المصدر نفسه: ٢٢٦.

**فادخلوا أيّها النّاس فبايعوا بيعة هدى، فلا والّذي جعل السّماء سقفًا مكفوفًا، والأرض فجاجًا سُبلًا، ما بايعتم بعد بيعة عليّ بن أبي طالب وآل عليّ أهدى منها"**[١].

تظهر البنية الحجاجيّة في هذه الخطبة مستندة إلى حجّة التّجاوز، وحتّى يرفد الخطيب البيعة بالشّرعيّة الدّينيّة، جعل منها ذات أهمّيّة عقديّة كبرى، ومنفتحة الفضاء وغير محدودة القيمة؛ لكونها تحثّهم على المضي بالمبايعة، فيبدو واضحًا أنّ عدم الدّخول لخيمة المبايعة يضع عائقًا أمامهم من أجل الظّفر بذلك الأمر، فهي المبايعة الأكثر هداية إلى سبيل الحقّ والرّشاد بعد بيعة الإمام عليّ(ع)، فالحضّ على اتّجاه المبايعة وشّح الخطاب بلون حجاجيّ منفتح الأبعاد على قيمة مطّردة الزّيادة(أهدى منها)، ومُعضّدة بالقسم، ممّا يدفع السّامعين إلى الإذعان والتّسليم بدعوى المختار، الّذي يظهر أنّه كان في حالة اندفاع عاطفيّ (إيتوسيّ)، لكي يوقع التّصديق في قلوب الأتباع كذلك بوساطة (الباتوس)؛ لما جاء به من ترابط فكريّ إقناعيّ في الخطاب، والّذي ترك أثرًا بالغًا على أهواء المخاطبين، واستقطبهم نحو الغاية المقصودة، فيرى (والطون) أنّ للانفعالات أثرًا مهمًّا في الحوار الإقناعيّ، ويعدّه حجّة لا تفتقر إلى سند عقلانيّ على أن لا يسهب بها المتكلّم[٢]، وحريٌّ بنا أن نشير إلى أنّ الخطيب يتحلّى بمصداقيّة عاليّة في نفوسهم، ولا شكّ أنّ المتلقّي أكثر استجابة، وأسرع إذعانًا نحو الأشخاص الأخيار[٣]، انطلاقًا من الإيمان بشخصيّة الخطيب، والاعتقاد بها.

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٨٥.
(٢) ينظر:الباتوس:من الخطابة إلى تحليل الخطاب:بحث: ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، د.حاتم عبيد: ٧٢.
(٣) ينظر: الخطابة: ٣٠.

ومن ذلك ما جاء في خطبة التّوّاب سعد بن حذيفة بن اليمان(٣٧هـ) في شيعة المدائن، إذ قال: **" أمّا بعد فإنّكم قد كنتم مجمعين مزمعين على نصر الحسين، وقتال عدوّه، فلم يفجأكم أوّل من قتله، والله مثيبكم على حسن النّيّة، وما أجمعتم عليه من النّصر أحسن المثوبة، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدّونكم، ويدعونكم إلى الحقّ والى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ، فماذا ترون؟ وماذا تقولون؟. فقال القوم أجمعهم: نجيبهم ونقاتل معهم، ورأينا في ذلك مثل رأيهم"**[١].

يستند البعد الفكريّ في هذا الخطاب إلى الحضّ على نصرة أصحاب سليمان بن الصّرد في ثورة التّوّابين بعد أن أرسل هذا الأخير كتابًا إليهم يستنهض فيه هممهم، ويدعوهم للاستعداد لإدراك ثأر الحسين، فما كان من سعد إلّا أن يوجّه إليهم هذا الخطاب القائم على حجّة التّجاوز، ليحثّهم على الاستجابة لإخوانهم الشّيعة في الكوفة، فتلبية النّداء تنفتح على قيمة غير محدّدة، بل إنّها الوسيلة إلى أفضل ما تطمح إليه نفوسهم من الجزاء والرّجاء، والتّخاذل عن التّلبيّة يعدّ عائقًا أمام هذا المنال الأعظم حظًّا وقيمةً، ليحمل السّامعين على الاستجابة والإذعان لدعوى الخطيب، ويرى الدّكتور محمّد مشبال أنّ المبالغة في هذه الحجّة تعدّ ملمحًا أسلوبيًا بارزًا، يعمل على تكثيف الطّاقة الحجاجيّة للخطاب[٢]، لذا وجدنا أنّ الخطبة كان فيها من التّفخيم والتّعظيم لشأن الثّائرين الشّيء الكثير، ومن ذلك صيغة التّفضيل(أفعل) حاضرة في طيّات الخطاب لإعطاء دلالة قيمة مطّردة تثير وجدان السّامعين(الباتوس الإيجابيّ)؛ بوصفه موجّهًا للإرادة والقرار بعد إثارة الانفعالات ليكون وسيلة الإقناع، التّي تنقل المخاطبين من الحالة الشّعوريّة إلى الحالة العمليّة

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٦٢.
[٢] ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٦٢.

بناءً على تصوّرات عقديّة جاءت ضمن الخطاب، إذ يقول (بيرلمان):"إنّ حجاجًا ناجعًا هو الّذي ينجح في مضاعفة كثافة التّصديق هذه على نحو يثير عند السّامعين الفعل المتوخّى (فعل إيجابيّ، أو الامتناع)، أو على الأقلّ، أن يخلق لديهم الاستعداد للقيام بالفعل، الّذي سيتجلّى في اللحظة الملائمة"[1]، فيعمل هذا على التّأثير في القرار المزمع اتّخاذه إزاء النّداء، فما كان منهم إلّا الطّاعة والاستجابة لإخوانهم في الكوفة فور انتهاء الخطيب من خطبته.

ولم تغب هذه الثّقانة الحجاجيّة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن عصام الأشعريّ يحضّ معاوية على تعيين يزيد خليفةً للمسلمين من بعده، إذ **قال:" وقد هُديت ليزيد في أكمل الأمور، وأفضلها رأيًا، وأجمعها رضًا، فاقطع بيزيد قالة الكلام، ونخوة المبطال، وشعث المنافق، واكبت به الباذخ المعادي، فإنّ ذلك ألمّ للشّعث، وأسهل للوعث، فاعزم على ذلك، ولا تترامى بك الظّنون"**[2].

جاء مناخ الخطبة العامّ بمراحل تدرّج لا نهائي للقيمة، الّتي يريد بها الخطيب الوصول للمبتغى الموسوم، ألا وهو تنصيب يزيد(خليفةً للمسلمين)، فذلك الأمر يمتلك قيمًا متزايدة الفائدة؛ لأنّه سيقطع به أقوال القوّالين والمرجفين، ومسالك المنافقين، وسيصرع المتكبّرين، فيزيد وسيلة الجمع والوحدة للمسلمين، ويبدو في الظّاهر أنّ العدول عن هذا القرار يعدّ عائقًا أو إشكالًا للوصول إلى كلّ هذه المنافع والقيم، ليصرّ على المتلقّي بإمكانيّة المضي والتّجاوز في اتّخاذ هذا القرار مع إعلاء

---

(1) في بلاغة الحجاج: ٢٦٢.

(2) جمهرة خطب العرب: ٢٤٠.

*قالة الكلام: جمع قائل ويعني القال والقيل، نخوة المبطل: الكبر والعظمة، كبته:صرعه وأذلّه، بذخ: بمعنى المتكبّ ر والمتعالي ويأتي بمعنى شرف باذخ عال، الوعث: وعث الطّريق وتعبه وصعوبته على السّالك.

مرحليّ متصاعد للقيمة الّتي تمثّلها خلافة يزيد، لاسيّما أنّه مدّه بطاقة حجاجيّة جاءت بمحمولات إيجابيّة للمجتمع الإسلاميّ في حال خلافته، فكلّ هذا التّحشيد لقيم الخلافة اليزيديّة المتزايدة جاء من أجل حمل معاوية على الفعل، والإيمان بصحّة الخطاب المزعوم في أحقيّة يزيد في تولّي شؤون أمر المسلمين من بعده، ولكي يكون الخطاب أكثر إقناعًا أتى بموجبات حجاجيّة غير منتهية القيمة، والّتي انفتحت على قضايا منافع عامّة للمسلمين توجب التّصديق والتّيقين، وتجعل الإدراك البديهيّ لمعاوية يؤمن بشرعيّة هذا القرار، والاتّفاق مع تصوّرات الخطيب بعد الاستدراج الحجاجيّ القائم على حجّة التّجاوز، الّتي انتقلت من نتيجة نافعة إلى أخرى أكثر نفعًا، وغير محدودة القيمة، فالحثّ إنّما جاء اجتلابًا للمنافع والفوائد، وسعيًا إلى إنتاج الفعل، ليسهم في بناء المنفعة العموميّة؛ ولهذا السّبب جاءت الصّياغة اللفظيّة للحجّة مُفخّمة ومُضخّمة بدلالات اجتماعيّة وسياسيّة تحمل على القيام بالفعل، الّذي يستهدف في جوهره بلوغ الأهداف المرسومة، وضرب كلّ الخلافات الّتي كانت مستعرة بشأن خلافة يزيد.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة غيلان بن مسلمة الثّقفيّ في مجلس الوليد بن عبد الملك بعد وفاة أبيه، قوله: **" يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رُزئت خير الآباء، وسمِّيت خير الأسماء، وأُعطيت أفضل الأشياء، فعظّم الله لك على الرّزية الصّبر، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر، وأعانك على حسن الولاية والشّكر، ثمّ قضى عبد الملك بخير القضيّة، وأنزله بأشرف المنازل المرضيّة، وأعانك من بعده على الرّعيّة"**[1].

إنّ هذا اللون من الخطب الّذي يجمع بين التّعزيّة والتّهنئة قد حضر في العصر الأمويّ بشكلٍ ملحوظ، وهذه الخطبة جاءت متدفّقة بالطّاقة الحجاجيّة القائمة على

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٢٦٥.

حجّة التّجاوز، ولكي يكسب الخطيب رضا المتلقي ركن إلى توجيهه نحو جملة من الأمور، انفتح كلّ أمر على تصعيد في الزّيادة للقيم المكتسبة منها، فالصّبر خطوة لزيادة الجزاء والثّواب، والإيمان بالقدر وسيلة للحصول على زيادة في الأجر، فالخلافة قيمة لا تحدّها حدود من حيث المنزلة الاجتماعيّة والدّينيّة في المجتمع الإسلاميّ، ففداحة المصاب كانت السّبيل إلى جائزة (الخلافة) لها قيمة متصاعدة، والرّضا بها أمر لابدّ منه، والاعتراض عليه يبني عائقًا أمام وصوله إلى المكانة الأسمى، ولا شكّ في أنّ أمر الخلافة ينفتح على قيم أخرى ذات فضاء واسع المنافع، وينطوي على تزايد مستمر للقيمة، فالوليد بات يُنادى بخير الأسماء (أمير المؤمنين)، وأصبح له الشّأن الأعظم، فحجّة التّجاوز نقلته من حالة الأسى والتّحسّر لحالة النّشوة والابتهاج بما أُوتي له من المنافع والفوائد على الرّغم من موت عبد الملك، فجاء الخطاب الحجاجيّ لدعوة المتلقّي إلى تجاوز المحنة مع أنّه منشطر على حالين يحاول الموازنة بينهما: (التّعزيّة، التّهنئة)؛ لأنّ ذلك سيعود عليه بمفازات ذات خطر عظيم غير محدود، ليحمل الوليد على التّيقين والاعتقاد بدعوى الخطاب، وما جاءت به من رؤى تسرح بالذّهن الى اللانهائيّ من القيم، الّتي يُجبل على تصديقها بشكلٍ طبيعيّ وإراديّ بعد كلّ هذه الموجّهات التّيقينيّة، الّتي تعمل على إنزال القناعة التّامّة، والإذعان المطلق في نفس المخاطب بمضامين الخطاب(اللوغوس)، المستند لوسائل أسلوبيّة مكثّفة من المقابلة، والمبالغة المستحسنة لتضمن الاندفاع الوجدانيّ والعقليّ في نفس المخاطَب، فالأسلوب الناجع هو الّذي يظهر فيه الخطيب بصورة حيويّة؛ أي بمعنى أن يكون معبرًا ويقظًا ومدهشًا[١]، لاسيّما في مقام صعب كهذا المقام، الّذي يتطلّب فطنة وحصافة عالية، ويقظة عقليّة وعاطفيّة تتوافق مع حال المتلقي، لتتبلور من ذلك عمليّة الإقناع

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٣٠٤.

المتأتّية من التّواتر اللفظيّ المتصاعد من أجل زيادة تأثير البنية الحجاجيّة للخطاب، وقد سارت أغلب خطب الجمع بين التّهنئة والتّعزيّة على هذا المنوال الحجاجيّ في خطب الأمويين[١].

وقد حضرت هذه الحجّة في خطب الزّبيريين كذلك، ومن ذلك ما جاء في خطبة حمزة بن عبدالله بن الزّبير حينما انتقص ابنٌ له من الإمام عليّ(ع)، فقال له أبوه: **" يا بنيّ! إنّه والله ما بنت الدّنيا شيئًا إلّا وهدمه الدّين، وما بنى الدّين شيئًا فهدمته الدّنيا، أما ترى عليًّا وما يظهر بعض النّاس من بغضه ولعنه على المنابر، فكأنّما والله يأخذون بناصيته رفعًا إلى السّماء!! وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين النّاس، وكأنّما يكشفون عن الجيف!!؟"**[٢].

الشّاهد قوله:(أما ترى عليًّا وما يظهر .....إلى السّماء)، إذ عمد حمزة إلى زجر ابنه وردعه عن هذا الفعل متّكئًا في ذلك على حجّة التّجاوز، وكأنّه يلمّح بل يؤكّد أنّه كلّما شُتمَ عليٌّ(ع) ارتقت منزلته، وصعد علياؤها إلى السّماء من غير أن يشعر بذلك المروانيّون، فالقيمة في تصاعد مطّرد مع ذلك الصّنيع من الشّتم، والسّبّ واللعن، ويظهر أنّ هذه القيمة في ازدياد مستمر مع استمرار تلك الأفعال، إلّا أنّه في الحقيقة يأبى أن تبدر إساءة منه بحقّ الإمام بأيّ حال من الأحوال، فالخطيب أراد أن يكفّ ولده عن العودة لمثل هذا الأمر، ولوّح له بأنّ عليًّا من معالم الدّين فلن تستطيع الدّنيا وأهلها أن يهدموا هذا الصّرح المبين، أمّا المروانيّون فهم من معالم الدّنيا الّتي سيهدمها الدّين عاجلًا أو آجلًا، ممّا يجعل المتلقي في جوٍّ من التأمّل والتّفكّر في مضامين الخطاب ومدى مغالطته الكبيرة في التّعرّض لمثل هذه الشّخصيّة بسوء،

---

[١] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٦٣-٢٦٥.
[٢] العقد الفريد: ج٣: ٢٧٨.

الّذي انفتح على أنساق دينيّة وسياسيّة قد تكون مضمرة ومخفيّة عن ذهن المخاطَب بسبب التّضليل الإعلاميّ، الّذي شهده ذلك العهد.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في خطبة الزّبير بن عليّ السّليطيّ في الأزارقة بعد واقعة (سلى)، فرأى فيهم انكسارًا شديدًا، وضعفًا واضحًا، فقال لهم: اجتمعوا، فخطب فيهم بعد الحمد والثّناء، والصّلاة على رسول الله قائلًا: **" إنّ البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ، وهو على الكافرين عقوبة وخزيّ، وإن يصب منكم أمير المؤمنين، فما صار إليه خير ممّا خلّف،...، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين{إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله، وتلك الأيّام نداولها بين النّاس}{آل عمران: آية ١٤٠}، فيوم سلى كان لكم بلاءً وتمحيصًا، ويوم سولاف كان لهم عقوبةً ونكالًا، فلا تغلبنّ على الشّكر في حينه، والصّبر في وقتهن وثقوا بأنّكم المستخلفون في الأرض، والعاقبة للمتقين"**[1].

إنّ لجوء الخطيب إلى استعمال نسق الخطاب الدّينيّ في هذه الخطبة جاء منسجمًا مع الحالة النّفسيّة المتقهقرة الّتي يمرّ بها الخوارج، ولكي يردم الفجوة المعنويّة ذهب إلى توصيف يوم(سلى) بيوم اختبار إلهيّ لزيادة الجزاء في هذا الاتّجاه، لإجهاض روح الانفكاك عن الخطّ الثّوريّ الخارجيّ، في وضع يخالف بقيّة الأحزاب، الّذين كُتبت عليهم الذّلّة والعقوبة الإلهيّة، فيظهر أنّ الهزيمة في تصوّر الخطيب وإن كانت إشكالًا سلبيًّا في رؤى الخوارج في طبيعة فهمهم الإدراكيّ، إلّا أنّها كانت بابًا منفتح القيمة لا يحدّه حدٌّ، ومطّرد الفائدة، فالجزاء الإلهيّ أكبر من أن يكون له أفق محدود، وعطاء مجذوذ، فكلّما كان الابتلاء أكبر ازدادت المكافأة، وتوسّع الجزاء، فاستشهاد أميرهم قد صيّره الخطيب إلى قيمة كبرى تتمثّل بالخير المطلق، ولا شكّ أنّ المقصود بذلك الخير هو (الجنّة) في معتقدات الخوارج الدّينيّة

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٤٥١.

والعقديّة؛ ليتخطّى بذلك كلّ الدّفاعات الاعتراضيّة المحتملة، الّتي قد تصدر ضدّ هذه التّصوّرات، إذ إنّ بثّ هذه الأفكار العقديّة ساعد في انتشال الخوارج من الحالة الشّعوريّة المنكسرة إلى الحالة المنتشيّة والمندفعة لتجاوز هذه النّكسة، لاسيّما أنّ الخطيب عمد إلى مدّ خطابه بطاقة حجاجيّة قرآنيّة أكّدت على مضمون التّجاوز لحالات الانهيار والانهزام، وأثبتت وقوع الضّرّ على المؤمنين كسائر وقوعه على الكافرين، ولكنّ هذه الحالات ما هي إلّا بمثابة الاختبار الرّبّانيّ، الّذي يدفع السّامعين إلى تخطّي هذه الحادثة سعيًا إلى الزّيادة في الأجر والعطاء، والتّوجّه نحو الشّكر على الثّواب، والصّبر على البلاء مهما كان ضرره، والاستمرار على نهج الثّورة حتّى بعد الانكسارات طمعًا بالمنافع الكبرى وتصاعد قيمتها، فهم خلفاء الله في الأرض، ولا شكّ أنّ هذه الأفكار والرّؤى عملت على ترميم التّشقق المعنويّ لدى الخوارج، وأنزلت الاعتقاد في قلوبهم، بل بلور لديهم نشوة روحيّة تؤمن بأنّ كلّ شيء كان مقدّرًا من السّماء، لنزع طوق الانكسار من أعناقهم، واستنهاض هممهم ضدّ السّلطة الجائرة من جديد، وإجهاض كلّ الأفكار السّلبيّة الّتي قد ساورت نفوسهم بعد تلك الواقعة.

# الفصل الرّابع

## بلاغة الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع

- توطئة
- المبحث الأوّل: الاستدلال بوساطة الحالات الخاصّة (المثال، الاستشهاد، الأنموذج وعكس الأنموذج).
- المبحث الثّاني: الاستدلال بوساطة بنية المشابهة والعلاقات الحجاجيّة.

## توطـــــئة

يرتبط هذا النّوع من الحجج بصلة وثيقة بالواقع، ولكنّ حجّته لا تتأسّس عليه، ولا تنبني على بنيته، فتقوم هي بتأسيس هذا الواقع وتبنيه، أو على الأقل إكماله، وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه، أو تكشف ما لم يتوقّع من هذه العلاقات، وما لم يُنتظر من صلات بين عناصره ومكوّناته[١]، فإذا كانت الحجج المؤسّسة على بنية الواقع تكتفي بالرّبط بين وقائع متعايشة، أو متتابعة، فإنّ الحجج هنا ترتكز على الجمع بين أحداث وأشياء مترابطة مكانيًّا، أو زمانيًّا، أو رمزيًّا، حيث نستدلّ على شيء بشيءٍ آخر يرتبط معه بصلة ما[٢]، وسنتحدّث عن تقانتين في الاستدلال المؤسّس لبنية الواقع، إذ سنتناول هذا النّوع على مبحثين: الأوّل: تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة، وتتضمّن:(المثل، والاستشهاد، الأنموذج، وعكس الأنموذج)، والثّاني: الاستدلال بوساطة بنية المشابهة (التّشبيه، الاستعارة)، والعلاقات الحجاجيّة (التّتابع، السّببيّة، الاقتضاء، الاستنتاج)، إذ تعمل حجج الحالات الخاصّة على تكوين مناطق استهواء في الخطاب لاستقطاب قناعات المخاطبين سواء أتعلّق الخطاب بموقف قضائيّ قائم على الدّفاع أو الاتّهام، أم بموقف احتفاليّ يقوم على المدح والذّمّ، أم بموقف استشاريّ قائم على الحضّ والنّهي بين طرفي العمليّة التّواصليّة في تقديم الوقائع[٣]، أمّا حجج بنية المشابهة فتتوخّى إحداث الفعل اللازم أو الاستعداد للقيام بالفعل بعيدًا عن منظور التّأثير الجماليّ كما يرى بيرلمان، فهي قوّة إنجازيّة توقظ انتباه القارئ وتوجّهه، بل

---

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٤٢.
(٢) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، منشورات دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرباط، ٢٠٠٥م :٣٩٩.
(٣) ينظر: في بلاغة الحجاج:١١١.

وتجعله يستجيب بالمفهوم العمليّ لمضامين الخطاب[١]، وتحمله على الإذعان، في حين تقوم العلاقات الحجاجيّة على مسار برهانيّ محدّد في تحقيق الإقناع، وصناعة التّأثير في فضاء منطقيّ أو شبه منطقيّ مُعقّد كما ترى الدّريدي.

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٣٠.

# المبحث الأوَّل

## الاستدلال بوساطة الحالات الخاصّة

### ١-المثال:

ويأتي المثال عادةً في الأوضاع الخاصّة، الّتي تغيب عنها المقدّمات، فالمحاجّة بواسطة المثال تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القاعدة، الّتي جيء بالمثال من أجل زيادة حضورها ودعمها وتعزيزها، إذ يمكن لنا أن نضرب مثالًا من عندنا يعتمد مثال (أرسطو) عند الحديث عن المثال فكأن نقول: زيد الملك جنح للطّغيان؛ لأنّه طلب أن يكون له حرس خاصّ هو قاعدة خاصّة يؤتى لدعمها بمثل ملكين سابقين هما عمرو والحارث فقد طلبا حرسًا خاصًّا وأصبحا بواسطته طاغيتين[١]، وفي هذه الحالة نحن مررنا من حالة خاصّة لزيد إلى حالة خاصّة أيضًا هي عمرو والحارث، وهو ما يسمّيه (بيرلمان) بالحجاج من الخاصّ إلى الخاصّ، إذ دعمت الطّاقة الحجاجيّة لمثال الملكين السّابقين بناء قاعدة خاصّة أفرزت قانونًا، ففي المثال السّابق تكوّنت القاعدة، وراحت تأخذ أبعادًا ثابتة وتنتهي إلى نتيجة: طلب الملوك حرسًا أمارة جنوح للطّغيان، والمثال كما نرى يؤتى به لتأسيس القاعدة؛ ولذلك يكون سابقًا لها في العادة[٢]، فـ(أرسطو) يعدّ المثال شبيه بالاستقراء، والاستقراء مبدأ استدلاليّ، ينتقل من حالة خاصّة إلى التعميم، أمّا المثال فهو استدلال يبقى في ضمن إطار علاقة الخاصّ بالخاصّ؛ أي بمعنى إنّنا نستنتج شيئًا متعلّقًا بحالة خاصّة انطلاقًا من حالة خاصّة من الجنس نفسه، وتكون أكثر شيوعًا وشهرةً من الأولى[٣]، والمثال كما يبدو يقوم على تشابه موقفين، أو موضعين ينقل الخطيب حكم الموقف

---

(١) ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٣٧.

(٣) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروطون، جيل جوتيه، ترجمة: د.محمد صالح، مطابع جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، ط١، ٢٠١١م: ٥٣-٥٤.

السّابق إلى اللاحق، بوصفه المؤسّس للقاعدة الّتي يريد الخطيب الدّفاع عنها لتسويغ حالة خاصّة، بهدف زيادة حضورها في منزلة الدّعوى، أو الرّأي ضمن فضاء خاصّ"المرور من الحالة المتمثّل بها إلى الحالة الممثّل لها يحصل بوساطة القاعدة العامّة الضّمنيّة، الّتي تفيد أنّه عندما يحدث مثل هذا الشّرط نكون بصدد هذه النّتيجة! أي إنّ منح حرس خاصّ لمتلهّف على السّلطة يقود إلى الطّغيان"(١)، ولم يذهب (بيرلمان) بعيدًا عن هذا إلّا في تفسير بعض القضايا الفلسفيّة للمثال، فحسب رؤيته أنّ المثال يأتي لتوضيح قاعدة معروفة ومسلّم بها؛ ليعطيها نوعًا من الحضور في وعي المخاطبين(٢)، واعتمد (أرسطو) في تصنيفه لأنواع المثال على طبيعة الوقائع المذكورة في الخطاب؛ فقد تكون واقعيّة حدثت في الماضي، وهو ما يحيلنا إلى (المثال التّاريخيّ) للدّفاع عن طروحات تستند حجّتها إلى قضايا أحداث ماضية، لتؤكّد وجهة نظر الخطيب الّذي يذود عنها انطلاقًا من التّجارب السّابقة، وقد تكون مبتكرة، وهو ما يترتّب عليها نوعان من الأمثلة: الأوّل: القائم على سرد حكاية مثليّة على لسان حيوان أو الخرافة والأمثولة باصطلاحات أخرى، والثّاني: المثال القائم على الموازنة، وكلّ هذه الأنواع تهدف إلى تبيين قاعدة عامّة، أو الاستدلال على دعوى ما(٣)، بوصفها تقانات حجاجيّة أسلوبيّة تستهدف الإقناع، والإفهام والإمتاع.

ولا يمكننا أن نتغاضى عن رؤية العلماء العرب في هذا المجال، فقد نبّه دارسو ومفسّرو القرآن، والبلاغيّون القدماء إلى أهمّيّة المثل، أو المثال في الخطاب الحجاجيّ، إذ يقول(ابن وهب):"وأمّا الأمثال فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبيّنون للناس تصرّف الأحوال بالنّظائر والأشكال، ويرون هذا

(١) في بلاغة الحجاج: ٨١.
(٢) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٨٤.
(٣) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٦.

النّوع من القول أنجع مطلبًا، وأقرب مذهبًا، ولذلك قال عزّ وجلّ:( **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ){الزمر: آية ٢٧}**، وقال:( **وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ){إبراهيم:آية٤٥}**، وكذلك جعل القدماء أكثر آدابها وما دوّنته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطّير والوحش، وإنّما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدّمات مضمومةً إلى نتائجها"[١]، وسنفصّل الحديث في أنواع المثال على وفق الشّكل الآتي:

### أ-المثال التّاريخيّ:

يرى الدّكتور محمّد مشبال أنّ هذا المثال واقعيًّا، ويروي أمورًا قد حدثت قبل خوض الإقناع بقضية، أو دعوى ما، وهو يعدّ على وفق (كنتيليان) أقوى أنواع المثال[٢]، واستعمال المثال لأجل الإقناع هو معروف ومتواتر وشائع في الخطاب، فطبيعة المتكلّم تدفعه إلى هذا النّسق في أيّ موقف حجاجيّ، وكأنّها أصبحت فطرة سليمة عند المحاجّة إذا ما أراد إقناع شخص، أو جمهور ما، ويورد (أرسطو) مثالًا على المثال التّاريخيّ بقوله:" كما لو قال قائلٌ إنّه ينبغي للملك أن يستعد ولا يخلّي العدوّ ودخول مصر، فإنّ (داريوس) أيضًا في تلك الغزاة لم يتقدّم دون أن احتوى على مصر.....، والآن أيضًا إن أخذ العدوّ مصر مضى قُدمًا فليس ينبغي للملك أن يرخّص في ذلك"[٣]، فالمثال التّاريخيّ كما يظهر له تأثير حجاجيّ كبير على المتلقّي، ويدفعه إلى تبنّي رؤية الخطيب، وقد كان لحجّة المثال التاريخيّ حضور كبير في خطب العصر الأمويّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة السّيّدة أم كلثوم بنت

---

[١] البرهان في وجوه البيان: ١١٧.
[٢] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٧.
[٣] الخطابة: ١٣٨-١٣٩.

عليّ(٨٦هـ) في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين(ع)، **إذ قالت:" أبدأ بحمد الله، والصلاة والسلام على أبيَه، أمّا بعد: يأهل الكوفة يأهل الختر والخذل، لا، فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الرّنّة، إنّما مثلكم كمثل الّتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثًا، تتّخذون أيمانكم دخلًا بينكم..."**[١].

لجأت السّيّدة أم كلثوم إلى زجّ المثال التّاريخيّ في النّصّ، حتّى تنقل حكم الحالة الأولى إلى الحالة الآنيّة للخطاب؛ بهدف الوصول إلى استنتاج واحد لكلتا الحالتين، أو الموقفين، فالمقام هنا مقام تقريع وتوبيخ وذمّ، لعدم اكتمال الإيمان في قلوبهم؛ لأنّهم قد خذلوا الحسين وغدروه، ولم يستجيبوا لندائه، فهم لا يختلفون عن حال الّتي نقضت غزلها بعدما نقضوا عهدهم للإمام الشّهيد، بعد كلّ ما كتبوه من كتب ومواثيق الاستقدام، وقيل أنّ هذا المثل يتعلّق بحادثة ريطة بن سعد بن تيم القرشيّة، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثمّ تنقضه[٢]، ولعلّ وجه المماثلة هنا أنّهم نقضوا وعودهم للحسين بعد أن ارتفعت أصوات الاستقدام ونداءاته، وكثرت كتب الدّعوة والبيعة، وهذا ما يذكّر السّامعين بسوء صنيعهم ويحملهم على الإقناع بنقص إيمانهم، كونهم قد تماثلوا مع حدثٍ واقعي كان تأثيره أشبه بتأثير الدّليل على نفوسهم، فهو" قولٌ في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره"[٣]، لذا كان المثال التّاريخيّ ناجعًا في وصف الإيمان السّطحيّ لأهل الكوفة، وناجحًا في زيادة التّأثير النّفسيّ للتّقريع، الّذي دفعهم فيما بعد إلى البكاء، وإيلام النفس، وتأنيب الضّمير، حتّى أصبح جلّهم من التوّابين، إذ يرى الجرجانيّ(٤٧١ هـ) أنّ قوّة المثال في الذّمّ تكون أوجع وأشدّ حجاجًا، وأنور برهانًا،

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٣٤.
*الختر: الغدر، رقأت العبرة: جفّت أو سكنت الدّموع، الرّنّة: الصّوت وهو صوت البكاء.
[٢] ينظر: جمهرة خطب العرب:١٣٤، هامش رقم(٨).
[٣] في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٨٤.

وأقهر سلطانًا، وأبهر بيانًا[1]، إذ دعم المثال التّاريخيّ الخطاب كي يصبح الحجاج مؤثرًا وفاعلًا في نفوسهم بناءً على تشابه في العلاقة في داخل الموضوع، الّذي يؤول إلى إذعان المخاطبين بالاستنتاج، وحكمه حكم احتجاج لأمر معيّن عن طريق علاقة مشابهة تربطه بأمر آخر[2]، وتعمل هذه العلاقة على الإفهام والإقناع، وإذا ما تساءل القارئ الكريم عن صحّة قولنا بأنّ الشّاهد هو مثال تاريخيّ وليس نصًّا قرآنيًّا؟، فإنّنا نقول: إنّ النّصّ القرآنيّ وإن حضر كان يستهدف حالة تاريخيّة خاصّة ومشابهة إلى حدٍّ ما[3]، ومن هنا سوّغنا توظيفه بوصفه شاهدًا على المثال.

ولم يغب المثال التّاريخيّ عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة معاوية بن يزيد(٦٤هـ)، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:**" أمّا بعد: فإنّي نظرت في أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلًا مثل عمر بن الخطّاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستّة في الشّورى مثل ستّة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، فما كنت لأتزوّدها ميّتًا، وما استمتعت بها حيًّا"**[4].

بما أنّ مقام الخطاب خطير جدًا، ويخصّ الخلافة الإسلاميّة؛ كان لابدّ من أن يوّظف تقانة حجاجيّة تتوافق مع حجم هذا الحدث الكبير في الدّولة الإسلاميّة، ولهذا عمد الخطيب إلى توظيف المثال التّاريخيّ من أجل تحقيق الإقناع في نفوس المخاطبين في المجتمع الشّاميّ، فقد ضرب لهم مثالًا ينسجم مع طبيعة المقام، وعمل على صناعة الإذعان والتّسليم بعدم وجود الكفء لكلّ من ذكرهم معاوية، فقد أورد

---

(١) ينظر:أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق:عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١م: ٨٨.

(٢) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) ينظر:في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٩٣.

(٤) جمهرة خطب العرب: ١٩٠-١٩١.

أحداث واقعيّة مسبقة اختصّت كلّها بأمر تولّي الخلافة، الّتي وجد نفسه عاجزًا عنها، وغير مؤهّل لزمامها، وكذلك حال السّامعين الّذين لا يختلفون عن أمر الخطيب في تولّي أمر الخلافة، فتشابه العلاقة بين كلّ تلك الوقائع مع الموقف الآنيّ للخطاب كان دعامة كبيرة لتحقيق التّأثير، وتوضيح الموقف، إذ استمدّ قوّته الإقناعيّة من تلك الأحداث، الّتي تحظى بالقبول والاتّفاق، فالوقائع السّابقة، وأسبقيّة حوادثها تمنحها قيمة حجاجيّة تجعلها مقبولة عند السّامع؛ لأنّها تمتلك سلطة عليا، حتّى وإن كانت هذه السّلطة نسبيّة كما ترى (روث أموسي)[١]، ولهذا كان استدعاء تلك الوقائع التّاريخيّة في ذلك السّياق التّواصليّ ناجعًا للغاية، إذ نجح الخطيب بإيصال رسالته إلى السّامعين بعدم وجود أكفاء لمثل تلك الشّخصيّات المبتغاة من قبل الخطيب، وبشكلٍ مقنع وواضح بعيدًا عن لغة الغموض والضّبابيّة؛ لأنّ المثال هو الوسيلة الأقرب للإبانة والإيضاح[٢]، انطلاقًا من كونه" يزيد في الكلام معنىً يدل على صحّته ذكر مثال له"[٣]، إذ يقوم بواسطة ذلك بنقل حقيقة متعلّقة بحالة خاصّة سابقة إلى حالة خاصّة لاحقة استنادًا إلى معايير التّشابه والتّماثل بوصفهما دليلًا قويًّا لصالح دعوى الخطاب.

وقد استعمل عبدالله بن عمر(٧٣هـ) حجّة المثال التّاريخيّ في خطبته لمنع معاوية من تنصيب يزيد من بعده، إذ قال:**"أمّا بعد: يا معاوية، لقد كان قبلك**

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٧.

[٢] ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي (تنظير وتطبيق) على السور المكية، د.مثنى كاظم صادق، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط١: ١٦٧.

[٣] سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي(٤٦٦هـ)، شرح وتعليق:عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، ١٩٦٩م: ٢٧٥.

**خلفاء، وكان لهم بنون، ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، فلم يُحابوا في هذا الأمر أحدًا..."[1].**

استعان عبدالله بحجّة المثال التّاريخيّ بشكلٍ قد يبدو إيحائيًّا، فهو يستهدف بذلك تبكيت رؤية معاوية في هذا الأمر ونقضها، والسّعي إلى تقويض حجّته، فالخلفاء الرّاشدون لم يستخلفوا أبناءهم من بعدهم رغم صلاحهم وتقواهم، وبما أنّ الأمر يدور حول الخلافة الإسلاميّة، كان ولابدّ من استدعاء حجّة المثال الّذي انفتح على أحداث ماضية ووقائع مماثلة مسلّم بها من المخاطَب، ويقرّ بصحّتها، لينقل حكم ما جاء في تلك الحالات الخاصّة إلى موقف الحالة الخاصّة الآنيّة للخطاب؛ ليدفع المتلقي إلى العمل بالفعل، والعدول عن ذلك القرار، الّذي يضرّ بالأمّة الإسلاميّة، وأبرز ما يدلّ على مدى تأثير هذه الحجّة ونفوذها إلى لبّ المخاطب، وهزّ وجدانه وأحاسيسه، ذهاب هذا الأخير إلى لغة التّهديد والوعيد بلغة السّيف، ومفردات الدّم بعد انتهاء عبدالله بن عمر من خطبته كما يذكر صاحب الجمهرة، الّتي أثارت حجج الخطيب حفيظة غضبه، إذ انطوت حجّة المثال التّاريخيّ على ثيمة حجاجيّة تتمثّل في سمة الاستباق، وإمكانيّة الحدوث مرّة أخرى[2]، إذ إنّ الخطيب سعى إلى تكرار ما جرى في تلك الحالات لينتهي بالمتلقّي إلى اتّخاذ قرار مغاير يجري مجرى تلك الحالات حينما لاقى الخلفاء أجلهم، لأخذ المنفعة والعبرة من ذلك الصّنيع، فالمثال كان حجّة ساطعة البرهان، قامت على المشابهة بين الحالتين في المقدّمة، واستنتجت ضرورة الالتزام بنهاية الحالة الأولى وقت وفاة الخلفاء وبناءً على نهايتها، فإنّ هذا التّقارب والتّشابه في القضيّة والموقف بين الحالة الأولى والحالة الثّانية، جعل أطراف التّمثيل منصهرة بعضها في بعض بصورة حواريّة واحدة

---

(1) جمهرة خطب العرب: ٢٥٧.

(2) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٧.

قرّبت بين أبعادها، وسهّلت بلوغ الأثر الإقناعيّ من النّاحية الحجاجيّة، فكان هذا البعد القصصيّ الحواريّ للمثال موفّقًا في توجيه المتلقي إلى ما ينبغي القيام به، فلم يتح له فرصة كافية للاعتراض على ما جاء في طيّات الخطاب، وقد عمل على إسكات اعتراضاته؛ بوصفه ينطلق من وقائع سابقة لا يمكن إنكارها، ممّا دفعه فيما بعد إلى التّهجّم على كلّ المعارضين لتنصيب يزيد بمنطق القوّة والبطش، والويل والثّبور، وإلغاء الآخر، وهو ليس بغريب على منطق خلفاء البيت الأُمويّ.

وقد جرت خطبة عبدالله بن الزّبير على شاكلة هذا الضّرب الحجاجيّ كذلك، وفي الموضوع ذاته، وقد عمد أيضًا إلى المثال التّاريخيّ لردع تنصيب يزيد خليفةً للمسلمين وتقويضه[1]، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

ويرى الدّكتور محمّد العمريّ أنّ المثال التّاريخيّ قد يضطر إليه الخطيب لتبرير وضعيّة حرجة[2]، كما جاء في خطبة خالد القسريّ(١٢٦هـ) في يوم جمعة- وهو الوالي على مكّة- فحمد طاعة الحجّاج وأثنى عليه، فلمّا كان في الجمعة الثّانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه بشتم الحجّاج ونشر عيوبه، وإظهار البراءة منه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال**:" إنّ إبليس كان ملكًا من الملائكة ترى له به فضلًا، وكان الله قد علم من غشّه وخبثه، ما خُفي على ملائكته، فلّما أراد الله فضيحته أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه، وإنّ الحجّاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلًا، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشّه وخبثه على ما خُفي علينا، فلّما أراد فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فلعنه، فالعنوه لعنهُ الله"**[3].

---

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٦٠-٢٦١.

(٢) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٨٥.

(٣) جمهرة خطب العرب: ٣٢٢-٣٢٣.

حينما أصبح الخطيب في موقف محرج للغاية، يظهره في موضع التّناقض مع نفسه، لجأ إلى دغم المثال التّاريخيّ الدّينيّ في خطبته، الّذي تربطه علاقة تشابه إلى حدٍّ ما مع قضيّة الخطاب؛ للوصول إلى نتيجة تبرِّر هذا التّحوّل، الّذي طرأ على لغة الخطيب ومخالفتها تمامًا لخطبة الجمعة الأولى، ليعقد صلة بين الحالتين الأولى والثّانية؛ كي يتمكّن من الاحتجاج الّذي سينتشله من موضع التّهمة والتّناقض من جهة، وحمل المخاطبين على شتم الحجّاج وسبّه تنفيذًا لأوامر الخليفة من جهة أخرى، فمن الصعب جدًا أن تقنع مستمعًا ما بالقيام بفعلٍ كنت قد أثنيت على نقيضه، فكان توظيف المثال التّاريخيّ طريقة مثمرة لتوضيح صورة الأمر للمخاطبين، فحال الحجّاج كان لا يختلف عن حال إبليس في الملائكة، فالصّورة المثاليّة كانت تظهر للملائكة طاعته وعبادته، إلّا أنّ صورته الحقيقيّة السّيّئة لم تُخفَ على الذّات الإلهيّة، ففضحه الله بعد أمره بالسّجود لآدم، ولعنهُ بعد عصيان أمره، وكذلك فعل الخليفة الّذي أظهر خبث الحجّاج، الّذي خُفي على نفوس المؤمنين، ومن هذا الموضع أنقذ الخطيب نفسه من التّناقض والتّهمة، ودفع الاعتراض على دعوى خطاب الجمعة الثّانية، فهو نقل صورة نهاية الحالة الأولى الممثّل بها إلى الحالة الثّانيّة الممثّل لها، فكان الحجاج ناجعًا؛ لأنّ النّفس تدرك المشترك بطريقة يسيرة، وتذعن لحجّتها لاسيّما إذا كانت متأتّية من وقائع سابقة تُحظى بالقطعيّة، فالحالات الماضية تشكّل قانونًا يعمل على تقوية درجة اليقين والتّصديق حينما نقدّم حالة خاصّة، توضّح القول بطابعه العام وتقوّي حضور هذا القول في الذّهن، وتمرِّر حجّتها إلى الحالة اللاحقة، إذ يؤتى بالمثال التّاريخيّ للبرهنة على صحّة أمر ما، ولتأسيس قاعدة من أجل تقوية حضور الحجّة[١]، وإسكات أيّ اعتراض قد يبدر من المخاطبين.

---

[١] ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٧.

| الحجّاج | إبليس |
| --- | --- |
| صورة مثاليّة ظاهرة | صورة مثاليّة ظاهرة |
| صورة سيئة مضمرة | صورة سيئة مضمرة |
| إنسان | شيطان |
| ملعون من الخليفة | ملعون من الله |
| مجتمع بشريّ | مجتمع ملائكيّ |

تظهر لنا المعطيات أنّ هنالك بونٌ بين المثال والمثيل، ولكنّ هذا لا اعتراض عليه في الحجاج؛ لأنّه إيهام بالتّشابه وهو مقبول كونه يحيل إلى الاحتمال والإمكان لا إلى اليقين(١)؛ فهو يستهدف المخيّلة، ويحقق صدىً عاطفيًّا في وعي المستمعين(٢)، ما دام التّشابه في النّتائج حاضرًا انطلاقًا من الحالة المسبقة، فقوّة المثال تأتي من قدرته على التّقريب بين حالتين من نظامين مختلفين بهدف الإقناع بدعوى ما، ويتمّ هذا من خلال التّوسّل بطريقة التّشابه بين أمر سابق وآخر لاحق.

ويرى الدّكتور محمّد العمريّ أنّ الخطيب في هذه الخطبة ركب مركب الغموض، إذ يُمكن أن تنصرف اللعنة إلى الخليفة أيضًا، بوصفه الأنسب لموقف الحرج الّذي وقع فيه الخطيب(٣)، إلّا أنّنا نرى خلاف ذلك، ونعتقد ببعد هذا الاحتمال، فإن كانت الألفاظ توحي بهذه الدّلالة، فإنّ السّياق يقطع بحكم انصراف اللعنة إلى الحجّاج، فالتّوظيف الحجاجيّ للمثال إنّما جاء لإنقاذه من هذا المأزق الصّعب، واستدراج المخاطبين إلى شتم الحجّاج انطلاقًا من أسباب مقبولة ومصادق عليها، سوّغت عدوله عن خطابه السّابق في الجمعة الأولى، فضلًا عن أنّ الخلفاء الأمويين كانوا على درجة كبيرة من اليقظة الفكريّة والملكة اللغويّة، وعلى قدر عالٍ

---

(١) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٨٧.
(٢) ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٨٤.
(٣) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٨٨.

من الحسّ البلاغيّ المتفجّر، الّذين يعرفون دلالات المعاني وإن بُعدت أنساقها؛ لأنّهم يملكون ناصية البيان، ولهذا لا يمكن أن يقصد الخطيب ذلك؛ لخطورة الموقف في حال شعر الخليفة بذلك القصد.

وقد سارت خطبة الحجّاج في العراق بعد قتل عبدالله بن الزّبير في الحرم المكّي على وفق هذا المنوال الحجاجيّ، وقد درسها الدّكتور محمّد العمريّ دراسةً تفصيليّة وافية[1].

وقد أبدى العمريّ عن رأيٍ لطيفٍ نؤمن بصوابه وصحّته فيما يخص انفتاح النّصّ القرآنيّ على الحالات المشابهة لدعم قضيّة سياسيّة، أو دينيّة، تقترب كثيرًا من المثال التّاريخيّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة الحجّاج في الكوفة بعد أن ولّاه عبد الملك بن مروان العراق، إذ قال:" **فإنّكم لكأهل قرية كانت آمنة مُطمئنة، يأتيها رزقها رغدًا من كلّ مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وإنّي والله لا أعدُ إلّا وفيت، ولا أهمّ إلّا أمضيتُ، ولا أخلق إلّا فريتُ، فإيايَ وهذه الشّفعاء، والزّرافات، والجماعات...**"[2].

يبدو أنّ الحجّاج أراد تأسيس قانونٍ ثابتٍ في طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين؛ لأنّه رغب في إقامة الحجّة لتشريع ما سيبدر منه من عقوبات رادعة لكلّ من يشفع للمتمرّدين، وكما أنّه وجّه تحذيرًا كذلك للجماعات الثّائرة على حكم البلاط الأمويّ، وحتّى يسوّغ هذه الصّنائع استعان بحجّة النّصّ القرآنيّ {النحل:آية١٢}، الّذي انفتح بدوره على حالة ماضية، يريد الخطيب تشبيه واقعها، أو مقاربته لحالة أهل الكوفة على وجه الخصوص، فنقل واقع تلك القرية المترف الّذي ذهب أدراج الرّياح بعد أن كفر أهلها بنعم الله، فأذاقهم الله عذاب الجوع

---

[1] ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٨٦-٨٧.
[2] جمهرة خطب العرب: ٢٩٠.
*أخلق:أقدر، فريت: قطعت.

والخوف جزاءً بصنيعهم، والحقيقة أنّ الحجّاج أراد إحداث هزّة في مخيّلة المخاطبين باستدعاء هذا المثال، ليزيد من حضور الحجّة في وعيهم، وحثّهم على تأمّل الموقف السّابق(الحالة الماضية لأهل تلك القرية)، فعلاقة التّشابه بين الحالة الخاصّة الأولى وبين الحالة الثّانية هي(العصيان، والكفر، وجحود النعم)، فأراد أن يجري معالم الحالة السّابقة إلى الحالة اللاحقة؛ لأنّها تمتلك الواقعيّة التّاريخيّة، الّتي تحظى بقيمة حجاجيّة متّفق عليها[١]، ولاسيما أنّها جاءت من نصّ مقدّس لا يمكن الاعتراض على مصداقيّتها، فحققت استجابات مذعنة لمضمون الخطاب، وتعتقد بيقينيّة صحّته، إذ يشير الجاحظ إلى أهمّيّة الأخبار التّاريخيّة في تحديد المنافع والاعتبارات في المستقبل بقوله:" فلمّا علم الله تبارك وتعالى أنّ النّاس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم، دون أن يردّ عليهم آداب المرسلين، وكتب الأوّلين، والأخبار عن القرون، والجبابرة الماضين- طبع كلّ قرن من النّاس على أخبار من يليه، ووضع القرن الثّاني دليلًا يُعلم به صدق خبر الأوّل"[٢]، فالمثال جاء مصداقًا إقناعيًّا على شرعيّة البطش والتّنكيل بأهل الكوفة بعد وقوع العصيان، وجحود عطاء الدّولة الأمويّة مشابهةً لحال أهل القرية، بناءً على الاحتكام إلى حدث الحالة الأولى ونهايتها، فسعى بذلك الخطيب أن يجري نهاية الحالة الأولى على الحالة الثّانية في حال وقوع أيّ تمرّد محتمل، فتسخير الحكايات، أو ما هو تاريخيّ ورمزيّ لتبليغ دعوى ما، يقوم على نقل الحقيقة المتعلّقة بحالة خاصّة إلى حالة خاصّة لاحقة أخرى، بالاعتماد على معايير التّشابه والتّماثل الكلّي أو الجزئيّ بين الحالتين، وما يرتبط بينهما من علاقة تقارب بين

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٧.
[٢] المصدر نفسه: ٨٨.

عناصر تنتمي لعوالم مختلفة[١]، ولهذا نجد أنّ الخطاب كان ناجحًا حجاجيًّا في تمرير رسالة الخطيب القائمة على لغة الوعيد والتّهديد ضدّ المخاطبين لإثارة (الباتوس) بشكلٍ واضح ومبرّر، ليدفعهم إلى الإذعان والتّسليم، والخضوع التامّ لمآرب الخطاب في توجيههم نحو طاعة الحجّاج والخليفة؛ لتفادي العواقب الوبيلة المترتّبة على العصيان والجحود والمعارضة، وعدم الخضوع لسلطة البلاط الأمويّ، فهو نوع من الحجاج بالعاقبة والنّتيجة، الذي يثير نوازع الرّهبة والرّعب في قلوب المخاطبين، من أجل دعم سلطة ما، وترسيخ ثوابتها في الواقع.

وقد سارت النّصوص القرآنيّة في مثل هذا التّوجّه في بداية مناظرة خالد بن يزيد بن معاوية(٩٠هـ) وعبد الملك بن مروان، إذ انفتح النّصّ القرآنيّ لكلّ منهما على مثال تاريخيّ، ووقائع سابقة لدرء حجّة الآخر[٢]، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

ولم تغب حجّة المثال التّاريخيّ عن خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي حمزة الشّاري ردًّا على أهل المدينة بعدما عابوا أصحابه، فاستنجد بهذه الحجّة بقوله:**" ويحكم يأهل المدينة! وهل كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المذكورون في الخير إلّا شبابًا أحداثًا؟"**[٣].

لا يخفى أنّ الشّاري استعان بحجّة المثال ليطابق بين صفات أعمار أصحاب رسول الله وأصحابه، فهؤلاء الأصحاب يكوّنون الطّبقة القريبة من رسول الله، ولهم الأسبقيّة على أصحابه، ليؤسّس على ذلك قاعدة عامّة تتكفّل بالدّفاع عن أتباعه، بعد أن انتقل الحجاج من تلك الحالة الخاصّة، الّتي تأخذ حيّزًا مهمًّا من المصداقيّة

---

(١) ينظر: دروس الحجاج الفلسفي، أبو الزهراء، مجلة الشبكة التربوية المفتوحة، د.ط-٢٠٠٨م: ٣٩.
(٢) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٣٢.
(٣) المصدر نفسه: ٤٧٥.

والمقبوليّة في نفوس أهل المدينة إلى الحالة الخاصّة في مضمون الخطاب المصرّح به، والاحتجاج بصلاح طبقة الخوارج الشّبابيّة، وتشابه أحوالهم مع أحوال الفئات العمريّة لأصحاب رسول الله وصلاحهم، إذ عمل النّسق الحجاجيّ على إسكات المخاطبين، وتخطّي الدّفاعات الاعتراضيّة، فضلًا عن تقريعهم بحجّة تمتلك السّلطة على نفوسهم وبنائهم الوجدانيّ والفكريّ، نظرًا لواقعيّتها وأسبقيّتها، ممّا تعمل على تحقيق استجابات مذعنة تقرّ بصحّة الدّعوى وتسلّم بها؛ لما جاء به الشّاري من قيمة حجاجيّة تمثّلت في سمة الأسبقيّة والقدسيّة، والتّشابه بين بنى متقاربة إلى حدٍّ ما، وهذا ما صنع البرهنة والتّدليل على صواب رؤى الخطيب وتصوّراته، ليحمل الخطاب أهل المدينة على إعادة النّظر في الحكم على أصحاب الشّاري انطلاقًا من القيم الّتي جاء بها في طيّات المثال، والاحتكام إلى التّشابه بين الحالتين، فحجاجيّة المثال تكمن في بناء واقع من خلال إثبات أشياء في ضوء الاعتماد على أشياء أخرى عن طريق تشابه في العلاقات بينهما[1]، وبعبارة أيسر كان احتجاجًا لأمر بواسطة علاقة التّشابه الّتي تربطه بأمرٍ آخر تمثّل بأصحاب رسول الله(ص)، وقد سار جزء من خطبة واصل بن عطاء على هذا المنوال الحجاجيّ بالاحتكام إلى زوال ملك السّلاطين الماضين، والملوك الجبابرة السّابقين في إقناع المخاطبين بزوال الدّنيا بوصفها نهاية زوال ذلك الملك[2]، فالمثال كثيرًا ما يدفع المخاطّب إلى التّأمّل، والتّفكّر، والاتّعاظ من التجارب الإنسانيّة في أحداث منقضية عبر العصور الغابرة.

---

[1] ينظر: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع): ١٣٠.

[2] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٥٠٢.

## ب-المثال المبتكر(الحكاية المثليّة):

يعدّ هذا النّوع من الأمثال المصطنعة ويسمّيه الباحثون بـ(المثال الخرافيّ)، ويأتي عادةً للدفاع عن دعوى الخطاب، والاحتجاج به لإقناع القارئ، أو المتلقي وليس للإمتاع فحسب، وذلك من أجل تمرير، أو تسويغ قضيّة ما، أو أمر ما، وتقوم الحكاية المثليّة هذه على بنية سرديّة ذات بلاغة عالية، وهي في الثقافة العربيّة قصّة أو خُرافة وظيفتها التّعقل؛ أي استخلاص العظة والاعتبار من حكايات تُروى لما تحمله في طيّاتها من دروس وعبر للمستمعين؛ لأنّها بمنزلة شاهد، أو رأي، أو حكمة، أو قاعدة أخلاقيّة أو سلوكيّة يُتمثّل بها في مواقف مشابهة، وكثيرًا ما يفصح الخطاب عن الغرض من ضرب هذا المثال[1]، وتفترض هذه الحجّة أنّ بين عالم الحيوان والعوالم الأخرى وعالم الإنسان تناغمٌ يدركه المخاطَب ولا يستعجب من تمثلاته؛ إذ يسمح هذا التّناغم بإجراء التّماثل بينهما، وينقل المبادئ من أحدهما إلى الآخر، ودائمًا ما يكون بامتداد سرديّ[2]، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(ع) في الرّدّ على المغيرة بن شعبة، قوله: **" وأمّا أنت يا مغيرة، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنّما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنّخلة: استمسكي فإنّي طائرةٌ عنك. فقالت النّخلة: وهل علمت بكِ واقعةً عليَّ، فاعلم بكِ طائرةً عنّي؟..."**[3].

سعى الحسن إلى تبكيت رأي المغيرة وتقويضه، وتحجيم شخصيّته تجاه الإمام عليّ(ع) وآل بيته، وقد استعان بحجّة الحكاية بين البعوضة والنّخلة في توضيح صورة تفيد بعدم كفء المخاطَب، ودنو منزلته أمام منازل العلويين، فالحكاية

---

(1) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٩-٩٠.
(2) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٩١.
(3) جمهرة خطب العرب: ٣٠.

السّرديّة على لسان هذه المخلوقات من عالم الحيوان وعالم النّبات لم تكن إلّا وسيلة حجاجيّة مصطنعة هدفها إنزال المتهجّم على العلويين مكانته الطّبيعيّة، وواضح أنّها انفتحت على السّخريّة، فثمّة بون كبير بين البعوضة الّتي لا تمتلك أيّ ثقل أو شأن أمام النّخلة الباسقة، فسواء وقعت عليها أو لم تقع، فهي لا تشعر بذلك، وكذلك هو حال العلويين، فهم لا يشعرون بأيّ أثر أو تأثير من المغيرة سواء أبغضهم، أو لم يبغضهم، فالموازنة حتمًا ستكون خاسرة، وسعى الخطيب إلى نقل النّتيجة في الحالة الأولى إلى الحالة الآنيّة للخطاب، يبدو أنّ الغاية الحجاجيّة للحكاية السّرديّة فوّتت الفرصة على المغيرة في سعيه بأن يكون ندًّا للعلويين، وسخرت منه إلى حدٍّ كبير أمام الحضور في مجلس معاوية، وعملت على دفعه نحو الإقرار بانتصار الخطيب وغلبته، وحمله على الاعتراف بعدم تمكّنه من الارتقاء إلى منزلة تؤهّله بأن يكون كفأً للخطيب، فالسّخريّة لم تكن محض انبساط، بل إنّها أحسن وسيلة لإبراز عدم التلاؤم، كالّذي يقع بين الخطيب وخطابه الخاصّ كقولنا: إنّكم أنتم من يقول ذلك!، إذ كانت السّخريّة السّرديّة حجّة في حدِّ ذاتها[١]، بعد أن استهجنت المخاطَب، وأثارت انفعالات وجدانيّة تثير الضّحك عند كلّ الحاضرين في مجلس معاوية على شخصيّة المغيرة، فشتّان لعمري بين الثّريّة والثّرى، والقمم والحضيض، وهذا ما انفتح على أفضليّة واضحة للخطيب وآله على الخصم، فما كان له إلّا الإقرار بذلك، والتّسليم للحسن بالتّفوّق والفضل، ورفعة الشّرف والمنزلة، لاسيّما أنّ الحسن راح يذكر بعد الحكاية السّرديّة الأفعال والأعمال المنحرفة للمغيرة في عهد رسول الله(ص)، ممّا زاد من حدّة التّقريع والإيلام على المخاطَب في بغضه لآل محمّد، فالخطاب الحجاجيّ كان واسع النطاق في التّأثير من خلال توظيف هذه الحجّة الحكائيّة، الّتي

---

[١] ينظر:البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د.محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط ٢ ،٢٠١٢م: ٢١٦.

دفعت الخصم إلى التّأمّل والتّعقّل، وأفصحت بالحكاية عن مواقف مشابهة لظرف الخطاب؛ لأنّها تنظيم بنيويّ تمليه الغاية الحجاجيّة، وتستهدف التّماثل بين موقفين؛ لخلق الاعتقاد عند السّامع نظرًا لألفة الإنسان إلى سمع الحكاية الخرافيّة المتخيّلة من عوالم أخرى ليست من عوالم البشر، إذ تعدّ محكيًا بلاغيًّا مُختزلًا يُقدّم بوصفه حقيقيًّا، ويُتمثّل به في خطاب ما لأجل إقناع السّامع بدرس يُنتفع به[1]، فالمغزى كان يهدف إلى بيان ضآلة حجم المغيرة قبالة عليّ وآل عليّ، ليحمله الحسن بعد ذلك على الإيمان بالدّعوى، والإذعان للخطيب بشكلٍ تامّ.

ويرى الباحث أنّ هذه الحجّة وإن جاءت بسياق بلاغيّ حجاجيّ إلّا أنّها تنفتح على البعد الإمتاعيّ إلى جانب الأبعاد الحجاجيّة، وتنتشل الذّهن من الانغلاق والجمود لورودها بشكلٍ قصصي يفتح طريقًا ثانيًا للإقناع؛ لأنّه عادةً ما يذهل العقول، ويحقّق صدمة عاطفيّة عند المخاطبين، وقد وردت حجّة الحكاية المتخيّلة في نهاية خطبة عبدالله بن عبّاس، وفي موقفٍ يقترب كثيرًا من موقف قضيّة هذه الخطبة أمام عبدالله بن الزّبير، وما قلناه في هذه الخطبة ينطبق عليها تمامًا، وإن كانت ذات بناء سرديّ قصير لم يتجاوز التّسع كلمات.

ومن ذلك ما جاء من تناص حكائيّ في خطبة عبد الملك بن مروان بعد حجّه في أحد الأعوام، **"فأمر للنّاس بالعطاء، فخرجت بدرة مكتوب عليها من الصّدقة، فأبى أهل المدينة قبولها، وقالوا: إنّما عطاؤنا من الفيء، فقال عبد الملك وهو على المنبر:( يا معشر قريش، مثلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهليّة خرجا مسافرين، فنزلا في ظلّ شجرة تحت صفاة، فلّما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصّفاة حيّة تحمل دينارًا، فألقته إليهما، فقالا: إنّ هذا لمن كنز، فأقاما عليها**

[1] ينظر:في بلاغة الحجاج: ٩٤-٩٥.
*البدرة:كيس فيه مبلغ من ألف إلى عشرة آلاف دينار، الصّفاة: الحجر الصّلد الضخم.

**ثلاثة أيّام، كلّ يوم تخرج إليهما دينارًا، فقال أحدهما لصاحبه: إلى متى ننتظر هذه الحيّة؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه، فنهاه أخوه، وقال: ما تدري لعلّك تعطب ولا تدرك المال، فأبى عليه وأخذ فأسًا معه، ورصد الحيّة حتّى خرجت، فضربها ضربةً جرحت رأسها ولم تقتلها، فثارت الحيّة فقتلته. ورجعت إلى جحرها. فقام أخوه فدفنه وأقام حتّى إذا كان من الغد خرجت الحيّة معصوبًا رأسُها، ليس معها شيء، فقال لها: يا هذه إنّي والله ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك، فهل لكِ أن نجعل الله بيننا أن لا تضرّيني ولا أضرّك، وترجعين إلى ما كنت عليه؟ قالت الحيّة: لا، قال: ولِمَ ذلك؟ قالت: إنّي لأعلم أنّ نفسك لا تطيب لي أبدًا وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبدًا وأنا أذكر هذه الشّجّة، وأنشدهم شعر النابغة:**

**فقالت أرى قبرًا تراه مُقابلي　　　وضربة فأس فوق رأسي فاغره**

**فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطّاب، فكان فظًّا غليظًا مضيّقًا عليكم، فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمان فكان سهلًا، فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا إليكم(مُسلمًا) يوم الحرّة فقتلناكم، فنحن نعلم يا معشر قريش أنّكم لا تحبونّنا أبدًا، وانتم تذكرون يوم الحرّة، ونحن لا نحبكم أبدًا ونحن نذكر قتل عثمان"[١].**

فتح عبد الملك الخطاب بشكلٍ غير معهود، ومفاجئ تمامًا لتوقعات المخاطبين، بحيث دفعهم إلى التّأمّل والتّرقب بما سيأتي من أفكار يروم إليها الخطيب بعد هذه الصّدمة الأسلوبيّة، فلا يخفى أنّ الحكاية المثليّة يتمخّض عنها عمل سرديّ يحيل على إجراء التّماثل بين موقفين: موقف سرديّ قوامه الحكاية بين الأخوين والحيّة، وموقف سياسيّ بين الخطيب وأهل المدينة، وهذا التّماثل يُراد منه استخلاص نتيجة متماثلة بناءً على قاعدة سابقة تفيد أنّ النّفوس لن تطيب إلى الآخر بعد وقوع الدّمّ،

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٩٥-١٩٦.

وإن كان هناك في الأمر أموال وعطاء، لاسيّما أنّ الحكاية اضطلعت بمحكي أدبيّ خدم البنية الحجاجيّة، وعمل على تقوية تماسكها، ناهيك عن ألفة المخاطبين لسماع قصص عالم الحيوان وتناغمه مع العالم السّياسيّ ووضوح الغاية التّربويّة من ذلك[1]، فعبد الملك أراد أن يجعل موقف الخطاب شبيهًا بما جاء في البنية السّرديّة الحكائيّة بين الأخوين والحيّة، إذ أنّ صورة طرفي الحكاية المثليّة انعكاس لطرفي الخطاب الآني(الخليفة، وأهل المدينة) والعلاقة بينهما قائمة على البغض، وجارية على وفق ما جرى في البنية الحكائيّة، فلن تطيب نفوس أهل المدينة للأمويين وهم يذكرون شجّة مسلم بن عقبة المرّيّ يوم الحرّة في عهد خلافة يزيد بن معاوية، وما فعل من قتل، ونهب، وسبيّ في سنة٦٣هـ، وكذلك الحال بالنّسبة للأمويين لن تميل نفوسهم إلى أهل المدينة، وهم يتذكّرون قتل عثمان(رض) على أيديهم، فأحدهما كان يمثّل الأخ، والآخر يمثّل الحيّة، وهذا هو موضع الاشتراك والتّقارب والتّماثل بين الحكاية وظرف الخطاب، والّذي جاء لدفع المخاطبين إلى الاعتقاد والإقرار بصحّة وقائع دعوى الخطاب، الّذي وقف على أسباب ودوافع الرّفض للعطاء، لذا كان استدعاء المحكي لإقامة توازٍ بين وضعين ناجعًا ومُسدّدًا في ذلك الموقف التّواصليّ؛ لأنّه أعطى الفكرة حضورًا في وعي المخاطبين لتحقيق الإقناع والإذعان، انطلاقًا من البناء الصّوريّ الحسّيّ الّذي جاءت به الحكاية، ممّا عزّز حجّة الخطاب، وأسهم في إبلاغ المغزى، وتيسير عمليّة الفهم[2]، فالصّورة تأتي بوصفها طريقة للإقناع، وتتوسّل بالإبانة والتّوضيح، وتعتمد في ذلك على نوع من الحجاج والجدل لإثارة المتلقي واستمالته[3]، فالتّشابه بين الحالتين كان كبيرًا جدًا، إذ

---

(1) ينظر:في بلاغة الحجاج: ٩٢.

(2) ينظر: المصدر نفسه: ٩٩.

(3)ينظر: الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د.جابر عصفور، المركز الثقافي، لبنان، ط٣، ١٩٩٢م: ٣٣٢.

لا يوجد عنصر في المحكي لا تحدّده سلسلة التّشابهات، هذه السّلسلة التي ينبغي في النّهاية أن تصبح مُدركةً من السّامع من أجل نجاح المشروع بصلات التّماثل[١]، فالبناء الحكائيّ اضطلع بتوجيه عقول المخاطبين إلى التّصديق والتّيقين، بوصفه وسيلة البرهنة والاستدلال على صحّة الدّعوى.

ومن ذلك ما جاء في خطبة النّعمان بن بشير(٦٥هـ) في الكوفة[٢]، وقد سارت على شاكلة هذه الخطبة من حيث دغم الحكاية الأسطوريّة المثليّة، من أجل مدّ الخطاب بالطّاقة الحجاجيّة.

## ج-المثال المبتكر(الموازنة):

وهو مثال قائم على بنية موازنة من أجل التّماثل، لتفنيد دعوى، أو رأي ما بحالتين خاصّتين ومتشابهتين هما أكثر ذيوعًا وشيوعًا عند السّامع، بناءً على قاعدة عامّة تحظى بالقبول والمصداقيّة، وتقضي بأنّ اختيار الأشخاص في مواقع المسؤوليّة ينبغي أن يكون على أساس الكفاءة، وليس الاقتراع أو مزاجيّة الانتقاء العبثيّ[٣]، وعادةً ما يكون مجيئها في طيّات الخطاب لتوضيح القاعدة وزيادة حضورها على وفق شروط ضروريّة كما يرى (جيل ديكليرك)[٤]، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن عمر، قوله:**" الحمد لله الذي أكرمنا بدينه، وشرّفنا بنبيّه صلّى الله عليه وسلّم، أمّا بعد: فإنّ هذه الخلافة ليست بهرقليّة، ولا قيصريّة، ولا كسرويّة، يتوارثها الأبناء من الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي، فوالله ما أدخلني مع السّتّة من أصحاب الشّورى، إلّا على أنّ الخلافة ليست شرطًا**

---

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٩١.
(٢) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٨٠.
(٣) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٨٨-٨٩.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٨٩.

**مشروطًا، وإنّما هي في قريش خاصّة، لمن كان لها أهلًا، ممّن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، من كان أتقى وأرضى..."**[1].

يبدو واضحًا أنّ خطاب تيار الحراك المعارض لمشروع معاوية في تنصيب يزيد من بعده خليفةً للمسلمين كان قائمًا على جملة من الحجج السّاطعة، ومن أهمّها حجّة الموازنة المبتكرة في الشّاهد قوله:(**فإنّ هذه الخلافة ليست بهرقليّة، ولا قيصريّة، ولا كسرويّة)**، أي بمعنى أنّ الخلافة الإسلاميّة تختلف بمنظورها وشروطها عن آليّة انتقال الحكم كما هو معمول به في مثل تلك الممالك والإمبراطوريات، الّتي يسير الحكم فيها بوراثة الأبناء عن الآباء، فهذا الأمر لا يعتدّ به، ولو كان هذا الافتراض مسوّغًا في الإسلام لكان عبدالله بن عمر أولى بها من غيره بعد أبيه، فنفي انتقال الحكم عن طريق الوراثة في الخلافة الإسلاميّة من الخطيب كان يسعى إلى نقل هذا الدّرس إلى السّامع، والعمل بموجبه استنادًا إلى قاعدة عامّة في الدّين الإسلاميّ تؤمن بالأفضليّة انطلاقًا من عنصر التّقوى، وليس الاختيار العبثيّ، أو الوراثة كما هو الحال في تلك الأمم، فالمثال القائم على بنية الموازنة جاء لتفنيد دعوى معاوية بناءً على قاعدة عامّة تحظى بالقبول والمصداقيّة، وتقتضي بأنّ اختيار الخليفة يجب أن يخضع لعدّة شروط ومعايير إيمانيّة، بالاحتكام إلى أساس الكفاءة، وليس الاختيار المزاجيّ الفوضويّ، والوراثة العبثيّة، فهذه الطّريقة لا تُحظى بالشّرعيّة، لاسيّما في أمر مهمٍّ وخطير كذلك الأمر، ومن جملة تلك الشّروط أن يكون أهلًا ممّن ترتضيه نفوس المسلمين، وأن يكون أتقى النّاس، وأرضاهم لأنفسهم، وكلّ هذه الأمور لم تكن حاضرةً في شخصيّة يزيد، فالمسلمون لم يكونوا متوافقين على ذلك الأمر، ولاسيّما في ظلّ وجود شخصيّات لها الثّقل الأكبر، والمنزلة الأسمى في المجتمع الإسلاميّ آنذاك،

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٢٤٨.

مثل:(عبدالله بن عبّاس، والحسين بن علي، وعبدالله بن الزّبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن جعفر الطيّار)، فهؤلاء كلّهم خيرٌ من يزيد وأبيه في منظور التّفكير الجمعيّ للمسلمين، إذ كما نرى أكّد الخطيب على عنصر الكفاءة، الّذي يتناغم مع العقائد الإسلاميّة (التّقوى) و(الأهليّة)، ليدعم القاعدة ويمنحها حضورًا بارزًا ومتوافقًا مع الواقع حول مبادئ شروط اختيار الخليفة وأسسها، وقد وضّحت حجّة الموازنة المغزى الإقناعيّ الهادف إلى منع معاوية عن هذا الأمر، وتقويض شرعيّة تنصيب يزيد؛ نظرًا لافتقاره عناصر الكفاءة(الأهليّة، التّقوى، الارتضاء)، الّتي هي قاعدة معيار تقييم الأشخاص المعمول بها في المجتمع الإسلاميّ، فضلًا عن عدم شرعيّة هذا التّنصيب، وموضّحًا ذلك بموقف حواريّ حجاجيّ تمخّض عنه استقراء برهانيّ أدهش المتلقي، وقهقر رؤيته الفكريّة والدّينيّة، وفضح زيف دعواه، وانحراف مقاصده، وحمله على الإقرار والتّسليم بصحّة دعوى الخطيب، الّتي بيّنت الحقائق، وعزّزت حجاجيّة الخطاب الإقناعيّ انطلاقًا من الحجّة المبتكرة المنفتحة على الموازنة، ولعلّ القارئ الكريم يتساءل كيف حمله على الإذعان ومعاوية لم يأخذ بخطاب ابن عمر على محمل الجدّ، ولم يعمل به؟! نقول: إنّ الإقناع حاصل وواقع في قرارة نفس المخاطب ذهنيًّا، والدّليل على ذلك أنّ هذه الخطبة أثارت غضبه، وطار طائر معاوية على أثرها، ودفعته إلى لغة التّهديد والوعيد بعد كلّ خطب التّيار المعارض لهذا التّنصيب، و(بيرلمان) يرى أنّ إثارة نوازع الغضب في نفوس المخاطبين دليل ومؤشّر على نجاعة الحجاج في تحقيق الانفعال المرتقب، وتأثيره في نفوسهم كما وضّحنا في مواضع سابقة.

## ٢ـالاستشهاد:

يعدّ الاستشهاد من الحالات الخاصّة، وهو لا ينفكّ عن المثال، إلّا أنّ توظيفه يختلف تمامًا عن المثال في الخطاب، فإذا كان المثال يسبق الحكم، أو القاعدة ويؤتى به للبرهنة عليها، فإنّ الاستشهاد يؤتى به لتعزيز التّصديق بالقاعدة، ولتوضيح القول ودعم حضور الحجّة في الذّهن، وجعل القاعدة المجرّدة حسّيّة[١]، ولهذا ينبغي أن تكون حقيقة الشّاهد أكيدة وغير مجادل فيها على خلاف المثال الّذي يستهدف المخيّلة[٢]، فـ(أرسطو) يذهب إلى أنّ مجيء الأمثلة أوّلًا يمنحها بعدًا استقرائيًّا لا ينسجم مع الخطب إلّا في أحوال قليلة جدًا، في حين يأتي الاستشهاد بأواخر الخطاب وعندها سيكون أشبه بالبيّنة، وهو في كلّ حالة من المحتمل أن يُؤدّي إلى الاعتقاد، والزّيادة في نجاعة القول، ومن هنا ترى تعدّد الأمثلة إذا جاءت أوّلًا، ولكنّ مع الشّاهد سيكون مثلًا واحدًا كافيًا إذا وُضع في النّهاية؛ لأنّ شهادة وثيقة واحدة مفيدة ونافعة[٣]، وتدخل حجّة الاستشهاد ضمن الحجج الجاهزة في المنظور الأرسطيّ، ويدخل في نطاق عملها القوانين والشّهود والاعترافات وأقوال الحكماء في فضاء الخطابة القضائيّة، وتقتبس الخطابة العربيّة الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، والأمثال والحكم، سواء أكانت إشاريّة أو نصّيّة مباشرة، وهي حجج جاهزة تكتسب قوّتها الإقناعيّة من مصدرها وتواترها، ومن مصادقة النّاس عليها، إذ يوجّهها الخطيب إلى الغايات المقصودة للاستدلال عليها[٤]، إذ يؤدّي الاستشهاد مهمّة تعزيز حضور الحجّة في الخطاب بوصفه صورة توضيحيّة تدعم القاعدة وتوضّح

---

(١) ينظر:بلاغة الحجاج(الأصول اليونانية)، د.الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠١٤م: ٥٥.

(٢) ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٨٤-٨٥.

(٣) ينظر:بلاغة الحجاج(الأصول اليونانية: ٢٢٧.

(٤) ينظر:في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٩٠.

معالمها[١]، وفي الحقيقة لا يمكن أن ننكر بأنّ الخطابة في العصر الأمويّ كانت زاهرة بالشّواهد الدّينيّة، ولاسيّما بنصوص القرآن الكريم، فقد جعل بعض الخطباء الآيات القرآنيّة مادةً أساسيةً يُعوّل عليها في رفد خطابهم ورسائلهم بالحجّة، والبرهان والدّليل[٢]، ونعزو ذلك إلى مدى تأثير سلطة النّصّ القرآنيّ على النّفوس، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(ع) في عهد خلافته، قوله:" **نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأقربون، وأهل بيته الطّاهرون الطّيّبون....فأطيعونا، فإطاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرّسول وأولي الأمر مقرونة:(فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول) {النساء:آية٥٩}(ولو ردّوه إلى الرّسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم){النساء:آية٨٣}"**[٣].

اعتمد الإمام صيغتين من صيغ الاستشهاد في هذه الخطبة، الأولى: صيغة التّلويح، أو التّلميح بالإشارة في قوله:(إذ كانت بطاعة الله...مقرونةً)، وهي إشارة إلى قوله تعالى:" يأيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلًا"{النساء: آية ٥٩}، فاحتجّ الإمام بهذا التّلميح القرآنيّ لزيادة الطّاقة الحجاجيّة للخطاب، فالخطاب بـالإيماء عبارة عن مُهيّج يُسميه علماء النّفس مُنشّطًا ومحفّزًا[٤]، لتوجيه قوّة ضاغطة على نفوس السّامعين، وتوجيههم إلى لزوم الطّاعة، وعدم الانجرار وراء الشّيطان، فهم حزب الله وأحد الثّقلين، وطاعتهم مفترضة وواجبة كافتراض طاعة الله تعالى ورسوله الكريم، فيتبيّن لنا أنّ الخطاب

---

[١] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٨.
[٢] ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: ٩٢.
[٣] جمهرة خطب العرب: ١٧.
[٤] ينظر: علم الدلالة، بيرجيرو، ترجمة:منذر عياشي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م: ٢٧.

كان موقفًا حجاجيًّا في توجيه المخاطبين ووعظهم لحملهم على الفعل؛ لأنّه استند إلى تعاليم نصوص قرآنيّة، كتبت له القبول والاعتقاد في ألباب السّامعين وأفئدتهم من جهة، ومناسبتها لمقام الخطاب من جهة أخرى، فالنّصّ القرآنيّ يعدّ ذخيرة بلاغيّة عظمى يتسلّح بها الخطيب، ليملي ما يروم إليه من المقاصد بالسّلطة الدينيّة للآيات[١]، ولاسيّما في خطبة وعظيّة يترتّب عليها استجابة والتزام بأوامر الخطاب.

أمّا الصّيغة الثّانية: الاقتباس النصّيّ المباشر، وجاء به الخطيب لإثبات حقيقة ما دعا إليه من أمر فرض الطّاعة على الرّعيّة، وتأكيدًا على الفكرة، فالنّصّ القرآنيّ تستجيب له النّفوس، وتذعن له العقول، وتتحرّك به العواطف والأهواء، ولهذا نراه يُحظى بقدرة عالية على تحقيق الإقناع بالدّعوى، لكونه يضطلع بالحجّة العقليّة والوجدانيّة، ويرى الدّكتور محمّد مشبال أنّ النّصوص القرآنيّة لا تتمثّل قوّتها الحجاجيّة من حيث البناء البلاغيّ والأسلوبيّ فحسب، ولكنّها تتمثّل أيضًا في التّأثير الّذي يتوخّى إحداثه في المتلقي بوساطة تكوين صورة حجاجيّة للذّات الإلهيّة بوصفها الذّات المتكلّمة في الخطاب[٢]، وفي مقام هذه الخطبة كانت الأوامر في النّصوص القرآنيّة المقتبسة صادرة من سلطة الذّات الإلهيّة، الّتي تؤسّس خطابًا حجاجيًّا يأمر المؤمنين بالرّجوع إلى إليه والرّسول في حال النّزاع حول شيءٍ ما، والى أولي الأمر كذلك، ووليّ الأمر كما يظهر يتمثّل بالإمام الحسن، بوصفه خليفة المسلمين وحاكمهم الشّرعيّ، ممّا يدفع المخاطبين إلى الإقرار بدعوى الخطاب الحسنيّ، والعمل بموجبه.

ولا يخفى أنّ جلّ خطب العلويين كانت قائمة على الاحتجاج بالنّصّ القرآنيّ تلميحًا وتصريحًا، إلّا أنّ هذا لم يمنع من ورود الشّواهد الشعريّة في خطبهم بوصفها

---

[١] ينظر:فن الخطابة : ٢٥٥.

[٢] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٥٤.

وسيلة حجاجيّة تحمل المتلقي على الإذعان والتّيقين، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن في مقام التّقريع والتّوبيخ في ردّ على معاوية، وكشف زيف إيمانه وإسلامه، إذ خطب قائلًا: **"...وأنشدك الله يا معاوية أتذكر يومًا جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقهُ، وأخوك عتبة هذا يقودهُ، فرآكم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقال: (اللّهم العن الرّاكب والقائد والسّائق) أتنسى يا معاوية الشّعر الذي كتبته إلى أبيك- لمّا همّ أن يُسلم- تنهاه عن ذلك:**

**يا صخر لا تُسلمن يومًا فتفضحنا بعـــــد الّذين ببدرٍ أصبحوا مزقا**

**خالي وعمِّي وعمُّ الأمّ ثالثـــــهم وحنظل الخير قد أهدى لـــنا الأرقا**

**لا تركـنـنَّ إلى أمــــرٍ تُكلّـــفنا والرّاقـــصات به في مكّة الخرقا**

**فالمـــوت أهون من قول العُداة لقد حاد ابن حربٍ عن العزّى إذا فرقا"**[١].

سعى الخطيب إلى تقديم الصّورة الحقيقيّة للخصم أمام الملأ من خلال التوسّل بحجّة الاستشهاد الشّعريّ، فالمتلقي لم يكن بالأساس في إسلامه على درجة عالية من اليقين والإيمان بالدّين، بل ويمكن القول أنّه كان على إيمان شكليّ ظاهريّ فرضته الظّروف والعوامل السياسيّة والاجتماعيّة، ولكي يثبت الحسن هذه الدّعوى راح يستنجد بالتمثّل الشّعريّ، ليسخّره دليلًا قاطعًا، وحجّة ناصعةً على صحّتها، كما لا يخفى في واقع الحال أنّ هذا التّناص ضاعف من حدّة التّبكيت والتّنديد، وأبان عن صورة مستترة ومضمرة للمخاطب، فما هو إلّا مختبئ خلف ستار الإسلام، ويظهر أنّ هذه الأبيات مدّت الخطاب الحسنيّ بحجّة منقطعة النّظير؛ لأنّها كانت صادرة من ذات المعني بالإيلام والتّقبيح، إذ أصبحت دليلًا أيما دليل وحجّة أيما حجّة على الخصم، ممّا بدّد تلك الصّورة السّامية الّتي يدّعي بها، ولا شكّ أنّ مردّ هذا التّوظيف كان يستهدف البعد النّفسيّ، الّذي يلقي أثرًا بعيد المدى في نفسيّة المخاطَب، إذ أنّ

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٢٣-٢٤.

معاوية كان رافضًا رفضًا كلّيًا لجنوح أبيه إلى الإسلام، فعمد إلى تذكيره بقتلى بدر بأسنّة المسلمين، فالموت كان أهون عند معاوية من قول القائلين بعزوف ابن حربٍ عن عبادة آلهته من العزّى وغيرها، فالشّاهد كشف عمّا أخفاه الخصم من حقائق الأمور أمام الحضور، ونقائض ظاهر الشّخصيّة، وحمله على الإذعان والتّيقين للخطاب الحسنيّ، وضرب كلّ الدّفاعات الاعتراضيّة التي قد تبدر منه بما ألزمه من قطعيّة الدّليل، ووضوح البرهان.

ولم تغب حجّة الاستشهاد عن خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير بعد مقتل الحسين(ع)، **قوله:"أما والله لقد قتلوه، طويلًا باللّيل قيامه، كثيرًا في النّهار صيامه، أحقّ بما هم فيه منهم، وأولى به في الدّين والفضل...فسوف يلقون غيًّا"**(١).

يظهر لنا أنّ ابن الزّبير جاء بصورتين من صور الاستشهاد القرآنيّ في الخطبة، ليحتجّ على سوء تعاطي أهل الكوفة مع القضيّة الحسينيّة، الأولى: الاستمداد من معاني القرآن الكريم، وتمثّلت بقوله: (طويلًا باللّيل قيامه)، إذ تنفتح على الآية الكريمة في قوله تعالى:" يا أيّها المزّمّل* قم اللّيل إلّا قليلا"{المزّمّل: آية ١-٢}، ليحتجّ بصحّة دعواه، ففظاعة ذلك الفعل تؤكّد بأنّ أهل الكوفة والأمويين انتهكوا قيم الدّين بقتلهم رجل قائم على عبادات اللّيل، وهذا دليل على صلاح وتقوى المقتول، وفجور القاتلين، ليحثّ المخاطبين بضرورة استنكار هذا الأمر، والنّفور عن طاعة البلاط الأمويّ بعد قدومه على مثل هذا الفعل، فكان تضمين المعنى القرآنيّ ناجعًا جدًا، وقام بتدعيم حجّة الخطاب، وحمل السّامعين على الإقرار بما جاء في مضمون الدّعوى، فكلّ فكرة يدعو إليها الخطيب بإقناع غيره بها لن

(١) جمهرة خطب العرب : ١٦٨-١٦٩.
*غيًّا: الشّر والخسران.

تضرب جذورها في أذهانهم، ولن تتعمّق مفاهيمها في مداركهم وقلوبهم، ما لم يُدعِّمها صاحبها بالشّواهد النّقليّة الصّحيحة، والأدلّة العقليّة الصّريحة[1]، فكلّما كان الشّاهد أكثر قوّة، وتناغمًا مع المقام كان السّامعون أكثر اعتدادًا به، وأشدّ ميلًا إليه.

أمّا الصّورة الثّانية: الاقتباس النصّيّ المباشر: تسلّح به الخطيب ليدفع السّامعين إلى الاعتقاد بسوء عاقبة قتلة الحسين، الّذين سيلقون الله بدمائه، إذ إنّ قوله:" فسوف يلقون غيًّا"، هو آية قرآنيّة من سورة{مريم: آية ٥٩}، وقد بان هذا التّوظيف عن مهارة في وضع الآية موضع البيّنة، فقد جاءت بوصفها ضربة دلاليّة ختاميّة على الأسماع في آخر الخطبة، حتّى ليحسب الّذي لا يحفظ القرآن بأنّ الكلام كلّه للخطيب[2]، فالاستشهاد القرآنيّ أوحى إلى السّامعين بأنّ هؤلاء قد انحرفوا عن مسار الدّين، وتعاليم السّماء، فحقّ عليهم العقاب والعذاب جزاءً بما عملت أيديهم، ويبدو أنّ النّصّ القرآنيّ جاء لتثبيت الحجّة، وزيادة نجاعتها في الخطاب؛ لأنّه عادةً ما يترك أثرًا بلاغيًّا حجاجيًّا ونفسيًّا يسهم في تمثيل الفكرة بشكلٍ واضح، وبمنأى عن التّعقيد، لذا كان الشّاهد القرآنيّ مصداقًا على صحّة دعوى الخطيب، أتى به ليزكّي رؤيته الدّينيّة، ويرفد خطابه بالحكم الفاصل بين الحسين والقتلة، ممّا يضاعف اعتقاد المخاطبين، وزيادة إيمانهم ويقينهم بمقاصد الدّعوى وغاياتها الحجاجيّة[3]، فحملهم على الإذعان لطروحات الخطيب، ودفعهم إلى الإقرار بضرورة الوقوف أمام المدّ الأمويّ المنحرف، نظرًا لما للحسين من الدّين والتّقوى، والمنزلة الشّريفة، فهو قرّاء القرآن، والبكّاء من خشية الله، والصّائم عن شرب الحرام، فهو في الواقع أحقّ وأولى بالأمر، في حين كان القاتل يزيد على خلاف ذلك، فهو العابث اللاهي بالصّيد كما صوّره عبدالله بن الزّبير.

---

[1] ينظر: الخطيب الناجح: ٦٢.

[2] ينظر: أدب السياسة في العصر الأموي: ٣٥٣.

[3] ينظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: ١٧٥.

وقد جاءت خطبة مصعب بن الزّبير(٧٢هـ) في البصرة كلّها من القرآن[١]، بوصفها شاهدًا على صلاح الزّبيريين، وفساد الأمويين الّذين سيُهلكون بسيوف جند آل الزّبير.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز في مناظرته مع الخوارج، الّذين طلبوا منه أن يلعن أهل بيته ويتبرّأ منهم حتّى يبايعوا له، فخطب **قائلًا:" إنّي علمت أنّكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدّنيا ومتاعها، ولكنّكم أردتم الآخرة، فأخطأتم سبيلها، إنّ الله عزّ وجلّ لم يبعث رسوله صلّى الله عليه وسلّم لعّانًا وقال إبراهيم:(فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفورٌ رحيم){إبراهيم: آية ٣٦}، وقال الله عزّ وجلّ:(أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده){الأنعام: آية ٩٠}**[٢].

اندفع الخطيب إلى تبكيت رؤية الخوارج وتصوّراتهم الدّينيّة، وتبديد أهدافها، وهو يحتكم في ذلك إلى النّصوص القرآنيّة المباركة، الّتي تؤكّد ابتعاد الدّين الإسلاميّ عن تلك الفعال، فالله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيّه لعّانًا، والإسلام كان متسامحًا ومنفتحًا إلى حدٍّ كبير حتّى مع المشركين، بل نهى في كثير من المواضع عن شتم آلهتهم وسبّها، فإذا كان النّبيّ(ص) قد تفادى هذا اللون من السّلوك، فالأحرى بالخليفة أن يقتدي به، فهو الأسوة الحسنة للمسلمين جميعًا، فالشّاهد القرآنيّ كان منسجمًا ومتناغمًا مع مقام الحال باستحضار حقائق لا يمكن إنكارها، ونجح في تقويض مسعى الخوارج، وتكفّل باعتراض مطالبهم المخالفة لقيم الإسلام، وأخلاق النبيّ؛ لأنّ النّصوص المقدّسة تشيع في نفوس السّامعين أجواء الخشوع والطّمأنينة، والعظة والاعتبار؛ نظرًا لما للنّصّ الدّينيّ من تأثير في النّفوس،

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٨١.
[٢] المصدر نفسه: ٢١٥.

ولسلطته العالية على جميع النّصوص البشريّة والأدبيّة، فالنّصّ القرآنيّ لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تنكشف الظّلمات إلّا به، فتوظيف الخطيب لنصوصه يأتي من باب تحقيق أهداف فكريّة مقصودة، فلا حجّة أثقل من حجج السّلطة الإلهيّة، فهي البيّنة الواضحة، والشّاهد الأقوى على صحّة دعوى الخطيب برفضه الانصياع لمطالب الخوارج والامتثال لها بلعن أهل بيته والتّبرّؤ منهم، فكما يبدو لنا أنّ هناك دلالة انبجست من دلالة الشّواهد القرآنيّة، فأسهمت بتوليد العظة والاعتبار في نفوسهم، الّتي غفلت عن التّمعّن بهذه الآيات، ولاسيّما أنّهم كانوا قرّاء القرآن، ممّا حملهم على الاعتقاد برؤى الخليفة المحتكمة إلى القرآن الكريم، فزجّ هذه النّصوص كان ناجعًا ومؤثّرًا، وجاء متناغمًا مع الهدف الفكريّ للخطاب، ممّا دفعهم إلى تبنّي رأي عمر بن عبد العزيز، فلا شكّ يبقى القرآن هو الحجّة السّاطعة، والمحجّة الكبرى، الّذي قرّر الله فيه العقائد الصّحيحة، والشّرائع القويمة، والأخلاق الإسلاميّة المثلى، لذا يعدّ أعظم مصدرٍ للاستشهاد على الإطلاق[1]، وهذا ما يؤمن به كلّ إنسان مسلم يقرّ بما جاء في القرآن من حقائق الأمور.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي(٩٦هـ) في غزو بلاد السّغد[2]، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

أمّا حجّة الشّاهد الشّعريّ فلم تغب كذلك عن خطب الأمويين، بل كانت حاضرة حضورًا أكبر من حضور النّصوص القرآنيّة عند خطبائهم، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزّبير سنة(٧٢هـ)، فدخل الكوفة وحمد، وأثنى، وصلّى، ثمّ قال:**" أيّها النّاس إنّ الحرب صعبةٌ مُرّة، وإنّ السّلم أمن ومسرّة، وقد زبنتنا الحرب وزبنّاها فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمُّنا[...]**

---

[1] ينظر: الخطيب الناجح: ٦٤.
[2] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٣٠٥.

**فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد، فإنّما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاريّ:**

**من يصل ناري بلا ذنب ولا تـرةٍ يصل بنار كريمٍ غير غـــــــدّار**

**أنا النـّــذير لكم منّي مجـــاهرةً كي لا ألام على نـهي وإنـــــــذار**

**فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا أنّ سوف تلقون خزيًا ظاهر العار"[١]**

زخرت خطب الأمويين بالشّواهد الشّعريّة، الّتي تنفتح على شنّ حملات ضدّ الخصوم، والتّهجّم عليهم، وتُوعدهم بالويل والثّبور، وهذا ما نراه في آخر الخطبة بواسطة الشّاهد الشّعري، إذ جاء به عبد الملك لتعزيز حضور القاعدة في أذهان السّامعين، وإبلاغهم بأنّ من يرغب بالجنوح مرّة أخرى إلى الحرب سيلقى مصيرًا مروّعًا للغاية، لاسيّما بعد أن قام بنهيهم وإنذارهم من هذا الأمر، إذ اعتمد الأمويّون على قوارص الكلم في إرهاب الثّائرين، وردع المنتفضين، ومعاقبة كلّ من تسوّل له نفسه في أحداث بلبلة أو فتنة، أو التّمرّد على الأحكام[٢]، وهي محاولة يسعى بها الخطيب لانتداب المخاطبين إلى تفادي الانخراط في الثّورات القائمة ضدّ البلاط، ويسمّي ذلك الدّكتور محمّد مشبال بــ(بلاغة العنف)، أو ما نسمّيه بـ(حجاج العنف)، فالحجاج بالتّخويف والتّرهيب ضروري للتحكّم في إرادة المتلقين، وتوجيه أحكامهم وقراراتهم، فهو حجاج قائم على استدعاء الأهواء بوسيلة الاستشهاد الشّعريّ، ويعتمد في الأساس على خلق موالاة عمياء من المخاطب سالبًا منه كلّ قدرة على الجدل أو النّقض؛ إنّه ضربٌ من العنف اللفظيّ الّذي يستخدمه الخطيب لإجبار المخاطب على الإذعان، والاعتقاد بدعواه بالقوّة وليس بالحجج[٣]، ويبدو أنّه

---

[١] جمهرة خطب العرب: ١٩٤-١٩٥.

*زبنتنا: دفعتنا ودفعناها لأن الزّبن هو الدّفع، الترة والوتر:الثّأر.

[٢] ينظر: أدب السياسة في العصر الأموي: ٣٤٤.

[٣] ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٨٢-٢٨٣.

يستهدف إرغام المخاطبين على القيام بالفعل أكثر من دفعهم إلى تغيير رأيهم كما يرى الدّكتور مشبال، بيد أنّه في نظر البعض بنية حجاجيّة؛ فيرى (دوجلاس والتون) يصفهُ بأنّه نوع من الحجاج بالنّتائج؛ إذ يعتمد الخطيب في هذه الحال إلى انتداب المخاطب على الإقرار والتّسليم، مسوّغًا ذلك بالنّتيجة الوخيمة المترتّبة على عدم إذعانه، وفي الحقيقة نحن نذهب إلى تبنّي رأي الدّكتور مشبال(١)؛ لأنّه منهج قوّة يخاطب أهواء النّاس لرهبنة مشاعرهم، ودفعهم إلى الامتناع عن القيام بفعل ما، فهو خطاب موجّه إلى الأحاسيس، وليس إلى العقل بشكلٍ مركزيّ، وإن كان يدفع المخاطبين إلى التفكّر والتأمّل بعواقب الأمور؛ كونه ينطلق من نواة الشّعور والوجدان المتمثّلة بالخوف، أو الحزن، أو الرّهبة، فالعواقب الوخيمة في انتظار أهل الكوفة في حال إصرارهم على الثّورة والمعارضة بعد ذلك الإنذار والتّحذير، وهذا ما يقتضي الخضوع المطلق للخلافة الأمويّة، والعزوف عن كلّ مظاهر الانتفاضة.

ومن ذلك ما جاء في خطب الحجّاج في أهل العراق وقد سمع تكبيرًا في السّوق، وقد سارت على منوال هذه الخطبة من حيث توظيف الشّاهد الشّعريّ في آخر الخطبة(٢)، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

ويمكن القول أنّ خطب الخوارج قد حفلت بحجّة الاستشهاد القرآنيّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة قطريّ بن الفجاءة في حضّ الأزارقة على ترك ملذّات الدّنيا، والانصراف عن متاعها، وعدم الاطمئنان إليها، فوعظ أصحابه بالموت، فخطب قائلًا:" **فاعلموا-وأنتم تعلمون-أنّكم تاركوها لابدّ، فإنّما هي كما وصفها الله باللّعب واللهو وقد قال تعالى:(أتبنون بكلّ ريعٍ آيةً تعبثون*وتتخذون مصانع لعلّكم**

---

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٢٨٣.
(٢) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٩١-٢٩٢.

**تخلدون*وإذا بطشتم بطشتم جبّارين){الشعراء:آية١٢٨ـ١٣٠}، واتّعظوا فيها بالذين قالوا: من أشدّ منّا قوّةً، حُملوا إلى قبورهم فلا يُدعون..."[١].**

من اليقين أنّ خطب الخوارج وثيقة الصلّة بأفكار الزّهد، واحتقار الدّنيا، إذ كانت كلمة الموت حاضرة في قاموسهم اللغويّ بشكلٍ كبير جدًا، كما أنّ لها عمقًا في وجدانهم ومشاعرهم النّفسيّة، فما الدّنيا عندهم إلّا متاع زائل، وعبث ولعب كما ذهب الخطيب، ومن هذا المنطلق أراد أن يأتي ببيّنة تعزّز حضور هذا المعنى في نفوس الأتباع، فالوعظ كان قائمًا على فكرة تُحظى بالمصداقيّة والقبول، فكلّ إنسانٍ مؤمن بأنّه سيفارق هذه الحياة، وجاء بشاهد قرآنيّ لترسيخ هذا المفهوم، ودعم حضور هذه القاعدة في أذهان السّامعين، فينتدب أصحابه إلى الإذعان والإقرار بصحّة الدّعوى في الشّاهد الأوّل، أمّا الشّاهد الثّاني: فقد جاء لأخذ الدّرس والعظة والاعتبار من قوم عاد، الّذين دفعهم تغطرسهم وتعاظمهم إلى القول(من أشدّ منّا قوّة)، فقد بنوا القصور، وعتوا بقوّتهم إلّا أنّ أمر الله كان نافذًا فيهم لا محالة، ممّا حمل السّامعين على التأمّل بنصوص القرآن وتدبّرها، الّتي فيها الخبر، وفيها العبر، ويبدو أنّ هذا المقام التّواصليّ لم يأتِ لإقناع الخوارج بدعوى الخطيب فحسب، فالنّصّ القرآنيّ كان للاستئناس وخلق جوٍّ دينيّ ما داموا غير منكرين لأمر الموت، إلّا أنّ النّصوص القرآنيّة جاءت للتّذكير بهذه الدّعوى كذلك، لدفع عنهم الغفلة والتّقصير تجاه تقوى الله والطّقوس العباديّة، ليحملهم قطريّ إلى موضع العمل بالواجبات، والاعتصام بحبل الله، أو سوق المخاطبين من الإيمان النّظريّ إلى ساحة الممارسة العمليّة، والتّراجع عن الانغماس بمغريات الدّنيا، والانجرار وراء ملذّاتها، وجعل الفناء نصب أعينهم، إذ يرى(بيرلمان) أنّ الاستشهاد يهدف إلى تقوية حضور الحجّة، بجعل القاعدة المجرّدة ملموسة بواسطة حالة خاصّة، فقد نظر

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٤٥٧.

إلى حضوره على أنّه صورة حيّة تجعل من القاعدة المعنوية حسّيّة وملموسة من المخاطبين(١)، فالاستشهاد من أكثر الظواهر تأثيرًا في عمليّة الإبداع ، حيث يحدث تماسٌّ يؤدّي إلى تشكيلات متداخلة، قد تميل إلى التّماثل، أو التّخالف، أو التّناقض، وفي كل ذلك يكون للنصّ موقفٌ محدّد إزاء دعوى الخطاب المستدعي.

ومن ذلك ما جاء في آخر خطبة صالح بن مسرح زعيم الصّفرية في أصحابه(٢)، وما قلناه في الخطبة أعلاه ينطبق عليها تمامًا.

وحضر الاستشهاد بالنّصّ القرآنيّ كذلك في خطبة أبي حمزة الشّاري، بوصفه بيّنة على سوء تصرّف الأمويين بأموال المسلمين، **قوله:" ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بيّن الله أهلها، فجعلهم ثمانية أصناف، فقال:( إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ){التوبة: آية ٦٠}، فأقبل صنفٌ تاسع ليس منها، فأخذ كلّها: تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فالعنوهم لعنهم الله"**(٣).

يتّجه الخطيب إلى إقناع أهل المدينة بمساوئ حكم الأمويين وفسادهم، وانحرافهم عن طاعة الله، والالتزام بأوامره ونواهيه، فلم يتمسّكوا بالعمل بتعاليم القرآن، وعمدوا على مخالفتها بتسخير أموال الصّدقات والزّكاة لذاتهم، وإنفاقها في غير موضعها على الرّغم من أنّ الله تعالى أبان عن أصناف أهلها، فجاء النّصّ القرآنيّ شاهدًا قطعيًّا على إسراف الأمويين وظلمهم، وبرهان على عصيانهم أوامر السّماء، فراحوا ينفقونها في صنف غير تلك الأصناف المذكورة في الشّاهد القرآنيّ، ليكون حجّة أيما حجّة على فساد السّلطة الحاكمة، وتيقين المخاطبين بصحّة دعوى

---

(١) ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٧-٣٣٨.
(٢) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٦١.
(٣) المصدر نفسه: ٤٧٣-٤٧٤.

الخطيب، والإيمان بما جاء من مضامين في الخطاب، فالشّواهد القرآنيّة تفيد الثّبوت والقطعيّة، وتدفع المخاطبين إلى التّصديق اليقينيّ، وتزيد جلاء الفكرة وضوحًا؛ بوصفها دليلًا بيّنًا، وبرهانًا لامعًا تُعضّد دعوى الخطاب، وتعزّز حضور القاعدة في نفوس المعنيين.

ويمكن القول بأنّ دعوى العلويين والزّبيريين كانت قائمة على الشّاهد القرآنيّ بشكلٍ كبير جدًا، بيد أنّ الأمويين كانوا قلّما ما يستدعون الشّواهد القرآنيّة في المناظرات؛ لعدم تمكّنهم من الاحتجاج بها على شرعيّة حكمهم، إلّا أنّها حضرت بكثرة في الاستعمالات الوعظيّة في خطب عمر بن عبد العزيز، وخطب الحجّاج.

## ٣ـالأنموذج وعكس الأنموذج:

إذا كان الشّاهد، أو المثال قائم على حالة خاصّة لتأسيس قاعدة، فإنّ (الأنموذج) يأتي بتقديم قدوة يُحتذى بها، بمعنى أنّه شخصيّة من هؤلاء الّذين نعجب بهم ونقتدي بسيرتهم، بما يحظون به من سلطة، ومكانة اجتماعيّة، أو دينيّة، أو قبليّة، وتعود تلك السّلطة إلى كفاءتهم، أو وظائفهم، أو إلى صفّهم الاجتماعيّ، والحجاج بالأنموذج، مثله مثل حجّة السّلطة، يفترض وجود سلطة ضامنة للفعل المزمع القيام به، لذلك ينبغي لمن يعي بكونه قدوة أن يراقب أفعاله وأقواله، فالشّخص الأنموذج يحسم بنفسه فيما يحسن القيام به، إلّا أنّه يمكن أن يستلهم أفعاله وأقواله من أنموذج وقدوة مقدّسة: فالصّحابة، وهم قدوة عند المسلمين، الّذين كانوا بدورهم يتّخذون الرّسول قدوةً لهم قولًا وفعلًا[١]، فالخطيب يستدعي شخصًا يمتلك حظوة كبرى عند المخاطبين لثمين الأفعال؛ فهنالك اتّفاق مسبق بين الخطيب والسّامعين على أنّ هذا الشّخص يمثّل سلطة ما في المجتمع، لذا يسعى الخطيب في زجّها ضمن الخطاب

[١] ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٨٦.

للحضّ على إتّباع سلوك هذا الأنموذج متجاوزًا تأسيس قاعدة عامّة أو توضيحها، فهذه الحجّة تشير إلى السّلوك الّذي ينبغي محاكاته، وأنّها تصلح أن تمثّل ضامنًا للسّلوك المتّبع[١]، ويعني هذا دعوة المخاطب إلى إتّباع سلوك تلك الشّخصيّة، وهي في الوقت نفسه تمثّل حجّة على ذلك السّلوك، إذ يعرّفه (أوليفي روبول) بأنَّه" المثال الّذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده"[٢]؛ بوصفه ضربًا خاصًّا من المثال، بيد أنّه ينبغي لنا أن ننتبه إلى أمرين: الأوّل: أن ينتبه المحتجّ إلى تدقيق اختيارات نماذجه، بحيث تكون جديرة بالتّقليد، ومهيّأة لأن يُقتدى بها من السّامعين، وأن ينسج على منوالها، فيكون للأنموذج المُعتمد قدرٌ كافٍ من الهيبة على حدّ تعبير(بيرلمان)[٣]، أمّا الأمر الثّاني: لا يفترض أن يكون الأنموذج مرتبطًا بأشخاص في كلّ الأحوال؛ فقد يشير إلى كيانات لا شخصيّة، من قبيل الإيديولوجيّات، والأنظمة السّياسيّة، والاقتصاديّة، والمذاهب الفكريّة؛ فعلى سبيل المثال: قد قام الأدب العربيّ في العصر الحديث على محاكاة الأدب العربيّ القديم؛ إذ أصبح هذا التّراث أنموذجًا للمحاكاة والتّقليد في نتاج المرحلة الشعريّة والنّثريّة والنّقديّة في العصور اللاحقة، مثلما قام الرومانسيّون العرب بعد ذلك بمحاكاة المذهب الرّومانسيّ الأوربيّ، فيتّضح أنّ مفهوم (الأنموذج) أوسع وأكبر من أن يتعلّق، أو يرتبط بشخصيّات محدّدة[٤]، بمعنى أنّه ذو أبعاد شموليّة للجانب العمليّ للإنسان في الحياة على مختلف الأصعدة.

---

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٤٧.
(٢) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٤٥.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٥.
(٤) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٤٨.

أمّا حجّة (عكس الأنموذج) يكون الحضّ لا على الاقتداء بطبيعة الحال، وإنّما على الانفصال عن الشّخص الّذي يمثّل عكس الأنموذج[1]، فالحجاج به يكون لنزر أفعال النماذج المحتقرة والانفكاك عنها؛ لأنّنا نسعى بعفوية لتقليد من نعجب بهم، والتّميّز عن الّذين نحتقرهم ونزدريهم، وبناءً عليه تمثّل صورة الأنموذج المُستحسن الصّالح أو المُستهجن الفاسد وسيلة حجاجيّة في الخطاب الاجتماعيّ والسّياسيّ والتّربويّ بشكل خاصّ؛ فقد أشار (بيرلمان) إلى أنّها تكوّن أساسًا في التّربية بكلّ أشكالها[2]، وتستهدف الإقناع بتوجيه المخاطبين إلى إتّباع سلوك ما، وسنقدّم شواهد للنّوعين:

## م- شواهد حجّة الأنموذج:

ومن ذلك ما جاء في خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر(٧١هـ) يدعوه أن يناصره ويبايعه، فقال المختار:**" الحمد لله، وأشهد أنّ لا إله إلّا الله، وصلّى الله على محمّد والسلام عليه، أمّا بعد: فإنّ هذا كتاب إليك من المهدي محمّد بن أمير المؤمنين الوصيّ، وهو خيرُ أهل الأرض اليوم، وابنُ خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم، بعد أنبياء الله ورسله، وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا، فإن فعلت اغتبطت، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجّة عليك. وسيغني الله المهدي محمّدًا وأولياءه عنك"**[3].

يدرك الخطيب أنّ حجّة (الأنموذج) تقدّم بوصلة توجيه فعّالة لآراء المخاطَب، وتحقّق الاستمالة، لذا تعمّد إلى دعوة ابن الأشتر بالاستناد إلى هذه الحجّة، الّتي تفجّرت منها سلطة ضامنة للفعل المزمع منه، فألزمه أن يقتدي بمن هو أقرب النّاس

---

(١) ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٨.
(٢) ينظر:في بلاغة الحجاج: ١٤٨.
(٣) جمهرة خطب العرب: ٨١.

إلى أمير المؤمنين عليّ(ع)، ونحن ندرك أنّ المتلقي يؤمن بمكانة عليّ وآل عليّ ومنزلتهم(ع)، إذ كان هذا الخطاب الحجاجيّ مؤثّرًا كونه تماهى مع طبيعة البناء الفكريّ والعقديّ لابن الأشتر، انطلاقًا من الاتّفاق المسبق حول الحظوة الّتي يتميّز بها العلويّون عند الخطيب ومتلقّيه، فمحمّد بن الحنفيّة كان خير أهل الأرض يومها، وابن خيرها قبل ذلك بعد الأنبياء والرّسل من منظور الخطيب، إذ جاء المختار بهذا النّسق الحجاجيّ ليحضّ المخاطب على سلوك الاستجابة لدعوى الخطاب بناءً على الامتثال بأوامر(الأنموذج)، أو(القدوة)، الّتي دعته إلى مؤازرة المختار وأصحابه، وإن لم يفعل سيكون الكتاب حجّة عليه من قبل الوصيّ، ويبدو أنّ توجيه المخاطب بسياق هذه الحجّة، أو قيادته نحو موقف محدّد يعدّ من أنسب المجالات لآليّة عملها في التّحريض على الفعل، وصناعة الإقناع في ظلّ حضور شخصيّة جديرة بالتّقليد، ومهيّأة لأن تكون القدوة المحتذى بأقوالها وأفعالها، الّتي توفّر قدرًا عاليًا من الهيبة على حدّ تعبير (بيرلمان)[١]، وهذا ما لم يترك مجالًا أمام ابن الأشتر لإبداء أيّ اعتراض ممكن على المبايعة؛ لأنّها تُحظى بتأييد (الأنموذج) محمّد بن الحنفيّة، فأعلن بيعته ومناصرته للمختار، وقد سارت خطبة المختار في أهل الكوفة وفق هذا المنوال الحجاجيّ كذلك[٢]، واعتمد (الأنموذج) ذاته في إقناع المخاطبين على نصرته ومبايعته.

وبما أنّ هذه الحجّة تستند إلى الحظوة والسّلطة الاجتماعيّة، أو الدّينيّة للشخصيّة المقدّمة بوصفها (قدوة) عند المخاطَب، فمن هنا أخفقت حجّة الخطيب الزّبيريّ عبدالله بن مطيع العدويّ في أهل الكوفة، المبعوث من عبدالله بن الزّبير لجباية الفيء، إذ التجأ إلى أنموذجٍ لا يُحظى بسلطة عليا في نفوس الكوفيين، ولا يعدّ

---

[١] ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٤٥.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٧٥.

قدوة بالنّسبة إلى بنائهم العقديّ والفكريّ، وتصوّراتهم الدّينيّة[1]، فجاء الرّدّ من السّائب بن مالك الأشعريّ(٦٧هـ)، وهو من رؤوس أصحاب المختار، إذ قال:**" أمّا أمر ابن الزّبير إيّاك ألّا تحمل فضل فيئنا عنّا إلّا برضانا، فإنّا نشهدك أنّا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنّا، وأن لا يُقسّم إلّا فينا، وأن لا يُسار فينا إلّا بسيرة عليّ بن أبي طالب، الّتي سار بها في بلادنا هذه، حتّى هلك رحمة الله عليه، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، فإنّها إنّما كانت أثرةً وهوى، ولا في سيرة عمر بن الخطّاب في فيئنا، وإن كانت أهون السّيرتين علينا ضرًّا، وقد كان لا يألو النّاس خيرًا[...]، فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكلّ سيرة أحببتموها وهويتموها"**[2].

يظهر أنّ هذه الحجّة تتحرّك على وفق البناء الثّقافيّ، والدّينيّ، والاجتماعيّ لدى المتلقي، فالخطيب الزّبيريّ حينما قدّم أنموذجًا لا يَحظى بالقدر الكافي من الهيبة والوقار عند المخاطبين، أخفق خطابه في تحقيق الإقناع، وبهت نور حجّته، وجاء الرّدّ من خطيب التّوّابين بأنّ (الأنموذج) يجب أن يكون عليًّا(ع)، الّذي يحظى بسلطة عليا في نفوسهم، تضمن له نيل قبولهم ورضاهم في حال عمل الوالي الزّبيريّ بسيرته، وليس بسيرة غيره من الخلفاء، وهذا ما دفع العدويّ إلى الاستجابة لدعوى الخطاب، ومقاصد الخطيب دون تبصّر، أو اعتراض وطعن.

وقلنا أنّ حجّة الأنموذج ليس بالضّرورة أن تكون شخصيّة، ولربّما جاءت قبيلة، أو مجموعة دينيّة، أو تيار ثقافيّ معيّن، وقد حضرت حجّة (الأنموذج) في طابع دينيّ وقبليّ في الآن نفسه حينما ردّ ابن عبّاس على معاوية بعد فخر الأخير

[1] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٧٦-٧٧.
[2] المصدر نفسه: ٧٧.

بالنّبوّة[١]، ومن استعمالات هذه الحجّة ما جاء في الخطبة الاعتراضيّة لعبد الرّحمن بن أبي بكر(رض) المتوفّى(٥٣هـ) بالرّدّ على مروان بن الحكم، الّذي ادّعى أنّ معاوية سيعمل بسنّة أبي بكر في تسمية يزيد بالخلافة من بعده، إذ قال:**" كذبت والله يا مروان، وكذب معاوية معك، إنّ أبا بكر ترك الأهل والعشيرة، وبايع لرجل من بني عديٍّ رضي دينه وأمانته، واختاره لأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، لا يكون ذلك، لا تُحدثوا علينا سنّة الرّوم، كلّما مات هرقل قام مكانه هرقل"**[٢].

من الواضح أنّ الشّخصيّة (الأنموذج) مشتركة بين الاثنين، لكنّ ثمّة فرق بين ما ادّعى به الأوّل على أبي بكر من زور وباطل، وتدليس للحقائق، واعتراض الثّاني الّذي وضّح حقيقة ما قام به أبو بكر(رض) بعد رسول الله(ص) خلاف ما رام إليه معاوية، فقد ولّى أبو بكر من بعده عمر بن الخطّاب(رض)، وهو على دين وأمانة في المجتمع الإسلاميّ، وليس كما يريد معاوية في جعل الخلافة روميّة هرقليّة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، أو بين أفراد العشيرة من دون الخضوع إلى الشّروط الدّينيّة الواجب حضورها في شخصيّة المكلّف بهذا الأمر، فالاعتراض بـ(الأنموذج) نفسه جاء لتبكيت دعوى مروان بن الحكم وتقويضها، والحضّ على إتّباع سلوكيّات (الأنموذج) المذكور من المدّعي بصورة حقيقيّة، ومحاكاتها بشكلٍ صحيح بوصفها حجّة عصماء على الفعل، إذ تقدّم القدوة بنية حجاجيّة تحتكم إليها الخطابات الدّينيّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة لأهداف إقناعيّة، انطلاقًا من إمكانيّة محاكاة أفعالها حفاظًا على القيم السّائدة في المجتمعات[٣]، وهذا ما سعى إليه عبد الرّحمن من توظيف حجّة أفعال (الأنموذج) المحتذى به والاقتداء بصورتها،

[١] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٩٩.
[٢] المصدر نفسه: ٢٥٢.
[٣] ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٤٩.

للحفاظ على المسار المستقيم في تسنّم منصب الخلافة الإسلاميّة بعيدًا عن أعراف الوراثة الأمويّة الرّوميّة.

ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير في الموضوع ذاته، اعتراضًا على معاوية في تسمية يزيد بالخلافة من بعده، فخطب قائلًا:**"نخيّرك بين إحدى ثلاث، أيّها أخذت فهي لك رغبة، وفيها خيار؛ إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قبضه الله ولم يستخلف أحدًا، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، فدع هذا الأمر حتّى يختار النّاس لأنفسهم، وإن شئت فما صنع أبو بكر، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلًا، وإن شئت، فما صنع عمر، جعلها شورى في ستّة نفر من قريش يختارون رجلًا منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو ولّيها لكان لها أهلًا"**[١].

لا جدال في حقيقة أنّ رسول الله(ص) يمثّل القدوة الأعلى، والأسوة الحسنة الّتي يقتدي بها المسلمون، ولعلّه يعدّ مركزيّة الأمّة الإسلاميّة جمعاء، الّتي تدور حولها مناهج المسلمين في القول والفعل، وهذه القيمة المركزيّة المعترف بها مسبقًا مقدّمة حجاجيّة تُستشف منها دعوى تدعو إلى التّمسّك والاقتداء بسنّة رسول الله قولًا وفعلًا، فهو ضرب خاصّ من المثل كما أسلفنا، ويستهدف إلزاميّة تقليده، للحضّ على إتّباع عمل ما من أعماله، أو الامتثال لأمر ما من الأوامر محاكاةً لسلوكيّاته، وسيرًا على منواله، ومن هنا تظهر أهمّيّة إقحام هذه الحجّة في الخطاب لحثّ معاوية على تقليد صنيع رسول الله في الأمّة، إذ مات ولم يستخلف أحدًا، فرأى المسلمون أن يبايعوا أبا بكر خليفةً عليهم، ليأتي من بعدها بأنموذج ثانٍ يستهدف الدّلالة ذاتها لمنعه من تنصيب يزيد خليفة للمسلمين، فأبو بكر (الأنموذج الثّاني)، عهد إلى رجل من أقصى قريش، ولم يعهد إلى الأدنين من أولاده، ممّن كانوا لها أهلًا، ومن ثمّ خيّره

[١] جمهرة خطب العرب: ٢٦٠-٢٦١.

بالاقتداء بــ(أنموذج ثالث) يتمثّل بالخليفة عمر بن الخطّاب، إذ جعلها شورى في ستّة من قريش يختارون رجلًا منهم، وقد ترك أن يعهد لولده، أو أيّ أحد من أهله مع أهليّتهم لها، ويبدو أنّ مجيء النّماذج المذكورة كانت تستهدف ترسيخ الرّغبة، وتحقيق الاستمالة لدى معاوية للاحتذاء بقدوة ما، والكفّ عمّا يرغب في فعله، فيظهر لنا أنّ توالي النّماذج عمل على مدّ الخطاب بطاقة حجاجيّة كبيرة تدفع المخاطَب إلى الاعتراف بصحّة الدّعوى الزّبيريَّة، والإذعان لحقائقها الثّابتة، الّتي تستمدّ قوّتها الإقناعيّة من أفعال شخصيّات كبرى تضطلع بسلطة دينيّة عليا في نفس المخاطَب إن كان إيمانه بالإسلام حقيقيًّا، فما كان له إلّا أن يقرّ بصحّتها، إلّا أنَّه مع ذلك كره العمل بها وراح يهدّد ويوعد بلغة السّيف واللغة القمعيّة العنيفة، وضرب رّقاب المعترضين، فقد طار طائره ممّا جاء من حقائق وثوابت لا يمكن طعنها، أو حتّى مناقشتها، وهذا يعدّ مؤشّرًا على نجاعة الحجّة في خطاب ابن الزّبير، الّتي عملت على إثارة انفعال معاوية، فإثارة غضب وانفعال المخاطَب من أشدّ أنواع الحجاج كما يرى (أرسطو)، و(بيرلمان) كذلك.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في مناظرة عمر بن عبد العزيز(رض) مع الخوارج، إذ خطب قائلًا:**"...هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بُعث إلى النّاس وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى خلع الأوثان، وشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه، وأحرز ماله، ووجبت حُرمته، وكانت له أسوة المسلمين؟ قالا: نعم. قال: أنتم تلقون من يخلع الأوثان، ويشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، فتستحلّون دمه**

**وماله، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه؟..."[1].**

يسعى الخطيب إلى تقويض دعوى الخوارج له بالتّبرّؤ من أسلافه، وردّ أحكامهم، ودحض شرعيّة سفك دماء المخالفين لعقيدتهم الخارجيّة، ولكي يحقّق الإقناع في دعواه لجأ إلى توظيف حجّة(الأنموذج)، فرسول الله المنار الأعلى للمسلمين ولاسيّما الخوارج، وحتّى يقوم بتبكيت دعواهم قام بذكر أعمال الأسوة الحسنة، وطبيعة تعاطيها ومعاملاتها مع النّاس، ففي الوقت الّذي كانوا فيه عبدة للأوثان دعاهم إلى خلعها، وإقرار الشّهادتين، وفي حال الإقرار حُرمت دماؤهم وأموالهم، ووُجبت حرمتها، فإذا كان رئيس الدّعوة الإسلاميّة، وزعيم أمّتها قد تصرّف على هذا الأساس، فينبغي للخوارج أن يسلكوا ما سلكه رسول الله(ص)، ويتبنّوا سيرته العمليّة بين المسلمين، وأن يعيدوا النّظر في رؤيتهم وسلوكيّاتهم القائمة على منهج السّيف بالتّعامل مع المخالفين لدعوتهم حتّى في الأمور الشّكليّة والفرعيَّة، الّتي لربّما لا تمسّ جوهر العقيدة الإسلاميّة الرّئيسة، فالخوارج لم تلبث أن تمزج آراءها السّياسيّة بمباحث عقديّة وكلاميّة عميقة، ولهذا نكتشف أنّ الهالة القدسيّة للنّبيّ(ص) كانت بحدّ ذاتها ضامنًا للفعل، وحجّة على مآرب الخطيب، فعوّل عليها لحضّ الخوارج على الامتثال، والاحتذاء بصنائع قدوتهم، لا أن يناقضوها كما كانوا يفعلون، فيأمن عندهم اليهود والنّصارى، وتستحلّ عندهم دماء من يخالفهم من المسلمين، فيبدو أنّ الخطاب الحجاجيّ حضّهم على محاكاة (الأنموذج)، وترك أفعالهم المتعارضة مع سنّة النّبوّة، الّتي كانوا يدّعون السّير على منهجها القويم، والعمل بتعاليمها السّمحة، فتهاوت حججهم، وتساقطت شواهدهم أمام الخطاب العمريّ المستند إلى حجّة عصماء لا تضاهيها حجّة، الّتي قادتهم إلى

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٢١٦.

الطّريق العمليّ النّبويّ المنير في التّعامل مع المسلمين جميعًا، فالخطيب ظهر بمظهر الواعظ العارف في المحاججة، حيث جادلهم بأحسن الأساليب وأوقعها في النّفس، وأشدّها تقريعًا وأثرًا، إذ إنّ استدعاء (الأنموذج) يقوم على دعوة للاقتداء به، وتثمين أفعاله في نفوس المخاطبين بهدف التزام منهجها، ومنوالها، ومنهجها في كلّ أمر، فضلًا عن أنّها تمثّل حجّة على قيمة ذلك السّلوك المتّبع.

ونحن بدورنا لا يمكن أن نغضّ طرفنا عن أثر سلطة شخصيّة عمر بن عبد العزيز(رض) في النّفوس، فهو شخصيّة عُرفت بالاستقامة والورع، وسداد الرّأي، ونفاذ البصيرة، المنصهرة بالدّين، والمقتفية لسيرة المصطفى(ص) قدوة البشر، فتنظر إليه عيون الخوارج بوقار وهيبة، وتصغي إليه آذانهم بوعي، وتعي قلوبهم خطابه بخشوع، فلا ينفرون من قوله، ولا يشكّكون في صحّته ومصداقيّته، وهذا ما دفع الخوارج إلى مناظرته من دون بقيّة الخلفاء الأمويين، وإلّا لماذا يناظرون عمر بن عبد العزيز ولم يناظروا غيره؟، فالسّيف لم يزل مرفوعًا بوجه باقي الخلفاء السّابقين واللاحقين له من غير مناظرة، أو أيّ حوار؛ ليس لشيء إلّا لإيمانهم واعتقادهم بفساد هؤلاء الخلفاء وظلمهم، وتعطيلهم لحدود الله، وجورهم بالأحكام، والاستئثار بالفيء، على خلاف عمر تمامًا، الّذي يؤمنون بصلاحه وعدله في الرّعيّة، ولهذا كانوا يسوّغون ثورتهم المستمرة ضدّ البلاط الأمويّ في عهد غيره من الخلفاء من غير مواربة.

وقد حضرت حجّة الأنموذج في خطب الخوارج أيضًا، ومن ذلك ما جاء في خطبة الشّاري في تقريع أهل المدينة، قوله:**" يأهل المدينة: داركم دار الهجرة، ومثوى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نبت به داره، وضاق به قراره، وآذاه الأعداء وتجهّمت له، فنقله إليكم، بل إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم، متوازرين مع الحقّ على الباطل، مختارين الآجل على العاجل، يصبرون للضرّاء رجاء**

**ثوابها، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله، وآووا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونصروه، واتّبعوا النّور الّذي أُنزل معه، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. قال تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم:(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ){الحشر: آية ٩} وأنتم أبناؤهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذوا بسنّتهم..."[١].**

اتّجه الشّاري إلى استدعاء حجّة(الأنموذج) المتمثّلة بـ(جماعة الأنصار)، وهم من خيرة أصحاب رسول الله(ص) وكبارهم، الّذين كانوا يشدّون على ساعد الحقّ ضدّ الباطل، فنصروا الله وآووا رسوله، طامحين إلى الفوز بالثّواب الآجل، متجلّدين بالصّبر على الضرّاء طمعًا في حسن عاقبتها، فقد آثروا على أنفسهم وهم في أشدّ درجات الفقر والعوز، حتّى قال تعالى فيهم ولأمثالهم وبمن اهتدى بهم ما قال، فحجّة أنموذج (الأنصار) كانت ناجعة في إنزال الإقناع والإيمان في نفوس أهل المدينة بضلالتهم عن سبل الرّشاد، ومناقضتهم لمنهج تلك الثّلة المباركة من أصحاب النّبيّ؛ لأنّهم لم يؤازروا دينهم، ولم ينصروه كما فعل آباؤهم، بل باتوا متخاذلين مع الحكّام الفاسقين والباغين من آل أميّة، إذ تثاقلوا عن نصرة مبادئ عقيدتهم الإسلاميّة، وإعلاء رايتها كما فعل أسلافهم، فالأنصار يمثّلون ثقلًا كبيرًا في نفوس المخاطبين، لذا قصد الخطيب تذكيرهم بهم بالإشارة إلى أعمالهم وأفعالهم، إذ يُعدّون مثالًا أعلى بالنّسبة لهم بعد رسول الله(ص)، ولهذا كان من الضّروري اقتفاء أثرهم، والاحتذاء بأفعالهم، وإتّباع سلوكيّاتهم، فالحظوة والسّلطة الّتي يتميّز بها (الأنصار)، تدفع أبناؤهم من أهل المدينة إلى الإذعان والتّسليم، وتحملهم إلى الاقتداء بهم، وتثمين صنائعهم، الّذين استضاءوا بأنوار الهدى النّبويّة، ونصروا صاحبها بالمال والأنفس، حتّى نزلت من السّماء آيةٌ بحقّهم وحقّ من اهتدى بهم،

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٤٧٨-٤٧٩.

فالشّاهد القرآنيّ يقوّي درجة التّصديق بالقاعدة، وذلك بتقديم حالات خاصّة توضّح القول، وتعزّز حضور هذا القول في الأذهان، وتزيد من تأثير الحجّة في الخطاب[1]، فتعاضد حجّة النّصّ القرآنيّ مع حجّة (الأنموذج) قدّم نمطًا حجاجيًّا ساطع البرهان، ثقيل التّأثير على عقول وقلوب المخاطبين، بهدف حضّهم على تتبّع سيرة آبائهم، ومحاكاة أعمالهم وصفاتهم، والعمل بسنّتهم، الّتي ضيّعوها بالصّدّ عنها، فخطاب الشّاري كان مسدّدًا وموفّقًا في تفريغ نفوسهم باستعمال هذه الحجّة، فكأنّه بهذا (الأنموذج) قدّم لنا قصة قصيرة تضمّنت شخصيّات مع مكان، وزمان، وأحداث مختلفة، تستهدف بعدًا تربويًّا تقويميًّا، ودرسًا دينيًّا أخلاقيًّا عاليًا لتوبيخ المخاطبين، بوصفهم ذريّة قوم لهم السّبق في نصرة الإسلام والنّبيّ، ومن المجاهدين الصّابرين، والصّالحين المؤثرين، حتّى قيل بحقّهم أنّهم قد طاولوا منازل الملائكة الأبرار بما كانت لهم من فضائل ومناقب في نصرة الدّعوة، فزجر الخطيب ذريّتهم نظرًا لمخالفتهم أعمال تلك الثّلة الطّاهرة، وهي محاولة جيدة لاستنهاض هممهم لنصرة دعوة الخوارج بالثّورة على حكم الخلافة الأمويّة بالاحتكام إلى قوّة وسلطة (الأنموذج) المتمثّل به، وانطلاقًا من الاتّفاق المسبق بينه وبين المخاطبين على أنّ منزلة تلك الجماعة الدّينيّة من الصّحابة تمثّل قدوة وأنموذجًا يُحتذى به، لدفعهم إلى انتهاج منهجهم، كونهم يعدّون ضامنًا، وحجّة بيّنة على الفعل المنشود من الشّاري.

## ب-شواهد حجّة عكس الأنموذج:

ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(ع) في مجلس معاوية بعدما شتم رهطه الإمام عليّ(ع)، إذ **قال:" وأنتم أيّها الرّهط، نشدتكم الله ألا تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون**

---

[1] ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٧.

**ردّها؟ أوّلها يوم لقي رسول الله صلّى الله عليه وآله خارجًا من مكة إلى الطّائف يدعو ثقيفًا إلى الدّين؛ فوقع به، وسبّه وسفّهه وشتمه وكذّبه وتوعّده. وهمّ أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه. والثّانية يوم العير إذ عرض لها رسول الله صلّى الله عليه وآله وهي جائية من الشّأم. فطردها أبو سفيان وساحل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلّى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها. والثّالثة يوم أُحُد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلّى الله عليه وآله في أعلاه، وهو ينادي اعلُ هبل مرارًا فلعنه رسول الله صلّى الله عليه وآله عشر مراتٍ ولعنه المسلمون. والرّابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وابتهل. والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش، فصدّوا رسول الله صلّى الله عليه وآله عن المسجد والهدى معكوفا أن يبلغ محلّه ذلك يوم الحديبية. فلعن رسول الله صلّى الله عليه وآله أبا سفيان، ولعن القادة والأتباع، وقال ملعونون كلّهم وليس فيهم من يؤمن. فقيل يا رسول الله أفما يُرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحدًا من الأتباع. وأمّا القادة فلا يفلح منهم أحد. والسّادسة يوم الجمل الأحمر. والسّابعة يوم وقفوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله في العقبة ليستنفروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلًا منهم أبو سفيان. فهذا لك يا معاوية"[1].**

يقوم الحجاج في هذا النّسق من الحجّة على استدعاء نماذج معكوسة للانفصال عن أعمالها وصفاتها، وتشنيع صورتها في أذهان المخاطبين، فالحسن استدعى شخصيّة أبي سفيان بوصفها صاحبة صورة مستهجنة في الوسط الإسلاميّ بالاستناد إلى أعمالها ومواقفها تجاه الدّعوة الإسلاميّة من جهة، ونصب العداء الشّديد لنبيّ الدّعوة من جهة أخرى، فلكَ أن تتخيّل أنّه لُعن من رسول الله في سبعة

[1] جمهرة خطب العرب: ٢٥.

مواطن كما رأينا في مفاصل الخطبة، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، فإقحام صورة (الأنموذج المعكوس)، أو (الشّخصيّة المضادّة) كان وسيلة حجاجيّة في الخطاب انفتحت على دلالة البون الواسع بين شخصيّة الإمام عليّ(ع) ومنزلته في الإسلام، وبين لعين رسول الله (ص) في المواضع السّبعة، وكأنّما الخطيب تعمّد ذكر تلك المواضع ليكشف عن صورة لربّما كانت مطموسة ومغيّبة، ليزيد من إيلام معاوية، واستهجان صورته عند رهطه في مجلسه، إذ إنّ أثر النّماذج المعكوسة تمثّل أساسًا في التّربية، فنحن نسعى بعفويّة مطلقة على تقليد من نعجب بهم، وأن نتميّز عن الّذين نحتقرهم[١]، إذ تعدّ الصّورة المستهجنة سلاح حجاجيّ مؤثّر في الخطاب السّياسيّ والدّينيّ على وجه الخصوص، فالسّيرة المبتذلة لوالد معاوية كانت دافعًا مقنعًا، وسببًا منطقيًّا في تحقير شخصيّة الابن، فالمجتمع العربيّ ذو النّزعة القبليّة يؤمن بنمطيّة التّأثير المطلق للآباء على الأبناء، فالآباء يحظون بتأثير مهم في التّربية، وبناء العقائد والأفكار والتّوجّهات لدى الأبناء لاسيّما في ذلك العصر، إذ إنّ الابن يتقمّص شخصيّة الأب بشكل أو بآخر، لذا كان التّنبيه والتّذكير بطبيعة الأب نقطة تحوّل تقتضي الانفكاك عن هذا الخطّ المنحرف، وعدم الاحتذاء بهم، والانفصال عن الاقتداء بسيرتهم المنبوذة في الإسلام، فنرى أنّ الخطاب الحجاجيّ كان ناجعًا في إثبات صفة (الأنموذج) المثاليّ لشخصيَّة الإمام عليّ(ع) بصورة غير مباشرة، بما له من مناقب وفضائل تنعكس على الخطيب كذلك، فهو ابن أبيه، ناصر رسول الله والنّائم في فراشه، وهذا كلّه يحمل المخاطب على الاعتقاد به، كما أنّه أثبت صفة(الأنموذج المضادّ) لشخصيّة معاوية وأبيه، فإذا كان ربّ البيت قد نزع

---

[١] ينظر: في بلاغة الحجاج: ١٤٨.

*العير:الإبل تحمل الميرة، ساحل بها:أتى بها ساحل البحر، والهدى معكوفا: الهدى معطوف على رسول الله(ص)، معكوفا: أي محبوسًا وهو حال. أن يبلغ محلّه أي مكانه الّذي ينحر فيه عادة وهو الحرم.

إلى الشّيطان، فلم يختلف الحال كذلك مع الابن، ليهدم الخطيب بذلك تاريخهم، وينسف أسطورة أخلاقهم وسراب مجدهم، ليردع رهط المخاطب عن تقليدهم، ودفعهم على نبذهم، والتّنزّه عن التزام سيرتهم، ليتحقّق بذلك الانفصال بضرب حجاجيّ مؤثّر للغاية.

ومن ذلك ما جاء في خطبة زهير بن القين، وقد سارت على هذا المنوال في استهجان القوم، الذين قاتلوا الحسين(ع)[1]، وكذلك خطبة الإمام الحسين في استهجان صورة يزيد[2]، وما قلناه في الخطبة السّابقة يقترب كثيرًا ممّا قد نقوله في هذه المشار إليها.

ولم تغب هذه الحجّة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي (٩٦هـ)في خراسان حينما دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك، فخطب قائلًا:" **أتدرون من تبايعون؟ إنّما تبايعون يزيد بن ثروان-يعني هبنّقة القيسيّ- كأنّي بأمير مزجاء، وحكم قد أتاكم، يحكم في أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم..."**[3].

استعار الخطيب شخصيّة عُرفت بالحمق في البيئة العربيّة، وكان يستهدف من وراء ذلك شخص الخليفة سليمان بن عبد الملك، من أجل استهجان صورته في نفوس الرّعيّة، ولاسيّما أهل خراسان، لإقناعهم بالانفكاك عن بيعته، والانفصال عن ولايته، فهو حاكم ظالم قد أتى ليحكم بأموالهم ودمائهم بالظّلم والجور والعدوان، إذ يذكر صاحب الجمهرة أنّ العلاقة بين الشّخصيّة المستعارة، وشخصيّة الخليفة

---

[1] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٥٥.
[2] ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٥.
[3] المصدر نفسه: ٣١٠.
*أمير مزجاء: مزجاء للمطي أي كثير الدّفع لها: والمراد أنّه قاس ظلوم، أبشاركم: جمع بشر أو جمع بشرة وهو ظاهر الجلد.

تتّصل من حيث أنّ" هبنّقة كان يحسن إلى السّمان من إبله، فيرعيها في العشب، وينحّي المهازيل منها، فقيل له: ويحك؟ ما تصنع؟. فقال: إنّما أكرم ما أكرم الله، وأهين ما أهان الله، وكذلك كان سليمان يعطي للأغنياء، ولا يعطي للفقراء، ويقول: **أصلح ما أصلح الله، وأفسد ما أفسد الله"**[١]، فالصّورة المستهجنة الفاسدة للخليفة كانت وسيلة حجاجيّة تدفع المخاطبين إلى النّفور منه، ونبذ حكمه وخلع طاعته؛ لحملهم على التّمرّد والثّورة وخلع خلافته، فحجّة (الأنموذج المضادّ) كانت دعوة للانفصال عن هذه الشّخصيّة، وسوّغت الانفكاك عنها؛ نظرًا لانحراف عقليّتها عن التّصرّف السّليم، وسلبيّة صفاتها العمليّة في الحكم، وابتعادها عن جادّة الاستقامة والعدل تجاه الرّعيّة، والّتي تجلّت صورتها من خلال شخصيّة هبنّقة الأحمق ذي الودعات، فضاعف الخطيب بذلك الاستهجان والتّشنيع لمساوئ سليمان، معوّلًا بهذا على إثارة اشمئزاز نفوس أهل خراسان من سلوكيّاته وأعماله الضّالّة؛ بهدف تشكيل نقطة تحوّل في القناعات السّائدة لدى المخاطبين تجاه هذا(الأنموذج المضادّ) بعد قهقرة صورته الشّخصيّة؛ ليسوقهم إلى مقاصد الخطاب، وحملهم على الفعل، وقد سارت خطبته في أهل العراق على المنوال نفسه[٢]، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

وحضرت هذه الحجّة في خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في الخطبة الطّويلة لأبي حمزة الشّاري في أهل المدينة[٣]، الّتي ارتكزت على توضيح الصّورة الضّالّة عن الصّراط المستقيم لحكم الأمويين، بدءًا من معاوية وانتهاءً بيزيد بن عبد الملك(١٠٥هـ) وسيرة أعمالهم في الرّعيّة؛ وصولًا إلى الفرقة الشّيعيّة، إذ قدّم

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٣٠٨.
[٢] ينظر: المصدر نفسه: ٣١٠
[٣] ينظر: المصدر نفسه: ٣٧٠-٣٧٥.
*الودعات: قلادة من العظام والودع والخزف.وضعها ليعرف بها نفسه لئلا يضل كما يحسب.

صورة مظلمة عن الأمويين في حكمهم للبلاد الإسلاميّة، وصورة أخرى عن ضعف عقيدة العلويين، وانحرافها عن جادّة الصّواب، وكلّ هذا مُسخّر لغاية تدفعهم لنبذ تلك الفرق، وعدم الاقتداء بها، وإتّباع مذاهبها؛ ليثير في نفوسهم رغبةً على تبكيت صفاتها وأعمالها المُحتقرة، والاتّجاه نحو اعتناق عقيدة الخوارج بشكلٍ أو بآخر، فالخطباء الخوارج كانوا كثيرًا ما يمهّدون لشرح مبادئ دعوتهم بارتداد تاريخيّ يصوّرون فيه واقع حال المسلمين منذ عهد الخطبة حتّى زمن بني أميّة، ومن ثمّ يجعلون من فساد الأمور، وجور الأحكام في عهد الأمويين مسوّغًا لخروجهم وثوراتهم، ليمرّروا أفكار دعوتهم بعد التّهجّم على مساوئ خصومهم، وضلالهم عن طريق الهدى والتّقوى، من قبيل تعطيل حدود الله، والاستئثار بأموال المسلمين؛ لإثارة حفيظة الرّعيّة على البلاط، بل إلزامهم الحجّة على الثّورة؛ نظرًا لما يأتي في خطابهم من جدل وإقناع بصلاح الخوارج وتقواهم، وفساد غيرهم[1]، إذ أنّهم بذلك يقدّمون صورة مضادّة لـ(الأنموذج) تتمثّل ببقيّة الفرق، ويعرضون صورة (الأنموذج) التي تتمثّل بفرقة الخوارج.

ومن الواضح أنّ القارئ لهذه الخطبة يكتشف أنّ الخطيب قد سخّر تقانتين حجاجيّتين في هذه الخطبة، هما: الأولى: حجّة تقسيم الكلّ إلى أجزاء، وهذا يظهر من خلال تقسيم الحقبة الأمويَّة إلى خلفاء، وتصوير حال الأمّة في عهد كلّ خليفة، والثّانية : نحن بصددها وهي (الأنموذج المضادّ)، الذي انطوى على أنماط مختلفة من النّماذج العكسيّة، فـ(أنموذج) السّوء المتمثّل بالفرقة الأمويّة انفتح على عدّة شخصيّات تُوصف بأنّها مضادّة في ذهن المخاطبين وأفكارهم، وبهذا جمع بين الفرقة الواحدة والشّخصيَّات في حجّة (عكس الأنموذج)، ليثقل خطابه بالبراهين الواضحة والحجج البيّنة، إذ عاضدت كلّ تقانة قرينتها، وأسهمت كلّ واحدة منها في

[1] ينظر: الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠١-١٠٢.

دعم الطّاقة الحجاجيّة للخطاب، ورفده بقوّة تأثير كبيرة بعثتهم على التّأمّل بمفاصل الخطبة، ودفعتهم إلى عقد موازنات عقليَّة بين تلك الفرق والخوارج، بعد ذكر مساوئ الأولى وعتمة حكمها في البلاد والعباد.

# المبحث الثّاني

## الاستدلال بوساطة بنية المشابهة والعلاقات الحجاجيّة

### ١-بنية المشابهة(التّشبيه والاستعارة):

بعد أن دخلت المنظومة البلاغيّة في الفضاء الحجاجيّ، بدأت العلاقة بين الخطيب والمخاطَب تتغيّر شيئًا فشيئًا، فالعمليّة التّواصليّة القائمة على التّعبير البلاغيّ الحجاجيّ تقوم على استحضار التّقانات والآليّات المختلفة بهدف الوصول إلى الإقناع، لاسيّما في ظلّ فلسفة (أرسطو)، ونظريّة (بيرلمان)، الّتي يُنظر فيها إلى هذه البنية بوصفها أداةً للبرهنة والإقناع، إذ تحظى بقيمة حجاجيّة كبيرة، وتظهر هذه القيمة حين ننظر إليها على أنّها تماثل قائم بين البنى، وصيغة هذا التّماثل العامّة هي: إنّ العنصر(أ) يمثّل بالنّسبة إلى العنصر(ب) ما يمثّله العنصر(ج) بالنّسبة إلى العنصر(د)، وهو ما يوضّحه عبدالله صولة بأنّه تشابه علاقة لا علاقة مشابهة، ومعنى ذلك أنّ التّمثيل مواجهة بين بنى متشابهة وإن كانت من مجالات مختلفة، كقوله تعالى:( مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتًا وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت)[1]، ويلاحظ أنّ العلاقة بين عناصر الآية القرآنيّة ليست علاقة تشابه في أيّ حال من الأحوال، إنّما هي تشابه علاقة بين:

**أ-المشركون-------ب-أولياؤهم**

**ج-العنكبوت-------ج-بيتـــــها**

---

(١) ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٩.

أي علاقة المشركين بأوليائهم الّذين يعبدونهم من دون الله، ويعتصمون بهم تشبه علاقة (ج) بـ(د)، أي علاقة العنكبوت ببيتها تبنيه وتعتصم به من المعتدي[١]، ويبدو من هذا أنّ التّمثيل يعمل على تحفيز التّفكير الذّهنيّ، وتحريك خلايا الفكر لدى المتلقي لتفكيك وربط العلاقات بين التّعبيرات الصّوريّة البلاغيّة، وأنّه يؤسّس نوعًا من القياس العقليّ، الّذي ينتهي بالمخاطَب إلى التّسليم والتّيقين، والإذعان لما استنتجه هو من عمليّة التّفكير بعناصر التّعبير البلاغيّ، فقد ذهب عبد القاهر الجرجانيّ إلى أنّ قوّة التّمثيل في النّصّ تعمل على مضاعفة التّأثير في تحريك النّفوس، وتعزيز البرهان بسلطان قاهر، وبيان باهر[٢]، بشرط أن يكون في بنية التّمثيل ترابط بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة بدءًا، بمعنى أن يكون الموضوع والحامل من ميدانين مختلفٌ أحدهما عن الآخر، فإذا كانا ينتميان إلى مجال واحد باتا استدلالًا مثليًّا أو استشهاديًّا[٣]، فالتّمثيل يعني تكوين بنية واقعيّة تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن طريق تشابه بين عناصر التّعبير في العلاقات[٤]، فهو احتجاج لدعوى ما عن طريق علاقة الشّبه الّتي تربطه بأمر آخر فندخل في فضاء(التّشبيه، والاستعارة).

ومن هنا شدّد (بيرلمان) على التّناسب في العمليّة التّواصليّة، الّذي يجعلنا أمام تشابه العلاقات[٥]، فهو غير قابل للإلغاء إذا أردنا أن نؤسّس لبناء خطاب حجاجيّ مؤثر، فيرى أنّه لا أحد يستطيع أن ينكر دور التّمثيل في توجيه الذّكاء[٦]، ولهذا تعمل التّعبيرات الصّوريّة على صناعة الإذعان؛ لقدرتها على التّأثير في مركزيّة

---

[١] ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٣٩.
[٢] ينظر:أسرار البلاغة: ٨٨.
[٣] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: ٣٤٠.
[٤] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٢٥٢.
[٥] ينظر:نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان: ٨٩.
[٦] ينظر:حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع): ١٢٧.

القرارات لدى المخاطبين، وتغيير معتقداتهم من خلال توجيه بوصلتها نحو التّماهي مع دعوى الخطاب في السّياق التّواصليّ، فالصّورة لم تعدّ زخرفًا، أو حلية تحسينيّة لتجميل المعنى، ولا هي انعكاس لقدرات الخطيب التّخييليَّة والجماليّة الفنيّة، بل باتت بناءً حجاجيًّا يسعى إلى إنزال الإقناع والتّسليم عند المتلقّي، كما سنرى فيما سيأتي من النّصوص، الّتي تغلغلت في تشابه العلاقات، ومن ذلك ما جاء في خطبة عديّ بن حاتم الطّائيّ في تعبئة الجيش الحسنيّ لقتال البغاة، قوله:**" أنا ابنُ حاتم، سبحان الله! ما أقبح هذا المقام! لا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيّكم! أين خطباء مصر الّذين ألسنتهم كالمخاريق في الدّعة، فإذا جدّ الجدّ فروّاغون كالثّعالب، أما تخافون مقت الله! ولا عيبها وعارها"**[1].

لا مراء أنّ كلّ خطيب يتحدّث بهدف التّأثير والإقناع لا بهدف الفوز بنيل الإعجاب والانبهار السّاذج من المخاطبين، ومن هذا المنطلق نرى أنّ ورود التّشبيه في الخطبة لم يكن بقصد التّزيين وإبهار السّامعين ببلاغة التّعبير، بل هو لجوء إلى أسلوب التّمثيل وموازنة واقع بآخر، أو حالة بأخرى ليكون الخطاب أبلغ في النّفس، وأوقع أثرًا فيهم، فالخطيب يتساءل أين اختفى أصحاب الألسن القاطعة كالسّيوف في أوقات الرّخاء والسّلام، فهو بهذا التّشبيه يريد أن يلقي الحجّة السّاطعة على هؤلاء، لتكون لهجة الإيلام والعتاب على أتباع الإمام أشدّ تأثيرًا، وأسطع برهانًا على تناقضهم وتخاذلهم، وتقريع نفوسهم المتثاقلة عن إجابة إمامهم، فهو يشبّه حالهم بحال الثّعالب الماكرة الرّواغة في أوقات المواجهة، الّتي من شدّة جبنها تراوغ بهدف الهروب للنّجاة من الموت، فالتّشبيه خرج هنا إلى ضرب من القياس، دفع الخطيب أتباع الإمام نحو منطقة التّفكير والتّفكيك العقليّ، لدفعهم إلى التّسليم

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٩-١٠.
*المخاريق: السّيف، الدّعة: الخفض والسّلم.

بالمقدّمتين اللتين جاء بهما لينتهي بهم إلى الإقرار بالاستنتاج، فالتّشبيه انفتح على تقريب عنصرين ينتميان إلى عالمين مختلفين مع محاولة طمس وإخفاء ما بينهما من فروق، ليجعل من المخاطبين شركاء في ابتكار المعنى المقصود، فيرى (بيرلمان) أنَّ الحجاج لا يمكن أن يفرز الشّيء الكثير ما لم يستعن بالتّشبيه ؛وذلك لأنّنا قد نصادف الكثير من الأشياء فنجد أنفسنا مضطرّين إلى تقويم بعضها انطلاقًا من البعض الآخر[١]، ليكون ذلك التّقويم التّشبيهيّ دعامة أساسيّة في تبكيت ما نزعوا إليه من التّكاسل والتّثاقل، وحضّهم على الالتحاق بكتائب الجيش الحسنيّ لمواجهة معاوية، لاسيّما بعد أن أشار إليهم في نهاية الخطبة من مقت الله لهم في حال الإصرار على موقفهم السّلبيّ من نداء الحسن، فضلًا عمّا يلحق بهم من عار وخزيّ.

ودفعًا للالتباس يمكن القول إنّ تشابه العلاقة في تشبيه الخطيب جاء على وفق الشّكل الآتي:-

**أ-أصحاب الإمام وأتباعه(أصحاب الألسن القاطعة)-----ب-فرسان وشجعان في وقت السّلم.**

**ب-الثّعالب-------ج- الفرار وقت المواجـــهة أو المنـــازلة.**

فالتّرابط بين الأتباع والثّعالب هي تشابه العلاقة بالفرار والهروب في أوقات الصّعاب خوفًا من لقاء حتفهم، ويبدو أنّ توظيف(الكاف) في التّشبيه كان يؤدّي وظيفة توضيحيَّة، وهذا ما يقتضيه قانون (التّناسب) البيرلمانيّ، أو المقاربة في التّشبيه في المنظور البلاغيّ العربيّ، فالأسلوب التّشبيهيّ يكتسب فاعليّته بتناسبه مع الموضوع والموقف؛ لأنّ مقتضى الحال لا يستوجب إلّا الوضوح والإفهام بعيدًا عن لغة الغموض والإبهام، فالتّوظيف كان موفّقًا ومتناغمًا مع واقع الحال، الّذي

---

[١] ينظر:حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع): ١٢٦ .

يفرضه زمان الحرب، ولذا نؤمن بأنّ بنية التّشبيه قد حققت الإقناع والتّأثير المطلوب، وأنزل الإذعان في نفوس الأتباع بضرورة وجوب تلبية النّداء، والالتحاق بصفوف الجيش، إذ إنّ القوّة الإنجازيّة للألفاظ في التّشبيه أسهمت في رفد الخطاب بالحمولة الحجاجيّة المؤثّرة لتغيير القناعات، واتّخاذ القرار السّديد، لاسيّما أنّها جاءت بصورة من عالم مألوف لدى المخاطبين، ممّا سهّل عملية الإدراك والإقناع.

ومن ذلك ما جاء في خطبة زياد بن أبيه حين رمى نفسه إلى حضن معاوية، فصعد المنبر في بلاد فارس فخطب قائلًا:**" أيّها النّاس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرتُ في أمور النّاس منذ قتل عثمان، وفكّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي في كلّ عيد يُذبحون..."**[١].

لمّا أراد زياد تبرير صنيعه في الدخول إلى خيمة الطّاعة للبلاط الأمويّ اعتصم بما جاء في بنية المشابهة من دلالة بوصفها ذريعة مقنعة في خطابه في محاولة منه لإنزال التّسليم لدى المخاطبين بصحّة قراره السّياسيّ وحكمته، فقد جاءت الصّورة التّشبيهيّة بمعاني دمويّة وموحشة للأنفس، فهو يرى على وفق تصوّراته أنَّ الفتن والخلافات فتكت بالمجتمع الإسلاميّ، وجعلت من المسلمين مثل الأضاحي يُذبحون في كلّ نازلة تقع بينهم، فالخطيب يرغب بأن يقنع السّامعين أنّه لم يتناقض مع نفسه في اتّخاذ هذا القرار، ومع خطابه السّابق في الخطبة السّابقة، الّتي توعّد بها معاوية وهدّده بها، وإنّ الخضوع لمعاوية لا يعدّ منقصة، أو جريرة، أو مثلبة على سيرته الشّخصيَّة، أو على السّامعين، لكون ذلك الأمر سيحقن دماءهم، ويحفظ لهم حياتهم، فالتّشبيه انتزع صورة ما يحدث للشّاة في كلّ عيد، وأجراه على المسلمين في كلِّ فتنة، أو خلاف ينزل بهم، فالتّعبير نبّه المخاطبين على ما وقع فيهم بإقناع فكريّ

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٢٦٨.

ينطلق من نشاطهم الذّهنيّ والعقليّ، وانفعالهم الوجدانيّ إزاء ما حدث من فتن؛ لأنَّ من يتأمّل هذا التّمثيل يصل في النّهاية إلى تبنّي موقف الخطاب ودعواه، والابتعاد عن كلِّ حدث، أو انشقاق، أو حركة معارضة قد تودي بالأنفس إلى الهلاك انطلاقًا من حجج (اللوجوس)، الّذي أتى بذريعة سوّغت ميوله للبيت الأمويّ، ألا وهي حقن الدّماء وحفظ حرمة الأنفس.

وإذا ما أردنا أن نرسم مخططًا لتشابه العلاقة بين الموضوع والحامل فسيكون على وفق الشّكل الآتي:-

**أ-حال النّاس(المسلمون)---ب-مع الفتن(منذ مقتل عثمان).**

**ج-حال الأضاحـــي---د-الأعيـــاد(مذبوحة)---العلاقة المشتركة: الذّبح أو القتل.**

فلا شكَّ أنَّ النّاس والأضاحي ينتميان إلى عالمين مختلفين تمامًا، إلّا أنّهما اشتركا في منطقة دلالية معيّنة تمثّلت بـ(القتل أو الموت)، فالنّاس في واقع كلّ الفتن تُقتل، كما تُذبح الأضاحي في كلّ عيد أضحى عند المسلمين قربةً إلى الله، فحالهم لا يختلف عنها تمامًا، وهذا تشابه العلاقة بينهما حجّة تلفت النّظر والذّهن من المخاطبين، فإنّنا" نعمل على تشبيه وقائع مع بعضها البعض بطريقة تبدو أكثر ميلًا للبرهنة وإعطاء الحجّة منها لمجرّد المشابهة، أو المماثلة البسيطة بين الطّرفين"[1]، وهذا ما جعل (بيرلمان) يقحم (التّشبيه) في ضمن الحجج شبه المنطقيّة؛ لأنّ مكنونه في نظره- عملية (قياس) يتمّ الانتقال فيها من أحد الطّرفين إلى الآخر اعتمادًا على علاقات المشابهة بينهما، وهذا ما ذهب إليه العلماء العرب القدماء، فالتّفاعل بين أطراف التّمثيل يدغم المخاطبين في فضاء من الإقناع العقليّ والفكريّ بصحّة دعوى الخطيب؛ لأنّه يجعلهم شركاء في إنتاج الدّلالة المستهدفة، ممّا سهّل من النّاحية الحجاجيَّة حصول الإقناع والتّيقين بدعوى الخطاب، لاسيّما أنّها كانت مبنيّة

---

(1) حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع): ١٢٦.

على عناصر تشبيه يوافق البناء الذّهنيّ للسّامعين، ويتناغم مع طبيعة ثقافتهم وعقليّتهم، لكي يسهّل على المتلقّي بيان الفوارق ورصد الاختلافات والتّشابهات بين عناصرها بغية الانتهاء إلى إذعان كلّي لتطلّعات الخطيب السّلميَّة، الّتي وجَّهت المتلقّين إلى الدّخول في خيمة الطّاعة، والتّسليم لحكم البيت الأمويّ من خلال هذه العمليّة التّواصليَّة.

وقد وردت التّشبيهات بكثرة في خطب العصر الأمويّ، وهي أكثر من أن يُشار إليها، فالتّشبيه عمود البيان العربيّ، وأدبنا بشقّيه الشّعريّ والنّثريّ زاخرٌ به، ولعلّ من ألطف التّشبيهات الحجاجيّة ما جاء في جزء من خطبة سودة بنت عمارة المنقريَّة في مجلس معاوية، قولها: **"...ولا تزال تقدِّم علينا من ينهض بعزِّك، ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصاد السّنبل، ويدوسنا دياس البقر"**[(١)].

فالعلاقة هنا بين والي معاوية ورعيّته، مثل الحاصد للأرض، ووطئ البقر لها، فقدّمت صورتين تشبيهيّتين في أعلى درجات المحاجّة، فالتّشبيه عمل على إحضار طبيعة واقع الحكم، وعزّز صورته في ذهن المخاطَب، وهو عامل جوهريّ من عوامل الحجاج، ومؤثّر في حساسيّة المتلقّين تأثيرًا مباشرًا، فما كان في ذهن سودة وواقع حالهم اليومي، حضر عن طريق بنية التّشبيه الحجاجيّة أمام معاوية، فأمّا" فائدة التّشبيه من الكلام فهي أنّك إذا مثّلت الشّيء بالشّيء فإنّما تقصد به إثبات الخيال في النّفس بصورة المشبّه به، أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي التّرغيب فيه، أو التّنفير عنه، ألا ترى أنّك إذا شبّهت صورةً بصورةٍ هي أحسن منها كان ذلك مُثبّتًا في النّفس خيالًا حسنًا يدعو إلى التّرغيب فيها، وكذلك إذا شبّهتها بصورةِ شيءٍ أقبح منها كان ذلك مُثبّتًا في النّفس خيالًا قبيحًا يدعو إلى التّنفير عنها، وهذا لا نزاع

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٣٧٦.

فيه"[١]، فانتهت تشابه العلاقة بين الموضوع والحامل إلى أهداف حجاجيَّة تستوجب تغيير الوالي، وتنفير معاوية منه، أو معاقبته على صنيعه معهم، والأمر بإكرامها وإكرام قومها، بوصفه مقصّرًا تجاههم بتعيين هذا الوالي حاكمًا على أبناء جلدتها، وهذا ما حصل فعلًا بعد انتهاء المناظرة بينها وبين معاوية.

أمّا على سبيل الاستعارة فعلى قلّة ورودها، لكنّ وجودها كان حاضرًا لم تخل منها خطب ذلك العصر، ولو تساءلنا لِمَ كان حضورها أقلّ من التّشبيه؛ لوجدنا أنَّ مقتضى الحال والمقام في الخطب يقتضي الإيضاح والبيان؛ لأنَّ الخطيب في موضع جدل، ومحاجّة، ومناظرة، وهو يستهدف نقض حجّة الخصوم، ممّا يتطلّب منه المباشرة بالمعاني في كثير من الأحيان، ولمّا كانت الاستعارة أكثر إيغالًا في الغموض والتّعقيد عزف عنها أغلب الخطباء في ذلك العصر، الذي شهد صراعًا فكريًّا وعقديًّا ساخنًا، أو أنّ قلّة ورودها يرجع إلى أنَّ الاستعارة شعريَّة، والتّشبيه أكثر التصاقًا بالنّثر منها، ومن ثمّ أنّ أصل الاستعارة تشبيه، ومن شواهد حضورها ما جاء في مقطع من خطبة ضرار بن حمزة الصّدائيّ في مجلس معاوية، وهو يصف غزارة علم الإمام عليّ(ع) وشخصيّته الحكيمة، قوله:"....**يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه**"[٢].

في المنظور الحجاجيّ تعدّ الاستعارة تمثيلًا مكثّفًا حُذفت بعض أطرافه[٣]، أي بمعنى أنّه تشبيه حُذف أحد طرفيه كما يبدو؛ لأنَّ حجاجيّتها لابدّ لها أن لا تكشف عن جميع عناصرها، وهذا ما وقع في هذه الخطبة، فقد شبّه ضرار غزارة علوم ومعارف الإمام بالماء المتدفّق الجارف، أو البحر، ثمّ حذف المشبّه به (الماء)، وذكر لوازمه (تفجّر، تدفّق)، ونسبه للمشبّه (العلم) على سبيل الاستعارة المكنيّة،

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٢٣.
[٢] جمهرة خطب العرب: ٣٧٤
[٣] ينظر: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع): ١٣٠.

وهذا التّعبير لم يأتِ من أجل غايات جماليَّة، أو استعراضيَّة، بل بغية إحداث تغيير في الموقف العاطفيّ والفكريّ للمتلقي، فالتّعبير كما يبدو قد جاء ليؤكّد للمخاطب ماهيّة أبعاد هذه الشّخصيّة الأخلاقيّة والدّينيّة، وعظمة علمها الغزير، ليوحي إليه بأفضليّتها على غيره من البشر علمًا وحكمةً، لينزل بذلك الإقناع، ويصنع الإقرار في نفس معاوية بتلك الحقائق في آخر الخطبة، الّذي اعترف بكلّ ما جاء فيها من مناقب وفضائل لعليّ(ع) على لسان الصّدائيّ، والاستعارة المكنيّة الثّانية في قوله: (تنطق الحكمة من نواحيه)، تسري على منوال الاستعارة الأولى، ونقول أنَّ الاستعارة حقّقت بعدها الحجاجيّ كونها تطابقت وتناغمت مع واقع شخصيّة الموصوف، وتركت لمعاوية فرصة لتأويل عناصر المشابهة بين الموضوع والحامل، وملازمة العلم والحكمة لشخصيّة الإمام، ممّا حفّزت المتلقي على التّوجّه إلى التّسليم بدعوى الخطاب، وذلك يحدث بمجرّد التّفكير في تلقين المتلقي صورة ما عن شخصيّة ما، ولو كانت عاطفيّة سنكون عندها بصدد الحجاج[1]، فما بالك لو كانت الصّورة متماهية مع الحقيقة، وهذا ما سهّل حصول الأثر الإقناعيّ من توظيف الاستعارة لأجل بناء الواقع.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة الحجّاج في أهل الكوفة، قوله:**"وإنّي لأرى[...]رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإنّي لصاحبها..."**[2].

إنّ لغة التّهديد والوعيد لم تكن بذلك التّأثير لو لم تأت بهذا الشّكل التّعبيريّ الاستعاريّ، الّذي مدّها بطاقة حجاجيّة أكثر تأثيرًا وفاعليّةً من القول المألوف، فتشبيه رؤوس الحراك الكوفيّ المعارض بـ(الثّمار اليانعة)، ثمّ حذفه المشبّه به (الثّمار)، وإبقاء أحد لوازمه (الينعان) ونسبه للمشبّه (رؤوس المعارضين) على

---

(١) ينظر: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(ع): ١٣٢.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٢٨٩.

سبيل الاستعارة المكنيّة كان تعبيرًا في غاية القوّة، فالاستعارة المكنيّة جسَّدت أحد أشكال القتل الأكثر رعبًا، الّذي ماثل فيها بين ضرب أعناق العراقيين الكوفيين، وبين قطاف الثّمار اليانعة (النّاضجة)، وهذا النّوع الاستعاريّ يراه الدّكتور إياد الحمدانيّ يقوم على تنشيط الخيال لما يحقّقه من إمكان التّداخل في طبيعة الحدود بين الإنسان والحيوان والنّبات والموجودات الأخرى[١]، فالتّمثيل المكثّف في هذه الاستعارة عمل على تحقيق اندماج تامّ بين أحد عناصر الموضوع(المعارضين)، وأحد عناصر الحامل(الثّمار اليانعة)، الّذي وصل إلى درجة الانصهار كما يسمّيه (بيرلمان)، وهذا ما ساعد الاستعارة على أداء البعد الحجاجيّ المبني على بلاغة العنف، وقهقرة أهواء وأحاسيس المخاطبين (الباتوس السّلبيّ) من أجل إنزال الإذعان في قلوبهم، بواسطة إستراتيجيّة التّرهيب في الخطاب، فالاستعارة كانت عنيفة للغاية، وقدّمت لهم صورة سلبيّة (الإيتوس السّلبيّ) الجبروتيّ القمعيّ، وهذا الأمر كان عن قصد ودراية واعية منه من أجل إثارة الفزع في نفوس الكوفيين، وحملهم على الخضوع المطلق لحكم البيت الأمويّ، والامتناع عن أيّ حراك ثوريّ ضدَّ البلاط، ويرى الدّكتور محمّد مشبال أنَّ هذه الاستعارة قد تحمل أيضًا دلالة التّحقير الّذي يضمره لأهل العراق، الّذين سيستسلمون له كما تستسلم الثّمار، الّتي لا حول ولا قوّة لقاطفيها[٢]، وهذا ما قصدناه من قولنا حمل الخطيب الجمهور على الامتناع عن الثّورة، والعزوف عن الانخراط بأيّ حراك قائم على معاداة السّلطة الأمويّة؛ لأنَّها في نهاية المطاف ستقمع المناهضين بأشدّ وسائل القوّة والبطش، كما حدث في العراق مؤخّرًا لبعض المتظاهرين الّذين طالبوا بالتّغيير الإصلاحيّ.

---

[١] ينظر:التصويرالمجازي (أنماطه ودلالاته في مشاهد يوم القيامة في القرآن)، د.إياد الحمداني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣: ٦٣.
[٢] ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٩٠.

ويبقى بيننا وبين (بيرلمان) أمرٌ، ففي الحقيقة أنّنا نخالفه في تصوّراته العقليّة للبلاغة، الّذي لم ينظر بها إلى بعض الصّور بوصفها مصدرًا للّذة والمتعة، حتّى وإن كانت هذه الصّور تخدم الجانب الحجاجيّ في الخطاب، فهو يغفل اللّذة الماثلة في بعض الصّور الاستعاريّة، الّتي هي لذّة مشتقة من (الباتوس) كما يرى (ريبول)[١]، فالصّورة في خطبة الحجّاج كانت مفتاح القوّة للتّأثير، ولربّما كانت أكثر قوّة من الحجّة المكثّفة نفسها، إذ خاطبت الإدراك والشّعور معًا، وخلقت رؤية واضحة لدى المخاطبين عن طبيعة هذه الشّخصيّة الدّمويّة، ورسّختها في أذهانهم، فضلًا عن مجيء الخطاب بشكل يدهش النّفوس، ويؤثّر بمركزيّة قناعاتهم وقراراتهم تجاه السّلطة، لذا من الممكن أن ننظر إلى بعض الصّور الاستعاريّة نظرة حجاجيَّة جماليّة بناءً على مدى تأثيرها في المتلقي، لا نظرة جماليّة محضة؛ لأنّها تهدف إلى خدمة حجاج الخطاب لتغيير قناعات المتلقين تجاه دعوى ما، أو قضيّة معيّنة، فيمكن أن نعدّها من الإجراءات الحجاجيَّة الجماليَّة المكثّفة للحجج والدّافعة لإنجاز الفعل، أو الاستعداد للقيام به؛ بوصفها استدلالًا فاعلًا في النّفوس من أجل الوصول إلى ما يُرام إليه من غايات ومقاصد وأهداف، تُمرّر من ورائها طروحات الخطيب وأفكاره، وإنزال الإقناع بها من قبل المخاطبين، ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي حمزة الشّاري في تقريع أهل المدينة بعدما عابوا أصحابه[٢]، وخطبة واصل بن عطاء الوعظيّة[٣]، وما قلناه في الخطب السّابقة لا يختلف كثيرًا عمّا قد نقوله فيها.

---

(١) ينظر: في بلاغة الحجاج: ٣١٠.
(٢) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٦٩-٤٧٦.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠١-٥٠٣.

## ٢-العلاقات الحجاجيّة:

إنَّ الكشف عن البنية الحجاجيَّة وتحليلها في خطاب معيّن، لا تعني الاكتفاء باستخراج الحجج وتصنيفها، والنّظر إليها بشكل مستقل ومنفصل عمّا جاورها وأحاط بها في السّياق، بل ينبغي على الدّارس الحجاجيّ أن يسعى إلى رصد التّناغم والانسجام، والتّرابط بين أقسام أو أجزاء الخطاب من خلال العلاقات، فهي تسهم في الإبانة عن العلاقة بين مختلف الحجج والبراهين من جهة، والنّتائج الّتي يقصد إليها الخطاب ويقود إليها المتلقي من جهة أخرى، فهذه العلاقات تحدّد مسار البرهنة، وتوضّح استراتيجيّة معيّنة في الإقناع، اختارها المتكلّم دون غيرها؛ لأنّه يراها كفيلة بتحقيق مقاصد الخطاب وغاياته، وقادرة على صناعة التّأثير[١]، فالخطاب الحجاجيّ كما ترى الدّكتورة الدّريدي أنَّه شبكة معقّدة من العلاقات، ومأتى التّعقيد فيها أنّها علاقات غير عاديّة، تنقل الخطاب من عالمه اللغويّ المحض إلى عالم منطقيّ محض، تكوّن كلّ جملة فيه خطابًا مستقلًا يحمل طروحة معيّنة، تتشارك في بناء تصوّرات حجاجيَّة حول قضيّة منطقيَّة، إذ ترتبط بموجّه تحكمه معطيات كثيرة منها ما يتّصل بالمتكلّم، ومنها ما يعود إلى المتلقي، ومنها ما يرجع إلى وصفيّات الخطاب وغاياته وأهدافه الموسومة[٢]، فيظهر لنا أنّ الوقوف على بنية الخطاب الحجاجيّ أثناء التّحليل، أو إدراك مقاصده، لا يعني التّطويق، أو الإحاطة بمكوّناته وأجزائه المختلفة من أدلّة وبراهين ونتائج، بل يسعى الوقوف إلى الكشف عن طبيعة العلاقات المنطقيّة الحجاجيَّة، الّتي تحكم البنية المؤسّسة للخطاب، والمتحكّمة به بناءً على الانسجام والتّرابط بين مكوّناته الحجاجيَّة[٣]، وبما

---

[١] ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه):٣١٧.

[٢] ينظر: المصدر نفسه: ٣١٧.

[٣] ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، قدور عمران، عالم الكتب الحديث، ط١، الأردن، ٢٠١٢م: ٧٣.

أنَّ الخطاب نظام منطقيّ قائم على جزئيّات ووحدات دنيا من كلمات، أو مقاطع، أو أصوات، ليتمّ الانطلاق منها لتحديد العلاقات الرّابطة بينها، أو المؤسّسة للخطاب ككلّ، إذ بحث (جان بلاز قريز) في الاستراتيجيّات المنطقيَّة والعناصر المكوّنة للحجاج، فشدّد على" ضرورة التّمييز بين ثلاث وظائف للخطاب، الوظيفة التّخطيطيَّة، الّتي تتمثّل أوّلًا في إثارة وتحديد الأشياء المتعلق بها الخطاب، والوظيفة التّبريريّة المعنيّة بالبراهين من زاوية خطابيّة، وأخيرًا الوظيفة التّنظيميّة، والّتي تبدو جليّة عبر تنظيم عملي مزدوج: تنظيم القضايا وتنظيم الأشياء"[١]، لذا سنسلّط الضّوء في هذا الموضع على طبيعة العلاقات الحجاجيَّة الّتي تحظى بدور تنظيمي للنّصّ، والرّبط بين قضاياه، وهي علاقات متعدّدة، وتتنوع بتنوّع طبيعة الرّوابط الّتي تؤسّسها وتقوم بالتّعبير عنها، إلّا أنّه ينبغي التّمييز بين الرّوابط الحجاجيّة والعلاقات الحجاجيَّة؛ فالرّوابط هي جملة من الأدوات اللغويّة يستغلّها الخطيب للربط بين مفاصل الكلام، والوصل بين أجزائه، فتتأسّس عندها العلاقة الحجاجيَّة المقصودة، الّتي يراها ضروريّة لتضطلع الحجّة المعتمدة بدورها كاملًا لا نقص فيه، كأن يعتمد الرّابط على خلاف التّأسيس لعلاقة حجاجيَّة محدّدة كعلاقة التّناقض، أو الرّابط لأن تكون العلاقة سببيّة[٢]، فالرّوابط كما يبدو أدوات يوظّفها المتكلّم للرّبط بين أجزاء الخطاب، والعلاقات نتاج هذا التّوظيف والاستعمال.

لا شكَّ أنَّ العلاقات الحجاجيّة متشعّبة ومتفرّعة ذات حدود مفتوحة، والحديث عنها قد يطول؛ نظرًا لظروف الخطاب ومقاصد الخطيب وأحوال المتلقي، وما قد يحدث من نتائجه؛ لذا سنصبّ دراستنا حول أهمّ هذه العلاقات، وهي:

---

[١] الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣١٠-٣١٨.
[٢] ينظر: المصدر نفسه: ٣١٨.

## أ-علاقة التّتابع:

هي علاقة تفيد التّوالي والتّلاحق للأحداث في الخطاب، وتُفرز هذه العلاقة في جوهرها من خلال الاستدلال، وهو في حقيقته وجوهره عمليّة معقدة تسمح بالرّبط بين فرضيّات كثيرة وقضايا متعدّدة، وبين الحديث ومستتبعاته، بين الفعل ونتائجه، بين السّابق واللاحق، فهذه العلاقة تمدّ الخطاب بطاقة حجاجيَّة مهمّة، إذ يمكن أن نحتجّ بتقرير تتابع مستمرّ في الأحداث[١] ، فالتّتابع في الأحداث كما يبدو يتيح لنا نوعًا من الانسجام بين مقدّمات الخطاب ونتائجه، فتنفذ الحجّة في نفوس المتلقّين، وتجذب انتباهه إلى النّتائج الّتي يروم الوصول إليها المتكلّم، وعمومًا أنّ علاقة التّتابع تقع إجمالًا على مستويين: أحدهما مستوى الأحداث كما بيّن (أوليفي روبول) فتُغرس الحجّة في الواقع وتنتهي بداهةً إلى أحد الصّنفين اللّذين تحدّثنا عنهما في مواضع سابقة وهما: الحجج المؤسّسة على بنية الواقع، أو المؤسّسة لبنية الواقع، وثانيهما مستوى القضايا، أو الأفكار فتنتمي الحجّة عندها إلى صنف الحجج شبه المنطقيّة[٢]، ولهذه العلاقة روابط كثيرة، ومنها:(أدوات العطف، وظرفا الزّمان والمكان)، وكلّها تفيد التّوالي والتّلاحق، ومن ذلك ما جاء في خطبة الحسين في أصحابه وأصحاب الحرّ، قوله:**" ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشّيطان، وتركوا طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلال الله، وأنا أحقّ من غيّر، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنّكم لا تُسلموني ولا تخذلوني"**[٣].

---

[١] ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٢١.
[٢] ينظر:المصدر نفسه: ٣٢١.
[٣] جمهرة خطب العرب: ٤٨.

إنَّ غاية الحسين من التّتابع هي إلقاء لكمٍّ هائلٍ من الحجج القاطعة في الخطاب، القاضية بوجوب القيام ضدّ حكم البلاط الأمويّ المنحرف عن تعاليم الدّين، وهذا ما يدفع المخاطبين إلى اليقين بشرعيّة الثّورة انطلاقًا من حجج دينيّة عليا، إذ تتأمّل كيف تتابعت الحجج وتداعت، إذ تجد حجّة تستدعي حجّة أخرى تعمل على تعزيز حضورها وتأكيدها، فالأمويّون تتابعت أفعالهم وأعمالهم الضّالة عن الصّراط المستقيم، الّذي جاء به النّبيّ(ص)، وكلّ صنيع من تلك الصّنائع المضلّة يعد حجّة ساطعة البرهان على جور وظلم الحاكمين، وكذلك هو حجّة على السّامعين بضرورة الوقوف أمام هذا الفساد الدّينيّ والأخلاقيّ، لينتهي بشكل بديهي إلى نتيجة الإصلاح والتّغيير، ولعلّنا اليوم بأمسّ الحاجة إلى مصلح ثائر كالحسين لينقذنا من فساد السّلطة السّياسيّة في العراق.

**لزموا طاعة الشّيطان----حجّة**

**تركوا طاعة الرّحمن-----حجّة**

**أظهـــــــروا الفساد----حجّة**

**عطّلـــوا الحدود----------حجّة**

**استأثـــــروا بالفيء-----حجّة**

**وأحلّوا حـــرام الله---------حجّة**

**وحرّمـــــوا حلاله-------حجّة**

**تتابع ينتهي بداهةً إلى إلزاميّة التّغيير والإصلاح**

هذا التّتابع أفرز محورًا حجاجيًّا في غاية القوّة، عمل على زيادة إذعان السّامعين، وحملهم على الاستجابة للخطاب الحسينيّ، فضلًا عن تدعيم الحسين خطابه بحجّة أخرى تعاضدت مع هذا التّتابع، وهي حجّة استدعاء الشّاهد المتمثّل بالكتب الّتي وصلت للخطيب من المخاطبين، القاضية ببيعتهم ونصرتهم له لدفعه

نحو القدوم إلى العراق، ويبدو حقًّا أنّ هذا القول كان شديد الوطأة على أسماعهم ونفوسهم؛ لأنّ مضامينه كانت صادرة فعلًا من لدنهم، فلا مجال للاعتراض أو النّقض والطّعن بصحّة ما ذهب إليه الحسين، ولم يبق أمامهم إلّا التّصديق بما جاء في الخطاب من دعوى قائمة على أدلّة وبراهين، وحجج واضحة المعالم، فقد كان وصل الخطيب بين الحجج مؤسّسًا لوحدة الدّعوى وتأكيدها، وتعزيز تماسكها من بواسطة الرّابط الحجاجيّ الواويّ، ليتولّد عن ذلك وحدة حجاجيَّة متكاملة ومتّصلة الدّلالة بين مكوّناتها الدّاخليّة في الخطاب، فتوظيف الوصل يبعث على التّأمّل والتّفكّر بسرّ ومكنون الجمل المتتابعة، فضلًا عن أنّه مركزيّة دلاليّة للخطاب، حتّى يحمل المخاطبين من حالة الاعتقاد النّفسيّ إلى منطقة الحيّز العمليّ، ودفعهم نحو الانتفاضة بوجه الظّالمين، والخارجين عن قيم السّماء والنّبوّة، وهدم منظومة حكم الأمويين الّتي أفسدت البلاد والعباد.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة يزيد بن أنس الأسديّ(٦٦هـ) محرّضًا لمّا حملت خيل عبدالله بن مطيع أحد ولاة الزّبيريين على أصحاب المختار، قوله: **" يا معشر الشّيعة: قد كنتم تُقتلون وتُقطع أيديكم وأرجلكم، وتُسمل أعينكم، وتُرفعون على جذوع النّخل، في حبّ أهل بيت نبيّكم، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوّكم، فما ظنّكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم؟ إذن والله لا يدعون منكم عينًا تطرف، وليُقتُلنّكم صبرًا، ولترونّ منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خيرٌ منه، والله لا ينجيكم منه إلّا الصّدق والصّبر والطّعن الصّائب في أعينهم، والضّرب الدّرّاك على هامهم، فتيسّروا للشدّة، وتهيئوا للحملة، فإذا حرّكت رايتي مرتين فاحملوا"**[١].

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٨٢.
*تطرف:تتحرّك، صبرًا:حبسًا.

لا شكَّ أنَّ العلاقة الحجاجيّة الّتي تحكم الخطاب تتابعيّة محضة، وقائمة على تتابع أحداث معيّنة، فالخطيب تابع بين أحداث ومشاهد عديدة ومختلفة؛ أثار من خلالها دافعيّة كبيرة في نفوس المخاطبين بالتّوجّه نحو قتال كتائب جيش ابن مطيع، فكلّ الأحداث المتواليّة المذكورة عملت على استنهاض هممهم في الدّفاع عن الشّيعة في الكوفة، لدفع الضّرر المحتوم في حال سيطرة الزّبيريين عليها، فالإشارة إلى صور العنف الّذي كانوا يعانوا منه العلويّون من حكم الأمويين في عهد ثورة الحسين وما رافقها من مشاهد التّعذيب الوحشيّة، أوحى بها بصور أشدّ منها فظاعة إذا ما أحكم الزّبيريّون قبضتهم على معقل العلويين (الكوفة)، فلن يدعوا عينًا تتحرّك، ولا نفسًا إلّا وقتلوها حبسًا، وسيرى العلويّون في أولادهم وأموالهم وأزواجهم ممّا هو الموت خيرٌ منه، فالتّتابع بالرّابط الواويّ أفصح عن أحداث سلبيّة متوقّع حدوثها، قدّم الخطيب صورة سلبيّة عن ذات جيش ابن مطيع أثارت الرّعب، والّتي رفدت الخطاب باستراتيجيّة التّرهيب (الباتوس السّلبيّ) المعتمدة في إثارة الفزع عند المخاطبين من ذلك الجيش في حال الاستسلام لهم، وتمكينهم من بطش سيطرتهم على المدينة، ممّا جعل نفوس العلويين على يقين بضرورة الوقوف أمام هذا المدّ العسكريّ لدرء كلّ هذه المشاهد البشعة، والحفاظ على بقاء الحكم العلويّ في الكوفة، وصون كرامتهم، وحماية أعراضهم وأموالهم من هتكٍ مُحتمل، فالتّتابع كما يبدو أدّى إلى إثارة الأهواء في نفوس السّامعين، ولجوء الخطيب إلى بلاغة العنف بوصفها وسيلة داعمة لإنزال الإقناع بمدى عنجهيّة هؤلاء وقسوتهم في التّعامل مع العلويين، وفي الحقيقة أنَّنا نجدها وسائل بلاغيّة مؤثّرة للغاية، وتسهم في إنجاز الوظيفة الحجاجيَّة للخطاب، بالاعتماد على سياسة التّرهيب التّتابعيّ، الّذي دفع المخاطبين إلى الاعتقاد والإيمان بضرورة الانخراط في حملة الدّفاع عن الكوفة من خطر الزّبيريين.

ويرى الباحث أنَّ الخطيب وإن نجح في رفد خطابه بطاقة حجاجيَّة اعتمدت سياسة الخوف والرّعب، إلّا أنَّنا لا نؤمن قطعيًّا بحتميّة وقوع هذه السّلوكيّات من الجيش الزّبيريّ، ولكنّ المبالغة في تصوير المشهد المتوقّع حدوثه كان ناجعًا في الخطاب، وهذا هو المهمُّ في الحجاج.

ومن علاقات التّتابع على مستوى الأحداث ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير يوم قتله، قوله:**" أيّها النّاس، إنّ الموت قد تغشّاكم سحابه، وأحدق بكم ربابه، واجتمع بعد تفرّق، وارجحنّ بعد تمشّق، ورجس نحوكم رعده، وهو مُفزع عليكم ودقه، وقائد إليكم البلايا، تتبعها المنايا، فاجعلوا السّيوف لها غرضًا، واستعينوا عليها بالصّبر، ثمّ اقتحم يقاتل وهو يقول:**

**قد جدّ أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب لها على ساق"**[1].

تقوم هذه الخطبة على تتابع مستمر للأحداث، ومبنية على أساس التّحذير والتّوجيه في الإطار العامّ، الّذي صبّ الخطيب عنايته على الحدث(الموت في الحرب)، وما يترتّب عليها من نتائج وتبعات من خلال الرّبط الواويّ، فهو يرغب في استنهاض همم الأتباع للاستعداد لقتال الجيش الأمويّ، والدّفاع عن الحكم الزّبيريّ في الحجاز، ويبدو أنّ هذا التّتابع في السّياق قائم على بنية الواقع في ذلك الوقت، فتشبيه الحرب بالموت يقترب كثيرًا من الحقيقة بناءً على معطيات الأرقام بين الجيشين، فلا وجود لأيّ موازنة محتملة بينهما، وكفّة الجيش الأمويّ مرجّحة لا محالة، ولكن هذا التّحذير والتّنبيه جاء ربّما لإيقاظ الأتباع من غفلة الاستهانة بالواقعة، فلجأ إلى بلاغة التّهويل من أجل إثارة نفوسهم وحملها على الانخراط بالحرب، والدّفاع عن أسوار الحكم الزّبيريّ، والوقوف أمام مدّ الأمويين، فالحدث

---

(1) جمهرة خطب العرب: ١٧٩-١٨٠.

*الرّباب: السّحاب الأبيض، ارجحن:مال من ثقله واهتزّ، تمشّق ثوبه:تمزّق، رجست السّماء: رعدت، الودق: المطر.

الرّئيس وكلّ مستتبعاته المتوالية جاء لإقناع الأصحاب بخطورة الموقف في حال الاستسلام والانهيار في هذه الواقعة، ممّا ينبغي لهم أن يستجيبوا ويذعنوا لدعوى خطاب قائدهم، ولاسيّما أنَّه عضّد الطّاقة الحجاجيّة للخطاب في الخاتمة بضربة شعريّة جاءت شاهدًا على بسالة وشجاعة ابن الزّبير، الّذي من المفترض أن ينحى الأتباع منحى القائد والاقتداء به، بعد أن أثار أهواءهم (الباتوس) لحملهم على قبول الدّعوى، وتبنّي وجهة نظره بوجوب المقاومة، فالتحكّم بإرادتهم وقرارهم، وإنجاز الفعل جاء من خلال استثمار الوجدان والعاطفة، الّتي تحظى بأثر حاسم وقطعيّ في تحقيق الإذعان التامّ بعد الانفعال النّاجم من تأثير الخطاب، لينقلهم من حالة شعوريّة متّقدة إلى حالة عمليّة تنجز الفعل، وتعتقد بصحّة دعوى الخطيب.

ومن ذلك ما جاء في خطبة طارق بن زياد، قوله:**" فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولّوا الدّبر لعدوّكم، فتُبدّدوا بين قتيل وأسير"**[١].

جاءت علاقة التّتابع في هذه الخطبة لتصل حدث فعل بسلسلة من الأحداث المتلاحقة الّتي ستتبعه، فالخطيب يسعى إلى حضّ الجند على الثّبات في الحرب حتّى في حال مقتله، فإنّ أيّ تزعزع أو تقهقر يصيب الجند سينتهي بداهة إلى سلسلة من الأحداث السّلبيّة، فكلّ هذا الرّبط بين الجمل أتى للكشف عن السّبب الرّئيس (الضّعف، الهوان)، الّذي سيتولّد عنه أحداث الانكسار المتواليّة، ألا وهي الهزيمة والإخفاق، وتخلخل قوّة الجيش الإسلاميّ إذا ما تأثّر بمقتل القائد، فهذا الأمر سينتهي حقيقة إلى الفرار، وترك العدوّ يسعى خلف ظهورهم، ممّا يتركهم في نهاية المطاف بين صريع وأسير.

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٣١٦.

فيظهر لنا من خلال التّتابع بين الأحداث أنّ مصير المعركة يتوقف على قضيّة حدث رئيس يُتبع بعدّة أحداث سلبيّة سترجّح كفّة العدوّ، إذا ما تزعزعت معنويات المقاتلين بعد استشهاد القائد، وقد أدّى الرّبط الواوي، وكذلك الرّبط بحرف العطف (الفاء) أثرًا مهمًّا في تأسيس خطاب متماسكٍ غير مفكّك، وأسهم في تلاحم الأجزاء المكوّنة للبناء الحجاجيّ بربط عناصره، وحمل المخاطبين على الامتثال لتوجيهات القائد العسكريّة بقناعة تامّة، وإذعان مطلق، فالتّتابع في الأحداث وتعاقبها يتيح لنا نوعًا من التّطوّر والانسجام بين المقدّمات والنّتائج، فتترسّخ الحجّة في نفوس المخاطبين، وتشدّ أذهانهم إلى النّتيجة الّتي يريد الوصول إليها الخطيب[1]، وهذا ما عزم عليه طارق من اللّاحق المتسلسل للأحداث المبنيّة على حدث رئيس كما رأينا في رصفه لها في ثنايا الخطبة، لتحاشي وقوع نتائج غير موفّقة للجيش الإسلاميّ، وتؤدّي به إلى الانكسار العسكريّ أمام العدوّ، فالنّصر مقرون بالثّبات والعزيمة حتّى مع مقتل القائد.

ولا نغفل عن أثر التّناص القرآنيّ، إذ استلهم الخطيب مفردات القرآن الكريم من السّورة المباركة {محمّد: آية ٣٤}، فضلًا عن التّناص مع السّورة {الأنفال: آية ٤٦}، لتقوية المعنى، وزيادة قوّة حجاج الخطاب؛ لأنّ حجاج اللفظ القرآنيّ مؤثّر للغاية؛ فهو يبعث مناخًا عاطفيًّا شديدًا في نفوس المتلقّين، ويحملهم على الإذعان والامتثال لأوامر القائد.

ومن ذلك أيضًا ما جاء في خطبة عبد الملك بن مروان في وصيّة لأخيه عبد العزيز حين ولّاه مصر[2]، وهي لا تختلف كثيرًا من حيث البعد الحجاجيّ عن الخطبة السّابقة.

---

[1] ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٢١.
[2] ينظر: جمهرة خطب العرب: ١٩٨.

ولم تغب علاقة التّتابع الحجاجيَّة للأحداث عن خطب الخوارج، فخطبة أبي حمزة الشّاري في أهل المدينة من منطلقها إلى خاتمتها قائمة على التّتابع المتلاحق للأحداث، فهو يحاول بذلك إنزال الإقناع في نفوس المخاطبين بفساد كلّ الأنظمة والتّيارات، الّتي حكمت البلاد الإسلاميّة من الأمويين والعلويين وغيرهم[1]، ليحملهم على التّيقين والاعتقاد بصلاح حكم الخوارج وشرعيّته دون غيرهم؛ لأنّهم الأحقّ في تولّي أمور المسلمين.

وتذهب الدّكتورة الدّريدي إلى أنّ المتكلّم قد يعقد علاقة تتابعيّة لا على مستوى الأحداث والأفعال، أو الحجج كما في الخطب السّابقة، بل يعدل إلى مستوى تتابعي للأفكار والأحكام، فتنشأ بين مكوّنات الخطاب وحدة خفيّة قد يتعسّر تبيّنها[2]، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير في الحجاز، قوله:" **إنّي سألت هذا الوفد من أهل العراق، عن عاملهم مصعب بن الزّبير فأحسنوا الثّناء عليه، وذكروا عنه ما أحبّ، ألا إنّ مصعبًا أطبى القلوب، حتّى ما تعدل به، والأهواء حتّى ما تحول عنه، واستمال الألسن بثنائها، والقلوب بنصحها، والنّفوس بمحبّتها. فهو المحبوب في خاصّته. المحمود في عامّته، بما أطلق الله به لسانه من الخير. وبسط يده من البذل**"[3].

من يتأمّل هذه الخطبة يجد أنّ الخطيب جرى على المناوبة بين حرفي العطف(الواو، الفاء) بشكل تتابعيّ، ليؤسّس مركزيّة بين مكوّنات الخطاب، فالمبتغى غير واضح من البداية، إذ يروم إلى بيان صلاح ولاية أخيه على أهل العراق، وعطفه على رعيّته في الحكم والعطاء، فأطلق عنان هذه الفكرة، وراح يردّد ويتابع ما يثبت حقيقتها، ويعزّز حضورها في أذهان المخاطبين، فالتّتابع

---

[1] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٦٩-٤٧٦.
[2] ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٢٣.
[3] جمهرة خطب العرب: ١٧٥.

الفكريّ عمل على إنزال اليقين في نفوسهم بهذه الحقيقة، بعد أن ربط كلّ الأفكار الواردة معنويًا بالدّعوى الكلّية من الخطاب.

**الفكرة الرّئيسة**
**(صلاح وفلاح ولاية مصعب على العراق)**
**مصـــــــعبًا أطبى القـلوب---فكرة**
**والأهواء حتّى ما تحول عنه---فكرة**
**واستمال الألـــسن بثنائها--- فكرة**
**والقلـــــــــوب بنصحها--- فكرة**
**والنّفــــــــوس بمحبّتها--- فكرة**
**فهو المحبوب في خاصّته--- فكرة**
**وبســــــط يده من البذل----فكرة**

فكلّ هذه الأفكار المنبثقة من تلاحقها وتطوّرها تنتهي بداهةً إلى تعزيز دعامة الدّعوى الرّئيسة من الخطبة، لذا كان من الطّبيعي أن يؤدّي هذا التّتابع إلى الإقرار والاعتقاد بازدهار العراق ورضاه في ظلّ حكم مصعب بن الزّبير.

وتُجدر الإشارة كذلك إلى ورود علاقة تتابع الأفكار في خطب الخوارج كذلك، كما هو الحال في خطبة قطريّ بن الفجاءة في تحذير فرقة الأزارقة من متاع الدّنيا(١)، وحثّهم على الزّهد فيها، لينزل الإقناع بوجوب العزوف عن مغرياتها، والانصراف عن ملذّاتها، وحملهم على فراقها، والاعتصام بحبل الله وطاعته.

## ب-العلاقة السّببيّة:

تفرز هذه العلاقة الرّابط السّببيّ بين الأحداث، وتحيل إلى ظاهرة ما تكون سببًا في بروز ظواهر أخرى، فهي من أهمّ العلاقات الحجاجيَّة، وأكثرها قدرة على التّأثير في المخاطب، وتتّسم عادةً بضرب مخصوص من العلاقات (التّتابعيّة)، الّتي يحرص فيها الخطيب على ربط الأفكار، والوصل بين مفاصل الخطاب دون

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٥٤-٤٥٨.

الاكتفاء بتلاحقٍ، أو بتوالٍ طبيعيّ بينها، بل يذهب إلى مستوى أعمق من العلاقة، فيجعل من الأحداث أسبابًا لظهور أحداث أخرى، ويسمّي فعلًا ما بأنّه نتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل من موقف ما سببًا مباشرًا لبروز موقف لاحق(١)، وكما يبدو أنّ الرّبط بين الأسباب والنّتائج يضمن نجاعة الحجّة، ويعزّز من الطّاقة الإقناعيَّة للخطاب، فيجعل من المتلقي في حالة إذعان مطلق لصعوبة ردّ أفكار الخطيب أو التّشكيك بها بوصفها قائمة على أدلّة وأسباب، فالعلاقة السّببيّة هي" علاقة شبه منطقيّة تجعل من النّصّ يحاكي نصوصًا منطقيّة في ترابط أجزائها وتناسق أفكارها؛ لأنّ قاعدتها أو خلفيّتها المؤسّسة لطاقتها الحجاجيّة مُستمدّة من عالم المنطق وأدواته من جهة، ومن تواصلها مع الواقع من جهة أخرى"(٢)، ونفهم من ذلك أنّها وسيلة تفسيريّة للأحداث القائمة على بنية الواقع، فهي وسيلة حجاجيَّة تثير الانتباه وتشدّ الإصغاء، وتيسّر فهم الخطاب، وقبول حججه القاطعة(٣)، وفي ضوء هذا تكمن أهمّيّة هذه العلاقة في تشخيص التّتابع السّببيّ بين الأسباب ومسبّباتها، ممّا يجعل الخطاب الحجاجيّ واضحًا لا لبس فيه ولا تعقيد؛ نظرًا لما تعمله هذه العلاقة من تناغم بين أجزائه، وتماسك مفاصله بإحدى أدوات الرّبط الّتي تدلّ عليها، ومن ذلك ما جاء في خطبة زهير بن القين(٦١هـ)، قوله:" **عباد الله، لا يغرّنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم قومًا هرّاقوا دماء ذرّيّته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم، وذبّ عن حريمهم**"(٤).

نستتشف من هذا النّهي القائم على الوعظ والتّحذير، أنّ الرّبط السّببيّ بين فعل الاغترار وما يعقبه من جزاء ينبني على الانجرار وراء خطاب اللعين شمر بن ذي

---

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ٣٢٧.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٣٤.
(٤) جمهرة خطب العرب: ٥٥.

الجوشن، الّذي هدّد أصحاب الحسين وأوعدهم، فذلك الأمر سينتهي بداهةً إلى الحرمان من شفاعة النّبيّ(ص) يوم المحشر، فتلك شفاعة لا ينالها من قاتل ذرّيّته، وهتك حرمتهم، وقتلوا من شايعهم وناصرهم، فيظهر أنّ الوقوف في صفّ اللعين، أو الامتثال لخطابه سيؤدّي حتمًا إلى إضاعة فرصة الفوز بالشّفاعة، ورحمة الإله، وهذا سينتهي بداهةً إلى النّار، وهو يترتّب على رابط سببيّ يتعلّق بإراقة دمّ الذرّيّة واستباحة حرمتهم، فجاء الرّبط السّببيّ لغاية إخبار السّامعين وإقناعهم بما سيؤدّي إليه الانجرار وراء ضلال خطاب شمر، فالخطيب يحذّر من الأخذ بمضامين خطابه، كونها ستكون سبب الحرمان من الشّفاعة ورحمة الرّبّ، وقد وظّف الخطيب الرّابط الحجاجيّ (الواو) في ذكر أسباب ذلك الخسران المبين في تتابع مؤثّر في إبراز العلاقة الحجاجيَّة السّببيّة، الّتي تصل بين الأسباب ونتائجها، فقد جعل الرّبط الواويّ الخطاب ملتحمًا ومتماسكًا في المقدّمات والنّتائج بشكل ينأى عن اللبس والغموض، ليزيد بذلك من الطّاقة الإقناعيَّة للخطاب في نفوس أصحاب الحسين ودفعهم نحو الثّبات، وشدّ عزيمتهم وزيادة إصرارهم على التّمسّك بالنّهج الحسينيّ الثّوريّ.

ويرى (بيرلمان) في هذا الموضع أنّنا يمكننا أن" نُبرز تارةً السّبب، وطورًا النّتيجة، وذلك حسب تصوّرنا للتّتابع السّببيّ، إمّا في شكل علاقة سبب بنتيجة، أو وسيلة بغاية؛ فإذا أردنا التّقليل من شأن عمل يكفي أن نُبرزه كنتيجة، وإذا أردنا تضخيم أهمّيّته وجب تقديمه كغاية"[1]، وهذا ما نجده ماثلًا في خطبة التّوّاب سليمان بن صرد(٦٥هـ) حينما حثّ أصحابه على الأخذ بثأر الحسين، وقتل قاتليه، قوله:"....**وتقرّبوا إلى الله جلّ ذكره بكلّ خير قدرتم عليه، حتّى تلقوا هذا العدوّ، والمحلّ القاسط فتجاهدوه، فإنّكم لن تتوسّلوا إلى ربّكم بشيء هو أعظم عنده ثوابًا**

---

[1] الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه):٣٢٧.

**من الجهاد والصّلاة، فإنّ الجهاد سنام العمل، جعلنا الله وإيّاكم من العباد الصّالحين المجاهدين الصّابرين على اللّأواء، وإنّا مدلجون الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأدلجوا"**[١].

إذ نرى أنَّ الهدف من وراء خطاب سليمان في الحثّ على جهاد قاتلي الحسين ينتهي إلى غاية، وقد قدّمها بوصفها نتيجة ضخمة، وعاقبة سامية ينشدها كلّ مؤمن، وهي القربة إلى الله ونيل رضاه بكلّ ما يمكن أن يضحّوا به من أجل الأخذ بثأر دمّ الحسين، أمّا الوسيلة، أو السّبب المؤدّي لذلك، فهو لقاء العدوّ من القاسطين ومجاهدتهم، وهذا أعظم ما يتوسّل به العبد لنيل أعلى درجات الثّواب والجزاء، فالجهاد ثيمة مهمّة في عقائد الإنسان المسلم، الّتي لا يؤمن بها إلا العباد الصّادقين، وبهذه الصّلة التي جاء بها الخطيب ليعقد علاقة بين الغاية والوسيلة مهّد لإنزال الإقناع في نفوس التوّابين في السّير إلى الجهاد لقتل قاتلي سبط النّبيّ، وبذل كلّ ما يقدرون عليه في سبيل الله عزّ وجلّ ذكره.

ولا نغفل أثر العلاقة وروابطها (فإنّكم، فإنّ، الواو) في ربط مفاصل الخطاب وأجزائه، وتعزيز وحدته الفكريّة، ممّا أسهم في الإبانة عن دعوى الخطيب بشكل منتظم ومتسلسل، فرفع من شحنة الطّاقة الحجاجيَّة للخطاب لتحقيق زيادة في الإذعان، وحملهم على الإقناع والتّصديق بدعوى الخطيب.

ولم تغب هذه العلاقة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة والي الكوفة النّعمان بن بشير(٦٥هـ)، قوله:**"أمّا بعد: فاتّقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإنّ فيهما يهلك الرّجال، وتُسفك الدّماء، وتُغصب الأموال"**[٢].

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧.

أوعز الخطيب إلى الرّعيّة في الكوفة بخطورة الخروج عن طاعة الخلافة، والتّسرّع إلى الثّورة (الفتنة كما يراها الخطيب) على البلاط الأمويّ، فهي ستقودهم إلى ظواهر أخرى لا يُحمد عقباها، من قتل الرّجال، وسفك الدّماء، وغصب الأموال، فالرّبط بين السّبب والنّتائج المتعاقبة المترتّبة عليه يهدف إلى إقناع المخاطبين بالامتناع عن الانتماء لأيّ حراك ثوريّ محتمل ضدّ السّلطة، لما سيأتي به من تبعات مظلمة مثيرة للرّهبة، وهي وسيلة تهزّ الأهواء بلا هوادة، ليدفع المخاطبين إلى التّسليم التامّ، والإذعان المطلق بخطورة الانخراط بصفوف الثّائرين، بعد أن أثار شعور الخوف في قلوبهم، من أجل فرض السّيطرة على سلوكهم ولولب قرارهم، والتّحكّم ببوصلته، حتّى يدفع أيّ خطر وشيك يهدّد سلطة الخلافة الأمويّة، إذ يرى الدّكتور محمّد مشبال أنَّ الخطاب الّذي يعتمد إثارة خوف الجماهير والشّعوب وترهيبها وتهديدها يُمثّل ضروبًا من وسائل العنف، الّتي قد يلجأ إليها بعض الخطباء في الأنظمة السّياسيّة الاستبداديّة للتحكّم في إرادة تلك الشّعوب، والسّيطرة على أفعالهم وأحكامهم[1]، لذا كان من الناجح حجاجيًّا أن يعضّد الخطيب العلاقة السّببيّة ورابطها ببلاغة الوعيد، فالمنظور الأرسطيّ يؤمن بأنّ أيّ اضطراب ناشئ عن تخيّل شرّ داهم أو أذىً شديد مثل الموت، أو التّعذيب يسبّب تدميرًا يعدّ ناجعًا حجاجيًّا ويُعزّز القيمة الإقناعيَّة للخطاب[2]، ولاسيّما إذا كانت تلك الأمور داهمة وماثلة وقريبة زمنيًّا، فالنّاس لا يمكن ترهيبها وردعها إلّا بالشّرّ الّذي ينطوي على مصير مشؤوم ومظلم، لإرغام المخاطب الصّعب والعنيد كأهل الكوفة على الإذعان لدعواه بلغة العنف والقوّة العدوانيّة لا بلغة الحوار الحجاجيّ؛ لأنّها تمثّل معقل العلويين الّذين كانت نفوسهم جامحة إلى الثّورة بشكل مستمر، وهذا سرّ

(1) ينظر:في بلاغة الحجاج: ٢٨٣.
(2) ينظر:المصدر نفسه: ٢٨٢.

اعتماد الخطيب (الباتوس) السّلبيّ القسريّ تجاه المخاطبين، وهو مقبول بلاغيًّا وحجاجيًّا.

**الفتنة والفرقة------ سبب.**

**هلاك الرّجال---سفك الدّماء---غصب الأموال---نتائج.**

وقد وردت هذه العلاقة كثيرًا في خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة زياد بن أبيه[1]، وخطبة الحجّاج[2]، وهي قائمة على عقد صلة بين أسباب ونتائج بلغة العنف والعدوان، وما قلناه في الخطبة السّابقة ينطبق عليها تمامًا.

وقد حضرت هذه العلاقة في خطب الخوارج، ومن ذلك ما جاء في جزء من خطبة حيان بن ظبيان لحثّ الخوارج على قتال الأمويين، قوله: **" فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله، ولا تربّصوا ولا تنتظروا، فإنَّكم إنَّما تبادرون بذلك إلى الجنّة، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة"**[3].

إنّ الهدف من الخطاب هو رفع همم الخوارج، وحملهم على الاستجابة للنّداء، وقد وظّف حيان في مفاصله العلاقة السّببيّة ليضمن إنجاز الفعل المطلوب، فالقتال عن دين الله ضدّ المخالفين لحدوده بسرعة عاجلة من دون تمهّل أو انتظار سينتهي بهم إلى نتيجتين ومفازتين في غاية الأهمّيّة، الأولى: مفازة آخرويَّة تنتهي بالجنّة، والثّانية: مفازة دنيويّة تخرجهم من ظُلمات الفتنة وضلالها، وهذا الرّبط السّببيّ عزّز من الطّاقة الإقناعيَّة للخطاب؛ لأنّه قائم على مكاسب كبرى للمخاطبين في حال تلبية دعوى الخطيب، انطلاقًا من أواصر عقديَّة دينيَّة، فأسهم ذلك في زيادة الرّغبة في نفوس الخوارج لقتال البغاة، والاعتقاد بحيثيّات الخطاب المبنيّة على الرّبط السّببيّ بـ(الواو، فإنّكم)، الّذي جعل الخطاب كتلة حجاجيَّة صلبة تناغمت مع

---

(1) ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢٧٦.
(2) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩٨.
(3) جمهرة خطب العرب: ٤٤٥.

(الباتوس) الوجدانيّ الإيجابيّ للمخاطبين، فهو وإن كان قائمًا على العلاقة السّببيّة للحدث، إلّا أنَّها تركت تأثيرًا عاطفيًّا مرتكزًا على دعوى أثارت أهواءهم، ووجّهت قرارهم، وجعلتهم يتّجهون بكلّ كيانهم النّفسيّ بلهفة وشغف نحو مقاصد الخطيب، لاسيّما أنّ الخطاب في حجاجه العاطفيّ هذا يُحظى باتّفاق ضمني بينه وبين المتلقين على جملة من الأفكار العقديّة في الدّين الإسلاميّ، الّتي تعدّ جزءًا من التّفكير الجمعيّ، وهذا يساعد بشكل كبير في حمل الخوارج على التّسليم المطلق بصدق دعوى القائد، والإذعان لما ألقاه على مسامعهم، ولا مجال للطّعن، أو النّقض في مقام عقديّ وانفعاليّ انتعشت به الأهواء، وغلت فيه مراجل الوجدان بالاندفاع نحو الخروج لقتال الدّولة الأمويّة فور انتهاء حيان بن ظبيان من خطبته بعد أن جاء بحشد من المكتسبات الكبرى، والجزاءات العُظمى، وما سيؤول إليه ذلك القتال من مكافآت آخرويَّة ودنيويَّة كما وضّحنا.

**قتال من خالف طاعة الله--سبب يؤدّي إلى نتيجتين: الأولى:الجنّة، الثّانية:الخروج من الفتنة.**

**ج-علاقة الاقتضاء:**

هي علاقة تتّسم بشحنة حجاجيَّة عالية؛ لأنَّها ككلّ علاقة أخرى تصل الحجّة بالنّتيجة الموسومة من الخطاب؛ ولكنَّها تختلف وتتميّز عن كلِّ علاقة، لأنّها تجعل الحجّة تقتضي تلك النّتيجة اقتضاءً والعكس كذلك، بحيث تغدو ضربًا من التّلازم بين كلِّ حجّة ونتيجتها، إذ تفرض نوعًا من الحتميّة، فيحكم التّرابط بينهما بشكل يوحي بأنّ الأولى تقتضي الثّانية، والثّانية تستدعي الأولى ضرورةً، حتّى وإن لم يكن الأمر كذلك[1]، وهذا التّرابط في حقيقته يمثّل نوعًا من التّكلف والتّلازم المصنوع (المفروض)، إذ يجتهد إليه الخطيب حرصًا على إنزال الإقناع، أو الحمل

[1] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٣٥.

على الإذعان، ولعلّ أقدر الرّوابط الحجاجيّة على تحقيق هذا النّوع من التّرابط والصّلة من غير شكّ أدوات الشّرط المختلفة، وحروف العطف، وروابط الاستدراك، وتكثيف حضورها في الخطاب لتأخذ عملها في صناعة الاستدلال، إلّا أنّ الدّريدي تشير إلى أهمّيّة التّنبيه على" أنَّ علاقة الاقتضاء الّتي يوفّرها أسلوب الشّرط علاقة شكليّة بالأساس؛ أي أنّ المتكلّم متى عمد إلى جملة شرطيّة تقوم على شرط وأداة وجواب، فإنّه يجعل الشّرط يقتضي الجواب-والعكس صحيح أيضًا- من حيث الشّكل فحسب، ذلك أنّ الشّرط من حيث المضمون يستدعي عددًا كثيرًا من الإمكانات والمعاني بحيث يستحيل الحديث عن اقتضاء مضمونيّ أو معنويّ، ولكنّ الاقتضاء الشّكليّ متوفّر وهذا كافٍ في الحجاج"[1]، فمأتى الاقتضاء في الشّرط يأتي من التّلازم والتعلّق السّببيّ بين الشّرط وجوابه، فكلّ شرط يستدعي جوابًا، وهو في الوقت نفسه مسبّب لهذا الجواب، أي أنّه سبب للنتيجة المتمثّلة بالجواب[2]، فالهدف من أيّ خطاب حجاجيّ هو تيقين المخاطب وجعله مصدّقًا لما فيه من دعوى وأفكار، ولهذا نرى أنّ الاقتضاء ظاهرة تؤدّيه ألفاظه وعباراته ويسمّى بـ(المنطوق)، أمّا باطنه فيُدرك ذهنيًّا، أو توحي إليه الجمل ضمنيًّا ويسمّى بـ(المُقتضى)؛ بمعنى أنَّ علاقة الاقتضاء تجعل المتكلّم يعني أكثر ممّا يقول في خطابه الظّاهريّ، وهذا ما يتطلّب جهدًا تأويليًّا من المخاطب للوصول إلى مقصد الخطاب، ومعرفة المعنى المضمر عبر المعنى الحرفي الظّاهر، ويأتي هذا بعد أن يقوم بربط اللّفظ بالسّياق الخطابيّ والمقام، بهدف التّمييز بين المعنى المباشر المقصود، والمعنى الضمنيّ للعبارات غير المباشر المُستلزم منه[3]، ومن ذلك ما

---

(١) الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٣٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٣٥.

(٣) ينظر:أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب: أحمد كروم، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج١: ١٦٠.

جاء في خطبة عبدالله بن عبّاس ردًّا على عبد الرّحمن بن أمّ الحكم، بعد أن أثنى هذا الأخير على اللعين قاتل أمير المؤمنين(ع)، فخطب قائلًا:" **أما والله لقد كرع كأس حتفه بيده، وعجّل الله إلى النّار بروحه، ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحته، لخالطه الفحل القطم، والسّيف الخذم، ولألعقه صابا، وسقاه سِماما، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة، فكلّهم كان أشدّ منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرى بالسّيف هامهم، ورمّلهم بدمائهم، وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرّق بينهم وبين أحبّائهم، أولئك حصب جهنم هم لها واردون**"[1].

نلحظ أنَّ في بداية الخطبة أطلق حكمًا قطعيًّا بعجالة روح اللعين إلى النّار بوصفه قاتل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، ومن ثَمَّ أتى بالجملة الشّرطية غير الجازمة، الّتي انفتح الشّرط فيها على جملة من النّتائج الحتميّة، لو أنَّ الشّرط قد وقع فعلًا، وهي إشارة إلى غدر القاتل وخوفه، الّذي لم يستطع أن يبرز وجهًا لوجه أمام الإمام(ع)، فقوله:(لو أبدى لأمير المؤمنين صفحته)، تقطع بأنّه لم يتجرّأ على البروز له، ولو أنّه فعل ذلك لانتهى إلى نتيجة (المصرع)، بعد أن يذيقه الإمام مرارة القتال، ليلحقه بسابقيه ممّن برز إليه في وقائع سابقة مثل الوليد وعتبة وحنظلة أسلاف عبد الرّحمن بن أمّ الحكم، فكلّهم كانوا أشدّ منه أنفة وقوّة وعزيمة، ولكنّ ذلك لم يمنع الإمام من أن يفلق هامتهم، ويتركهم صرعى مخضّبين بدمائهم على الرّمال، حتّى راحت تأكل من أعضائهم الذّئاب، فهو مفرّق الأحبّة وقاتل الفسقة، فالتّلازم بين الشّرط والجواب أفضى إلى النّتائج المذكورة لو أقدم القاتل على مواجهة الإمام، فـ (لو) حملت معنى الامتناع والتّمنّي[2]، والخطبة تحتمل

---

(١) جمهرة خطب العرب: ١٠٦-١٠٧.

(٢) ينظر:معاني النحو: ج٤ : ٨٩-٩٠.

*كرع:تناوله بفيه من موضعه، قطم الفحل: اشتهى الضّراب، صابا:شجر مرّ، سماما:جمع سم، رمّله:لطّخه.

المعنيين وفق تأويل القارئ، فكأنّما ابن عبّاس كان يتمنّى وقوع ذلك في الواقع، فنرى أنَّ علاقة الاقتضاء في هذه الخطبة بين السّبب والنّتيجة ليست شكليّة بالمرّة، بل هي حتميَّة وواقعيَّة لو أنّ الأمر قد حصل فعلًا، فلا شكّ فيها ولا اعتراض عليها من غير تعسّف، فالتّاريخ يشهد أنَّ عليًّا ما كان ليخسر أيّ مبارزة قطّ، حتّى أمام الأبطال وفرسان العرب، فكيف الحال مع غادر لعين حقير؟!، وهذا الاقتضاء حمل عبد الرّحمن على الإذعان والتّسليم بمصداقيّة دعوى الخطيب؛ لأنّه يعدّ من أنجع الوسائل الحجاجيَّة، وأكثرها قدرة على تحقيق الإقناع، إذ تجعل من طرفي الخطاب الشّرطي(السّبب أو الحجّة، الجواب أو النّتيجة) يقضي أحدهما الآخر بالضّرورة والإلزام سواء كان شكليًّا، أو حقيقيًّا كما في هذه الخطبة، فالجملة الشّرطيّة في الخطاب تحقق التّلازم والتّعالق بين أطرافه، وهذا يدفع المخاطبين إلى الإذعان والقبول، والتّصديق بالحجّة، فتتّضح قيمة السّياق الشّرطيّ في إبراز الأهداف الّتي يرمي إليها الخطيب، إذ يتضمّن"التّنبيه على العلاقة الوثيقة بين الأسباب والنّتائج الّتي ترافق عملية القيام بأي فعل"(١)، ومن ذلك ما جاء في خطبة الحسين غداة يوم قتله، فخطب قائلًا:**" يا عباد الله، اتّقوا الله، وكونوا من الدّنيا على حذر، فإنّ الدّنيا لو بقيت على أحد، أو بقى عليها أحد، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولى بالرّضاء، وأرضى بالقضاء، غير أنّ الله تعالى خلق الدّنيا للفناء..."(٢).**

لا يخفى أنّ الجملة الشّرطيّة غير الجازمة المُكوّنة من الشّرط أو السّبب(لو بقيت...)، وجواب الشّرط أو النّتيجة (لكانت الأنبياء)، قد أفرزت علاقة الاقتضاء بين السّبب والنّتيجة، فأدّت الوظيفة الحجاجيَّة عبر أداة الرّبط (لو) ذات الدّلالة الامتناعيَّة، إذ أنّ انقضاء الأجل وفناء الإنسان حجّة على استحالة الخلود، وموت

---

(١) الخصائص الأسلوبية والبنائية لنثر الإمام علي"ع"في نهج البلاغة: ٢٥٦.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٥١.

الأنبياء وفناؤهم نتيجة طبيعيّة أثبتت نفي البقاء حتّى للأنبياء، فلو كان الخلود ممكنًا لكانوا أوّل الخالدين من البشر، فالحكمة من الإخبار بذلك ينتهي إلى إقناع المخاطبين بنبذ طول الأمل، والإيمان بزوال الحياة، فالموت سيدرك الإنسان عاجلًا، أو آجلًا حتمًا، ليحمل أتباعه على التّيقين بذلك، والإذعان لحجّته، ليطرد كلّ رغبة، أو تعلّق في نفوسهم بملذّات وشهوات الدّنيا، فكلّ ما أتى به الحسين يتناغم مع اتّفاقهم الجمعيّ بهذه الحقائق.

وتشير الدّكتورة الدّريدي إلى نوع من أنواع علاقة الاقتضاء، تربط بين الحجّة والنّتيجة من دون الارتكاز على البناء الشّرطيّ في الخطاب، ومع ذلك يقع التّناغم والتّماسك والتّرابط بين أجزاء الكلام ومفاصله[١]، ومن ذلك ما جاء في جزء من خطبة الإمام الحسن في الرّدّ على عتبة بن أبي سفيان(٤٤هـ) حينما تعرّض للإمام عليّ(ع)، فقال الحسن:**" وأمّا أنت يا عتبة، فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خيرٌ يُرجى، ولا شرٌّ يتّقى، وما عقلك وعقل أمتك إلّا سواء، وما يضرّ عليًّا لو سببته على رؤوس الأشهاد"**[٢].

يبدو واضحًا أنَّ الخطاب يخلو تمامًا من أيّ تركيب شرطيّ؛ ولكنّه مع ذلك كان على قدر عالٍ من التّماسك والتّلازم والتّرابط الدلاليّ بين الأسباب والنّتائج، فعتبة ليس بالرّجل الحصيف فلا يستحقّ الرّدّ حتّى يجيبه الحسن، ولا بالعاقل فيحاوره ويعاتبه، فلا يأتي منه خير يُرجى، ولا شرّ يُتّقى، فالمستوى العقليّ والإدراكيّ لا يختلف عن مستوى عقليّة جاريته، وهو بهذا يقع خارج نطاق التّأثير، فلا يضرّ ولا ينفع في أيّ حال من الأحوال، فهذا التّلازم بين المستوى الفكريّ للمتلقي، وعدم الأهليّة العقليّة كان يمثّل حجّة على حقارة شأن عتبة؛ لأنَّ هذا التّعالق بين الجمل

---

[١] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٣٨.

[٢] جمهرة خطب العرب: ٣٠.

أعطى دلالة السّخريّة منه، فهو ليس إلّا مهرّج تافه لا عقل له ولا إدراك، إذ يتعالى الإمام عن الحوار معه، ولا ينبغي أن يحاور أحمقًا، فالحجج المقدّمة في الخطاب الحسنيّ(ما أنت بحصيف، ولا عاقل، وما عندك خير يُرجى، ولا شرّ يُتّقى)، كلّها أسباب انتهت إلى نتيجة اقتضاء تتطلّب الارتقاء عن مجادلة الخصم، وهذا الارتباط يُذعن المتلقي ويرغمه على الإقرار بها، لكون الوقوف على إحداها يقتضي ضرورة الوقوف على الأخرى، ليولّد مركزيّة دلاليّة بين أطراف الكلام انتهت بالنّيل من شأن المتلقي وإثارة السّخريّة منه بصورة قاسية، ومنعه من التّمادي على رموز شامخة في سماء الهدى والتّقوى، أو التّعرّض لهم فيما بعد.

ولم تغب هذه العلاقة عن خطب الأمويين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عمر بن عبد العزيز، قوله:**" أيّها النّاس، إنّما يُراد الطّبيب للوجع الشّديد، ألا فلا وجع أشدّ من الجهل، ولا داء أخبث من الذّنوب، ولا خوف أخوف من الموت"**[(١)].

لم يبنِ الخطيب على تركيب شرطيّ واضح، وإنّما لجأ إلى بناء علاقة الاقتضاء ضمن المعنى الضّمنيّ التّأويليّ، الّذي يفهمه المخاطب، ولهذا لم نشاهدها عبر المعنى الحرفيّ، فنرى أنّ كلّ جملة من الخطاب اقتضت جوابًا خفيًّا يُدرك ذهنيًّا، وهو ما يسمّيه (بيرلمان) بـ(المُقتضى) ، أي أنّ الاقتضاء يجعل المتكلّم يقصد أكثر ممّا يقول، وذلك ما يتطلّب جهدًا تأويليًّا من المتلقي للوصول إلى مقصد الدّعوى، ومعرفة المعنى الضّمنيّ عبر المعنى الحرفي الظّاهر، الّذي يُسمّى بـ(المُستلزم منه)[(٢)]، وهذا التّوظيف يسعى إلى تحريك البنية الذّهنيّة والفكريّة لفكّ أسرار الخطابات، حتّى يدفع المخاطبين إلى القناعة التّامّة انطلاقًا من عمليات مبنيّة وفق تصوّراتهم الذّاتية عن ماهيّة كلّ خطاب وغاياته، فالخطيب حينما قال:(إنّما يُراد

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢٠٧.
(٢) ينظر:أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية: ١٦٠.

الطّبيب...)، كان يهدف إلى تمهيد الطّريق أمام علاقة الاقتضاء بعد هذا الشّاهد الواقعيّ البديهيّ، ثمّ راح يذكر(أنّ لا وجع أشدّ من الجهل)، وذلك يقتضي من السّامعين التّوجّه لطلب العلم والمعرفة، وعطف على ذلك قوله:(لا داء أخبث من الذّنوب)، فذلك يستدعي من العباد التّوبة والاستغفار والاستقامة، أمّا ذكر الموت(لا خوف أخوف من الموت)؛ فهو يقتضي ذكر المعاد وخشية يوم معلوم، فما الحجّة عند (مايير) إلاّ جواب، أو وجهة نظر يستنتجها المتلقي ضمنيًّا من الخطاب، ويكون ذلك في طبيعة الحال في ضوء المقام وبوحيٍ منه[١]، فانطواء الخطاب على معنيين: معنيين: صريح وضمنيّ (المُستلزم)، يجعله ذا صفة حواريّة تتحرّك فيه الأطراف في مساحة كبيرة من التّفاوض، وحريٌّ بنا أن نشير إلى أنّ هذه الأفكار المترابطة بحرف العطف(الواو) إذا أدركها المخاطب فسوف يسلّم بصحّتها، ويقنع بحجّتها من غير أن يعتريه شكّ، أو معارضة، لينتقل بعدها إلى الحيّز العمليّ لإنجاز الفعل.

ومن لطيف توظيف علاقة الاقتضاء ما جاء في خطبة الحجّاج بعد قتله عبدالله بن الزّبير في بيت الله الحرام، قوله:" **ألا إنّ ابن الزّبير كان من أحبار هذه الأمّة، حتّى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكنّ بحرم الله، ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنّة، لأنّ الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنّته، فلمّا عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزّبير، والجنّة أعظم حرمةً من الكعبة**"[٢].

الشّاهد فيه قوله:**(لو كان شيء مانعًا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنّة)**، فيبدو أنَّ الحجّاج أراد تشريع قتل ابن الزّبير بصورة متكلّفة، وبضرب من التّلازم المصنوع بين الحالتين، أو بين الحجّة (السّبب) والنّتيجة لتحقيق الإقناع برشاد هذا الفعل

---

(١) ينظر:الحجاج في القرآن: ٣٨-٣٩.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٢٨٧.

وسداده عند المخاطبين، فالتّركيب الشّرطيّ انفتح على حادثة سابقة بوصفها شاهدًا حجاجيًّا، ومثّل الشّرط بـ (لو) الّتي تُستعمل لما كان سيقع لوقوع غيره[١]، علاقة اقتضاء واضحة بأنّ العصاة لا تمنعهم حرمة الأماكن، فلا آدم(ع) منعته حرمة الجنّة من الوقوع في الخطيئة والمعصية، ولا ابن الزّبير منعه حرم البيت الحرام، وبما أنّ الله سبحانه وتعالى عاقب آدم بإخراجه من الجنّة بعد خطيئته، فكان الاقتضاء من الخليفة، أو السّلطة الأمويّة أن تقتل عبدالله بعد أن دخل في صراع على الخلافة مع البلاط، وحتّى يزيد من ثقل الطاقة الإقناعيَّة ذكر بأنّ الجنّة أعظم حرمةً من الكعبة، ليدفع المخاطبين إلى منطقة توتّر في التّفكير والتّأمّل بطيّات الخطاب، وهذا يرفع قوّة التّأثير؛ لأنّ القناعة ستكون مبنية على تصوّرات شخصيّة، ومتأتّية من منطلق تفكيرهم حول ما حدث، فالاقتضاء وإن كان شكليًّا، إلّا أنّه حقّق المبتغى الموسوم بواسطة الجملة الشّرطيّة القائمة على التّلازم والتّعلق السّببيّ بين الحادثتين، فالجملة الشّرطيّة قد بُنيت على مستويين: الأوّل: علاقة اقتضاء شكليّة مصطنعة بين السّبب(الحجّة)، وبين النّتيجة(لمنع آدم حرمة الجنّة).، أمّا المستوى الثّاني: جاء بعلاقة اقتضاء من الجملة الشّرطيّة بشرطها وجوابها معًا ليحيل إلى نتيجة مضمرة لم يبح بها، ولكنّ السّياق كشف عنها؛ وهي إلزاميَّة معاقبة عبدالله حتّى وإن تحصّن في بيت الله الحرام، كما عاقب الله جلّ وعزّ ذكره آدم بعد وقوعه في الخطيئة والمعصية، وهذا في تصوّر الخطيب يبيح له ما صنعه في ابن الزّبير وأتباعه في مكّة، وفي الحقيقة هذا ما قصدناه من قولنا: (التّلازم المصنوع المتكلّف)، فيظهر أنَّ الحجّاج قد نسي أنّه ليس الله، وأنّ السّلطة لا تمثّل ذات الإله، وأنّ ابن الزّبير ليس آدم، ولا يمكن أن يقيس ما قام به على تلك الحادثة في حال من

---

[١] ينظر: الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٥م، ج٤: ٢٢٤.

الأحوال، فضلًا عن عظمة هتك الدّماء وحرمتها عند الله قبل كلّ شيء، ولكن مع ذلك يبقى الاقتضاء الشّكليّ ناجعًا في الحجاج ما دام ينطلق من الجهد التّأويليّ للمخاطب للوصول إلى (المُقتضى منه).

وكذلك الحال مع الزّبيريين فقد حضرت هذه العلاقة في خطبهم مثل سائر الفرق والأحزاب، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير في مجلس معاوية، بعد أن رام هذا الأخير تنصيب يزيد من بعده، قوله:" **نخيّرك بين إحدى ثلاث، أيّها أخذت فهي لك رغبة، وفيها خيار؛ إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قبضه الله ولم يستخلف أحدًا، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، فدع هذا الأمر حتّى يختار النّاس لأنفسهم، وإن شئت فما صنع أبو بكر، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلًا، وإن شئت، فما صنع عمر، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلًا منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليّها لكان أهلًا**"[١].

يبدو واضحًا كيف هيمن التّركيب الشّرطيّ على مفاصل الخطاب، فكلّ الجمل الشّرطيّة كانت أسبابًا(حججًا)، وجوابها نتيجة تربطهما علاقة اقتضاء، وحريٌّ بالذّكر أنّ توظيف أداة الشّرط (إن) كان موفّقًا لكونها تُستعمل مع المشكوك في وقوعه[٢]، فمعاوية من المحال أن يرضى بما سيقدّمه عبدالله من اقتراحات مفترضة، ولكنّ الخطيب طمح إلى إلقاء خطاب طافح بالحجج القاطعة، فقد أسهم السّياق الشّرطيّ المتكرّر بوصفه المثير الأسلوبيّ في إبراز الدّلالة الّتي يروم إليها، وتنشيط الحركة الذّهنيّة والفكريّة للخصم حتّى يحقق نقطة تماس مع مجريات الخطاب، فضلًا عن تقوية أواصر الجمل عبر الحركة الّتي أحدثتها (واو) الوصل

---

[١] جمهرة خطب العرب: ٢٦٠-٢٦١.

[٢] ينظر:في النحو العربي(نقد وتوجيه): ٢٩٠.

بين مفاصل الكلام مع أداة الشّرط (إن)، فربطت أفكار التّراكيب الشّرطيّة بعضها ببعض، ممّا جعلت الخطبة ذات مركزيّة مكثّفة تضمّنت علاقة وثيقة بين أسبابها ونتائجها في أيّ خيار قد يختاره معاوية ممّا طرحه عليه ابن الزّبير من الخيارات المتاحة.

فالشّرط(إن شئت...) الأولى والثّانية والثّالثة ألزمت المخاطب بالسّير على منوال أحدها، وهذا التّلازم ينتج نوعًا من السّلطة على معاوية بقبول الدّعوى، فالنّبيّ(ص) وهو أفضل البشر لم يستخلف أحدًا، وأبو بكر مات وقد عهد إلى رجل من أقصى قريش، ولم يستخلف أحدًا من ذرّيّته وقومه، وعمر جعلها في ستة رجال يختارون واحدًا منهم، وقد ترك ولده وأهل بيته كذلك، وحتّى يختم كلّ مفصل من مفاصل الخطاب بضربة حجاجيَّة مؤثّرة، أبان عن أهليّة أبناء كلّ من أبي بكر وعمر في التّكليف، كما أنّ التّركيب الشّرطيّ كان يقتضي الجواب، والجواب يستدعي السّبب، وكلاهما قام بمحاصرة المخاطب فكريًّا، وعقديًّا، وسياسيًّا، إذ أنّه ليس بأفضل من النّبيّ وصاحبيه حتّى يخالف سنّته وما شرعا إليه، وعضّد هذا بحجّة أنّ لصاحبيه أبناء وأولاد ممّن فيهم الصّلاح والأهليّة لتولّي الأمر، إلّا أنّهم لم يوصّوا بهم، فقوله:" وفيهم من لو ولّيها لكان لها أهلًا)، هو تركيب شرطيّ انفتح على دلالة امتناع الخلفاء عن سنّ مثل هذه السّنّة، حتّى لو كان هؤلاء الأبناء يحظون بعامل (الأهليّة)، فالخطيب أراد من معاوية أن يعي هذه الحقيقة، ويعزو ذلك بأنّه قد يكون مخالفة شرعيّة واضحة، فالإسلام ليس دولة هرقليَّة، أو روميَّة، أو كسرويَّة حتّى ينتقل الحكم من الآباء إلى الأبناء، فكانت العلاقة بين الأسباب والنّتائج مقنعة وساطعة الحجّة، وقطعت الطريق أمام المخاطب، وكشفت عن فساد رأيه وسوء ما يروم إليه، بل أثار غضبه وانفعاله على جميع الحاضرين بعد انتهاء عبدالله من خطبته هذه، وهذا دليل دامغ على مدى قوّة الحجّة، وسطوع البرهان في الخطاب

وفق المنظور الأرسطيّ والبيرلمانيّ، وما كان هذا ليتحقق لولا علاقة الاقتضاء بين الجمل الشّرطيّة وأسبابها ونتائجها، الّتي حملت المتلقي على الإقرار بصحّتها في أعماق نفسه بما وقّرت من ضرورات دينيّة محضة، واقتضاء بقبول ما جاء به الخطيب من حجج ونتائج، فضلًا عن أثر التّرابط والتّلازم بين أجزاء الخطاب.

وقد حضرت هذه العلاقة في خطب الخوارج أيضًا، ومن ذلك ما جاء في جزء من خطبة أبي حمزة الشّاري في توبيخ وتقريع أهل المدينة، قوله:" **وأنتم يأهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يُسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين**"(١).

لا يخفى أنَّ الجملة الشّرطيّة تعدّ سببًا، وجوابها نتيجة تربطهما علاقة اقتضاء وتلازم، فالشّرط بـ(إن) المشكوك في وقوعها كأنّه أتاحت للمخاطبين مساحة تفكير للاختيار بين نصرة الخوارج، أو نصرة البيت المروانيّ، ولكنّ نتيجة الانتصار للبيت المروانيّ سينتهي بداهةً إلى نتائج لا يُحمد عقباها، فهي تمهيد لعذاب إلهيّ يستأصلهم ويمحو وجودهم، وقد يكون هذا العذاب أو العقاب منه، أو بأداة، أو وسيلة تتمثّل بسيوف الخوارج، فيشفي بذلك صدور المؤمنين، لذا نرى أنّ البناء الشّرطيّ اقتضى من أهل المدينة أن يتنبّهوا إلى ذلك، ولاسيّما أنّه جاء في فضاء التّرهيب والوعيد، فنصرتهم لآل مروان بداية هلاكهم الحتميّ، وهذا التّلازم بين جملة الشّرط(السّبب أو الحجّة)، وبين(جواب الشّرط أو النّتيجة) فرض نوعًا من الإرغام السلطويّ على المخاطبين لقبول دعوى الشّاري، فكلّ اقتضاء وتلازم سببيّ يحاصر المتلقي، ويحمله على الإقناع حتّى وإن كان هذا التّلازم شكليًّا ومصنوعًا كما وضّحنا في موضع سابق؛ بوصف ذلك من أقدر الرّوابط الحجاجيَّة على توفير الصّلات، فيتعمّد الخطيب إلى الاجتهاد كلّ الاجتهاد في إضفاء نوع من القطعيّة

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٧٧.

والحتميّة على العلاقة بين السّبب والنّتيجة، فيحكم التّرابط بينهما بشكل يوحي بأنّ الأولى تقتضي الثّانية، والثّانية تستدعي الأولى في الضّرورة، وإن كان تلازمًا مصنوعًا[1]، من أجل تعزيز حضورها في الذّهن بهدف تحقيق الإقناع وحمل المخاطبين على الإذعان.

فيبدو لنا أنَّ الشّاري قد نجح في إبراز خطابه بحلية حجاجيَّة ناجعة جدًا، فكأنّه جعل أهل المدينة أمام عرض صوريّ للعذاب، ولما سيؤول إليه حالهم في حال أبدوا مشايعتهم للحكم المروانيّ، وهذا ما روّع نفوسهم، وردع ربّما رغبة قائمة على نصرة المروانيين ضدّ الخوارج، فعلاقة الاقتضاء في الجملة الشّرطيّة انفتحت على فضاء الوعيد الشّديد إذا ما سوّلت لهم نفوسهم على ذلك الصّنيع، ولهذا كان للعلاقة أثر مهمٌّ في مدّ الخطاب بطاقة حجاجيَّة عنيفة للغاية.

وقد حضرت علاقة الاقتضاء في خطبة عبدالله بن يحيى الإباضيّ(١٣٠هـ) في بلاد اليمن من دون روابط شرطيّة[2]، الّذي ظلّ يفصّل على مدار خطبته في عقائد وشرائع الفرقة الخارجيّة بشكل مترابط من خلال حروف العطف، ممّا فرض على المخاطبين تأويلًا يقتضي بضرورة إتّباع الخوارج ومناصرتهم، فالتّرابط والتّلازم السّببيّ في الخطبة يشيع جوّ هذه الدّلالة في أذهان المخاطبين.

### د-علاقة الاستنتاج:

أينما وردت كلمة (الاستنتاج) فهي تدلّ على عمليّة عقليَّة يصل بها الإنسان إلى محصّلات فكريّة، أو أفكار مبنيّة على مقدّمات فيها معطيات معيّنة وإشارات خاصّة في الخطاب الإنسانيّ، بوصفه عمليّة استنباطيّة تأخذ بيد المتلقي من المبادئ إلى النّتائج، أو تطبيقاتها، بمعنى أنّها تفصيل العامّ وصولًا إلى الخاصّ، أو استعمال

---

[1] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٣٥.
[2] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٤٦٥.

الكلّيّات في مقابل الجزئيّات، أو الحالات الخاصّة[1]، فيظهر لنا أنّ هذه العلاقة تتّسم بطابع المنطقيّة من دون جدال، وهي تدين للمنطق في جوهرها وخاصّيتها، والحجاج في طبيعة الحال(فنّ)، فنّ الانتقال من فكرة إلى أخرى بشكل منظّم ودقيق، فالقوانين المنطقيّة خاصّيّة نظاميّة من جهة، وتعبير عن عادات التّفكير من جهة أخرى[2]، فتتألّف هذه العلاقة على وفق بناء تسلسليّ منطقيّ بين أطراف الخطاب، فالحجّة (أ) تقود إلى الحجّة (ب) إذا كنّا في ميدان المنطق الخالص، أمّا إذا كنّا في ميدان شبه منطقيّ فنحن ندخل من باب الحجاج، أي أنّ المتكلّم يستنتج النّتيجة من حجّة يقدّمها، فإذا" بنتيجة الخطاب متولّدة من رحم الدّليل، أو البرهان ناشئة عنه عائدة إليه"[3]، وبما أنّ اللغة قائمة على الإشارة والإيماء والإيحاء في الميادين الأدبيّة، فهي على وفق هذا التّصوّر ذات سمة استدلاليّة ينتقل فيها التّفكير من المعنى الملفوظ إلى المسكوت عنه، الذي يمثّل مقصد الخطاب ونتيجته المبتغاة، بمعنى أنّ النّتيجة في صورتها عبارة عن دلالات مطموسة يصل إليها المتلقي من خلال استنتاجها من مقدّمات ومعطيات معروضة في الخطاب، وهذه العمليّة الاستدلاليّة هي الّتي تمنح البنية اللغويّة الطّبيعيّة طابعًا حجاجيًّا مؤثّرًا في أيِّ خطابٍ إنسانيٍّ، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن جعفر(٨٠هـ) في معارضته لمعاوية حينما عزم هذا الأخير على تنصيب يزيد من بعده، قوله:"...**أمّا بعد: فإنّ هذه الخلافة إن أُخذ فيها بالقرآن:فـ(أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)، وإن أُخذ فيها بسنّة رسول الله، فأولو رسول الله، وإن أُخذ بسنّة الشّيخين أبي بكر وعمر، فأيّ النّاس أفضل وأعمل وأحقّ بهذا الأمر من آل الرّسول؟ وأيم الله لو**

---

[1] ينظر:عدة الأدوات الحجاجية، ليونيل بلنجر، ترجمة: قوتال فضيلة، (بحث) منشور ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج٢: ٤١٠.
[2] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٣٩.
[3] المصدر نفسه: ٣٣٩.

**ولّوه بعد نبيّهم، لوضعوا الأمر موضعه، لحقّه وصدقه، ولأُطيع الله، وعُصي الشّيطان، وما اختلف في الأمّة سيفان، فاتّق الله يا معاوية"[١].**

سلّط الخطيب الضّوء على مركزيّة مهمّة في المجتمع الإسلاميّ، فالخلافة أمر عظيم بلا شكّ، ولهذا عرض في بداية الخطبة إشارات حجاجيَّة في غاية الأهمّيّة، وجعلها مقدّمة لاستنتاج يحمل معاوية على الانصراف عن ضلال هذا القرار الخاطئ، ففسح أمامه المجال للوصول إلى المبتغى الموسوم، أو النّتيجة المستهدفة، واستخلاصها ممّا تقدّم ذكره في مفاصل الخطبة على وفق نسق شبه منطقيّ يصل إلى القرار السّديد، فكلّ ما جاء به عبدالله تماهى مع الهدف العامّ من الخطاب، وقاد المتلقي إلى استنتاج مهم مفاده أنّ ما يروم إليه معاوية يخالف سنن القرآن، وسنّة النّبيّ(ص)، فضلًا عن مذهب الشّيخين أبي بكر وعمر(رض)، داعمًا هذه الحقائق بنصوص قرآنيّة تُحظى بالقبول والتّسليم، وتمتلك سلطة عليا على وجدان المسلمين، فهي ملزمة إلزامًا قطعيًّا على الأخذ بها من المخاطَب، الّذي ينبغي أن يستنبط من ذلك كلّه أن يعزف عن مثل هذا الفعل، وترك الأمر لآل الرّسول(ص)، الّذين لو ولّوها لجعلوا كلّ شيء في موضعه السّليم، ولعادت إمامتهم على المسلمين بالمغانم والمكاسب، وهي حجّة نفعيّة مدّت الخطاب بطاقة حجاجيّة أخرى إلى جانب علاقة الاستنتاج، فالنّتائج المترتّبة على حكم آل الرّسول(ص) تعدّ حجّة على تحقيق الإقناع بمنازل وفضائل آل النّبيّ(ص)، وعدل حكمهم في الرّعيّة، ممّا يقتضي على المتلقي أن يفهم من ذلك ضرورة التّخلي عن دقّة الخلافة لصالح آل بيت النّبوّة، فالخطيب عرض مقدّمات وسكت عن نتيجتها المستهدفة، فعوّل عبدالله على المعنى الضّمنيّ للخطاب، الّذي هو ركن وثيق من أركان الحجاج[٢]، فالمعنى المسكوت

---

(١) جمهرة خطب العرب: ٢٤٧.

(٢) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٤٣.

عنه يوحي أنّ يزيدًا لا يصلح لخلافة الأمّة، وأنّ هذا الأمر يخالف أوامر القرآن وسنّة النّبيّ(ص)، ومذهب الشّيخين، وذلك يفضي إلى عدم شرعيّة هذا التّنصيب، وضلاله عن الأسس والضّوابط الدّينيّة والعقديّة، وبهذا يتّضح لنا أنّ القيمة الحجاجيّة للاستنتاج تقوم على الاستنباط الاستدلاليّ العقليّ من المتلقي بربط النّتيجة بالمقدّمة.

وترى الدّكتورة الدّريدي أنَّ علاقة الاستنتاج أوسع من أن نحصرها في التّركيب (أ.إذن.ب)، إذ يمكن أن تكون وفق صيغة التّركيب: (إذا أ فـ ب)، أو(ب باعتبار أ)/، أو(ب فعلًا أ)، بشرط وجود رابط تضمينيّ بين(أ) و(ب)[1]، ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي بكر بن عبد الرّحمن المخزوميّ(٩٤هـ) في نصح الحسين(ع) بعدم شدّ الرّحال إلى العراق، قوله:" **كان أبوك أشدّ بأسًا والنّاس له أرجى، ومنه أسمع، وعليه أجمع، فصار إلى معاوية، والنّاس مجتمعون عليه-إلّا أهل الشّام- وهو أعزّ منه، فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصًا على الدّنيا وضنًّا بها، فجرّعوه الغيظ وخالفوه، حتّى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه، ثمّ صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا، وقد شهدت ذلك كلّه ورأيته...**"[2].

عرض المخزوميّ مقدّمة حجاجيَّة تفضي بالحسين إلى نتيجة مماثلة وشبيهة بنتيجة واقعة صفّين، حينما سار والده إلى قتال معاوية، والنّاس مجتمعة على مبايعته ومناصرته، وآذانهم له أسمع، وقلوبهم له أرجى، ولكنّ مع ذلك لم يمنع القوم من خذلان إمامهم، والتّثاقل عن القتال معه طمعًا في ملذّات البقاء الدّنيويّ، فقد جرّعوه مرارة الخذلان والغدر، ومن ثمّ ما لبثوا أن فعلوا ذلك بالحسن بعد أبيه، والحسين سيد الشّاهدين على كلّ تلك الأحداث، فالخطيب يرغب بإيصال رسالة

---

(١) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٤٠-٣٤١.
(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٤.

مفادها أنّ واقع الأمر سيكون( إذن أ فــ ب)، أي بمعنى إذا كان القوم قد خذلوا أباك وأخاك مع اجتماعهم عليهم، فخذلانك واقع حتمًا، فالعلاقة الّتي تحكم الخطاب علاقة إيماء وإشارة بين المقدّمة والنّتيجة، وكلاهما يهدفان إلى الغاية المرجوّة، ويؤدّيان إلى نتيجة موحّدة، وهي استحالة أن يكونوا القوم على عهد ثابت، وولاء حقيقيّ، وأنّ مصير الحسين لا يختلف عن مصير أبيه وأخيه في حال الرّكون إليهم، والوثوق بنصرتهم.

فلا مراء أنَّ على الحسين أن يدرك ذلك قبل فوات الأوان من خلال ما عرضه الخطيب في مقدّمته، فهو يتيح مساحة للتّفكير بما جرى مع أبيه وأخيه (أ) في محاولة لحمله على الإيمان والاعتقاد بأنّه سيجري معه(ب) حتمًا لمنعه من الذّهاب إلى العراق، ليدفعه على القيام بعمليّة فكريّة وعقليّة للوصول إلى النّتيجة المستهدفة من الخطاب، ولا أظنّ أنّ الحسين يغفل عن ذلك ولكنّها آليّات بناء الحجاج في كلّ خطاب، فالعلاقة ستنتهي حتمًا بالإذعان والتّسليم بما أومأ إليه المخزوميّ من نتيجة مماثلة لما حدث مع أبيه وأخيه وفقًا لمعادلة(إذا أ فــ ب)، فالاستنتاج طبيعيّ يقوم به المتلقّي للوصول إلى حقائق الأمور بصورة أكثر إقناعًا وتصديقًا من بقيّة التّقانات الحجاجيَّة، ولهذا كان توظيف الاستنتاج ناجعًا للغاية في تحقيق التّأثير والتّيقين بالخطاب فور انتهاء الخطيب منه، إلّا أنّ الحسين لم يتوانَ عن الخروج مع معرفته بالنّتائج، فالأمر تكليف شرعيّ يفرض عليه إلزاميّة التّغيير والمطالبة بالإصلاح، وما أحوجنا اليوم إلى شخصيّة كالحسين، وثورة كثورته ضدّ رؤوس الفساد.

ولم تغب هذه العلاقة عن خطب الأمويين كذلك، ومن ذلك ما جاء في خطبة لخالد بن عبدالله القسريّ(١٢٦هـ)، يشيد فيها بفضل الوليد بن عبد الملك(٩٦هـ)، قوله: **" أيّها النّاس، أيّهما أعظم؟ أخليفة الرّجل على أهله، أم رسوله إليهم؟ والله لو لم**

**تعلموا فضل الخليفة إلّا أنّ إبراهيم خليل الرّحمن استسقى ربّه، فسقاه ملحًا أُجاجًا، واستسقاه الخليفة فسقاه عذبًا فراتًا"**[1].

أتت علاقة الاستنتاج على وفق التّركيب(ب-باعتبار أ)، الّذي يفترض وجود رابط تفسيريّ يشير إليه المحتجّ ويتّخذه مرجعًا لخطابه[2]، ويترتّب على ذلك تقدّم النّتيجة على المقدّمة، كقول الخطيب(**والله لو لم تعلموا فضل الخليفة**) بوصفها نتيجة، وهو من الواضح يقع تحت ظلّ الغلوّ والتّضليل، الّذي اعتمد الإيماء والتّلويح بفضل الوليد على النّبيّ إبراهيم(ع)، فهو يسعى إلى إثبات أفضليّة الخليفة الأمويّ على النّبوّة، وتمّ ذلك من خلال التّوسّل بآليّة علاقة الاستنتاج الحجاجيَّة، فقد حمل المخاطبين على التّفكير والاستنباط الاستدلاليّ بناءً على ما جاء في المقدّمة المتأخّرة، فالصّلة بين النّتيجة والمقدّمة تعليليّة وضّحت أسباب التّقديم والتّفضيل، وفي ضوئها سيفسّر السّامعون أنّ ذلك يثبت صحّة الدّعوى، فإبراهيم سقاه الله ماءً مالحًا أُجاجًا، في حين سقى الخليفة ماءً عذبًا في بئر حفرها في مكّة[3]، أي بمعنى أنّ النّتيجة جاءت وفق مؤشرات مادّيّة ملموسة، والعقل الإنسانيّ أكثر قناعة بالأدلّة المادّيّة من المعنويّة في أغلب الأحيان، وهذا ما مدّ الخطاب بطاقة حجاجيَّة مؤثّرة جدًا، وإن كان فيها شيءٌ من المبالغة والغلوّ.

وقد سارت خطب الأمويين كثيرًا على نسق هذه العلاقة، ومنها ما جاء في خطبة عبد الملك بن مروان بعد قتل عمر بن سعيد بن العاص(٧٠هـ)[4]، وما جاء في خطبتي عمر بن عبد العزيز في الوعظ[5]، وما قلناه في الخطبة أعلاه ينطبق عليها

---

[1] جمهرة خطب العرب: ٣٢٢.
[2] ينظر: الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): ٣٤٠-٣٤١.
[3] ينظر: جمهرة خطب العرب: ٣٢٢.
[4] ينظر: المصدر نفسه: ١٩٣.
[5] ينظر: المصدر نفسه: ٢١٠-٢١١.

تمامًا، فضلًا عن حضورها في خطب الزّبيريين، ومن ذلك ما جاء في خطبة عبدالله بن الزّبير في مخاصمة مع معاوية وعمرو بن العاص[١]، الّتي دفع بها الخصم والحاضرين إلى الاستنتاج بأفضليّته وتقدّم منزلته على معاوية دينًا وحسبًا ونسبًا.

وقد حضرت العلاقة في خطب الخوارج كثيرًا، وبما أنّ الفكر الخارجيّ عادة ما يقوم على التّذكير بفناء الدّنيا وزوالها، إذ سعى خطباؤهم إلى حمل المخاطبين على الاعتبار من تجارب الأمم الغابرة، بهدف دفعهم نحو الزّهد في متاعها، واحتقار ملذّاتها، والانغماس في طاعة الله، والعمل بكتابه، وسنّة نبيّه(ص)، وهذا ناجم من صدق تديّنهم، وشدّة ورعهم وقوّة عقيدتهم[٢]، وخير شاهد على ذلك ما جاء في خطبة قطريّ بن الفجاءة على منبر الأزارقة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:**" أمّا بعد: فإنّي أُحذّركم الدّنيا، فإنّها حُلوة خضرة، حُفّت بالشّهوات، وراقت بالقليل، وتحبّبت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزيّنت بالغرور،[...]، فانية فانٍ ما عليها، لا خير من زادها إلّا التّقوى،[...] ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارًا، وأوضح منكم آثارًا، وأعدّ عديدًا، وأكثف جنودًا، وأعتد عتادًا، وأطول عمادًا، تُعبّدوا للدّنيا أيّ تعبّد! وآثروها أيّ إيثار! وظعنوا عنها بالكره والصّغار! فهل بلغكم أنّ الدّنيا سمحت لهم نفسًا بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب؟ بل قد أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنّوائب، وعقرتهم بالمصائب،...، أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، أم إليها تطمئنّون"**[٣].

---

[١] ينظر: جمهرة خطب العرب: ١٦٠-١٦١.
[٢] ينظر: الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٥.
[٣] جمهرة خطب العرب: ٤٥٦-٤٥٨.
*خضرة:ناضرة، حُفّت:أطافت بها، راقت:أعجبت، العاجلة: اللذة العاجلة، الحبرة: السّرور، حائلة:متحولة متغيرة، غوالة:مهلكة، عتاداً:العدة والتّهيئة، تعبّدوا:استعبدتهم الدّنيا، الفوادح: النّوائب المثقلة.

إنّ موجز هذه الخطبة الطّويلة، الّتي تمتدّ إلى أربع صفحات تقود المخاطبين إلى استنتاج نتيجة واضحة، أراد الخطيب إيصالها لهم بعد عرض هذه المقدّمات والحقائق المفضية إلى غايات محدّدة، إذ سعى قطريّ إلى حمل السّامعين على الإقناع والإذعان لدعواه من خلال علاقة الاستنتاج وفق التّركيب (أ إذن ب)، فكلّ ما جرى على الأقوام السّالفة مع قوّتهم وشدّة بأسهم سيجري على المخاطبين كذلك، ولهذا يحثّهم على التّوجّه الحقيقيّ نحو تقوى الله، والتزام طاعته، والأخذ بأوامره، والامتناع عن نواهيه، فالخطيب عرض مقدّمة طويلة جدًا في الحديث عن أحوال الدّنيا والأمم السّابقة، ليفسح بذلك المجال أمام المخاطبين للتّفكّر والتّدبّر بما جاء به من حقائق الأمور للوصول إلى النّتيجة، إذ كانت المقدّمة حجّة تقودهم إلى القرار(ب) النّتيجة، ويحدث ذلك من خلال الاستنباط والاستنتاج العقليّ في مسار شبه منطقيّ يرغمهم على الإيمان والاعتقاد بحجّة الخطاب أولًا، والوصول إلى المقاصد المستهدفة من الخطبة ثانيًا، إذ أنّهم وصلوا إلى نتيجة يمكن اختزالها بقول موجز:(لا خير في هذه الدّنيا إلّا تقوى الله والاعتصام بحبله، فكلّ شيء فيها زائل لا محالة)، فأحوال الإنسان فيها متقلّبة بين سرّاء وضرّاء، والدّهر دائر به من حال إلى حال، وهو ماضٍ لا رجعة فيه، فكلّ الأمم والأقوام الماضية مع قوّتها وعددها وعدّتها قد هلكت، وهذا سائر على المخاطبين كذلك، وهذه الدّفعات من الأقوال الحجاجيّة أفضت بهم إلى الاستنتاج القائل بعبثيّة الحياة وزوالها الحتميّ، لأنّها حقائق مستنتجة بالتّفكير العقليّ، ومبنية على تجارب سابقة لا يمكن إنكارها أو جحودها، فضلًا عن طابعها شبه المنطقيّ ممّا يحتّم قبولها بهم، والإذعان لها من دون أدنى شكّ، فالدّنيا يقينًا ذات بداية ونهاية، إلّا أنّ الجنّة لا انقضاء فيها ولا زوال، ولا يمكن الفوز بها إلّا بعد التّنازل والتّسامي عن ملذّات الأولى، والتّمسّك بحبل الله المتين من جهة أخرى، وهذا ما أكّد الحقيقة عقليًّا وفكريًّا من خلال استنتاج

واستنباط استدلاليّ يقوم به المخاطبون، الّذي لا يمكن الاعتراض عليه كونه صادرًا من بنية تفكيرهم الذّاتيّة اعتمادًا على ما جاء في مقدّمات الخطيب، ولهذا لم يبق أمام المخاطبين إلّا أن يقرّوا بالنّتيجة المرجوة من الخطبة، ألا وهي الرّكون إلى الزّهد، والسّير على سنن الهدى والصّلاح، والنّظر إلى الدّنيا وما فيها من متاع بأنّها عرض زائل، ومتاع باطل، خليق بالاحتقار والازدراء، والرّنو إلى حياة أخلد، ولذّة أبقى[١]، وعالم أمثل يتمثّل بجنّة الرّحمن، والفوز برضوانه.

---

(١) ينظر:الخطابة السياسية في عصر بني أمية: ١٠٦.

# الخـــاتــمـــة

بعد هذه الرّحلة الطّويلة في دراسة قطب من أقطاب التّراث الأدبيّ حجاجيًّا في واحد من أكثر العصور الإسلاميّة غزارةً وخصوبةً لنمو الخطابة وازدهارها الّذي عبّر عن توجّهات فرق وأحزاب متناحرة في ذلك العصر، الّذي ذهب فيه كلّ خطيب إلى الكشف عن الأبعاد السياسيّة والفكريّة والعقائديّة للحزب الّذي ينتمي إليه، ويدافع عن قضيّته، ويقنع بسداد مساراته المختلفة، فضلًا عمّا جاء من حجاج في خطب القوّاد العسكريين، والحكماء والعلماء والزّهاد، وكذلك النّساء، فيمكننا إذن استنباط نتائج توجز ما كان لبلاغة الحجاج من أثر في عمليّة الإقناع وتحقيق التّيقين في خطابة العصر الأمويّ، يمكن إجمالها بما يلي:

١-توصّل الباحث في نهاية مطاف التّمهيد إلى نتيجة تقرّ بأنّ الحجاج وإن كان من النّظريّات الغربيّة الوافدة إلى الوسط الثّقافيّ والأكاديميّ العربيّ، إلا أنّ ذلك لا يعني بأنّ البلاغة العربيّة قد أهملت هذا المصطلح وآليّاته البلاغيّة الحجاجيَّة قديمًا، وإن كان هنالك اختلافات كبيرة في المسمّيات والمصطلحات، أو حدوث اشتباك لدى القدماء في تعريفهم الحجاج والجدل، فضلًا عن أنّ الحجاج لا محيص له عن البلاغة، فلا بلاغة من غير حجاج، ولا حجاج من غير بلاغة.

٢-يعدّ (أرسطو) المُنظّر الأوّل لمفهوم الحجاج، ومن ثمّ جاء (بيرلمان) ليأخذ بناصيته إلى البلوغ والنّضوج، أمّا ما كان من طرح قبل (أرسطو) من حجاج السّفسطائيين والأفلاطونيين فلم يكن حجاجًا صلبًا ومتماسكًا، ولهذا السّبب أهملناه، وبدأنا بـ(أرسطو) وتجاوزنا سابقيه في التّنظير لمفهوم الحجاج.

٣-بعثُ (بيرلمان) لنظريّة (أرسطو) هو إحياء للبلاغة التي تجمّدت دماؤها لحقب زمنيّة طويلة، ولكنّ هذا لا يعني أنّ الباعث لم يفد شيئًا من البلاغة الأرسطيَّة في تنظيره لمنهج الحجاج، ولكنّه عمل على تحريره من قيود المنطق الأرسطيّ، وجمع بين جدل(أرسطو) وخطابته، وأعطى للمتلقي شأنًا كبيرًا في بلاغة الخطابة، وهي عمليّة نفخ الحياة في روح البلاغة التّداوليّة الحجاجيَّة، فضلًا عن إضافته التّقانات الحجاجيَّة وتصنيف حجج الخطاب، الّتي كوّنت أهمّ مرتكزات نظريّته في الحجاج، ومع ذلك لا ننسى مؤاخذتنا عليه إهماله لجوانب مهمّة في بناء الخطاب الحجاجي، مثل: وجوه البناء الأسلوبيّ، والنّوازع النّفسيّة والشّعوريّة بالمتكلّم والمتلقي، على الرّغم من تأكيده وظيفتها الحجاجيّة، ولكنّه قد تجاوزها لسببٍ ما كما وضّحنا في رحلة التّمهيد الاستكشافيّة لمعالم الحجاج.

٤-أبان الفصل الأوّل الّذي تحدّثنا فيه عن روافد الحجاج ومنطلقاته وأساليبه عن نتيجة مهمّة جدًا في بناء الخطاب الإقناعيّ، بوصفه نتاجًا لبلاغة الحجاج، ومفاد تلك النّتيجة هو: إنّ المتكلّم إذا ما أراد التّأثير في المتلقي وإذعانه لحقائق الخطاب فينبغي له أن يبتعد عن العفويّة والسّذاجة في إلقاء الخطاب، فيجب عليه أن يتّجه إلى رسم مخطّط حجاجيّ يضمن له قبول مقاصد الخطاب وأهدافه، فاختيار المقدّمات الّتي تحظى بالقبول والاتّفاق المشترك بينه وبين المخاطبين يؤدّي إلى تعزيز مرور أفكار الخطاب إليهم من دون نقض أو اعتراض، فيأتي بالأشياء على وفق إستراتيجيّة محكمة، وتراعي المقام ومقتضى حال المخاطبين، فضلًا عن عرضها بصورة ترتيب مستحسنة ضامنة لدفعهم وحملهم على الفعل، وبأساليب تحقّق الإمتاع والتّأثير، وترفع من قدرة الخطاب الإقناعيَّة، ولهذا لاحظنا عناية أكثر الخطباء بترتيب خطبهم على وفق منهج فنّيّ يتمثّل في ترتيب أجزاء الخطاب، وإن كانت هذه الظّاهرة الفنّيّة تعتمد على الظّرف الّذي تلقى فيه الخطبة، والحالة النّفسيّة

للخطيب، فبعض الخطب تأتي مختصرة موجزة وذات هدف محدّد وواضح بحسب حال المقام ومقتضى الحال، إلّا أنّها بلغت غايتها في إقناع الجمهور، وحملهم على الفعل، ولا أنسى توشيح الخطب بالجماليّات اللفظيّة والموسيقيّة، الّذي جاء عفو الخاطر، ولم يكن قصدًا بدافع الإغراق في المحسّنات لذلك وقعت موقعًا حسنًا ومؤثرًا في نفس المخاطب، فوظيفة حضورها في القول تأثيريّة تشتبك مع الوظيفة الدّلاليّة من أجل دفع المتلقي نحو تبنّي أفكار الخطاب وإنجاز الفعل، أو الاستعداد للقيام به، ولو أمعنّا النّظر في مقولات النّقاد العرب القدماء لاكتشفنا أنّها لا تختلف عمّا طرحه (أرسطو) أو (بيرلمان)، ولكنّها مأساة غياب الملاحقة الفكريّة لجهود القدماء وتصوّراتهم النّقديَّة والبلاغيَّة.

٥- سجّل الفصل الثاني حضورًا كبيرًا ومتشعّبًا للتّقانات الحجاجيَّة في خطب ذلك العصر، وعند مختلف الأحزاب المتنازعة، فقد شهدت العيّنات المختارة صورًا كثيرة عن حضور البعد الحجاجيّ لخطاب تلك الأحزاب، ولكن ما يعنينا من ذلك أنّنا لمسنا هيمنة واضحة لخطاب العواطف والأهواء (الباتوس الإيجابيّ والسّلبيّ) في أغلب خطب الأحزاب المتصارعة، ويقابل ذلك نزر ملموس في حضور خطاب الحوار العقليّ (اللوجوس)، وخطاب أهواء الخطيب (الإيتوس)، ولعلّ ذلك يعود إلى ميل المخاطبين للخطاب العاطفيّ (الباتوس)، بينما لم يكن يعبأ المخاطب بخطاب (اللوجوس) و(الأيتوس) مثل سابقهما.

٦- توصّل الفصل الثالث من خلال الحديث عن بلاغة الحجج المؤسّسة على بنية الواقع إلى حقيقة قبول الإنسان العربيّ للأنظمة الاستبداديّة وخضوعه لخطاب الطغاة، والأدلّة على ذلك لكثيرة، ولهذا نلحظ غياب الخطاب الحواريّ مع الآخر عند الأمويين في (الباتوس السّلبيّ)، فقد كانت خطبهم قائمة على العنف بوصفهم أصحاب السّلطة، واستدلّوا بها على شرعيّة ممارسة السّياسة القمعيّة مع الخصوم،

فضلًا عن حقيقة هيمنة خطاب (الباتوس الإيجابيّ) في خطب العلويين؛ لأنّهم ينطلقون من عناصر عادةً ما تكون محل اتّفاق شبه جمعيّ على منزلتهم ومكانتهم عند الله، وقربهم من النّبيّ(ص) نسبًا ودينًا وخُلقًا، وللزّبيريين حظوة في استعمال هذا النّسق من الحجج في البيان عن مدى قربهم للنّبيّ(ص) نسبًا، ونصرتهم لدعوة الرّسالة الإسلاميّة، أمّا الخوارج فلم تختلف كثيرًا عن الحزبين السّابقين من حيث توظيف هذه الحجج، ولكنّها كانت في موضوعات مغايرة، مثل التّرنّم بزهدهم وعبادتهم، والاعتقاد المطلق بفرضيّة الجهاد في سبيل الله، في حين كان حضور هذه الحجج أقلّ نسبة مع الأمويين من بقيّة الفرق كما وضّحنا أعلاه، ولكنّها لم تغب تمامًا، فقد حضرت في خطبهم الوعظيَّة.

٧-توصّل الفصل الرّابع إلى نتيجة مؤدّاها بأنّ نسق الحجج يرتكز على الجمع بين أحداث وأشياء مترابطة مكانيًا، أو زمانيًّا، أو رمزيًّا، حيث نستدلّ على شيء بشيءٍ آخر يرتبط معه بصلة ما، فالاستدلال حاصل من خلال (المثال، والأنموذج، وعكس الأنموذج)، أمّا حجّة المثال وتقسيماته فقد حضر في جميع خطب الفرق، إلّا أنَّ أشدّ تلك الأمثال إقناعًا ما كان مقتبسًا من شواهد القرآن الكريم، الّتي انفتحت على وقائع تاريخيّة يثبتها النّصّ القرآنيّ، فتعمل على إذعان المخاطبين من خلال حقائقها القطعيّة، وبالاستناد إلى سياسة الموازنة والتّشابه بين صورة الحالة السّابقة والحالة اللاحقة، فالخطيب يأتي بمثال القرآن بصور كثيرة، وخاصّة في الجانب التّاريخيّ لما جاء في القرآن الكريم من أحاديث وقصص وأمثال عن الأمم الغابرة والأنبياء السّابقين، حيث كان الخطباء يستثمرونها في المناطق المضطربة سياسيًّا لقياس ما، أو توضيح العلاقة بينهم وبين المخاطبين، أو اعتماد هذه القصص والأمثال عبرةً وشاهدًا على زوال الدّنيا كما هو الحال عند الخوارج، وخطبة الحجّاج في أهل العراق. أمّا الشّقّ الآخر فيتعلّق باعتماد عناصر البيئة ولاسيّما الحيوانات في ضرب

الأمثال ورسم الصّور الحجاجيَّة كما هو الحال في خطبة الإمام الحسن في الرّدّ على المغيرة بن شعبة (النّخلة والبعوضة)، وخطبة عبد الملك بن مروان في أهل المدينة (قصّة الأخوين والحيّة).

وحريٌ بنا أن نشير إلى أنّ الاستعانة بالنّصّ القرآنيّ في المعارك السّياسيّة المحتدمة بين الأمويين ومعارضيهم، كانت سلاحًا حجاجيًّا يوجّه بعض نصوصه الخطباء بما يخدم أهدافهم العقائديّة والسّياسيّة، فالآيات القرآنيّة تعدّ حجّة أيما حجّة، ودليلًا أيما دليل، إذ يصعب نقضها أو الطّعن بصحّتها، فيتّضح الأثر القرآنيّ والمغالاة في توجيه نصوصه دينيًّا وسياسيًّا عند الخوارج أكثر من بقيّة الأحزاب. أمّا حجّة (الأنموذج) فقد كانت تدور حول الاقتداء بالشّخصيّة المحمّديّة وأصحابه الأخيار في خطب العلويين والزّبيريين والخوارج، ولاسيّما في خطب قضيّة المعارضة السّياسيّة لتنصيب يزيد اللعين خليفةً للمسلمين من بعد أبيه، كما هو الحال في خطبة عبدالله بن الزّبير، وعبدالله بن عمر(رض)، وعبد الرّحمن بن أبي بكر(رض) وغيرهم...، أمّا الأمويّون فحضرت بشكل كبير في خطب عمر بن عبد العزيز(رض) الّذي كان يقمع خطاب الخوارج بالاستناد إلى حجّة سلوكيّات ومعاملات النّبيّ(ص) مع المخالفين، ومختصر القول أنّ حجّة (الأنموذج وعكس الأنموذج) تمدّ الخطاب بقدرات إقناعيَّة جبّارة في إذعان المخاطبين، واستمالة وجدانهم لقضايا الخطاب بالاستناد إلى شخصيّات لها حظوة كبيرة في كيانهم النّفسيّ.

٨-كشف المبحث الثّاني من الفصل الرّابع الخاصّ ببنية التّمثيل الحجاجيّ عن نتيجة تفيد بأنّ الخطيب العربيّ كان مدركًا تمامًا بأنّ البلاغة تستهدف الحجاج التّداوليّ، وتُعنى بأطراف عمليّة التّواصل مع الآخر، ولهذا جاءت كلّ صّور التّشبيه والاستعارة تبتغي عامل التّأثير في المخاطب، وحمله على الإيمان والاعتقاد بقضيّة

ما، أو تفنيدها، أو لتعزيز حضورها في الذّهن، ونحن بهذا لا ننكر البعد الجماليّ للخطاب، ولكنّه أوّل ما يعنيه ذلك البعد أن يكون ذا سلطة تأثير كبرى على المتلقّي، وإحداث نقطة تحوّل لديه في السّلوك وتغيير الموقف سلبًا، أو إيجابًا من دعوى ما، وإذا ما قمنا بعمليّة استقراء لمقولات البلاغيين القدماء لوجدنا أنّهم أشاروا بصريح العبارة إلى هذا البعد الحجاجيّ، ولكنّ غياب الملاحقة الفكريّة في استنطاق مقولاتهم واستكشاف مؤلّفاتهم، حالت دون إعلاننا السّبق في تبنّي نظريّة حجاج عربيّة محضة.

٩-نقول إنّ بلاغة الحجاج عند العلويين كانت قائمة على لغة الدّليل القرآنيّ، والإثبات العقليّ والفكريّ في خطابهم مع الأتباع والخصوم على حدٍّ سواء، في حين ذهب الزّبيريّون في كثير من مواضع خطابهم إلى البيان عن مدى قربهم من النّبيّ نسبًا بوصفه (الأنموذج الأسمى)، وهذا ما لاحظناه في خطاب زعيمهم عبدالله بن الزّبير، فكان نادرًا ما يخرج من هذه الدّائرة الحجاجيَّة، أمّا الخوارج فحجّتهم كانت قائمة على التّشدّد والمبالغة في توجيه أحكام القرآن، والمجاهرة في مناوئة الخصوم، بوصفهم منحرفين عن راية الدّين، ولهذا قام خطابهم الحجاجيّ على دعوة الخروج لقتال الحاكمين، فالخوارج كانوا يعدّون الموت قتلًا في ساحة المعركة غايتهم القصوى؛ لذلك لا نكاد نلمح في خطبهم أثرًا كبيرًا لطموحات سياسيّة آجلة قدر ما نجد عندهم شوقًا للموت، وهم يلتقون في مسألة الاستشهاد في أرض المعارك مع انعدام الطّموح السّياسيّ الآجل مع العلويين، وإن اختلفت الأسباب عند كل فريق في مشروعيّة الخروج على الدّولة، وهم في ذلك يميلون إلى استعمال(الإيتوس، والباتوس)، في إثارة الانفعال وتحقيق الاستجابة من المخاطبين، في حين ذهب الأمويّون إلى الإفراط في دغم حجّة (الباتوس السّلبيّ) في خطابهم القائم على بلاغة العنف والوعيد، والمجاهرة في استعمال الممارسات

القمعيّة ضدّ الخصوم، وهذا يعود إلى عدم تمكّنهم من إثبات شرعيّة خلافتهم بالدّليل والحجّة، ولهذا مال أغلب خطباؤهم إلى لغة السّيف والبطش والتّنكيل بالمعارضين في حال بدرت منهم حركات رافضة لحكم البلاط الأمويّ، ولم تخرج خطبهم عن دائرة هذا المناخ القمعيّ إلّا مع عمر بن عبد العزيز(رض)، وبعض الخطباء الآخرين.

وفي ختام هذا السّفر أرجو أن أكون قد أضفت شيئًا مفيدًا ونافعًا للمكتبة العربيّة، قد بلغ الغاية وحقّق المُرتجى، والحمد لله ربّ العالمين.

**توصية الباحث:**

في ظلّ نشاط كبير تشهده حركة دراسات (البلاغة الجديدة) في الوسط الثّقافيّ العربيّ، أرى أنَّ البلاغة العربيّة يجب أن تجد لنفسها حيّزًا مستقلًا، إذ ينبغي للباحث العربيّ تأسيس نظريّة حِجاجيَّة تقوم على استقراء التّراث البلاغيّ العربيّ القديم، واستكشاف كنوزه الفكريّة ، من أجل تقديم نظريّة قادرة على تحليل الخطاب الإنسانيّ القائم على الاحتمال والإمكان بفكر نقديّ عربيّ محضٍ، ولاسيّما في إطار تطبيق النّظريّات اللسانيّة المعاصرة على اللغة العربيّة، و ذلك لاقتناعنا بإمكانيّة تناول الخطاب العربيّ، القديم منه والحديث، انطلاقًا من تصوّر معرفيّ مشحون بمجموعة كبيرة من الأفكار والمبادئ و التّصوّرات التي قد تبدو مخالفة، للوهلة الأولى للتّصوّر العربيّ، إلّا أنّنا إذا أمعنا فيها، استطعنا أن نكتشف عددًا من الظّواهر التي تكوّن في نظرنا امتدادًا للمعرفة الإنسانيّة وديمومتها عبر القرون والحضارات. فنحن لا نؤمن بالقطيعة في مجال استمراريّة العلوم والفلسفات، ولاسيّما في مجال الدّراسات البلاغيّة الجديدة، بل إنّ الأسس المعرفيّة للنّظريّة اللسانيّة الحديثة، ما هي إلّا تطوّر للمبادئ التي وضعها الفكر النّقديّ والبلاغيّ العربيّ القديم، ونضجت على يد علماء اللغة والبلاغة، والفلاسفة، وعلماء الأصول والتّفسير، الّذين تركوا لنا إرثًا زاخرًا بشتّى العلوم والمعارف، التي يتبنّاها الفكر الغربيّ اليوم، ويدّعي بابتكارها وأصالتها.

**تمَّ بعون الله وفضله...**

# المصادر والمراجع

**القرآن الكريم.**

## أولاً: الكتب:


- أدب السّياسة في العصر الأمويّ، د.أحمد محمّد الحوفيّ، دار القلم، بيروت- لبنان، ط٢، (د.ت).
- أساس البلاغة، جار الله محمود الزّمخشريّ، تحقيق مركز عفيف للتّراث، الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب، ط٢، ١٩٨٥م.
- استراتيجيّات الخطاب:مقاربة لغويّة تداوليّة، عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، دار الكتاب الجديد المتّحدة،، بيروت،ط١، ٢٠٠٤م.
- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجانيّ(٤٧١هـ)، تحقيق:عبد الحميد الهنداويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
- أسلوبيّة الحجاج التّداوليّ والبلاغيّ (تنظير وتطبيق) على السّور المكّيّة، د.مثنى كاظم صادق، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥م.
- إشكاليّة الحجاج في المفهوم والتّوصيف ، د.صلاح حسن حاوي ، دار شهريار ، العراق-البصرة ، ط١ ، ٢٠١٨.
- أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرّحمن، الدّار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، مصطفى صادق الرّافعيّ، تحقيق:عبدالله المنشاويّ، مكتبة الإيمان، وحي القلم، بيروت،دار ابن زيدون، (د.ط).

- الاستعارة في محطات يونانيّة وعربيّة وغربيّة، محمّد الولي، منشورات دار الأمان، مطبعة الكرامة، الرباط،٢٠٠٥م.
- الأسلوبيّة والأسلوب، د.عبد السّلام المسدّيّ، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ط٥، ٢٠٠٦م.
- الإعجاز الفنّيّ في القرآن، عمر السّلاميّ، الشّركة التّونسيّة للتوزيع، تونس، قرطاج، ط١، ١٩٨٠م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ(٣٥٦هـ)، تحقيق وضبط: الشّيخ عبدالله العلايليّ، دار الثّقافة، بيروت،ط ٣، (د.ت).
- الأمالي، أبو علي القاليّ إسماعيل بن القاسم البغداديّ(٣٥٦هـ)،منشورات دار الآفاق الجديدة ،بيروت، (د.ط).
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التّوحيديّ، تحقيق:أحمد أمين، المكتبة العصريّة- بيروت، (د.ط).
- أنواع الحجاج ومقوّماته(من حجاج أرسطو إلى حجاج البلاغة الجديدة)، جميل حمداوي، المغرب، مطبعة بتطوان، ط١، ٢٠٢٠م.
- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسن إسحاق بن وهب، تحقيق: حنفي محمّد شرف، مطبعة الرّسالة، القاهرة، (د.ت).
- البعد التّداولي والحجاجيّ في الخطاب القرآنيّ، قدور عمران، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م.
- بلاغة الحجاج(الأصول اليونانيّة)، الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ليبيا، ط١، ٢٠١٤م.
- البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، د.محمّد العمريّ، أفريقيا الشّرق، المغرب، ط ٢ ،٢٠١٢م.

- البلاغة والأسلوبيّة، محمد عبد المطّلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط١، ١٩٨٥م.
- البيان والتّبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح:عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م.
- تاريخ الأدب العربيّ(العصر الإسلاميّ)، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢٠، ٢٠٠٢م.
- تاريخ الأدب العربيّ(العصر الجاهليّ)، د.شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، ٢٠٠٣م.
- تاريخ الرّسل والملوك، محمّد بن جرير الطّبريّ(٣١٠هـ)، تحقيق:محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ،مصر،ط٥، ١٩٩٨م.
- تاريخ نظريّات الحجاج، فيليب بروطون، جيل جوتيه، ترجمة:د.محمّد صالح، مطابع جامعة الملك عبد العزيز، السّعوديّة، ط١، ٢٠١١م.
- التّبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطّوسي(٤١٠هـ)، تحقيق: أحمد الأمين، المطبعة العلميّة، مطبعة النّعمان، (د.ط).
- تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التناص)، د.محمّد مفتاح، المركز الثّقافيّ العربيّ، المغرب، ط٢، (د.ت).
- التّصوير المجازيّ (أنماطه ودلالاته في مشاهد يوم القيامة في القرآن)، د.إياد الحمدانيّ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.
- التّكرير بين المثير والتّأثير، السيّد عزّ الدّين عليّ، دار الطّباعة المحمديّة، القاهرة، ط١ ،١٩٧٨م.
- تيارات الفكر الإسلاميّ، د.محمّد عمارة، دار الشّروق للطّبع والتّوزيع، (د.ط).

- جذور نظريّة الأجناس الأدبيّة في النّقد العربيّ القديم، د.فاضل عبّود التّميميّ، دار مجدلاوي للنّشر والتّوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٧م.
- جرس الألفاظ في البحث البلاغيّ والنّقديّ، د.ماهر مهدي هلال، دار الرّشيد للنّشر، العراق ، ط١، ١٩٨٠م.
- جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزّاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلميّة بيروت- لبنان ، ط١ ، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.
- جواهر الألفاظ، قدامة بن جعفر، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الكتب العلميّة، بيروت ، ط١، (د.ت).
- الحجاج (أطره ومنطلقاته وتقنيّاته من خلال مصنف في الحجاج-الخطابة الجديدة، بيرلمان وتيتكا) ، عبدالله صولة، ضمن أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، أعدّه فريق البحث في البلاغة والحجاج، بإشراف:حمّادي صمّود ، طبعته جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية بتونس، كليّة الآداب، منّوبة، (د.ت).
- الحجاج الجدليّ (خصائصه الفنيّة وتشكّلاته الأجناسيّة) في نماذج من التّراث اليونانيّ والعربيّ ، د.عبدالله البهلول، دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠١٣م.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النّقد المعاصر)، د.محمّد سالم محمد الأمين، دار الكتب الجديد المتّحدة، ط١، ٢٠٠٨م.
- الحجاج في التّواصل، فيليب بروطون، ترجمة: محمّد مشبال، المركز القوميّ للتّرجمة ،ط ١، ٢٠١٣م.
- الحجاج في الخطابة النّبويّة، د.عبد الجليل العشراويّ، عالم الكتب الحديث، اربد-الأردن، ٢٠١٢م.

- الحجاج في الشّعر العربيّ (بنيته وأساليبه)، د.سامية الدّريديّ، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن ، ط٢، ٢٠١١م.
- الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، د.عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط٢٠٠٧،٢م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، بإشراف:حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- الحجاج والبلاغة وآفاق التّأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيّات)، د.عليّ الشبعان، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ليبيا-بنغازي، ٢٠١٠م.
- الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته (تطبيقات في خطب ابن نباته)، د.باسم خيري خضير، دار صفاء للنّشر والتّوزيع-عمان، ط١ ، ٢٠١٩م.
- الخطاب الحجاجيّ (أنواعه وخصائصه)، هاجر مدقن ، منشورات الاختلاف ،الجزائر ،ط١ ،٢٠١٣م.
- الخطاب والحجاج، أبو بكر العزّاويّ، مؤسّسة الرّحاب، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- الخطابة، أرسطو طاليس، ترجمة:عبد الرّحمن بدوي، مطبعة الرّسالة، دار الرشيد للنّشر، بغداد، ١٩٨٠م.
- الخطابة السّياسيّة في عصر بني أميّة، د.إحسان النّصّ، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٦٥م.
- خطب المحافل والمقامات في العصر الأمويّ، د.غانم جواد رضا الحسن، دار صادر-بيروت، دار الكتب العراقيّة، بغداد، ط١، ٢٠١٢م.
- الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، د.محمّد صافي المستغانميّ، دار ابن كثير ،ط١، ٢٠١٧م.

- الخطيئة والتّكفير من البنيويّة إلى التّشريحيّة(قراءة نقديّة لنموذج معاصر)، د.عبدالله الغذّاميّ، المركز الثّقافيّ العربيّ، دار البيضاء، المغرب، ط٦، ٢٠٠٦م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقيّ(ت٧٠٢هـ)، تحقيق:أحمد الخرّاط ، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ط١، ١٩٧٤م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصريّ(ت٤٥٣هـ)، تحقيق:علي محمّد البجاويّ، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ط٢، (د.ت).
- السّؤال البلاغيّ (الإنشاء والتّأويل)، بسمة بلحاج، رحومة الشكيليّ، دار محمّد علي، تونس، ط١، ٢٠٠٧م.
- سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجيّ(٤٦٦هـ)، شرح وتعليق:عبد المتعال الصّعيديّ، مكتبة ومطبعة محمّد صبيح وأولاده، ميدان الأزهر،١٩٦٩م.
- سلطة النّصّ (قراءات في توظيف النّصّ الدّينيّ)، عبد الهادي عبد الرّحمن، الانتشار العربيّ، بيروت ، ط١، ١٩٩٨م.
- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزليّ (ت٦٥٦هـ) تحقيق: الشّيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣م.
- صبح الأعشى في صناعة الانشا، القلقشنديّ(٨٢١هـ)، وزارة الثّقافة والإرشاد، المغرب،( د.ط).
- الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب، د.جابر عصفور، المركز الثّقافيّ، لبنان، ط ٣، ١٩٩٢م.
- الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ابن طباطبا العلويّ، تحقيق: يحيى بن إبراهيم العلويّ،مطبعة المقتطف، مصر،(د.ط).

- ظواهر أسلوبيّة في شعر بدوي الجبل، عصام شرتح، موقع الكتّاب العرب على الأنترنت، (د.ط)، (د.ت).
- العقد الفريد، أحمد بن محمّد ابن عبد ربّه الأندلسي(٣٢٨هـ)، تحقيق:مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة ، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٩م.
- العقل العربيّ، محمد عابد الجابريّ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
- علم الدّلالة، بيرجيرو، ترجمة:منذر عياشي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ(٤٥٦هـ) ت:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، لبنان،(د.ط)، ٢٠٠٧م.
- عندما نتواصل نتغيّر-مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليّات التّواصل والحجاج، عبد السّلام عشير، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب،٢٠٠٦م.
- عيار الشّعر، ابن طباطبا العلويّ، تحقيق: طه الحاجري، المكتبة التّجاريّة، القاهرة، (د.ط).
- عيون الأخبار، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت٢٧٦هـ)، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصريّة، دار الثّقافة والإرشاد القوميّ، مصر،(د.ط).
- فلسفة الحجاج البلاغيّ(نصوص مترجمة لشاييم بيرلمان): ترجمة: أنوار طاهر: مراجعة وتقديم: د.أبور بكر العزّاويّ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٩م.
- -فنّ الخطابة، د.أحمد محمّد الحوفيّ، دار الفكر العربيّ، مطبعة الرّسالة، ط٣، د.ت.
- في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات، د.محمّد مشبال، دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، عمّان-الأردن، ط١، ٢٠١٧م.

- في بلاغة الخطاب الإقناعيّ (مدخل نظريّ وتطبيقيّ لدراسة الخطابة العربيّة)، محمّد العمريّ، إفريقيا الشّرق، المغرب، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م.
- في النّحو العربيّ (نقد وتوجيه)، د.مهدي المخزوميّ، دار الرّاشد العربيّ، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٨٦م.
- في نظريّة الحجاج(دراسات وتطبيقات)، د.عبدالله صولة، مسكلياني للنشر، تونس،٢٠١١م.
- كتاب الصّناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق:علي محمّد البجاويّ، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٨٦م.
- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر المُلقب بسيبويه، تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٥م.
- لسان العرب ، ابن منظور، طبعة دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت، ط٣، (د.ت).
- اللسان والميزان والتّكوثر العقليّ، طه عبد الرّحمن، المركز الثقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، ط١ ،١٩٩٨م.
- اللغة والحجاج، أبو بكر العزّاويّ، دار الأحمديّة، الدّار البيضاء-المغرب، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
- المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ضياء الدّين ابن الأثير(٦٣٧هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الحلبيّ، القاهرة، (د.ط).
- المصطلحات الأساسيّة في لسانيات النّصّ وتحليل الخطاب(دراسة معجميّة)، د.نعمان بوقرة، جدار للكتاب العالميّ، عمّان-الأردن، ط٢، ٢٠١٠م.

- معاني النّحو، د.فاضل السّامرائيّ، دار الفكر للطّباعة والنّشر، عمّان، ط١، ٢٠٠٠م.
- مفتاح العلوم، السّكاكيّ، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- مقتل الحسين(ع)، أبو المؤيّد الموفق بن أحمد المكّيّ الخوارزميّ(٥٦٨هـ)، تحقيق: الشّيخ محمود السّماويّ، دار أنوار الهدى، (د.ط).
- من بلاغة الخطاب إلى بلاغة الحجاج، محمّد الولي، كنوز المعرفة، الأردن-عمّان ،ط ١ ، ٢٠١٦م.
- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة د.جميل حمداوي، مكتبة الأدب العربيّ، المغرب ،٢٠١٤م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنيّ، تحقيق:محمّد الحبيب بلخوجة، طبعة دار الكتب الشّرقيّة ،تونس.
- النثر الفنّيّ في القرن الرابع، د.زكي مبارك، دار الكاتب العربيّ للطّباعة والنّشر، القاهرة، (د.ت).
- النّصّ والخطاب والاتصال، د.محمّد العبد، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- نظريّة الحجاج عند شاييم بيرلمان ، د.الحسين بنو هاشم، دار الكتب الجديد المتّحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.
- النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت،(د.ط)، ١٩٨٧م.

## ثانيًا: الرسائل والأطاريح:


- الحجاج في نثر العصر العباسيّ الأوّل(مرجعيّاته وتمثّلاته)، محمّد صبري تومان، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كليّة التّربية(ابن رشد)، ٢٠١٩م.
- الخصائص الأسلوبيّة والبنائيّة لنثر الإمام عليّ"عليه السلام"في نهج البلاغة، د.سعد محمّد علي، أطروحة دكتوراه، جامعة أم درمان، السّودان ،١٩٩٧م.
- رسائل ابن أبي الخصّال(دراسة حجاجيّة) ،أطروحة دكتوراه، حسن عقّات غضيب، كليّة الآداب-الجامعة المستنصريّة، ٢٠١٩م.


## ثالثًا: الدّوريّات والبحوث المنشورة:


- تقنيّات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، شعبان أمقران، (بحث) منشور، جامعة باجي مختار،مجلّد ٥، العدد ١٥،،الجزائر، سبتمبر٢٠١٨م.
- الحجاج في الدّرس اللغويّ، بوزناشة نور الدّين،(بحث)، مجلة علوم إنسانيّة، ع٤٤، ٢٠١٠م.
- الحجاج في اللغة والبلاغة (ديكرو وانسكومبر وبيرلمان إنموذجا)، أبو بكر العزّاويّ:(بحث): جامعة السّلطان مولاي سليمان-المغرب.
- الحجاج والاستدلال الحجاجيّ، حبيب أعراب، ضمن عالم الفكر، ع:١، المجلّد:٣٠، يوليو، ٢٠٠١م.
- دروس الحجاج الفلسفيّ، أبو الزّهراء، مجلة الشّبكة التّربويّة المفتوحة، د.ط، ٢٠٠٨م.
- سورة التّكوير-مقاربة حجاجيّة، د.عمّار نعمة نغيمش، (بحث)،جامعة واسط، مجلة كليّة التّربية ،العدد :٣٩، ج٢، أيار ٢٠٢٠م.
- ظاهرة التّوازي في قصيدة الخنساء، د.موسى ربابعه، مجلة دراسات العلوم الإنسانيّة، مجلّد ٢٢، عدد٥، ١٩٩٥م.